

حَوْلِيَّة

المجلد الثاني

٢٠٠٢

النسخ الإسلامي الوسيط

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوروبا العصر الوسيط
يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط - جامعة عين شمس



مركز البحوث
للنشر والتوزيع



حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية

المجلد الثانى

٢٠٠٢م

يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامى والوسيط

جامعة عين شمس

عدد خاص يصدر على شرف ا.د. رأفت عبد الحميد

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٣ أ شارع إسلام-حمامات القبة-القاهرة

شكر وتقدير

تتقدم هيئة تحرير حولىة التاريخ الإسلامى والوسيط بوافر الشكر إلى دار مصر
العربية للنشر والتوزيع على اهتمامها بإخراج هذا العدد فى أكمل صورة.
طبع هذا العدد فى التاسع عشر من شهر يونيو ٢٠٠٢

حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية علمية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية
يصدرها

سمنار التاريخ الإسلامى والوسيط ، جامعة عين شمس

المشرف العام : ا.د. / اسحق عبيد

رئيس التحرير : ا.د. / أحمد عبد الرازق

نائب رئيس التحرير : د. / طارق منصور

الأعضاء : ا.د. / محمود إسماعيل

ا.د. / أحمد. رمضان أحمد

ا. د. / علية الجنزورى

سكرتير الحولية: ا. / عبد العزيز رمضان

- ترسل المراسلات والطلبات باسم هيئة تحرير الحولية أو باسم د. طارق منصور وكذلك البحوث على العنوان التالى كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ، مصر. ص.ب. ١١٥٦٦ ، فاكس: (٢٠٢٠٠) ٦٨٥١٤٣٢ بريد اليكترونى ntaseg@hotmail.com ، شريطة ألا تكون قد سبق نشرها فى مكان آخر من قبل، وأن تكون مكتوبة على الحاسب الآلى IBM ، Word 2000 ، حسب المواصفات التالية:

١ - البحوث المكتوبة باللغة العربية:

العنوان الرئيسى فونت ١٤ أسود ، العنوان الفرعى فونت ١٣ أسود

الخط Simplified Arabic ، فونت ١٣

الهوامش فونت ١١

المسافة بين السطور مفرد للنص وكذلك للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ١٩,٥ ؛ هامش علوى ٥,١ ، سفلى ٥,١ ؛ يسار ٤,٢ ،

يمين ٤,٣ سم

٢- البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

العنوان الرئيسى فونت ١٣ اس أسود ، العنوان الفرعى فونت ١٢ أسود

الخط Times New Roman ، فونت ١٢

المسافة بين السطور متعدد single للنص ، exact للهوامش

مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ١٩,٥ ؛ هامش علوى ٥,١ ، سفلى ٥,١ ، يسار ٤,٢ ،

يمين ٤,٣ سم

- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن الخاص به مقاس ٣,٥ .

- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.

- آخر موعد لتلقى البحوث شهر أكتوبر من كل عام .

- يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسى للبحث مباشرة .

رأفت عبد الحميد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة عين شمس

حصل علي ليسانس التربية عام ١٩٦٣ بتقدير عام جيد جداً،
وليسانس الآداب عام ١٩٦٦ بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف، عمل معيداً ثم مدرساً
مساعداً ثم مدرساً بعد حصوله علي الدكتوراه عام ١٩٧٤.

تدرج في سلك الوظائف الجامعية حتى أصبح أستاذاً لتاريخ
العصور الوسطى عام ١٩٨٦، وفي عام ١٩٩٧ عين عميداً لكلية الآداب جامعة
عين شمس حتى عام ٢٠٠١، حيث وافته المنية في ذلك العام.

وفي عام ١٩٩٩ عين مستشاراً لوزير التعليم العالي والدولة للبحث العلمي،
كما عين في نفس العام مديراً لمركز الحضارات المعاصرة بجامعة عين شمس، وفي
عام ٢٠٠٠ عين مديراً لمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس.

مثل مصر في العديد من المؤتمرات الدولية والمحلية وله العديد من البحوث
والمؤلفات المتميزة في تاريخ العصور الوسطى من أهمها:

١- موسوعة الدولة والكنيسة، صدر منها أربعة أجزاء.

- ملامح الشخصية المصرية في العصر المسيحي، القاهرة، ١٩٧٣.

- بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة، ١٩٩٧.

- قضايا في تاريخ الحركة الصليبية، القاهرة، ١٩٩٨.

- الفكر المصري في العصر المسيحي، القاهرة، ٢٠٠١.

- الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى، القاهرة، ٢٠٠٢.

- مصر في العصر البيزنطي (بالاشتراك مع د. طارق منصور)، القاهرة،

٢٠٠٢.

هذا بالإضافة إلى عشرات المقالات الأدبية والتاريخية المنشورة في الدوريات
والمجلات المحلية والعالمية. كما أشرف على عدد كبير من الرسائل العلمية في جامعة
عين شمس والجامعات المصرية الأخرى؛ بالإضافة إلى مناقشته عدداً كبيراً آخر من
رسائل الماجستير والدكتوراه.



الأستاذ الدكتور

رافقت عبد الحميد

١٩٤٢/١١/٦ - ٢٠٠١/٦/٢٥ م

المشاركون في العدد*

إبراهيم القادري	أستاذ التاريخ الإسلامي - جامعة مولاي إسماعيل - المغرب
أحمد المحمودي	أستاذ التاريخ الإسلامي - جامعة مولاي إسماعيل - المغرب
اسحق عبيد	أستاذ تاريخ العصور الوسطى - جامعة عين شمس - مصر
ايرينا فدوفتشينكو	مدرس التاريخ والآثار البيزنطية - جامعة تاوريدا الوطنية - أوكرانيا
ديفيد نيقول	أستاذ التاريخ الإسلامي - جامعة نونتجهام - إنجلترا
رأفت عبد الحميد	أستاذ تاريخ العصور الوسطى - جامعة عين شمس - مصر
زينب عبد المجيد	مدرس تاريخ العصور الوسطى - جامعة الزقازيق - مصر
طارق منصور	مدرس تاريخ العصور الوسطى - جامعة عين شمس - مصر
عبد العزيز رمضان	مدرس مساعد تاريخ العصور الوسطى - جامعة عين شمس - مصر
فلورا فافيا	محاضر تاريخ الرياضيات - اليونان
محاسن الوقاد	مدرس التاريخ الإسلامي - جامعة عين شمس - مصر
محمد تضغوت	أستاذ التاريخ الإسلامي - جامعة مولاي إسماعيل - المغرب
محمد مؤنس عوض	أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي - جامعة عين شمس - مصر
محمد نصر	مدرس مساعد التاريخ الإسلامي - جامعة عين شمس - مصر
محمود إسماعيل	أستاذ التاريخ الإسلامي - جامعة عين شمس - مصر
نجلاء حامد	مدرس تاريخ التربية - جامعة القاهرة - مصر
نريمان عبد الكريم	أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي - جامعة المنوفية - مصر
هانيء عبد الهادي	مدرس تاريخ العصور الوسطى - جامعة حلوان - مصر

* هذه الأسماء مرتبة ترتيباً هجائياً.

المحتويات

أولاً: القسم العربي

أ: الدراسات والبحوث

المشاركون في العدد	ط
تقديم	ك-ن
أسحق عبيد، رأفت عبد الحميد مشكاة الآداب التي انطفأت	٦-٣
إبراهيم القادري، دور الفقهاء في مواجهة الخطر الصليبي بالأندلس	٢٢-٧
رأفت عبد الحميد، حدود مصر الشرقية	٢٦-٢٣
زينب عبد المجيد، ماهية البرلمان الإنجليزي في القرن الثالث عشر وحتى نهاية	
حكم الملك إدوارد الأول	٧٤-٢٧
عبد العزيز رمضان، عروض زواج العرائس في البلاط البيزنطي	
٧٨٨-٨٨٢م	٨٨-٧٥
محمود إسماعيل، إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين	
الأوائل	١٠٦-٨٩
محاسن محمد علي الوقاد، الألقاب والكنى الشعبية الساخرة في عصر	
سلاطين المماليك	١٥١-١٠٧
تريمان عبد الكريم، السياسة المالية للفاطميين بين النظرية	
والتطبيق	٢٢٨-١٥٣
هانىء عبد الهادي البشير، المجريون في منطقة الدانوب الأوسط وحملاتهم علي	
مملكة الفرنجة ٨٩٦-٩٥٥	٢٦٦-٢٢٩

ب: عرض الكتب والرسائل

عامة المغرب الأقصى في العصر الموحد. رسالة دكتورة لم تنشر بعد،	
كلية الآداب، جامعة مولاي محمد، مكناس، المغرب.	
عرض/أحمد المحمودي	٢٧٤-٢٦٩
عبد المحسن رمضان، الحروب الصليبية في الأندلس ميلادها وتطورها مع	

- دراسة نقدية لمصادرها العربية والأسبانية حتي القرن العاشر، القاهرة ، ٢٠٠١.
- عرض/ محمد مؤنس عوض ٢٨٤-٢٧٥
- إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس
خلال عصر المرابطين، بيروت، ١٩٩٨.
- عرض/ محمد تضرعوت..... ٢٩٩-٢٨٥
- Hassan S. Khalilieh, Islamic Maritime law: An Introduction, Brill, 1998.
- عرض/ محمد نصر عبد الرحمن..... ٣٠٥-٣٠١

ثانياً: القسم الأجنبي

أ : البحوث والدراسات

- Contributors.....V
- D. Nicolle, Medieval Islamic Navigation in the Atlantic
.....3-14
- Flora Vafea, The Philosophy of Greek Mathematics and its Influence on
the Development of Arabic Civilization and Renaissance.....15-25
- Irina Vdovichenko, Images of the Dances on the 4th Centuries Vases
from the Black Sea Area27-44
- Tarek M. Mohammed, The Turkish Settlement in Caucasus and Steppes:
Constantine's Evidence.....45-60

ب : عرض الكتب والرسائل

- Naglaa' M. Hamed, Education in Byzantine Egypt, Cairo.
by Naglaa M.Hamed.....63-64

تقديم

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

تقبل علينا حولية التاريخ الإسلامي والوسيط في ثوبها الجديد، وقد كشفت النقاب عن وجهها، فإذا به يتلأأ كوجه القمر في ليل الفلا. المريدون والاتباع يقبلون في لهفة نحوها، الكل يسعى عسى أن يجد ضالته بين راحتها، وقد توشحت بوشاح العلم المرصع بالليء العقل من كل صوب وحذب، ارتدت تاجاً مصري الصنع، مرصع بثمان عشرة حبة من لآليء المفكرين والعلماء، بل ثمان عشرة زهرة فواحة تدفع المارة والمريدين إلى قطفها، والاستزادة من غيرها.

وكلما طابت النفس برحيق الأولي، تمتد الأنامل نحو الذنية فالثالثة، وما هي إلا لحظات تمر بالمرء منتشياً برحيقها، حتى يدرك أنه أمضي من العمر زمناً، في روضة من رياض العصور الوسطي، دون أن يدري أنه أقبل على نهاية رحلته في الروض المعطار، العدد الثاني من "حولية التاريخ الإسلامي والوسيط"؛ ذلك العدد الذي تفخر أمانة سمنار العصور الوسطي، بأن تدفع به إلى أيدي قرائها الأعزاء بكل فخر وإعزاز.

يشارك في تدشين هذا العدد كوكبة متميزة من مؤرخي العصور الوسطي والتاريخ الإسلامي من مصر والمغرب وإنجلترا وأوكرانيا ونيونان؛ قدموا جميعاً ثمانية عشر عملاً، شكلت سفيراً جليلاً يربو على الثلاثمائة وخمسين صفحة.

فمن مصر يقدم أ.د. اسحق عبيد كلمة وفاء في ذكرى المرحوم أ.د. رأفت عبد الحميد. أما أ.د. إبراهيم القادري، من المغرب، فقد قدم بحثاً رائداً، جديداً من نوعه عن الدور الذي لعبه الفقهاء في مواجهة الخطر الصليبي الذي كان يهدد بلاد الأندلس. وتأتي تحفة أ.د. رأفت عبد الحميد الأدبية، في كلمته التي ألقاها في افتتاح "ندوة حدود مصر الشرقية"، بالمجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠١، والتي أثارت إعجاب الحضور جميعاً، في تلك الندوة، مما دفع بإدارة الحولية إلى نشرها ضمن بحوث هذا العدد الصادر في ذكرى السنوية.

أما السيدة الدكتورة زينب عبد المجيد، فقد قدمت بحثاً شيقاً عن ماهية البرلمان الإنجليزي في القرن الثالث عشر وحتى نهاية عهد الملك إدوارد الأول؛ وهي فترة حرجية في تاريخ الحياة البرلمانية في إنجلترا، نجحت الباحثة في تناولها بالعرض والتحليل من خلال استخدامها لمجموعة كبيرة من المصادر الأصلية والمراجع.

أما السيد/ عبد العزيز رمضان، فقد قدم بحثاً طيباً، ينم عن مهارته الباكورة في العرض والتحليل التاريخي، من خلال بحثه في "عروض زواج العرائس في البلاط البيزنطي ٧٨٨-٨٨٢م". فقد تعرض في بحثه هذا للطرق التي كانت تتبع في ترشيح العرائس للإمبراطور، عندما كان يشرع في الزواج، وكيف كانت الإمبراطورة في بعض الأحيان تتولى القيام بهذه المهمة بنفسها.

وفي هذا العدد يقدم أ.د. محمود إسماعيل تفسيراً ورؤية خاصة حول إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل.

ومن البحوث الشيقة، الطريفة في موضوعها، البحث الذي قدمته الدكتورة محاسن الوقاد عن "الألقاب والكنى الشعبية الساخرة في عصر سلاطين المماليك"، حيث تعرض فيه لمجموعة من الألقاب الساخرة التي استخدمتها العامة في مصر للسخرية من بعض الشخصيات أو الأمراء، والتي تعكس قدرة الشعب المصري علي استخدام النكتة أو الكنى الساخرة لتجميل واقعه المرير أو لإدخال الضحكة إلي القلوب التي اشتاقت إليها في ظل وجود بعض الحكام من ذوي الشوكة القوية. وقد ختمت دراستها بجدول حصرت فيه كل الألقاب والكنى الساخرة بكل أنواعها، طوال عصر سلطنة المماليك، سواء الأولي أو الثانية.

وتقدم الدكتورة نريمان عبد الكريم بحثاً قيماً عن "السياسة المالية للفاطميين بين النظرية والتطبيق"، وهو من البحوث الهامة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لمصر الإسلامية، حيث ترصد فيه مؤشر الحياة الاقتصادية في مصر الإسلامية في ظل القرارات والمراسيم الصادرة عن الخلافة الفاطمية وموقعها من التنفيذ.

ويأتي آخر البحوث المقدمة بالعربية للدكتور/ هاني عبد الهادي البشير بعنوان "المجريون في منطقة الدانوب الأوسط وحملاتهم علي مملكة الفرنجة ٨٩٦-٩٥٥م"،

حيث يرصد فيه جهود المجيار العسكرية في محاولاتهم فتح أفق جديدة لهم في الأراضي الألمانية، والتي يري أنها كانت فرنجية الطابع ، وقد انتهت هذه الجهود العسكرية بموقعة ليخفيلد عام ٩٥٥، التي تعدّ حداً فاصلاً في تاريخهم في منطقة الدانوب الأوسط. وقد رصد الباحث التحولات الجيوسياسية للمجيار منذ خروجهم من منطقة أتل كوزو إلي مورافيا العظمى، والتحديات التي واجهتهم هناك.

أما عن البحوث الأجنبية التي تضمنها هذا العدد، فتتسم جميعها بالثراء والقيمة التاريخية الرفيعة. فقد قدم أ.د. ديفيد نيقول، من إنجلترا، دراسة جادة عن "البحرية الإسلامية في المحيط الأطلنطي"، في العصور الوسطى؛ وقد دعم دراسته ببعض الصور والأشكال البحرية.

أما الأستاذة فلورا فافيا، من اليونان، المتخصصة في تاريخ الرياضيات، فقد قدمت بحثاً قيماً عن "فلسفة الرياضيات اليونانية وتأثيراتها علي تطور الحضارة العربية وعصر النهضة". وفي هذا البحث قدمت لنماذج عديدة من الرياضيين اليونانيين مقارنة بالرياضيين المسلمين والأوروبيين من عصر النهضة الذين تأثروا بهم، مع بعض الأشكال واللوحات التاريخية.

وتقدم الدكتورة إيرينا فدوفتشنكو، من أوكرانيا، دراسة رائعة، كانت قد تقدمت بها إلي "المؤتمر الدولي الثاني لآثار وتاريخ البحر الأسود"، الذي عقد في تركيا في الفترة من ٥-٩/٩/٢٠٠١، وهو بعنوان "أشكال الرقصات المرسومة علي فازات البحر الأسود في القرن الرابع"، ودعمت دراستها بمجموعة كبيرة من أشكال الفازات التي تعكس أشكال الرقص وأنواعه وأوضاع الراقصين ، التي عثر عليها في أحد المواقع الأثرية البيزنطية، في القرن الرابع.

ويقدم الدكتور/ طارق منصور، من مصر، بحثاً جاداً كان قد شارك به أيضاً في أعمال "المؤتمر الدولي الثاني لآثار وتاريخ البحر الأسود"، الذي عقد بتركيا في الفترة من ٥-٩/٩/٢٠٠١، بعنوان "الوجود التركي في القوقاز والسهوب: شهادة قسطنطين السابع"، ففي هذا البحث يتناول بالدراسة والتحليل رواية قسطنطين بورفيروجينيتوس عن أصول المجيار، ويرصد تحركاتهم من الشرق إلي المناطق

الغربية للاستبس، في منطقة لبيديا ثم منطقة اتل كوزو. ويستخدم الباحث في دراسته عدداً كبيراً من المصادر البيزنطية والفارسية والعربية واللاتينية لإلقاء الضوء علي رواية قسطنطين السابع لإثبات قيمتها التاريخية بالنسبة لتاريخ المجيار الباكر.

ولم يفت إدارة الحولية أن تقدم عدداً من عروض الكتب والرسائل العلمية الجادة في تاريخ العصور الوسطي والتاريخ الإسلامي، قدم لها خيرة من شباب الباحثين المصريين والعرب منهم الدكتور/ محمد مؤنس عوض، ، والدكتورة/ نجلاء حامد، والأستاذ/ محمد نصر، من مصر؛ والدكتور/ أحمد المحمودي، والدكتور/ محمد تضغوت، من المغرب، وهي محاولة للوقوف علي أحدث الدراسات التاريخية في هذا الحقل، ليفيد منها الباحثون والدارسون.

ولا يسع هيئة تحرير الحولية في نهاية هذه الكلمة إلا أن تشكر الدكتور/ طارق منصور، نائب رئيس تحرير الحولية، على الجهد الكبير الذي قام به في متابعة أعمال "السمنار" ودأبه وصدق عمله وتفانيه في جمع هذه المادة العلمية التي ضمها هذا العدد من الحولية، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة، فله من إدارة السمنار وهيئة تحرير الحولية كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق.

وانه مما يسعد أمانة السمنار وهيئة تحرير الحولية بالغ السعادة أن تتلقي كل الملاحظات والمقترحات التي تتناول الحولية بالنقد العلمي الهادف وصولاً بها إلي مكانة علمية مرموقة نرتجىها وإليها نسعي.

هيئة تحرير الحولية

أولاً: القسم العربى
أ. الدراسات والبحوث

رأفت عبد الحميد مشكاة الآداب التي انطفأت

اسحق عبيد

مصر

في الخامس والعشرين من يونيو الماضي انتقل إلي جوار ربه الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد محمد عميد كلية الآداب جامعة عين شمس وأستاذ تاريخ العصور الوسطى المرموق بها. وأصيب الأهل والخلان والمريدون في كل الأروقة العلمية بما يشبه الدهول من هول الصدمة، فلقد رحل هذا العالم النبيل دون وداع فجأة، إذ كان حتى ليلة رحيله يعمل في بيته الصغير وحبه الأول والأخير - كلية الآداب - حتى الرابعة بعد الظهر، دون كلل أو ملل، رغم أننا كنا نتوسل إليه دوماً أن يرفق بنفسه ويأخذ فسحة من النقاط الأنفاس، ولكنها همة ابن النيل الأصيل الذي يضع الواجب والصالح العام فوق كل اعتبار، ويغالب الإرهاق والعرق بضمير لا يعرف الكسل أو التراخي، وكنت كلما عاتبته علي ذلك يذكرني برؤية العلامة عبد الرحمن بن خلدون بأن للبشر أعماراً كأعمار الأمم والحضارات، وإن هي طالت أو قصرت "فلكل أجل كتاب".

كان رأفت عبد الحميد قدوة حسنة ليس فقط لتلاميذه ومريديه وإنما لكل زملائه والعاملين معه علي مختلف المستويات العلمية والإدارية، ولا نتحدث عن تواضعه الجم وعفة لسانه، ونظافة القلب واليد جميعاً، فهي أمثلة في كل دروب جامعة عين شمس.

لقد عرفته معيداً، فمدرساً مساعداً، فأستاذاً، فوكيلاً للكلية، ثم عميداً لها، وطوال هذه السلسلة التاريخية الطويلة بقي "صاحبى" ورفيق عمرى هو هو، متسقاً مع ذاته، دائم الابتسامة، شديد الإيمان بالله عندما شرف كرسى العمادة به منذ سنوات أربع ازداد تواضعاً علي تواضعه، وتعففاً علي تعففه، كل هذا ولم يعرف قلمه السكون، فلقد ظل وسط هذا الزحام الإداري يبدع وينتج ليثري المكتبة العربية بفكره وأدبه وفلسفته وأسلوبه الفريد.

تخصص د. رأفت منذ وقت باكر في الشخصية المصرية وعبرية مصر،
التي حافظت علي هويتها وذاتيتها، رغم عواذي الزمن وتحريشات الطامعين، فلم تهتز
أرض الكنانة من هجمة ذي القرنين أو حرائق قيصر، وإنما استأنست هذا وذاك، حتى
صار في الإمكان أن نقول: "في مصر يصبح الفاعل مفعولاً به"، ولا غرابة في هذا،
فأرض النهر الخالد هي فجر الضمير، وساحة الحضارة، وهي من قبل ومن بعد
البوتقة التي تنصهر بداخلها كل التيارات الوافدة من شرق أو غرب أو من شمال أو
جنوب!

موسوعة حضارية تاريخية

ومن يقلب في مؤلفات رأفت عبد الحميد يجد نفسه أمام موسوعة حضارية
تاريخية، تضم بين دفتيها: عالم حوض البحر الأبيض المتوسط، أثينا وروما، مدرسة
الإسكندرية، بيزنطة ومدينة مدائن القسطنطينية، ومن خلال هذا وذاك نلتقي بشوامخ
الفكر والفلسفة في العالم القديم ثم العصر الوسيط، وهم عمد الحضارة في تقديره
الواعي، جنباً إلى جنب مع أهل السياسة والحكم، وفي هذا السجل الحافل نلتقي وجهاً
لوجه مع عمالقة العالمين القديم والوسيط. ولرأفت عبد الحميد موهبة فذة في رسم
صور شخصياته، فهو أقرب إلي الفنان التشكيلي في إبراز ملامح أبطال رواياته:
فهناك قيصر، وأوكتافيان، وكليوباترا، وقسطنطين الكبير، وجوليان المرتد، وجستيان،
وهرقل، جنباً إلى جنب مع الأسقف أثاناسيوس بطل مجمع نيقيا اللاهوتي (٣٢٥م).
والأنسبا أنطونيوس كوكب البرية، وأفلوطين ابن الصعيد معلم الأفلاطونية المحدثة،
وأوريجانوس ومعلمه كلمنت السكندري اللذان صالحا بين الفلسفة واللاهوت، وجعلا
من مدرسة الإسكندرية منارة للفكر والاستنارة في كل ربوع البحر الأبيض المتوسط،
وقبل كل هذا وذاك هناك إيزيس أم الصابرين التي نهلت من منابعها أفروديت وعشتار
والأم العظمي (Mater Magna) لحضارات الشرق والغرب جميعاً!

جائزة أحسن كتاب في الفكر

وفي معرض الكتاب الدولي لسنة ٢٠٠١م فاز كتاب الأستاذ الدكتور رأفت
عبد الحميد بعنوان "الفكر المصري في العصر المسيحي" بجائزة أحسن كتاب في

الفكر، وكرمه الأمة المصرية في شخص رئيسها محمد حسنى مبارك في احتفالية معرض القاهرة للكتاب في حفل مهيب جمع صفوة مثقفي ومفكري هذه الأمة المباركة. وقد كان لي مع صديقي د. فاروق القاضي، والأستاذة الدكتورة منى مكرم عبيد، والأستاذ الدكتور ميلاد حنا شرف مناقشة محتوى هذا الكتاب الفذ في سراي السادس من أكتوبر، ضمن فعاليات هذا المهرجان الثقافي العظيم، وكان يوماً تاريخياً بمعنى الكلمة، حيث المداخلات والتعقيبات، ولكأننا كنا في "مأدبة أفلاطونية" أو "سمبوزيوم" كما يقول أهل المعرفة، وكان نجم الجلسة المتألق صاحب الكتاب: رافت عبد الحميد نفسه.

وكان رافت عبد الحميد - عاشقاً للتراث العربي الإسلامي، ولا غرابة في ذلك فهو ابن لعالم جليل من علماء الأزهر الشريف هو المغفور له الشيخ عبد الحميد البسطويسى، وكان الجميع يرجعون إليه لأخذ رأيه في النقاشات من المؤرخين، من الطبري إلي ابن الأثير، إلي ابن خلدون، إلي المقرئ، وصولاً إلي الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في العصر الحديث.

ومع أنه كان متخصصاً في تاريخ العصور الوسطى، والعصر البيزنطي علي وجه التحديد (٣٣٠ - ١٤٥٣م)، إلا أن رؤيته للتاريخ كانت رؤية المؤرخ الفيلسوف الذي ينظر، إلي التاريخ العالمي نظرة شمولية (جستالت Gestalt)، بحيث لا تفهم الإقليمية أو المحلية إلا من خلال الإطلالة الأوسع علي خريطة العالم الكبرى، والتحول من عصر إلي عصر عند المؤرخ رافت عبد الحميد لا تحدده الأحداث السياسية الكبرى بقدر ما ترسم معالمه الأفكار والفلسفات السائدة، وعلي هذا فإن تواريخ الفقيد الجليل تواريخ في الحضارة وليست أرشيفاً لمزمنات أو حوليات أو أسر حاكمة أو دويلات تسقط وأخري تقوم!

رؤية موسوعية

ومن واقع هذه الرؤية الموسوعية جاء اختيار د. رافت عبد الحميد - إلي جانب عمادة كلية الآداب جامعة عين شمس - مديراً لمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس، ومديراً لمركز الحضارات المعاصرة بجامعة عين شمس أيضاً،

وعضواً بلجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضواً باتحاد المؤرخين العرب، وعضواً بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وأميناً عاماً لسمنار التاريخ الوسيط والإسلامي بجامعة عين شمس، ورغم كل هذه الأعباء التي لا يطيقها إلا الأبطال، فإنه ما كان يتأخر دقيقة واحدة عن مواعيده ومسئوليته، وإنني أعلم عن قرب أنه كان يقضي معظم أيام الدراسة في جنبات كلية الآداب لا يهدأ.

ومريدوه ينتشرون في كل ربع من ربوع الدلتا وفي كل نجع من نجوع الصعيد، فله العشرات بل المئات من التلاميذ الأوفياء، من خلال إشرافه العلمي علي رسائلهم في الماجستير والدكتوراه، وهم الآن أعضاء لهيئات التدريس في مختلف جامعات مصر من أسوان إلي الإسكندرية.

وللعالم الفريد عشرات من المؤلفات والبحوث التي عالجت أهم القضايا في التاريخ البيزنطي ومصادره، وفي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، وفي ملامح الشخصية المصرية عبر العصور اليونانية والرومانية والبيزنطية.

ونذكر هنا بعض هذه المؤلفات علي سبيل المثال لا الحصر:

- الدولة والكنيسة، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٨٢ - ١٩٨٤.

- العالم البيزنطي (ج.هسي) ترجمة وتعليق، القاهرة ١٩٨٢.

- الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب، القاهرة ١٩٨٣.

- السمو البابوي بين النظرية والتطبيق، القاهرة ١٩٨٥.

- بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة ١٩٩٧.

- الفكر المصري في العصر المسيحي، القاهرة ٢٠٠٠/٢٠٠١.

لقد كان علم رأفت عبد الحميد بريئاً من الجهل، وكان مسلكه عرياً من الرياء، وكان قوله موشحاً بالصواب، وكانت حاله دائرة مع الحق.

كانت غاية رفيق عمري في هذه الدار العاجلة معقودة بالأمثل فالأمثل، وكان طوال عمره مزداناً بثوب العفة والعصمة، ولم يكن صاحبي ممن سها عن باطن ما لسربه عليه بظاهر ما له عنده، ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى قد أخذ بيده، وآواه إلي كنف نعمته، ونقله حميداً إلي منازل رحمته.

دور الفقهاء في مواجهة الخطر الصليبي بالأندلس

إبراهيم القادري

المغرب

يجمع الدارسون على أن الحروب الصليبية لم تقتصر على المشرق العربي فحسب، بل امتدت لتشمل الغرب الإسلامي وخاصة بلاد الأندلس، فإذا كانت التحرشات الصليبية قد بلغت أوجها في المشرق العربي بعد احتلال بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ — (١٠٩٩م)^١، فإنها لم تكن تقل خطورة عنها في تلك المنطقة النائية من العالم الإسلامي، وقد ترجم موقف البابوية ذلك عملياً قبل تاريخ هذا الاحتلال بسنوات حينما انبرت بكل ثقلها وسلطانها الديني لتحفيز النصارى الأسبان الذين تطوعوا للمشاركة في الحروب الصليبية بالمشرق على تغيير وجهتهم نحو الجبهة الأسبانية، ولضمان نجاح هذا التوجه، شرع البابا في منح صكوك الغفران لكل من هب من المسيحيين لقتال المسلمين بالأندلس، وجند الرأي العام المسيحي الأسباني لقبول هذه السياسة^٢.

من البديهي أن تخلق هذه الدعوة الصليبية المتعصبة ردود فعل قوية لدى الرأي العام الإسلامي بالأندلس، لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن تبرز قوات اجتماعية مختلفة لوقف هذا التحدي الصليبي ومن بينها العلماء الأندلسيون الذين اتخذوا مواقف متباينة، ولكنها تصب كلها في مقاومة الزحف الصليبي بالغرب الإسلامي، والأندلس على الخصوص.

وقبل استعراض مختلف هذه المواقف، تستلزم المنهجية السليمة عرض أوضاع الأندلس خلال هذه الحقبة للكشف عن الحالة المتردية التي تمخض عنها تذؤب الخطر الصليبي وما نجم عن ذلك من ردود فعل العلماء الأندلسيين، فما هي الوضعية التي أفرزت هذا التحدي الصليبي ببلاد الأندلس؟

^١ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، نشر المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، ج ٥، ص ١٤١؛ أبو القدا: المختصر في أخبار البشر طبعة مصر، ط ١، الطبعة الحسنية، ص ٢١١.

^٢ شارل اندري جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، الترجمة العربية. طبعة ليبيا- تونس، ١٩٧٨، ج ٢، ص ١١١.

سياسياً، لم تكن الأندلس خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري (١١م) في وضعية تحسد عليها، فالخلافة الأموية في القرن الرابع جسدت آخر تجربة وحدوية، وكان سقوطها إنذاراً بظهور عصر الطوائف أو ما تسميه بعض المصادر^٢، ب (أيام الفرق) التي أصبحت فيها الأندلس نهياً لكل مغامر أنس من نفسه القوة، ولا غرو فقد تقاسمتها شرنمة من المتربصين بالسلطان، ممن آثروا الاستبداد بنواحيهم، فأسسوا كيانات مهترنة وصل عددها إلى ثلاثة وعشرين دولة^٣.

ولدينا شهادة معاصرة تؤكد حالة التمزق الذي بلغ أوجه في هذه المرحلة، أنها شهادة الفقيه ابن عبد البر^٤ الذي عايش أحداث هذه الحقبة فكتب بهذا الخصوص قائلاً: (وانقطع ملك بني أمية بعد الأربعمائة بأعوام يسيرة، فصار كل من غلب علي موضع ملكه واستبعد أهله، وكثر فيها الأمراء، فضعفوا وصاروا خولاً للنصارى يؤدون إليهم أضعاف ما كان يأخذون منهم اليوم).

ويورد الأمام عبد الله بن بلكين^٥ آخر أمراء غر ناطة، في مذكراته التي تعتبر وثيقة هامة بحكم معاصرته للأحداث، نصاً يشير إلى هذا الانقسام وما تمخض عنه من أزمة سياسية وانحيار كامل للسلطة المركزية بقوله: (وبقي الناس لا أمام لهم، فتناقصوا علي الدنيا، وطمع كل واحد في الآخر، وكذلك لا يصح أمر بين نفسين، فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة)، ولعل اتخاذ ألقاب خلافة متعددة من طرف أمراء الأندلس المتشرذمين يعكس عمق هذه الأزمة^٦.

^٣ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار عبادي. طبعة مدريد، ١٩٧١، ص ٧٨.

^٤ عن أمراء الطوائف والأسرات التي حكمت مختلف الإمارات الأندلسية، انظر: زامباور: معظم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، جامعة فؤاد الأولي سنة ١٩٥١، ج ١، ص ٨٦ وما بعدها.

^٥ القصد والأمم في التعريف بأصول انساب العرب والعجم، طبعة القاهرة ١٣٥٠ هـ، ص ٣٥.

^٦ كتاب التبيان، نشره ليفي بروفنسال، طبعة القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٨.

^٧ المراكشي: المعجب، طبعة البيضاء، ١٩٧٨، تحقيق سعيد العريان ومحمد العلمي، (الطبعة ٨) ص ١٠٥ وقد أورد شعر أبي الحسن بن رشيق مستهزئاً بهذه الألقاب الخلافة:

سماح مقتدر فيها ومعتضد	مما يزهدني في أرض أندلس
كالهر يحكي التفاخاً صولة الأسد	ألقاب مملكة غير موضعها

زد علي ذلك أن الدويلات الطائفية لم تكن تتوفر علي أبسط مقومات الدولة، إذ اتسمت بأسسها الهشة، وافتقرت إلي قاعدة تضمن لها كياناً سياسياً صلباً له وجود اجتماعي مستقل.

كما أن صغر مساحتها وقلة عدد سكانها، وطبيعة حكومتها التي تفتقد إلي الشرعية، وعدم توفرها علي قوة عسكرية للدفاع عن حدودها⁸، كل ذلك جعل منها كيانات رخوة شبيهة بالدولة الإقطاعية⁹، لذلك ظلت عاجزة عن إنجاز أي دور وحدوي، كما اتسمت بالضعف والوهن حتى (ذل الرئيس والمرؤوس، وافتقرت الرعية، وفسدت أحوال الجميع بالكلية، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية¹⁰).

ومما زاد وضعية هذه الدويلات تآزماً، إغراق نفسها في صراعات دموية زادت من هشاشتها، وهو ما عبر عنه أحد المؤرخين¹¹ تعبيراً رائعاً بقوله: (وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات، والعشائر المتغايرات).

استمرت هذه الحالة المؤسفة ما يربو عن الثمانين سنة، كلها تفكك خطير، وانحلال سياسي واجتماعي عميق، وظل التناحر لغة التخاطب السائدة بين ملوك الطوائف الذين تناسوا مسؤولياتهم القومية، بل فضل معظمهم الاستعانة بالممالك النصرانية حفاظاً علي عروشهم الواهية، لذلك لم يتورعوا عن سفك الدماء ومقاتلة إخوانهم العرب، يقول ابن الكر دبوس¹² في هذا الصدد: (وكان أسر شيء عند ألفنش (ألفونسو السادس) Alfonso XI فتنة تقع بين الولاة من المسلمين (إشارة إلي أمراء

⁸ بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، طبعة قطر، ١٩٨٧، ص ١٠٣-١٠٤.

⁹ عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتي الفتح المرابطي، طبعة القاهرة، ١٩٦٩، ص ٤١٨.

¹⁰ ابن الكر دبوس: م.س.ص ٧٧.

¹¹ ابن الخطيب: أعمال الأعلام - القسم الخاص بالأندلس - تحقيق بروفنسال، طبعة بيروت، ١٩٥٦، ص ٢٤٤.

ولمزيد من التفاصيل حول صراعات أمراء الطوائف أنظر: عنان: م.س. ص ٣٥ وما بعدها.

¹² تاريخ الأندلس: ص ٨٢.

الطوائف) فيعين هذا علي هذا، وهذا علي هذا فيتجلبب بذلك أموالهم طمعاً من أن يعجزوا فيظفر بملك الجزيرة كلها).

لم يكن هذا الواقع السياسي المهترئ سوي انعكاس أمين للوضع الاقتصادي المتدهور الذي أفرزته اعتداءات ألفونسو السادس الذي شكل قوة ضغط علي ملوك الطوائف، حتى جعلهم (في المعصرة) علي حد تعبير دوزي Dozy¹³ وذلك باستنزاف مواردهم المالية عن طريق سن ضرائب سنوية تدعي (بارياس) Parias¹⁴ ازدادت مقاديرها بشكل مروع إلي درجة أن بعضهم عجز عن أدائها¹⁵، فكانت جولاته العسكرية تعود كل مرة محملة بالضرائب¹⁶، وظل الأمر علي هذا النحو حتى قدوم المرابطين¹⁷.

خلفت هذه السياسة الجبائية نتائج متناقضة علي المستوي الاقتصادي، ففي الوقت الذي امتلأت خزائن ألفونسو السادس بموارد إضافية (حوالي ٤٠ كلغ من الذهب كل سنة) تفاقمت الوضعية الاقتصادية بالأندلس، وازدادت تدهوراً وانهاياراً¹⁸. وساهمت الحروب بين زعماء الإمارات الطائفية في أنهاك الزراعة ونهب المحاصيل، وفي هذا الصدد يقول ابن بسام¹⁹: (فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة، والرعية مهملة، لأن جملة غلاتهم وجميع اعمالاتهم تتلف بأيدي تلك الطواغيت)، وبالمثل فإن عمليات السلب والنهب التي قامت بها القوي النصرانية بين الفينة والأخرى، أسفرت عن خسائر فادحة²⁰، يضاف إلي ذلك كثرة المغارم التي ثببت همة

¹³ DOZY: *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu' à la conquête de L' Andalousie par les Almoravides*, Leyde, 1932, Tome 3, p.11

¹⁴ FOSSIER: *Enfance d'Europe: aspects économiques et sociaux*, Paris, 1982, Tome 1, p. 254.

¹⁵ ابن بلكين م.س.ص ٧٦.

¹⁶ ابن خلدون: كتاب العبر، تحقيق خليل شحاتة، طبعة بيروت، ١٩٨١، ج٦، ص٢٤٨.

¹⁷ القلقشندي م.س. ج ٥، ص ٢٤٩ ابن الكردبوس: م.س.ص ٧٧.

¹⁸ FOSSIER: op.cit, p. 127.

¹⁹ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس، طبعة ليبيا - تونس، ١٩٨١ ق ٢ مج ١، ص ٢٥٤.

²⁰ FOSSIER: op. cit. , p. 254.

المزارعين (فضعف الاعتمار وخلت الديار^{٢١})، وفي ذلك إشارة واضحة إلى انهيار قوة الإنتاج الرئيسية في الأندلس وهي الزراعة، مما يعني تصدع البنية الاقتصادية برمتها.

ومما زاد الطين بلة أن أهل الذمة، وخاصة اليهود استبدوا بالسلطة والنفوذ، وهيمنوا علي المناصب العليا في الإمارات الطائفية، مما أثار حفيظة الرعية وجعل السخط يتأجج في صدورهم ضد حكامها وسياساتهم المتخاذلة^{٢٢}.

حدث هذا في الوقت الذي تعاضم شأن النصارى، وجنحت ممالكهم نحو التوحد، مدعين من قبل الكنيسة البابوية والرهبان الكولونية، لذلك وجهوا كل طاقاتهم نحو دويلات الطوائف، ولبلوغ هذه الغاية نهجوا خطة تعتمد علي حرب الاستنزاف وتشيت الصفوف، وهو ما عبر عنه الفونسو السادس بقوله: (ولكن الرأي كل الرأي تهديد بعضهم ببعض، وأخذ أموالهم أبدا حتى ترق وتضعف، ثم هي تلقي بيدها إذا ضعفت)^{٢٣}، وقد تمخض عن هذه الخطة سقوط مدينة طليطلة^{٢٤}، الذي جاء ضربة قاصمة للدويلات الطائفية، ودليلاً واضحاً علي عجزها عن وقف الزحف الصليبي المتفاقم.

من البديهي أن تساعد هذه الأوضاع المتردية علي احتداد شوكة الصليبيين، إذ أصبح الفونسو السادس إذا استعزنا تعبير أحد الباحثين^{٢٥}، (من أكبر الوجوه) التي ستضاعف الزحف الصليبي، ولعل تلقيب نفسه بذئ الملتين^{٢٦}، يزكي هذا المعنى، وتنهض تحدياته العسكرية حجة علي عزمه استرجاع الأندلس برمتها، وحسبنا أنه دوخ الإمارات الطائفية التي شقتها جيوشه من الشمال إلي الجنوب حتي وصلت إلي

²¹ ابن الخطيب، م.س.ص ٢٤٤.

²² ابن الكردبوس: م.س.ص: ٧٨ - ابن بسام، م.س.ق. ١، مج ٢، ص ٧٦٦.

²³ ابن بلكين، م.س.ص ٧٣.

²⁴ ابن بسام، م.س.ق. ٤، مج ١، ص ١٦٣.

²⁵ CALMETTE: *Histoire d'Espagne* .,Paris, 1947, p. 80.

²⁶ DOZY: op. cit , p. 121.

فرضة المجاز من جزيرة طريف تحت سمع أمراء الطوائف وبصرهم^{٢٧}، بل هؤلاء فضلوا ملاطفته بالأموال والهدايا، والانغماس في لذاتهم (بشرب الخمر واقتناء القيان وركوب المعاصي وسماع العيدان)^{٢٨} دون أي محاولة لإقامة جبهة متحدة لمواجهة الخطر المشترك^{٢٩}، وتشهد الرسالة التي بعثها الفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين بالمغرب الأقصى قبيل موقعة الزلاقة SACRAJAS (سنة ٤٧٩هـ) على هذه الوضعية المتخاذلة^{٣٠}.

وتبلور التحدي الصليبي في المواقف التي تبنتها البابوية في هذا الصراع، ففي سنة ٤٧٦هـ (١٠٦٣م)، قرر البابا الاسكندر الثاني Alexander II منح صك الغفران لكل من يشد الرحال لقتال المسلمين في الأندلس،^{٣١} وفي نفس المنحي اتفق مع ملك قشتالة فرناندو الأول Fernand I أن يصدر بركته البابوية لكل من يستجيب لهذه الرغبة الصليبية، فهب كثير من فرسان غرب أوروبا للمشاركة فيها طمعاً في النهب والحصول على المغنم.

ولما عقد البابا أوربان الثاني مؤتمر (كليرمون) Clermont لإذكاء حماس الأمم النصرانية من أجل خوض غمار الحروب الصليبية، أراد (برنارد) Bernard ومعه عدد من الأساقفة الأسبان التوجه إلى المشرق لإقراغ طاقتهم القتالية، لكن البابا حرم عليهم ذلك، ووجههم للقيام بهذه المهمة في الأندلس التي كانت لا تقل في نظره أهمية عن أراضي المشرق^{٣٢}، وبذلك أصبحت (خط الصدام الأول)^{٣٣} في هذه الحروب التي أصبحت تشرف عليها روما وتوجهها كما توجه حروبها في الأراضي المقدسة^{٣٤}.

²⁷ ابن أبي زرع: روض القرطاس، الرباط، ١٩٧٣، ص ١٤٣.

²⁸ ابن الكردبوس: م.س.ص ٧٧.

²⁹ عبر الأمير عبد الله بن بلكين عن ذلك في مذكراته بقوله: (فلحن لم يعن بعضنا بعضاً علي الرومي) الظر: التبيان، ص ١٦٦.

³⁰ انظر نص الرسالة عند الحلبي: كتاب حسن التوصل في صناعة الترميل، تحقيق أكرم عثمان، طبعة بغداد، ١٩٨٠، ص ٧٦.

³¹ شارل أليري جوليان: م.س.، ج ٢، ص ١١١.

³² أشباخ: تاريخ الأندلس علي عهد المرابطين والموحدين، الترجمة العربية. طبعة تونس - ليبيا، ١٩٧٨، ص ١٢٤.

وتجلت الروح الصليبية كذلك في دساتير بعض الدول المسيحية، ولا غرو فقد تضمنت القوانين التي صادق عليها المجلس الملكي في البرتغال قانوناً ينص علي أن الذين يموتون في سبيل النصرانية يصبحون أعضاء في طبقة النبلاء، وأن صفة النبيل ترفع عن كل شخص يفر إلي أراضي المسلمين^{٣٥}.

في هذا المناخ، ازداد تحدي الممالك النصرانية، فأبن الخطيب^{٣٦}، يذكر أنه بعد احتلال الفونسو السادس مدينة طليطلة، عرض عليه أنصاره أن يلبس التاج، فأرجأهم إلي أن يستولي علي قرطبة، بل (طمع في الاستيلاء علي الجزيرة كلها^{٣٧}).

إلي جانب شبح ألفونسو السادس، ظهرت شخصية عسكرية أخرى زادت من متاعب مسلمي الأندلس، ألا وهي شخصية السيد الكنبيطور Campiodor الذي تحول من لص محترف^{٣٨}، إلي قائد نجح في قيادة جماعة من الفرسان المسيحيين المغامرين، وأذاق الأندلسيين الهزائم المرة، حتى أن ابن بسام^{٣٩} وصفه بأنه كان (عقلاً وداء عضالاً له في الجزيرة وقائع)، وقد راودته أحلام استرجاع الأندلس برمتها^{٤٠}.

نستخلص مما تقدم، أن الأندلس عرفت خلال القرن الخامس الهجري تحدياً صليبياً لا يقل خطورة عما شهده المشرق الإسلامي، فما هو موقف العلماء الأندلسيين من هذا التحدي؟

³³ سعدون نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس: عهد يوسف بن تاشفين، طبعة بيروت، ١٩٨٥،

ص ١٠٢.

³⁴ DESCOLA: *Histoire de l'Espagne chretienne*, ed. Robert Leffont., p. 107.

³⁵ أشباح: م. س. ص ٢٤٩.

³⁶ أعمال الأعلام - القسم الأندلسي، ص ٢٤٤.

³⁷ مؤلف مجهول: الخلل الموحشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، طبعة البيضاء، ١٩٧٩، دار الرشاد

الحديثة، مطبعة النجاح الجديدة، ص ٣٨.

³⁸ عبد الجليل الرضا الراشد: علاقات دول الطوائف في الأندلس بالمرابطين (أطروحة جامعية مرقونة) نوقشت

بجامعة عين شمس بالقاهرة، ص ٧٧.

³⁹ الذخيرة، ق ٣، مج ١، ص ٩٥.

⁴⁰ نفسه، ص ٩٩، ويقول في هذه الرواية: (حدثني من سمعه يقول وقد قوي طمعه ولج به جشعه: علي رذيق

فتحت هذه الجزيرة ورذيق يستنقذها).

برزت مواقف هذه القوة الاجتماعية بوضوح تجاه التحديات الصليبية، وأن لم تكن منسجمة بكيفية تامة، فقد استغلوا فرصة إلقاء دروسهم ومحاضراتهم للحظ علي الجهاد، وأذكاء الحمية الدينية والأنفة الإسلامية، كما تجلت مواقفهم أيضاً من خلال السفارات والوساطات بين أمراء الطوائف، ودعوتهم للتوحد والتصدي للخطر الصليبي، أو من خلال مساهمتهم في إسقاط الحكام المتخاذلين أو المشاركة الفعلية في معارك الجهاد والاستشهاد فيها.

وعلي العموم يمكن رصد مواقف العلماء من خلال الأدوار التي اضطلعوا بها لمجابهة التحديات الصليبية علي الشكل التالي:

١- الوعظ والدعوة لتوحيد الجبهة الإسلامية من أجل الجهاد.

لا جدال في أن النزاعات التي شجرت بين أمراء الطوائف، وما تلاها من مواقف متخاذلة، كان لها وقع سيئ علي نفسية بعض العلماء الذين بادروا غلي الدعوة لنبذ الخلافات بغية تشكيل جبهة إسلامية متراسة قادرة دابر الصليبيين، والتصدي لمشاريعهم التوسعية.

وقد بدأت هذه الدعوة التوحيدية منذ سقوط طليطلة سنة ٤٨٧هـ، وتزعمها العلامة الفقيه أبو الوليد الباجي (٤٠٣ - ٤٧٤ هـ) الذي جال بلاد الأندلس طويلاً وعرضاً، داعياً إلي وحدة الصفوف، ومحذراً من عواقب الفرقة والنزاع^{٤١}.

وتتضارب المصادر حول ما إذا كان هذا العالم قد قام بمبادرته من تلقاء نفسه أم أن حاكم بطليوس المتوكل بن الأفطس قد ندبه إلي ذلك. فأبن الأبار^{٤٢} يؤكد الرواية الأخيرة بقوله: (ولما عظم عيث الطاغية أدفونش بن فردنلند، وتطاول إلي الثغور، ولم يقنع بضرائب المال، انتدب للتطوف علي أولئك الرؤساء القاضي أبو الوليد الباجي يندبهم إلي لم الشعب ومدافعة العدو، وكلهم يصغي إلي وعظه). بينما ذهب مؤرخون

^{٤١} السامرائي: الدعوة لتوحيد الأندلس في أيام الطوائف، مجلة زانكو السليمانية، نيسان، ١٩٧٧، ص ٨٢ - ٨٣.

^{٤٢} الحلة السيرة: تحقيق حسين مؤنس، طبعة القاهرة، ١٩٦٣، ج ٢، ص ٩٨.

أتخرون^{٤٣} إلى تبني الرواية الأولى، فأكدوا أن الباجي قام بدعوته التوحيدية الوعظية من تلقاء نفسه، ونحن نرجح الرواية الأولى لاجتماع المؤرخين عليها وتفرد ابن الأبار وحده بذكر الثانية، كما أن الرواية الأولى أقرب إلى سياق المنطق التاريخي، إذ لا يعقل أن يسعى أمير تمت أدانته من قبل كافة المصادر لمساهمة في انقسام الأندلس إلى المطالبة بتوحيدها.

ومما يسترعي الانتباه، أن دعوة الفقيه الباجي بدأت مباشرة بعد عودته من المشرق العربي، مما يعكس وحدة الظاهرة في التاريخ العربي، والظروف المشتركة التي استلزمت التصدي للخطر الصليبي في المشرق والمغرب علي السواء.

ورغم أن جهوده لم تسفر عن نتيجة عملية، فقد نجح علي الأقل في وضع أمراء الطوائف أمام الأمر الواقع، وأشعرهم بمسؤولياتهم وضرورة نبذ خلافاتهم، وتوحيد كلمتهم لمجابهة الخطر النصراني، يقول المقري^{٤٤} بهذا الخصوص: (ولما قدم من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً، وجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة، فمشي بينهم في الصلح وهم يجلونه في الظاهر، ويستقلونه في الباطن، ويستبدون نزعته، ولم يفد شيئاً فآله تعالى يجازيه عن نيته).

إلى جانب أبي الوليد الباجي، برز دور العلامة المحدث أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني الذي جسد بحق نموذج الشجاعة والجرأة والروح النقدية الحرة المستقلة التي أبان عنها بعض العلماء الأندلسيين تجاه حالة التمزق التي عرفتھا الأندلس في عصر الطوائف وما نجم عن ذلك من خطر صليبي، حتى أن موقفه الصلب كان وراء اغتياله^{٤٥}.

^{٤٣} أنظر النباهي: قضاة الأندلس (المراقبة العليا). طبعة بيروت ١٩٨٠. ص ٩٥ - ابن الشباط: صلبة السمط (المنشور مع تاريخ ابن الكرتبوس) ص ٤٦ - ابن بشكوال، الصلة، ق، ١ ص: ٢٠٠ - ابن حلكان: وفيات الأعيان: تحقيق حسان عباس، بيروت (د.ت)، ج ٢، ص ٤٠٨.

^{٤٤} نفح الطيب: ج ٢، ص ٧٧.

^{٤٥} بن عبود: م.س. ص ١٧٥.

ولا يساورنا شك في أن رحلته إلى المشرق العربي جعلته علي مفسد المجتمع الإسلامي، وعلي الأزمات التي كانت تعصف به، والتمزق الذي صار ينخره، فعاد يحمل في نفسه هم الدعوة للوحدة ورصد صفوف الأمة العربية - الإسلامية.

وبمجرد عودته، التقى بالعلامة أبي الوليد الباجي^{٤٦}، وهو لقاء لم تكشف المصادر عما دار فيه من حوار بين الفقيهين، بيد أن تأزم الأوضاع بالأندلس واحتداد شوكة المسيحيين جعلنا نفترض أن بعض مواضيع الحوار دارت حول مسؤوليتيهما في القيام بدور الوعظ ونصح أمراء الطوائف بتوحيد شبه الجزيرة الأندلسية، وهزم التطلعات الصليبية.

ويخيل إلينا أن سقوط مدينة ببشتر كانت الحدث الأكثر تأثيراً في نفسه، فقد تألم للمذابح والمآسي التي أصابت مسلمي الأندلس، فبعث إلي المعتضد رسالة تفيض بالغيرة والحماس يحضه فيها علي جهاد الكفرة وتحرير المدينة المحتلة^{٤٧}.

والملاحظ أنه دعم رسالته باستشهادات قرآنية لإضفاء المشروعية الدينية علي جراته وصراحته، لكن ذلك لم يحل دون دفع الثمن غالياً، فقد امتعض المعتضد لما جاء في الرسالة فقتله بيده^{٤٨}، وهو مثال صارخ للتضحيات التي قدمها بعض العلماء خدمة للقضايا القومية ومجابهة التحدي الصليبي.

ومن العلماء الذين قاموا بنفس الدور كذلك عن طريق الدعوة للوحدة واستنهاض الهمم الفقيه ابن عبد البر، نجل الفقيه الكبير أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري (ت ٤٦٣ هـ)، ورغم أسلوب التقية الذي نهجه، ومساندته لجرائم المعتضد^{٤٩}، فإن بعض كتاباته جاءت زاخرة بالدعوة إلي الوحدة ورصد صفوف عرب الأندلس أمام الزحف الصليبي^{٥٠}، ولا غرو فقد جاء في إحدى رسائله: (ورد كتابك يحض علي

⁴⁶ عياض: ترتيب المدارك ج ٣، ص ٨٢٥.

⁴⁷ انظر نص الرسالة في الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٨٤ - ٨٥.

⁴⁸ نفسه: ص ٨٣.

⁴⁹ ابن عبود: م.س. ص ١٧٩.

⁵⁰ إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، طبعة بيروت، ١٩٦٢، ص ١٧٧.

ما أمر الله تعالى من الألفة واتفاق الكلمة وإطفاء نار الفتنة، وجمع شمل الأمة في هذه الجزيرة^{٥١}.

وتقوم رسالة ثانية كتبها علي لسان أهل ببشتر قرينة أخري علي دوره في الدعوة لوحدة الأندلس لمجابهة الخطر النصراني إذ جاء فيها: (ولو كان شملنا منتظماً وشعبنا ملتئماً، وكنا كالجوارح في الجسد اشتبكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً لما طاش لنا سهم ولا سقط لنا نجم... فتنبهوا وقاتلوهم في أطرافكم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغوركم قبل أن يجاهدوكم في دوركم^{٥٢}).

كل هذه القرائن تكشف باللمس المحاولات الجادة التي قام بها بعض العلماء الأندلسيين لتوحيد الجبهة الإسلامية في الأندلس وصد الأخطار الصليبية، فما هي الاختيارات الأخرى التي نهجها العلماء الآخرون؟

٢- فضح أمراء الطوائف ومعارضتهم لتقاعسهم عن رد الأطماع الصليبية: لعل أهم عالم عكس هذا التوجه، الفقيه أبو محمد علي ابن حزم أحد فطاحلة علماء القرن الخامس الهجري، فعلي خلاف بعض العلماء الذين تبنا مبدأ الواقعية وعدم الجرأة للتعبير عن معارضتهم للنظام الطائفي علي الأقل حتي ظهور يوسف بن تاشفين، كان ابن حزم أكثر إفصاحاً في معارضته المطلقة واللامشروطة لدول الطوائف. بل طعن في شرعية النظام الطائفي معتبراً كل أمير (محارب لله تعالى وساع في الأرض بفساد^{٥٣}) كما أدان عصر الطوائف ونعته بعصر الفتنة والغلب^{٥٤}، بل عد جميع الأموال المتداولة في هذا العصر غير شرعية كذلك^{٥٥}.

⁵¹ ابن بسام: م.س. نقلا عن السامرائي: م.س. ص ٨٧.

⁵² إحسان عباس: م.س. ص ١٨١.

⁵³ ابن حزم: رسالة التلخيص، نشرت مع رسائل أخري ضمن كتاب: الرد علي ابن النغريلة اليهودي، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت (د.ت)، ص: ١٧.

⁵⁴ جمهرة أنساب العرب، طبعة القاهرة (د.ت)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ص ١٠٢.

⁵⁵ ابن حزم: رسالة التلخيص، ص ١٧٥ وفيها يقول: (وبرهان ذلك أنني لا أعلم لا أنا ولا غيري بالأندلس درهما حلالاً ولا ديناراً طيباً).

وبما أن اليهود كانوا قد استولوا علي المناصب العليا في الدويلات الطائفية، وصاروا أصحاب الأمر والنهي، فقد صب عليهم جام غضبه وهاجمهم بعنف، وحسبنا أنه أفرد كتاباً لمجادلة اليهودي ابن النغيلة^{٥٦}.

٣- إقناع ملوك الطوائف بالاستتجاد بالمرابطين لرد الخطر الصليبي:

كانت معارضة بعض العلماء لأمراء الطوائف ونظامهم القطري المهترئ العاجز عن ردع الأطماع الصليبية معارضة خجولة اكتفت بالتلميح واللف والدوران أحياناً وبالصمت أحياناً أخرى، وذلك بسبب انقسامهم علي أنفسهم، وعدم امتلاكهم قوة عسكرية لتغيير الأوضاع^{٥٧}، غير أن عاملين ساهما في بروز معارضتهم بشكل قوي وصريح. يتمثل الأول في عجز أمراء الطوائف علي تشكيل جبهة موحدة قادرة علي ردع الخطر الصليبي، بينما يتجلى العامل الثاني في ظهور الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين علي الساحة السياسية، فضلاً عن المساندة الشعبية التي أصبح يتمتع بها هذا الأمير.

انطلاقاً من هذه الظرفية الجديدة، بدأ العلماء يبذلون قصاري جهدهم لإقناع حكام الأندلس بضرورة الاستتجاد بيوسف بن تاشفين لمواجهة سياسة ألفونسو السادس التوسعية، خصوصاً بعد أن صار هذا الأخير يلوح باحتلال الأندلس كلها، فأكدوا لهم أن الأمير المرابطي أصبح يشكل الاختيار لإنقاذ الأندلس، وأن أي فشل في البحث عن مساندته سيؤدي حتماً إلي محو الوجود العربي بهذا البلد الإسلامي^{٥٨}.

في هذا المنحى، أورد صاحب التكملة في ترجمة أبي عبيد الله محمد بن حسين بن محمد بن عريب الأنصاري (ت بعد عام ٥٠٨ هـ) أنه (سكن سرقسطة، وتجول وتجول كثيراً في بلاد الأندلس والعدوة وكان وجيهاً عند الملوك متردداً

^{٥٦} نشر هذا الكتاب تحت عنوان (الرد علي ابن النغيلة اليهودي ورسائل أخرى)، انظر هامش ٥٢.

^{٥٧} ابن عبود: م.س.ص ١٨٦.

^{٥٨} نفسه، ص ١٨٨.

عليهم⁵⁹) وهو نص يكشف النقاب عن محاولاته الرامية إلى إقناع أمراء الأندلس بالدخول تحت طاعة المرابطين لمواجهة الأطماع الصليبية.

وبعد دخول يوسف بن تاشفين جزيرة الأندلس، أصبح دور العلماء في إقناع أمراء الطوائف بالتخلي عن إماراتهم لصالح الأمير المرابطي أكثر أهمية، خاصة أن القوي الصليبية كانت لا تزال تتربص الدوائر بالمسلمين في الأندلس، لذلك بدأ العلماء يقومون بدور الوساطة بين يوسف وأمراء الطوائف، وفي هذا الصدد تخبرنا المصادر أن الأمير عبد الله حاكم غرناطة بعث العالمين إن القليعي والقاضي ابن سهل ليبلغاه نجاحه في حكم تلك الإمارة⁶⁰، وهي محاولة نميل إلى الظن أنها سعت للتقرب من الأمير المغربي للاستجداد به في اللحظة الضرورية بعد أن بدأ يشعر بالخطر يحدق به، لوما سمع أنه وصل إلى سبتة في طريقه إلى قرطبة، بعث القاضي ابن سهل المذكور بمعية باديس بن واروي لاستقباله والترحيب به⁶¹.

غير أن دور الوساطة الذي قام به العلماء لتحقيق وحدة الدولة الإسلامية بالأندلس لم يجد الأذان الصاغية، مما جعل هؤلاء يصعدون الموقف، ويتخذون إجراءات نجاعة وحزمًا، وذلك بإصدار فتاوي فقهية تسمح ليوسف بن تاشفين بإسقاط الحكام المتخاذلين، وغزو الأندلس وتوحيدها كخطوة ضرورية وحاسمة لمجابهة التحديات النصرانية، وهو ما سنتناوله الآن.

٤- العمل على إسقاط أمراء الطوائف العاجزين عن ردع الخطر الصليبي:

تبلور هذا الدور في اتجاهين: أولهما العمل في الخفاء لمساعدة يوسف بن تاشفين بغية الإطاحة بأمراء الطوائف، وثانيهما إصدار فتاوي فقهية علنية تجيز غزوهم وإسقاط حكمهم تحت غطاء شرعي.

بخصوص الجانب الأول، تذكر إحدى الروايات أن العلامة القاضي بن سهل بعث رسولا من طرف حاكم غرناطة إلى يوسف بن تاشفين، فأستغل هذه الفرصة

⁵⁹ ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة. نشره القرد بل وابن أبي شنب. طبعة الجزائر، ج ١، ص ٤١١.

⁶⁰ ابن بلكين: م.س. ص ١١٦.

⁶¹ نفسه، ص ١٤٦.

لأخبار الأمير المرابطي بالوهن الذي أصاب إمارة غرناطة، وانقسام جيشها وانهيار معنوياته، وفي نفس الوقت أبلغه ترحيب سكانها به لتخليصهم من جبروت حاكمه واستعدادهم للانضواء تحت راية المرابطين⁶²، كما أن الفقيه أبو جعفر ابن القليعي عبر إلى المغرب ليحرض يوسف علي الإيقاع بملوك الطوائف، بيد أن أكثر العلماء سعياً للإطاحة بهذا الأمير، كان هو الفقيه أبو بكر بن مسكن الذي يحدثنا عنه الأمير عبد الله حاكم غرناطة في مذكراته فيذكر أنه اتصل بيوسف بن تاشفين وأغراه بغزو إمارته⁶³.

وفي نفس السياق، لم يتوان عالم آخر هو الفقيه ابن إحسان عن العمل في خفاء للإطاحة بأمير بطليوس ابن الأفطس الذي كان قد ولاه شؤون دولته. وبالمثل، لعب بعض العلماء دوراً هاماً في إسقاط المعتمد بن عباد، فبعد تردد يوسف بن تاشفين عن خلعه بسبب العهد الذي كان قد قطعه عليه، ألح عليه الفقهاء بإزاحته عن الحكم هو وغيره من ملوك الطوائف، إذ ورد علي لسانهم: (فبادر بخلعهم ونحن بين يدي الله المحاسبون، فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون، فأنت أن تركتهم وأنت قادر عليهم أعادوا بقية بلاد المسلمين إلى الروم، وكنت أنت المحاسب بين يدي الله تعالى).

أما الجانب الثاني الخاص بإصدار فتاوي لتتحية أمراء الطوائف، فالفقيه العلامة أبو بكر الطرطوشي يقدم نموذجاً رائعاً لهذا الإفتاء، وبما أن أمر الأندلس كان قضية لا تخص مسلمي الأندلس فحسب بقدر ما كانت تهم المسلمين كافة، فإن فتاوي أخرى صدرت من علماء مسلمين من المشرق كذلك، وفي طليعتهم الإمام الغزالي الذي أفتى بأن (إعفاء أمراء الطوائف والإبقاء عليهم لا يتوصل معه إلي واجب الجهاد).

⁶² نفس المصدر والصفحة.

⁶³ إبراهيم خليل السامرائي: علاقات المرابطين بالممالك الأسبانية بالأندلس وبالذول الإسلامية، طبعة بغداد،

١٩٨٥، ص ١٥٧.

ونظراً لما تكتسبه الفتاوي من خطورة لكونها تعطي المبرر الشرعي لكل مبادرة سياسية، فإن أقدام العلماء علي إصدار مثل هذه الفتاوي لتمرير مخططات الأمير المرابطي تعكس مساهمتهم في إسقاط أمراء الطوائف، ودق آخر مسمار في نعوشهم، وتمهيد السبيل ليوسف ابن تاشفين لاجتياح الإمارات الطائفية المترهلة، وضمها نهائياً كخطوة أولى لاستئصال شأفة الخطر النصراني دون إراقة دماء كثيرة، كما يرجع إليهم الفضل في إضفاء الصبغة الشرعية الدينية علي دخول المرابطين الأندلس وتوحيدها لمواجهة جحافل الجيوش الصليبية، بعد أن برروا ذلك بتعامل أمراء الطوائف مع النصاري، وانتقال كاهل الرعاية بالضرائب وتقديمها بسخاء لألفونسو السادس.

٥- مشاركة العلماء في الجهاد والاستشهاد لرد الأطماع الصليبية.
فضلاً عن الأدوار السابقة الذكر، اختار بعض العلماء طريق الاستشهاد والموت في ساحة المعارك لقطع دابر القوي الصليبية، وحسبنا أن بعضهم شارك مشاركة فعالة في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ م ١٠٨٦م، فرزقوا الشهادة مثل الفقيه علي المصمودي الذي يذكر عنه ابن عبد الله الملك، أنه دخل الأندلس غازياً صحبة قاضي الجماعة أبو مروان المصمودي (فأكرمهما الله بشهادة في وقعة الزلاقة علي النصاري). ومنهم من ساهم في هذه المعركة وخرج ظافراً مزهواً بالنصر كما هو حال ابن القصيرة الذي تجشم عناء الصمود في الصفوف الأمامية للجيش، ولم يصب إلا بجراحات خفيفة، وانفرد بذكر مشاهداته لأطوار هذه الحرب في رواية تعد من الروايات النادرة والطريقة التي وصلت إلينا علي لسان شاهد عيان، ومن العلماء الذين كانت تحدوهم الرغبة في خوض غمار هذه المعركة ولو أن الظروف لم تسعفهم لتحقيق ذلك، نذكر علي ابن عبد الله بن حمود المكناسي، وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن ابن حداد.

نفس الشيء يقال عن علماء آخرين شاركوا في معارك صليبية أخرى مثل معركة البورت سنة ٥٠٨هـ واستشهدوا فيها، ونذكر في هذا

الصدد يحيى بن محمد الأموي، وأحمد بن ثابت بن عبد الله العوفي، بينما تحتفظ المصادر بأسماء العديد من العلماء الذين استشهدوا في معركة قنتدة سنة ٥١٤هـ لمنع زحف القوي الصليبية، وفي طليعتهم أبو علي بن الحسن الصدفي السرقسطي الذي كان يشار إليه بالبنان لسمو منزلته في العلم، وعلو كعبه في المسائل الدينية، وكذلك عبد الرحمن بن فتح اللخمي، ومحمد بن يحيى بن عبد الله بن زكريا، وبالمثل لم يتقاعس علماء آخرون عن الذب عن هويتهم الإسلامية حينما كانت حركة الاسترداد في أوجها إبان مرحلة ضعف المرابطين، وفي هذا الصدد يخبرنا الذهبي أن الفقيه العلامة الرشاطي (استشهد عند دخول العدو ألمرية) وذلك في جمادي الآخرة من سنة ٥٤٢هـ. كما يورد ابن الأبار في ترجمة الفقيه جعفر بن محمد بن يوسف أنه استشهد بشنتمرية سنة ٥٤٦هـ دفاعاً عن العروبة والإسلام ضد القوي الصليبية، وأذا كانت الاستشهادات الآخيرة تتعلق بالقرن السادس الهجري، فإنها تمثل رافداً واستمراراً لروح الجهاد لدى علماء القرن الخامس.

وثمة سيل من أسماء العلماء الذين حملوا رسالة الجهاد لكسر شوكة القوي الصليبية والتصدي لها بجرأة وحزم، وقد اقتصرنا على النماذج الأنفة كأدلة على الدور الطلائعي الذي اضطلعوا به للدفاع عن دولة الإسلام بالأندلس.

خلاصة القول أن العلماء الأندلسيين لعبوا خلال القرن الخامس الهجري أدواراً متنوعة في التصدي للأطماع الصليبية التي حاقت بالأندلس انطلاقاً من الوعظ والحظ علي تحقيق الوحدة الإسلامية، مروراً بترشيد أمراء الطوائف ومعارضة سياستهم سراً أو علناً إلى المشاركة في الجهاد والاستشهاد، وقد أسفر هذا الدور عن قطع دابر القوي الصليبية ورفع التحدي عن المنطقة بمساعدة المرابطين، كما أسهم في رفع معنويات المسلمين قاطبة بعد معركة الزلاقة التي كانت أول نصر كسر شوكة الصليبيين ومهد للمعارك المظفرة ضد الصليبيين في المشرق العربي خلال المراحل اللاحقة.

حدود مصر الشرقية*

رأفت عبد الحميد

مصر

لم تسعد مصر بحد من حدودها .. كما سعدت بحدها الشرقي!
ولم تشق مصر كذلك بحد من حدودها .. كما سعدت بحدها الشرقي!
حادثات الزمان تقول ذلك
ووقائع الدهور تحكيه
ولا يكذب التاريخ ولا يتجمل حين يدون أن بشائر السعادة، وإن كانت قليلة،
إلا أنها كانت قرينة العمر الطويل، والأثر الباقي.. والمعني والمغزى في الفكر
والحضارة والشخصية.
ولا يكذب التاريخ ولا يتجمل حين يسجل بكل الحسرات أن مسببات الشقاء
كانت كثيرة، ولكنها لم تلبث إلا قليلاً.. مهما طال.. وجارت مكثت غير بعيد.. ثم
دالت.. وتلك عقبي التعدي.
هناك.. عند الحد الشرقي.. يفتخر الثغر المصري عن ابتسامة.. فيحترم القلب
أوردته والشرابين.. ويتراقص من حب وحبور.. وهناك أيضاً.. تتكأ الجراح. فينقبض
الصدر.. وتختفي الابتسامة.. وتتولى إلي الظل حياة.. لتولد من جديد.
سعدت يوم قدم إليها أبو الأنبياء إبراهيم.. موحياً بمقدمه أن مصر واحة الدين
وإن تعددت أسماؤه..
ويوم أصهر إلي أهلها بزواجه من هاجر المصرية.. لتغدو هذه أم العرب من
أسباط بني إسماعيل.
سعدت يوم فتحت بالحب أحضانها، وبالأمن والأمان ذراعيها.. لتستقبل
الغزراء ورضيعها المسيح، وتمسي الملجأ والملاذ للعائلة المقدسة، من مكر بني يهود،
وبطش بني الأصفر!

* ألفت هذه الكلمة في ندوة أقامها المجلس الأعلى للثقافة في شهر مايو ٢٠٠٢، وكان سيادته مقرر لها.

وسجل ربنا ذلك في قرأه الكريم بقوله سبحانه وتعالى: (وجعلنا ابن مريم وأمه آية، وآتيناهما إلی ربوة ذات قرار ومعین) وكانت مصر هي الربوة.. وكانت المعین.

ووجدت المسيحية في مصر أرضاً خصبة، نمت فيها وأورقت، ومكنت الكنيسة السكندرية لنفسها فيها، حتى جاءت كنائس الرسل الأخرى تسعى.. تقف علي بابها، وتخطب ودها.. وتسألها الرأي الفصل في شأن المسيح ومكانته، وأبعاد اللاهوت والناسوت في طبيعته.

وإلي صحاء رواتها علي ضفتي النهر الخالد، سري المريدون من كل أنحاء العالم، ليجلسوا مجلس التلميذ أمام رهبانها، يحتذون بهم، وينقلون عنهم، حتى غدت الرهبانية المصرية لدنيا المسيحية، أسلوب عبادة، وأنموذج حياة.

وسعدت مصر يوم أصهرت بمارية المصرية إلی محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام.. فجمعت بذلك ليس بين الحسينين. بل الحسن كله.. وكيف لا وقد أصهرت من قبل إلی أبي الأنبياء إبراهيم.. والآن إلی خاتم الأنبياء محمد؟ وسعدت يوم حمل جند الإسلام رسالة السلام إلی أهلها، وبين أيديهم سماحة، وفي قلوبهم من الرسول وصيتان.

- أن يستوصوا بأهلها خيراً.. فإن فيهم صهراً.. ولهم ذمة..
- وأن يتخذوا من أهلها جنداً كثيفاً.. فإنهم خير أجناد الأرض.. ولأنهم في رباط إلی يوم الدين.

سعدت مصر يوم احتضنت الإسلام وتدفرت به.. واحتضنها الإسلام واحتمي بها.. وعاش المسلمون والمسيحيون فيها يعزفون نغمة المحبة علي قيثارة السلام. يترنمون بالإنجيل.. ويرتلون القرآن. وتتعانق مآذن المساجد وأبراج الكنائس في لوحة رائعة للتسامح، بريشة راقية للحب.

سعدت مصر يوم أضحت قبلة الدارسين، وكعبر حجيج المعرفة الإنسانية، الذين وفدوا من كل أنحاء العالم الإسلامي، لينهلوا من فيض علم أزهرها الشريف،

وليتفقهوا في الدين، علي يد علماء سمت نفوسهم، وترقت طباعهم، ورقت أخلاقهم، فكانوا بحق أنموذجاً يحتذى، وقدوة.. بها.. يقتدي.

وسعدت مصر بحدوها الشرقي يوم خرجت جيوشها، خير أجناد الأرض، ترد عادية المعتدين الذين جاءوا يتسترون برداء الصليب.. والصليب والمسيح منهم براء، ورددت حطين والمنصورة.. أنا نحن جند التصر، أبطال الدفاع، يوم يدعونا لداع الحرب داع.

وتدفع بغى جحافل المغول، الذين ساحوا في الأرض وعاشوا، وأكثروا فيها الفساد.. فصب عليهم ربك سوط عذاب، حين أجبرهم جيش مصر أن يضعوا في قاموسهم العسكري لأول مرة، لفظة الهزيمة، ولم يكونوا قبل "جالوت" قد عرفوها.. الآن لحقت بهم.. فعقلوها.. وحمت مصر الإسلام وحضارته من شر مستطير.. تلکموا سادتي هي سعادة مصر بحدوها الشرقي.. وفي الجعبة كثير، ولكنها به شقيت..

شقيت به يوم انتهكت جحافل الهكسوس، وجيوش الفرس، فيالق الصليبيين، وقبائل المغول.. والكل في مصر طامع، ولخيرها ناظر.. لموقعها في حلقة غصة، ولجندها في جنبه شوكة.

هاكم هو لاكو يقول في رسالته إلي سلطان مصر المملوكي قطز "قلوبنا كالجبال.. وعددنا كالرمال.. نحن لا نرحم من شكاء، ولا نرق لمن بكى، عليكم بالهرب.. وعلينا الطلب، فلم يبق لنا مقصد سواكم".
والجملة الأخيرة تغني عن أي تعليق.

وكم قبل قالها عموري ملك بيت المقدس.. وصدق عليه خلفه غير المباشر جان دي بريين.. حين قالاً بنبرة واحدة.. وعبارات مختلفة، إن الطريق إلي القدس يبدأ من القاهرة، وإن مصر هي رأس الأفعى.. من حطمها دان به الشرق.. وكأني بالصالح نجم الدين أيوب.. يقول لهم موتوا بغيطكم.. فلم تتاولا منها رطباً ولا يابس.. وهو يعظ أبنه توران شاه في وصيته..

".. يا بني .. احرص علي ألا يكون للفرنج بالديار المصرية قعر قصبة، فإن كانت بيداك مصر.. كان بيدك الشرق كله، وإن هي.. لا قدر الله ضاعت.. ضاع الشرق كله!".

وكانني بشاعر النيل.. حافظ إبراهيم يصدق علي ذلك كله بقوله علي لسان مصر
أنا تاج العلاء في مفرق الشرق ودراته فرائد عقدي
أنا إن قدر الإله مماتي.. لا تري الشرق يرفع الرأس بعدي
وشقيت مصر بحدتها الشرقي يوم دبر المؤتمرون بليل من بني يهود، ومن
ورائهم قوي الاستعمار الغربي في النصف الأول من القرن العشرين، زرع جسم
غريب علي حد مصر الشرقي، بغية عزلها عن أشقائها العرب، وبغية شغلها دوماً عن
التطلع إلي بلوغ آفاق التنمية البشرية والاقتصادية، وإهدار طاقاتها المبدعة والخلقة
في نزيف عسكري متقطع ودائم.
ولكن.. أعود إلي صدر حديثي..
كم هي بقصيدة وإن كثرت ساعات الشقاء وحادثاته.
وكم هي معمرة علامات السعادة ووقائعها..
ونحن هنا في ندوتنا هذه.. حول حد مصر الشرقي..
تروا.. ماذا نحن فاعلون؟"

ماهية البرلمان الإنجليزي فى القرن الثالث عشر وحتى نهاية حكم الملك إدوارد الأول

عام ١٣٠٧ م

زينب عبد المجيد

مصر

يقول مؤرخ إنجليزى معاصر نقلاً عن حولية أنجلوسكسونية : " كان وليم الفاتح غداة الفتح النورمانى لإنجلترا عام ١٠٦٦ ، يحتفل بتتويجه وارتداء التاج ثلاث مرات فى العام ، الأولى فى عيد القيامة فى مدينة وينشستر Winchester ، والثانية فى أسبوع العنصرة فى ويستمنستر Werstminster ، والثالثة فى عيد الميلاد فى مدينة جوسيسستر Cloucester . وذلك فى حضور رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، رؤساء الأديرة ، الأيرلات ، البارونات والفرسان ^(١) وتعد احتفالات التتويج هذه من الأحداث الاجتماعية الكبرى ، عندما يأتى البارونات للمثول أمام الملك لتقديم فروض الطاعة والولاء باعتباره السيد الإقطاعى الأعلى . وفى هذا الاحتفال المهيّب يتم وضع التاج على مفرق رأس الملك . وفى نهايته يجتمع الملك وكبار رجاله لمناقشة الأوضاع العامة للمملكة ^(٢) .

وعرف هذا الاجتماع الذى يعقد فى نهاية الاحتفال من جانب المعاصرين آنذاك باسم المجلس الكبير للملك Magnum Concilium or great council . والذى لم يختلف كثيراً فى تكوينه عن الواتان Witenagemot أى مجلس الرجال الحكماء أثناء حقبة الملكية الأنجلو سكسونية (٤٥٠ - ١٠٦٦ م) . بل أحياناً ما عرف

(1) Stubbs, *The Constitutional History of England* (Oxford, 1873) vol. I, p.145; Willson, *A Hist. of England* (2 nd. London, 1972), p.58; Iloyd, *The Norman Conquest* (London, 1967), p.110 ;

سعداوى ، تاريخ إنجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى (دار النهضة العربية ، ١٩٦٨ م)

(2) Willson, Op.Cit., p.58 .

المجلس الكبير باسم الواتان من جانب المعاصرين للملكية النورمانية . بيد أن هناك فروقاً جوهرية بين المجلسين ، إذ يعد الواتان مجرد اجتماع حر للرجال الحكماء من أرباب المشورة والرأى، وتتضح اختصاصات الواتان فى نواحى متعددة أبرزها منح الأراضى والعمل كساحة للقضاء.^(١) وفى هذا الصدد يقول المؤرخ الإنجليزى William Stubbs " إن كل من الملك الأنجلوسكسونى والواتان كانا يتمتعان بالصلاحية القضائية العليا على جميع الأفراد وفى جميع القضايا " .^(٢) وفى مجال السياسة المالية لا سيما ما يتعلق منها بالضرائب . نجد أن فرص الضرائب الطارئة يتم بناءً على أمر الملك ومشورة الواتان .^(٣) كما يشترك مع الملك فى التشريع ، فلا يصدر الملك القوانين إلا بموافقته ، علاوة على صلاحياته فى تعيين رؤساء المقاطعات والأساقفة ، ومنح الأراضى العامة ، وإعلان حالتى السلم والحرب . كما نرى مشاركة الواتان فى الأمور السياسية العامة مثل الجيش والأسطول ، ويكون الملك والمجلس

(1) Stubbs, Op.Cit., pp.154, 155; Green, *A short History of the English People*, vol. I (London, 1960) P.162 .

(2) Stubbs, Op.Cit., p.155 .

(٣) عن صلاحية الواتان فى فرض الضرائب يذكر المؤرخ الإنجليزى William Stubbs نقلاً عن حولية أنجلو سكسونية أن من أهم الضرائب غير العادية التى فرضت بناءً على أمر الملك الأنجلو سكسونى ومشورة الواتان ، تلك التى فرضت سواء بهدف تمويل الحرب ضد الداينين أو لكسب ودهم وشراء مهادنتهم ، كما حدث عام ٩٩١م فى عهد الملك أيثلريد الثانى Ethelred II (٩٨٧-١٠١٦م) وعرفت هذه الضريبة باسم الدانجلد Danegeld ، كوسيلة لتمويل الجزية التى ينبغى دفعها للغزاة الدانمركيين . وكانت قيمتها شلنين ، ولكنها أحياناً كانت تصل إلى أربع شلنات وأكثر. وعلى الرغم من أن هذه الجزية كانت تدفع منذ عام ٩٩١م . فإن مصطلح الدانجلد لم يعرف إلا بعد الغزو النورمانى . وتكررت هذه الضرائب على مدى سنى ١٠٠٢ ، ١٠٠٧ ، ١٠١١م وقد استمر الملوك الأنجلو نورمان فى فرض هذه الضريبة لاسيما وليم الفاتح وهنرى الثانى حتى سنة ١١٦٢م لأغراض حربية خاصة ، أو لمواجهة النفقات الإضافية . لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر :

Stubbs, Op.Cit., pp.155, 156 ;

كانتور ، التاريخ الوسيط (ت قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الخامسة ١٩٩٧) جـ ٢ ، ص ٣٨٨ ، حاشية رقم (٢) .

محكمة عليا للقضايا الجنائية والمدنية . مما يعنى أن مجلس الحكماء كانت له اختصاصات تشريعية وتنفيذية وقضائية . (١)

بيد أن المهمة الرئيسية للواتان انحصرت فى انتخاب الملك من بين أفراد العائلة الملكية وفقاً للنظام السياسى والنظرية السياسية للجرمان . (٢) ويتمتع أيضاً بسلطة عزل الملوك ، وإسداء النصيح للملك فى المشاكل الرئيسية للمملكة . ويتألف الواتان من رؤساء الأساقفة ، رؤساء الأديرة الكبرى ، حكام المقاطعات ، النبلاء ، والقساوسة . وتعقد اجتماعاته فى حضور الملك الذى يكون أحياناً برفقة زوجته وأبنائه ، وأصدقائه ، ومستشاريه ، وكبار رجال الحاشية الملكية . (٣)

فى حين كان المجلس الكبير بمثابة اجتماع للأفصال الإقطاعيين ، بما يتفق والأيدولوجية السياسية التى أرسى دعائمها وليم الفاتح غداة الفتح النورمانى عام ١٠٦٦ ، باعتباره ملك وسيد إقطاعى أعلى ، أى الجمع بين الملكية المطلقة التى تتمتع بها أسلافه من الملوك الأنجلوسكسون فى ضوء القانون الأنجلوسكسونى الذى يعتبر الملك راعياً للرب ويستمد سلطته من الرب ، وبين هيمنة السيد الإقطاعى الأعلى . وقد اقلح وليم فى ذلك بعد أن استطاع أن يتغلب على نقائص النظام الإقطاعى ، بأن جعل من نفسه السيد الإقطاعى الأعلى والمباشر لكل فصل داخل المملكة . فقد أراد للنظام الإقطاعى فى المملكة أن يكون إقطاعياً ملكياً . (٤)

(1) Stubbs, Op.Cit., pp.156 , 157 ;

سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(2) Willson, Op.Cit., p.58 ; Green, Op.Cit., vol.I, P.162 ;

ولمزيد من التفاصيل عن النظام السياسى الجرمانى انظر :

كانتوز ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(3) Stubbs, Op.Cit; p.146 ;

زينب عبد المجيد ، الإنجليز والحروب الصليبية (عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، ص ٢٨ ، حاشية رقم (١) .

(4)Stubbs, Op.Cit., p.404; Willson, Op.Cit., p.58; Illyn, Op.Cit., p.127;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

وقد جاء المجلس الكبير انعكاساً لهذه السياسة الملكية ، إذ باعتباره المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك ، حينئذ يكون من واجب السيد الإقطاعى الأعلى أى الملك دعوة كبار مستأجرى أرض التاج أى هؤلاء الذين يحوزون ضياعاً إقطاعية من الملك مباشرة لحضور مجلسه . لتكون الحيازة الإقطاعية شرط أساسى لحضور هذا المجلس. (١)

ومن الجدير بالذكر أن وليم الفاتح من منطلق خبرته السابقة كدوق لنورماندى وفصل إقطاعى للملك الفرنسى حاول استخدام النظام الإقطاعى بطريقة خاصة تزيد من سلطة الحكومة المركزية. فلم يسمح لطبقة كبار مستأجرى الأرض Tenants in Chief بالوصول إلى وضع الاستقلال الذى تمتع به قبل عام ١٠٦٦ فى علاقته تجاه ملك فرنسا. فقد قسم جميع أراضى المملكة بالإضافة إلى الضياع الملكية على البارونات الخاضعين مباشرة للتاج . وهؤلاء بدورهم اقتسموا جانباً كبيراً من أراضهم مع فرسان وإفصال آخرين يؤدون نفس الحقوق والواجبات الإقطاعية التى يدينون بها للملك سواء فى السلم أو الحرب . وتضمنت المملكة بذلك ما يقرب من سبعمائة من طبقة كبار مستأجرى الأرض ، وستين ألفاً ومائتين وخمسة عشر من الفرسان الإقطاعيين . بيد أنه فى ضوء هذا العدد الهائل اقتصر الحضور فى المجلس الكبير على نخبة من هؤلاء الذين يحوزون فقط ضياعاً إقطاعية من الملك مباشرة. (٢) ولا

(١) يذكر المؤرخ وليم سبتس فى حديثه عن المجلس الكبير باعتباره المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك فى بداية التاريخ الباكر للملكية الأنجلو نورمانية أنه فى العام الأخير من حكم الفاتح عام ١٠٨٧ دعى جميع ملاك الأراضى العظام لاجتماع عقد فى سالزبورى ، حيث أدى كل واحد منهم قسم الولاء والطاعة الإقطاعى ضد جميع الرجال الآخرين . لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر : Stubbs, Op.Cit., Vol.I, p.405 ; Hall and A Lbion, *A Hist. of England and the British Empire* (London, 1946), p.66 ; Stenton, *English Society in the Early Ages (1066-1307)* Penguin Books, 1959, p.61 ;

سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(2) Stubbs, lo. Cit., Vol.I, pp.403 , 404 ; Adams, *The political History of England 1066-1266* (New York and Bombay, 1905) p.15 ; Hume, *The Hist. of England from the invasion of Julius Gaesar to the revolution of 1688* (London, 1836) p.49 .

مرء فى أن وليم الفاتح من منطلق سلطته السياسية احتفظ بحقه فى دعوة أى شخص
كسيفما شاء . ومن ثم فقد تضمن هذا المجلس رجال الحاشية الملكية ، وبارونات الذين
يحوزون ضياعاً إقطاعية فى نورماندى ، وأيضاً الضيوف والمبعوثون الأجانب وكبار
رجال الكنيسة . (1)

وباعتبار المجلس الكبير المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك ، تبدو الوظيفة
الرئيسية لهذا المجلس جلية فى العمل كمحكمة إقطاعية ، على سبيل المثال أنه فى عام
١٠٧٥ لا أتهم أحد البارونات بإثارة التمرد ، وبمقتضى القانون الإقطاعى تم إدانته من
قبل المجلس بالسجن مدى الحياة . أيضاً حدث عام ١٠٩٦ أن أتهم أحد البارونات فى
المجلس باروناً آخر بالمشاركة فى تمرد . وأسفر ذلك عن محاكمة على الطريقة
الجرمانية ، بأن يتقاتل المدعى والمدعى عليه فى نزال مميت أمام المجلس ، ويعلن
المنتصر فى النهاية أنه قد حقق انتصاره بسبب عدالة دعواه ، وإدانة البارون المتهم
والمهزوم بسمل عينيه وخصبىة بناءً على أمر وحكم الملك . (٢)

وبعيداً عن العمل القضائى تبدو وظيفة ومهام المجلس الكبير فى هذه الحقبة
من التاريخ الباكر للملكية الأنجلو نورمانية ، مبهمة وغير واضحة ، ونستقى معلوماتنا
فى هذا الصدد من المؤرخ الإنجليزى المعاصر ويلسون Willson بقوله : " فقد
اقتصرت مهام المجلس الكبير فى التصديق على القوانين التى يتخذها الملك ،
والموافقة على الكثير من أعماله ، وإسداء النصيح للملك فى القضايا التى يختارها
مقديماً للعرض أمام المجلس ، وأحياناً ما يتجه الملك للمجلس طلباً للعون والتأييد فى
علاقاته مع القوى الخارجية ومشاكله الداخلية . ولما تكون هناك معارضة من قبل
المجلس لرغبات الملك ، إذ كان الملك يعمل دوماً بدون مشورة المجلس ، وفى ضوء
النظام السياسى الذى أرسى دعائمه وليم الفاتح يجب إلا نتوقع ثمة قيود على سلطته
الملكية . " (٣) وهى سلطة كانت تحول دون تحقيق أية سلطات أخرى منافسة ، فقد كان
السيد الإقطاعى ، والأسقف والفارس ، والمزارع مشدودين إلى الارتباط بالسلطة

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٣٢

(1) Willson, Op.Cit.. p 58

(2) Loc. Cit

(3) Loc Cit

وعن صلاحيات المجلس الكبير باعتباره المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك يعلق المؤرخ الإنجليزى ريتشارد جرين Richard Green بقوله "أن سلطة هذا المجلس قد قيدت بالموافقة بدون مناقشة أو حتى إمكانية الرفض على كل ما هو مطلوب منه من قبل التاج ، لأن مبدأ التشاور و الموافقة يعد أمرا ضروريا لإضفاء الشرعية القانونية على كل إجراء مالى أو سياسى كبير . " (٢)

وفى رأى الباحث أن المؤرخ قد أصاب كبد الحقيقة لا سيما وأنه يتحدث عن صلاحية المجلس فى الفترة الباكورة من تاريخ الملكية الأنجلو نورمانية . وتجدر الإشارة أن اجتماع المجلس الكبير لم يكن سوى جلسة طارئة فقط ، وكان العمل اليومى للحكومة الملكية ينفذ من خلال الملك بمساعدة رجال الحاشية الملكية وكبار البارونات وموظفى البلاط والذين يشكلون ما اصطلح على تسميته باسم المجلس الملكى Guria Regis أو المجلس الصغير للملك . وعندما يجتمع المجلس الكبير يكون مقترنا بالمجلس الصغير أى المجلس الملكى باعتباره قلب وجوهر المجلس الكبير . وفى حين تترك القضايا ذات الأهمية الكبرى للعرض على المجلس الكبير للتشاور والموافقة . كان أعضاء المجلس الصغير يتمتعون بأحقية التشاور المباشر مع الملك ، والتصديق على القوانين وتنفيذها . والعمل كمحكمة ، حيث يعتبر المجلس الملكى المحكمة العليا فى المملكة التى تتمتع بسلطة التنفيذ . (٣)

(١) كانتور ، التاريخ الوسيط ، جـ ٢ ، ص ٤٥٣ .

(٢) Green, Op.Cit., p.158 .

(٣) ينفرد المؤرخ الإنجليزى William stubbs بالحديث عن المثال الدال على الصلاحية القضائية للمجلس الملكى من خلال قوله عن المحكمة التى عقدت للحكم على وليم أسقف درهام Durham غداة اتهامه بالتواطؤ فى التمرد البارونى عام ١٠٨٨ م ، واتهامه بالخيانة والحنث بقسم الولاء والطاعة الإقطاعى . ونتيجة لذلك قام موظفى الملك بانتزاع ضياعة الإقطاعية . وقد طالب بالتعويض عن هذا الضرر مهدداً بالاستئناف بعرض قضيته أمام البابا فى روما . واسفرت المحاكمة التى عقدت فى سالزبورى فى حضور جميع الأساقفة والبارونات والايالات و مندوبى

فى ضوء ما سبق نقول أنه إذا كان مجلس الرجال الحكماء أى الواتان جيموت بمثابة المجلس القومى للأمة The National Council أثناء الحقبة الأنجلو سكسونية ، فإن هذا المجلس القومى أصبح هو المجلس الاستشارى الإقطاعى للملك فى عهد الملوك النورمان . ومن الجدير بالذكر أيضا أن الواتان جيموت لم يكن مجلساً أو اجتماعاً كبيراً ، إذ لا يتجاوز عدد الحضور من الأساقفة عن سبعة عشر أسقفاً ، وعدد غير ثابت من الأيرلات لا يزيد أبداً عن عشرين وعدد من الأفضال يتزايد تدريجياً حسب قوة التاج . (١)

ولامراء فى أن أصل البرلمان الإنجليزى قد وجد فى المجلس الكبير للملك ، والذى يتكون من طبقة كبار مستأجرى أرض التاج Tenants in chief ، رؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، البارونات . ويعتبر الحضور جزء من واجبهم الإقطاعى . وقد أسلفنا القول أن المملكة تضمنت غداة الفتح النورمانى عام ١٠٦٦م ما يقرب من سبعمائة من طبقة كبار مستأجرى الأرض أى هؤلاء الذين يحوزون ضياعاً إقطاعية من الملك مباشرة . وحوالى ستين ألفاً ومائتين وخمسة عشر من الفرسان الإقطاعيين . مما يعنى أن المجلس لم يضم بالطبع كل تلك الجموع الهائلة لجميع المستأجرين سواء الكبار أو الصغار ، ليقصر الحضور فى هذا المجلس على هؤلاء الذين يتمتعون بدرجة عالية من الثراء والقوة سواء من العلمانيين أو رجال الدين ، والذين تراوح عددهم فى المجلس بين خمسين إلى خمسة وسبعين فقط . (٢)

الملك ، ولانفرانس رئيس أساقفة كانتربرى عن انتزاع إقطاعه باعتباره فصل إقطاعى للملك ، وقضاء ثلاث سنوات فى المنفى . ولعل هذا المحاكمة تمدنا ببرهان قاطع ومقنع حول حقيقة عمل هذا المجلس باعتباره محكمة إقطاعية . لمزيد من التفاصيل عن المجلس الملكى أنظر :

Stubbs, Op.Cit., Vol. I, pp.498 , 499 .

(1) William stubbs, *Select Charters and other illustrations of English : from the Earliest times to the Reign of Edward the first* (Oxford, Ninth edition, 1913) pp.11, 17 ; *The Constitutional History of England*, Vol.I, p.403 .

(2) Green, Op.Cit., p.158 ; Willson, Op.Cit., p.147 .

وبدء من منتصف القرن الثالث عشر بدأت اجتماعات المجلس الكبير تعرف بأسم البرلمانات . سواء من جانب المصادر المعاصرة لهذه الحقبة الزمنية من تاريخ إنجلترا فى العصور الوسطى أو من جانب المؤرخين المحدثين فى القرنين التاسع عشر والعشرين . ويمكن تبرير ذلك فى أن اجتماعات المجلس الكبير بدء من القرن الثالث عشر شهدت بالفعل حضور عناصر جديدة لم يشهدها من قبل . حيث بدأ الملك فى دعوة ممثلين عن الطبقة المتوسطة سواء فى الريف أو المدن لحضور اجتماع هذا المجلس . بيد أن هذه الممارسة جاءت بطيئة وعلى فترات متقطعة ، ولم يكن متوقعا حدوث ذلك سريعا ، لأن الملك لم يفعل أكثر من العمل الذى يراه ملائما^(١).

ويجدر بنا فى هذا السياق الإشارة إلى المعنى اللغوى لكلمة برلمان ، نجد أنها مشتقة من الكلمة الفرنسية Parler ، والتي تعنى الكلام والمناقشة وتبادل الآراء . مما يعنى أن كلمة برلمان فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم تعنى أكثر من مجرد اجتماع للمجلس الكبير بهدف التشاور والمناقشة بصدد القضايا العامة للمملكة ، والتي يختارها الملك مقدما للعرض أمام المجلس .^(٢) وفى ضوء المفاهيم السياسية التي جاءت انعكاسا للفكر السياسى الملكى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ليس ثمة غرابة أن نجد مصطلح برلمان وقد شاع استخدامه ، فقد راح مؤرخى هذه الحقبة جنبا إلى جنب مع المؤرخين المحدثين ينعثون كل اجتماع للمجلس الكبير شهد حضور ممثلين عن الطبقة المتوسطة اسم البرلمان . حتى اجتماعات المعارضة البارونية وصفت أيضا بالبرلمانات . بيد أن هناك نفر من المؤرخين المحدثين مثل Stubbs ، ولونت Lunt ، وسميث Smith ، وتوت Tout ، وغيرهم كانوا أكثر دقة ، فقد أطلقوا على اجتماعات المجلس الكبير التي شهدت حضور ممثلى الطبقة المتوسطة اسم

(1) Vickers, *England in the later Middle Ages* (London, 1926) p.145 ; Dietz, *A political and social History of England*, (Third Edition, New York, 1937) p.81 ; Willson, Op.Cit., p.148 .

(2) Stubbs, *The Constitutional Hist, of England*, Vol.II, pp.215, 216, lunt, *History of England* (London , 1928) pp.216 , 217 , Smith, *A History of England* (New York, 1966) p.138 .

البرلمانات النيابية Representative Parliaments ، وأطلقوا على ممثلى الطبقة المتوسطة فى هذه الاجتماعات اسم Representative elements ⁽¹⁾. واتفق مع وجهة النظر هذه .

ويقول المؤرخ المعاصر جولدين سميث Goldwin Smith : " مما لاشك فيه أن سجلات وقوانين البرلمان والتي تعد من أهم مصادر التاريخ الدستورى الإنجليزى ، إنما تميط اللثام عن الكثير من التطورات المهمة ، ذلك أن البرلمان فى القرن الثالث عشر ما زال فى نواح كثيرة لم تتضح معالم تكوينه بعد . وظل كذلك حتى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الذى شهد بداية ملامح الشكل القانونى للبرلمان بمعناه الحديث بظهور مجلسى العموم واللوردات . وبالرغم من حضور ممثلى الطبقة المتوسطة من فرسان المقاطعة وبرجوازية المدن ، فقد ظل البرلمان طيلة هذه الفترة بمثابة اجتماع خاص للملك وهؤلاء الذين يتم دعوتهم من الملك مباشرة للتشاور معه من النبلاء العلمانيين والكنسيين ، وبعض مستشارى الملك الدائمين ، ورجال الحاشية الملكية . ولم تكن التغيرات التى طرأت على تنظيم ووظائف البرلمان فى القرن الرابع عشر تبدو فى أعين المعاصرين تغيرات كبرى أو مهمة ، إذ ما زال البرلمان من وجهة نظر هؤلاء مجرد اجتماع للمجلس الكبير للملك ، وما زالت العناصر الرئيسية الممثلة فيه قاصرة فقط على كبار النبلاء من العلمانيين والكنسيين ، وهؤلاء فقط هم الذين يحق لهم سماع الدعاوى القانونية وتقديم الحلول اللازمة لها . وأن جوهر ومحور البرلمانات التى عقدت فى العصور الوسطى كان الملك وأعضاء مجلسه الصغير أى المجلس الملكى ، وأن البرلمان الذى هو المجلس الكبير كان دائما بمثابة محكمة أعدت جيداً للعمل القضائى ، باعتباره المحكمة العليا فى المملكة . " ⁽²⁾

(1) Stubbs, *The constitutional Hist, of England*, Vol. II, pp.215, 216; Lunt, op.Cit, pp.216, 217 ; Smith, op.Cit, p.138.

(2) Smith, Op.Cit., P.139 ; A Shley, *Great Britain to 1688* (Michigan, 1961) p.118, Willson, Op.Cit., p.148 .

وفى ضوء هذا النص فإن الباحث يتفق مع المؤرخ سميث وغيره من المؤرخين المحدثين بأن البرلمان الإنجليزى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم يخرج عن كونه المجلس الكبير للملك ، كما سنرى فيما بعد

ويجدر بنا قبل الحديث عن التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة فى البرلمان أى المجلس الكبير أن نستعرض الجذور التاريخية لفكرة التمثيل النيابى لهذه الطبقة ، وأين وجدت ؟

للإجابة على ذلك ينبغى أولاً التعرف على ماهية البناء الاجتماعى لهذه الطبقة، نقول فى ضوء الدراسات التاريخية أنها تنقسم إلى قسمين هما الطبقة المتوسطة فى الريف ، والطبقة المتوسطة فى المدن ، فيما يتعلق بالأولى فقد وجد فى المناطق الريفية - كنتيجة طبيعية للنظام الإقطاعى الذى أرسى دعائمه وليم الفاتح - الكثيرون من الرجال الأحرار الذين لا يتمتعون بأحقية حضور المجلس الكبير للملك لأنهم ليسوا من طبقة كبار مستأجرى أرض التاج . وهناك أيضا ملاك الأراضى الأحرار Freeholders الذين حازوا من خلال آخرين على حيازة إقطاعية ، علاوة على فئة صغار المستأجرين mesne tenants . ولم يكن هؤلاء مرغمين على حضور المجلس الكبير باعتباره جزء من واجبهم الإقطاعى . ومن جهة أخرى فقد اعتبرت طبقة كبار المستأجرين tensnts - in - chief حضور المجلس الكبير عبء ثقيل طالما حاولوا التوصل منه قدر استطاعتهم . بيد أنه فى القرن الثالث عشر انفراد هؤلاء فقط بالدعوة من جانب الملك كل بمفرده لحضور المجلس الكبير⁽¹⁾، فى حين بقيت طبقة صغار المستأجرين عادة بمنأى عن ذلك . ولا مرأى أن هذه العناصر الثلاثة التى تتكون منها الطبقة المتوسطة فى الريف ألا وهى ملاك الأراضى الأحرار غير الإقطاعيين The non - Feudal Freeholders ، المستأجرين الإقطاعيين The menses tenant ، صغار مستأجرى أرض التاج The lesser tenants - in chief - ، يمثلون جميعا درجات عالية من الثراء والمكانة الاجتماعية . وارتقوا السلم

(1) Lunt, Op.Cit., p.213 ; Stubbs, *The Constitutional History of England*, vol.II, p.249 ; Select Charters, p.41 ; Green, Op. Cit., p.164 .

الاجتماعى من مجرد مالك متواضع لمبنى فى ضيعة إقطاعية إلى فارس المقاطعة. والذى يجب أن يقارن من حيث الثراء والمكانة الاجتماعية بأحد البارونات . وعندما أصبح شائعاً فى القرن الثالث عشر تطبيق مبدأ حق الابن الأكبر فقط فى وراثة الحياة الإقطاعية ، معنى ذلك أن الأبناء الصغار للبارونات أنفسهم أصبحوا ضمن أفراد الطبقة المتوسطة . وبالرغم من الفروق الاجتماعية الهائلة لأبناء هذه الطبقة . فقد كان للجميع مصالح مشتركة باعتبارهم ملاك أراضى .^(١)

وفى ضوء هذا الحراك الاجتماعى الطبقة الفرسان بعناصرها الثلاثة المتباينة، أصبح أبناء هذه الطبقة بدء من القرن الثالث عشر أقل ولعاً بالحرب والقتال وأكثر اهتماماً بإدارة ضياعهم ، وكانوا من الكثرة التى جعلت التاج يعول عليهم دائماً فى عمل الحكومة المحلية ، مثل حكام المقاطعات والموظفين القضائيين ، وتجسدت مهمتهم فى تقديم المعلومات اللازمة للمندوبين الملكيين ممن يتم إرسالهم للاستقصاء والتحرى فى المقاطعات .^(٢) وفى هذا الصدد يقول المؤرخ الأمريكى المعاصر نورمان كانتور : أن الشريف ، أى حاكم المقاطعة ، كان من حيث إمكانياته الخاصة مجرد واحد من ملاك الأراضى المتوسطين ، ومع ذلك فقد تمتع بنفوذ هائل وسلطة ضخمة بسبب وضعه كممثل لحكومة ملكية على درجة كبيرة من القوة والفاعلية ، وهى حكومة لم تكن تطبق أى تمرد من جانب أكبر السادة الإقطاعيين المحليين فى البلاد ، وكان الشريف يرأس محكمة المقاطعة ، كما كان هو المندوب المحلى للخزانة الملكية.^(٣)

بيد أن الأهم من ذلك أن أبناء الطبقة المتوسطة فى الريف من فرسان المقاطعة وكبار ملاك الأراضى أصبحوا جميعاً ممثلين فى إدارة الحكومة المحلية من

(1) Lunt, Op.Cit., p.213, Green, Op.Cit., p.164 ; Willson, Op.Cit., pp.148 , 149 .

(2) Lunt, Op.Cit., p.213, Green, Op.Cit., p.164 ; Willson, Op.Cit., pp.148, 149

(٣) كانتور ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٥ ولمزيد من التفاصيل عن منصب حاكم المقاطعة انظر : Stubbs, Op.Cit., vol.I, pp.225 - 235 .

خلال اجتماع محكمة المقاطعة Shire court ، حيث يعلن حاكم المقاطعة مراسيم الملك بصدد المساعدات والمنح المالية الخاصة بالتاج ، وتلقى أسماء المتهمين ، وتحريات المحلفين المحليين⁽¹⁾ ، الذين يكونوا عادة من الرجال البارزين في المجتمع، والضرائب التي تم تقديرها على كل منطقة ، وسماع الالتماسات الخاصة بالعدالة في القضايا المدنية والجنائية من هؤلاء الذين تعرضوا للظلم في المحاكم الصغرى التي اصطلح على تسميتها باسم محاكم المائة Hundred – Courts . ومن خلال اجتماع محكمة المقاطعة فقط يستطيع حاكم المقاطعة قانونا باعتباره نائباً للملك دعوة فرسان المقاطعة لحضور اجتماع المجلس الكبير الذي أصبح يعرف فيما بعد باسم البرلمان ، مما يعنى أن حضور ودعوة ممثلى هذه الطبقة لحضور المجلس الكبير إنما يحدد من خلال حاكم المقاطعة فقط بناء على أمر الملك⁽²⁾. وتتكون محكمة المقاطعة التي يرأسها الشريف فى كل القضايا المدنية والجنائية من اثنى عشر

⁽¹⁾ يرجع نظام المحلفين المحليين local juries إلى عهد وليم الفاتح ، ففى محاولة فعالة من جانبه لتحسين الإجراءات الجرمانية البالية ، أدخل نظام الاستجواب الفرنجى – النورمانى إلى إنجلترا ، وكلف القضاة بأن يستخدموه فى القضايا المدنية. ففى سبيل فض المنازعات بين كبار البارونات خولت محاكم المقاطعات حق استجواب بعض الرجال الذين يقسمون اليمين من سكان المناطق المجاورة . ويشكل هؤلاء الفئة المختارة من أعيان البلاد المقيمين فيها . وكانت شهادتهم من عوامل الحسم فى القضايا القانونية المتعلقة بالشئون المدنية . وبعد ذلك وفى إطار الإصلاحات القضائية لهنرى الثانى دأب على تحسين الإجراءات القانونية الإنجليزية بالتوسع فى استخدام نظام المحلفين فى القضايا المدنية والجنائية . وبذلك أحل هنرى الثانى نظام المحلفين محل الوسائل البدائية الشائعة، حيث كانت وسائل التعذيب البدائية الجرمانية (المحنة) ما تزال تستخدم لإقامة الدليل فى القضايا الجنائية . وبدءاً من النصف الثانى من القرن الثانى عشر كان نظام التحرى بواسطة المحلفين يستخدم فى القضايا المدنية والجنائية على حد سواء ، ثم صار أساس العملية القانونية الإنجليزية . ولمزيد من التفاصيل عن نظام المحلفين انظر :

Stubbs, *The Constitutional Hist of England*, Vol. I, pp.681 , 682, Lunt, Op.Cit., p.213 ;

نورمان كانتور ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٩٥ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٨١ ، ٨٢

(2) Green, Op.Cit., p.164, Stubbs, Op.Cit., Vol.I, p.119 .

من القضاة المساعدين لحاكم المقاطعة Assessors of the Sherief ، ومن كل مائة ضيعة يتم اختيار اثني عشر من المحلفين jurors . ومن خلال هؤلاء الذين يمثلون المقاطعة أمام مندوبي الملك يتم تقدير مشاركة المقاطعة في الضرائب العامة، وتقدير الملكية الشخصية .^(١) وفي ضوء ما سبق نستخلص نتيجة مؤداها أن فكرة أو مبدأ التمثيل النيابي قد وجدت أصلاً في محكمة المقاطعة .^(٢)

(1) Stubbs, Select charters, p.40 ; Green, Op.Cit., p.164, Lunt, Op.Cit., pp.213 , 214 .

(٢) يذكر المؤرخ Stubbs في حديثه عن محكمة المقاطعة Shiremoot في الحقبة الأنجلو سكسونية بأن الشريف كان يعقد محكمة المقاطعة بمقتضى قوانين إيجار Edgar (٩٥٩-٩٧٥ م) مرتين في العام . وكان الأسقف والأيرل يجلسان معاً للحكم في الدعاوى الكنيسة والعلمانية على حد سواء دون تمييز بينها . ويرأسان معاً محكمة المقاطعة . في حين كان حاكم المقاطعة بمثابة موظف معين من قبل الملك . وفي عام ١٠٧٦ أصدر وليم الفاتح قانون إنشاء المحاكم الكنسية وفصلها عن المحاكم المدنية بهدف تحقيق الاستقلال القانوني للكنيسة الإنجليزية في الأمور الكنسية البحتة .

وأصبحت محكمة المقاطعة في عهد وليم وخلفاؤه تعقد عند حضور القضاة الجوالين itinerant justices ، وتتكون من رؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، الأيرلات ، البارونات ، الفرسان ، وأربعة من الرجال عن كل بلدة Township واثني عشر رجلاً عن كل مدينة كبرى Borough وكانت بمثابة اجتماع عام للشعب . وتضمنت بالتالي جميع العناصر التي تكون منها البرلمان فيما بعد . بيد أنه تم إعفاء من هم أدنى مكانة من الفارس ما لم يتم دعوتهم . ومن جهة أخرى فقد تضمنت العهود التي منحت للمدن فيما بعد أنه عند انعقاد محكمة المقاطعة فقط للاجتماع بالقضاة الجوالين يكون حضور ممثلي المدن أمراً ضرورياً .

ويمقتضى الفقرة الثانية والأربعين من مرسوم هنري الثالث بصدد إعادة إعلان الماجنا كارتا عام ١٢١٧م . أصبحت محكمة المقاطعة تتعقد مرة واحدة في الشهر . ويتضمن هذا المرسوم ستة وأربعين فقرة ويتفق في جميع بنوده مع الماجنا كارتا باستثناء الفقرات ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ . لمزيد من التفاصيل انظر النص الكامل لهذا المرسوم عند :

Stubbs (ed.) " Second charter of Henry III, 1217 " PP.341 – 344 ;

انظر أيضاً

" Ordinance of William I Separating the Spiritual and Temporal courts 1071," in Stubbs (ed.) Select charters, pp.99 , 100 ; Stubbs, *The Constitutional Hist. of England*, Vol.I, PP.223 , 224 .

وطبق هذا المبدأ بعدئذ على المجلس الكبير فى القرن الثالث عشر . ويعلق أحد المؤرخين الإنجليز فى القرن التاسع عشر بقوله : " أن محكمة المقاطعة هى الأصل الذى انحدرت منه البرلمانات الإنجليزية فى العصور الوسطى . وأن مبدأ التمثيل النيابى يعد واحدا من بين أعرق وأقدم نظمنا وتقاليدينا . " ^(١) وبالتالي تكون فكرة التمثيل النيابى أكثر قدما من البرلمان ذاته . ^(٢)

وكما ذكرنا آنفا لم يكن البناء الاجتماعى للطبقة المتوسطة قاصرا على فرسان المقاطعة وكبار الملاك فى الريف . هناك أيضا سكان المدن Bourgeois . وفى القرن الثالث عشر أحرزت هذه الطبقة درجة عالية من الثراء الناجم عن ممارسة النشاط التجارى والصناعى ، وامتلاك الأراضى . ^(٣) بيد أنه يجب تفسير مكانة هذه الطبقة فى ضوء الحراك الاجتماعى للمجتمع الإنجليزى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، والذى جاء انعكاسا للتطورات التى شهدتها القارة الأوروبية على الصعيدين الثقافى والاقتصادى . فقد شهد القرن الثانى عشر ظهور أولى الجامعات الأوروبية فى بولونيا بإيطاليا ، وباريس بفرنسا . وانعكس ذلك على إنجلترا بتأسيس جامعة أكسفورد عام ١٢٠٠ ، وجامعة كمبريدج عام ١٢٠٩ م . ^(٤) وعلى الرغم من أن الزعامة الثقافية كانت لفرنسا فى القرن الثانى عشر ، فقد ساهمت إنجلترا بعض

(1) Green, Op. Cit., p.164 .

(2) Lunt, Op. Cit., p.214, Willson, Op. Cit., p.149 .

(3) Stubbs, *The Constitutional Hist. of England*, Vol. II, pp.459 – 416 ; Traill & Mann, *Social England, A Record of the progress of the people, from the Earliest times to the present Day* , London, 1979 , pp.659 – 661, Lunt, Op. Cit., p.213 .

(٤) لمزيد من التفاصيل عن نشأة الجامعات ودورها ، انظر سعيد عبد الفتاح عاشور ، الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، جوزيف نسيم يوسف ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الإسكندرية ١٩٧١

الشئ مع إيطاليا وألمانيا فى الإنجازات الفكرية آنذاك ، فقد ولد جون السالزبوى John of Salisbury فى إنجلترا ، والذي كان يعد من أبرز شخصيات القرن الثانى عشر وتعلم فى فرنسا وعمل فى إيطاليا ثم عاد إلى إنجلترا ، واختتم حياته العملية فى فرنسا ، حيث شغل منصب أسقف شارتر chartres . فلم يكن هناك إحساس على الإطلاق بالتقسيمات التى تصنعها الحدود السياسية على القادة الثقافيين آنذاك . (١)

أما على المستوى الاقتصادى فقد شهدت هذه الحقبة ظهور المدن الأوربية ، وكما يذكر الأستاذ الدكتور سعيد عاشور فإن الفترة الواقعة بين سنة ١٠٧٥ وسنة ١١٨٣ تصور دور البطولة فى تاريخ نشأة المدن فى أوربا العصور الوسطى ، بدءاً ب نشأة المدن الإيطالية ، ثم فى إقليم لمبارديا ، وفلاندرز ، وأخذت تنتشر بسرعة فى بقية بلاد الغرب . (٢) ومن الجدير بالذكر هنا أن المدن الأوربية فى نشأتها قد خرجت من عباءة النظام الإقطاعى السائد فى معظم الحكومات الملكية فى أوربا ، ولأن الملوك هم السادة الإقطاعيين فقد قاموا هم وكبار افضالهم باعتبارهم مالكي الأرض بتأسيس المدن ، وتعلموا أن يشجعوا الفلاحين ، لأنهم اكتشفوا أن زراعة الأرض تجعلهم أكثر ثراء . ونظراً لوجود مساحات وافرة من الأرض ، كان عليهم أن يجعلوا شروطهم مغرية لم يعمرونها . وكانت أكثر الاغراءات التى يمكنهم تقديمها للمزارعين هى منحهم مزيداً من الحرية . أى أن الريفى الذى يأتى للإقامة فى بلدة جديدة كان يتمتع بالحماية والامتيازات التى تقدمها وثيقة مؤسس هذه البلدة والتى نصت على " حرية الأرض التى قامت عليها المدنية ، وأن كل من يعيش فى هذه المدينة سنة أو يوماً واحداً يعتبر حراً " وهنا لم يكن الريفى مضطراً لأن يعمل فى أرض السيد الإقطاعى ، وإنما كان يدفع إيجارا ، نقداً أو عينا ، كما أنه لم يكن مربوطاً بالأرض ومن ثم فإن المبدأ الشهير القائل بأن " هواء المدن يصنع الحرية " عرف منذ ذلك الحين . واستطاعت بعض المدن أن تحصل على سلطة سياسية أكبر ، وهذه المدن هى التى تعرف باسم

(١) كانتور ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٦ .

(٢) سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

القومونات Communes وبدأت هذه القومونات فى إقليمى تسكانيا ولبارديا فى إيطاليا ، ثم أخذت تنتشر منذ أواخر القرن الحادى عشر فى العديد من الممالك الأوربية .^(١)

وبالطبع لم تكن إنجلترا بمنأى عن هذه التطورات الاقتصادية التى تموج بها القارة الأوربية فقد حصلت المدن الإنجليزية فى عهد وليم الفاتح على بعض الامتيازات^(٢) ، ولعل العهد الذى منحه هنرى الأول لمواطنى مدينة لندن إنما يحيط اللثام عن طبيعة ومغزى الامتيازات التى حصلت عليها المدن الإنجليزية آنذاك . وبمقتضى هذا العهد فإن الامتيازات التى تمتعت بها مدينة لندن لا يمكن أن تعتبر نموذجاً للحريات التى حصلت عليها المدن العادية ، وإنما علامة بارزة على مقدار الاستقلال والحق فى إدارة شئونها ، وهى الحقوق التى كانت المدن الأخرى تصبوا للحصول عليها. بيد أن أهم الامتيازات التى ظفرت بها مدينة لندن بمقتضى هذا العهد. أنها وضعت فى مكانة مساوية للمقاطعة ، فأصبح لها الحق فى انتخاب حاكم المقاطعة والقاضى justiciar الخاص بها . وعدم مثول مواطنيها أمام أى محكمة

(1) Stubbs, *The Constitutional Hist. of England*, vol.I, P.459 ;

موريس كين ، حضارة أوربا فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م) ص ٩٢ ، سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ج٢ ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) يعلق المؤرخ وليم سبتس على العهد الذى منحه وليم الفاتح لمدينة لندن باعتبارها المدينة الرئيسية للمملكة بأنه ينطوى على الحرص على الحقوق الملكية ، ومن ثم فقد جاء هزياً وتضمن هذا العهد : " تحيات وليم الفاتح إلى وليم أسقف المدينة ، وجوفريث Gosfrith حاكم المدينة ، وجميع المواطنين داخل لندن من الفرنسيين والإنجليز لهم الود ، أننى أرى بديهي أنكما أنتما الاثنين جديران بكل القوانين التى كانت قائمة فى عهد الملك إدوارد المعترف ، وأننى سوف أجعل كل طفل يكون وريثاً لأبيه بعد وفاته ، وأننى سوف لا احتمل أى رجل يقترب أى خطأ تجاهكم ، ويبارككم الرب . " وهكذا لم يتضمن هذا العهد أية امتيازات عامة فيما عدا أن الابن يجب يخلف أبيه فى حق التصويت والانتخاب ، وضمان ما تم منحه فى عهد إدوارد المعترف . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Stubbs, Op Cit., p.460 .

خارج أسوار مدينتهم ، والتحرر من ضريبة الدانجلد ، ومن الالتزام بالموافقة على المحاكمة عن طريق النزال ، والإعفاء من المكوس الخاصة بالمرور وكل أنواع الضرائب في جميع أنحاء المملكة براً وبحراً ، وحققهم في امتلاك أراضيهم .^(١) وبالرغم من كل هذه الامتيازات فإن المدينة لم ترقى إلى درجة الكوميون mCom unio ، أى المدينة ذات السلطة السياسية المستقلة إلا في عهد الملك ريتشارد الأول عام ٩١١ م .^(٢)

ويستألى منح هذه " العهود الإعفائية " على [p تعبير أستاذنا الدكتور سعيد عاشور ، في عهد كل من هنري الثاني (١١٥٤ - ١١٨٩ م) ، ريتشارد الأول (١١٨٩ - ١١٩٩ م) جون (١١٩٩ - ١٢١٦ م) وهنري الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) ، لتشمل العديد من المدن الإنجليزية مثل كمبردج Cambridge ، وينشستر Winchester ، لنكولن Lincolon ، نونتهام Nottingham ، أكسفورد Oxford ، وساوثهامبتون Southampton وغيرها .^(٣)

(1) *Charter of Henry I to the citizens of London*, Stubbs, *Select charters*, pp.128 - 130 ; *The Constitutional Hist, of England*, Vol. I, pp.460 , 461 ;

ولمزيد من التفاصيل عن ماهية العهد الذى منحه هنري الأول لمواطنى مدينة لندن انظر الدراسة القيمة التى قام بها

Richardson, " Henry Is charter to London " *The English Historical review*, vol. XLII, No 165, January, 1977, pp.80 87 .

(٢) يجب تفسير العهود التى منحت للمدن الإنجليزية فى عهد ريتشارد الأول فى إطار السياسة المالية التى انتهجها لجمع المال اللازم لتمويل مشاركته فى الحملة الصليبية الثالثة ، ونظراً لحاجته الماسة للمال عرض كل شئ فى المملكة للبيع المناصب ، المقاطعات ، الألقاب ، الأراضي ، والعهود التى منحت للمدن انظر : زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(3) *Charters of Boroughs granted by Henry II*, pp.195 - 199 .

Charters of Towns granted by Richard I, pp.259 - 262 .

Charters of Towns granted by John pp.305 - 312 .

Charters of Towns granted by Henry III, pp.366-369 .

كل هذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق الوارد ذكرها عند .

Stubbs, *Select charters*, pp.195-369 .

لامراء أن هذه العهود التي حصلت عليها المدن الإنجليزية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر^(١)، كان لها أكبر الأثر في تأكيد رسوخ مكانة هذه المدن ، وأن تصبح مراكز مزدهرة للنشاط التجارى والصناعى ، وتعتبر السنوات الأولى من القرن الثالث عشر علامة لحقبة مهمة في تاريخ التجارة والصناعة لهذه المدن ، فقد ازدهرت مدينة ساوثهامبتون باعتبارها سوقا تجاريا مهما في تجارة البحر الأبيض المتوسط ، والتي كانت حكرأ على الجمهوريات الإيطالية . وبالطبع جاء هذا النشاط مصحوبا بظهور العديد من الأسواق في المدن الإنجليزية مثل سوق ستوربريدج Stourbridge Fair ، وسوق وينسيستر ، ونوتنجهام ، ستامفورد Stamford ، اكسفورد ، وابينجدون Abingdon وأماكن أخرى . أيضا واكب هذا الرواج التجارى ظهور

(١) تجدر الإشارة هنا أن المدن الإنجليزية التي تمتعت بنفوذ سياسى بمقتضى هذه العهود الملكية ، لا يعنى ذلك أنها تحررت من التزاماتها نحو السلطة السياسية أو أنها ذات سلطة سياسية مستقلة تماما عن التاج ، يتضح ذلك من خلال العهد الذى منحه ريتشارد الأول لمواطنى مدينة لنكولن ، صحيح أن أصبح لهم الحق فى اختيار حاكم مقاطعتهم ، بيد أنه جاء مرهونا بأن يراعى فى اختياره أن يكون الشخص الملائم والمؤهل لخدمة المدينة والملك . أيضا تمتعت مدينة نوتنجهام Nottingham بهذا الحق بمقتضى العهد الذى منحها إياه الملك جون ، ولكن الملك احتفظ بسلطته فى إبعاد الشخص الذى لا يراه ملائما . بما يتفق والفكر السياسى للملكية الإنجليزية .

ومن جهة أخرى نلاحظ فى ضوء العهود التى منحها الملك هنرى الثانى لمدين كمبريدج ، وينشيستر ، لنكولن ، نوتنجهام ، لندن ، واكسفورد أنه تحاشى منح هذه المدن حريات دائمة ، وإنما أثر أخذ مبالغ مالية مقابل استمرار الامتيازات والإعفاءات التى تتمتع بها من عام لعام . ومن ثم لم تخرج العهود التى منحت فى عهده فى مضمونها عن تلك التى منحت فى عهد هنرى الأول . على سبيل المثال فقد اشترط على مواطنى لندن دفع مبلغ مائة مارك مقابل حقهم فى اختيار حاكم مقاطعتهم . ومدينة لنكولن دفع مائتى مارك فضة وأربعة ذهب والنساجين فى اكسفورد دفع مبلغ اثنين مارك ذهب عن نقابتهم . ومواطنى كمبريدج مبلغ ثلاثمائة مارك فضة ومارك واحد ذهب ، وتعهد مواطنى هورن كاستل Horncastle بدفع مبلغ تسعة وعشرون جنيه إسترليني وثلاثة عشر شلن لزواج ابنة الملك مقابل العهد الذى منحه الملك للمدينة . لمزيد من التفاصيل انظر :

Charters of Boroughs granted by Henry II, P.195, in Stubbs, *Select charters*, pp.195 – 198; *The constitutions Hist. of England*, Vol. I, pp.701 , 702 .

نقابات التجار The Merchant guilds ، ونقابات المهن والحرف Graft guilds .^(١) ولا داعى هنا للخوض فى تفاصيل ذلك فتلك قصة أخرى . بيد أن أهم ما يعنينا هنا فى المقام الأول أن ظهور النقابات فى إنجلترا قد حقق نوعاً من التماسك بين رجال المدن ، الذين تكاثرت اجتماعاتهم بهدف إعداد الإجراءات اللازمة لممارسة النشاط التجارى ، وكان ذلك كافياً لمنحه سلطة اجتماعية طالما تركت فى أيدي موظفى الإدارة المحلية ، والمطالبة بالإعفاء من المكوس فى جميع أنحاء المملكة . لتصبح عضوية نقابات التجار والحرفيين أمر لا مندوحة عنه وتتويجاً لمكانة سكان المدن ، إذ بمجرد تسجيل اسمه فى عضوية النقابة يتم إعفاءه من كافة الالتزامات التى يطالب بها عادة مستأجرى الضياع الإقطاعية^(٢)

كان ذلك بدون منازع يمثل خطوة قوية تجاه الحرية التى تمتع بها المجتمع الإنجليزى فيما بعد ، ولأن التاريخ السياسى انعكاساً ومرآة للتاريخ الاجتماعى ، فقد أسفر هذا الحراك الاجتماعى الذى شهده المجتمع الإنجليزى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر باعتبارهما علامة بارزة فى مسيرة ظهور وتطور المدن ، عن ظهور طبقة ثالثة هى الطبقة المتوسطة ممثلة فى فرسان المقاطعة فى الريف ، وأرباب التجارة والصناعة من سكان المدن ، وهى طبقة لا بد وأن ينظر إليها بعين الاعتبار من جانب التاج لما تمتلكه من مقومات الإغراء المادى فى مواجهة المتاعب المالية الملحة للتاج الإنجليزى ، وفى القرن الثالث عشر - كما سبق أن ذكرنا - بلغ سكان المدن درجة من الثراء الناجم عن ممارسة التجارة والصناعة ، وامتلاك بعض الأراضى ، ليصبح أفراد هذه الطبقة بمثابة العمود الفقرى فى تاريخ الدستور الإنجليزى ، ومن ثم ليس ثمة غرابة أن يشارك ممثلى المدن أقرانهم فى الريف مهام الإدارة المحلية ،

(1) Traill & Mann, Op.Cit., pp.654 – 660 ;

ولمزيد من التفاصيل عن النقابات انظر :

Stubbs, *The Constitutional Hist of England*, Vol. I, pp.469 – 479 ;

سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ ٢ ، ص ١٠٧-١١١ .

(2) Stubbs, *The Constitutional Hist, of England*, vol. I, pp.482 , 483 .

والإنجاز والتعامل مع مندوبى الملك . ومن ثم كان لهذه الطبقة سواء فى الريف أو المدن خبرتها فى أمور الإدارة والحكم والإمام بفكرة التمثيل النيابى .^(١)

ومنذ وقت طويل والملك يتعامل مع ممثلى هذه الطبقة ، إذ جرت العادة عندما يرغب الملك فى استقصاء الأوضاع المحلية أن يقوم بإيفاد القضاة الجوالين أو الموظفين الملكيين إلى محاكم المقاطعات للتعامل مع الفرسان وكبار الملاك المجتمعين فى كل مقاطعة . وعندما يرغب فى الحصول على موافقة المدن على مطالبة المالية يقوم بإيفاد مبعوثين للتفاوض مع سكان كل مدينة على حدة . بيد أن هذه الطريقة كانت تتسم بالبطء ، ومن ثم فقد وجد ملوك إنجلترا فى القرن الثالث عشر أنه من الأفضل دعوة ممثلين عن مختلف المناطق المحلية سواء فى الريف أو المدن للاجتماع مع مندوبيهم فى مكان محدد بدلاً من إيفادهم لجميع المقاطعات والمدن .^(٢)

فى ضوء ذلك نؤكد ثانية أن فكرة التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة إنما تضرب بجذورها فى نظام المحلفين ، الذين يتحدثون بصوت المنطقة فى محكمة المقاطعة ، لأن نظام المحلفين ذاته يركز على مبدأ التمثيل النيابى ، حيث تتكون هيئة المحلفين من اثنى عشر من الرجال البارزين فى كل ضيعة إقطاعية ، وأربعة عن كل مدينة ، بهدف تقديم تقرير للقضاة الجوالين أثناء انعقاد محكمة المقاطعة التى لا بد وأن تتعقد فى حضورهم ، وذلك بمقتضى قوانين كلارندون Assize of clarendon التى أصدرها هنرى الثانى عام ١١٦٠ م .^(٣)

(١) Traill & Mann (eds.), Op.Cit., P.568 Lunt , Op.Cit., p.212 ; Willson, Op. Cit., P.149 ;

راوس ، التاريخ الإنجليزى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٦ ن ص ٤٧ .

(٢) Green, Op.Cit., vol.I, p.165, Willson, Op.Cit., P.149 ; Lunt, Op. Cit., p.214 ; Traill & Mann, OP. Cit., . 568 .

(٣) تتضمن قوانين كلارندون اثنتين وعشرين فقرة ، تعتبر ذا أهمية فائقة فى تاريخ القضاء الإنجليزى ، نظراً لما تضمنته من تغيرات فى إدارة العدالة ، والتى مهدت الطريق أمام الحكم النيابى فيما بعد لمزيد من التفاصيل انظر النص اللاتينى لهذه القوانين كاملة فى

Incipit Aassisa de clarenduna facta a rege Henrico, Scilicet secund, in Stubbs (ed.) Select charter, pp.170 – 173 .

على أية حال فإن أول الأمثلة على اجتماع مندوبى الملك وممثلى الطبقة المتوسطة حدثت عام ١٢٠٤ ، عندما أمر الملك جون بدعوة اثنى عشر رجلاً من كل الموائى البحرية للاجتماع ومندوبى الملك فى مكان محدد لمناقشة الأوضاع الخاصة بالتجارة . وتكرر ذلك ثانية عام ١٢١٣ عندما أمر الملك جون أيضا بدعوة حكام المقاطعات وأربعة عن كل مدينة للاجتماع فى دير القديس البانس St.Albans ، بهدف تقديم تقرير عن الضرر والخسائر التى لحقت بالكنائس المحلية أثناء نزاع الملك مع البابوية . بيد أن هذين الاجتماعيين لم يكونا أكثر من مجرد اجتماع فقط لهيئة المحلفين . (١)

وكما سبق الإشارة بأن فكرة التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة لم تكن شيئاً مستحدثاً ، ولكن الجديد الذى حدث بعد ذلك يكمن فى تمثيل هذه الطبقة فى المجلس الكبير للملك فى أوائل القرن الثالث عشر ، عندما وجد الملك أنه من الأفضل والأكثر أهمية دعوة ممثلين عن المناطق المحلية للاجتماع وأعضاء مجلسه لتقديم المشورة ، مثال ذلك أن الملك جون أعلن مرسوما ملكيا لحكام المقاطعات يأمرهم بدعوة أربعة من الفرسان من كل مقاطعة لحضور اجتماع الملك والمجلس الكبير فى مدينة اكسفورد بهدف ما أسماه " التشاور معنا بشأن أوضاع مملكتنا " . (٢)

ويلق المؤرخ William Stubbs على دعوة الملك جون لحضور ممثلين عن المدن والمقاطعات بقوله: " هذه المرة الأولى التى يتم فيها دعوة ممثلى المقاطعات للمجلس العام للملكة ، على أساس مبدأ التمثيل النيابى الذى طالما استخدم لأغراض قضائية . بمعنى أن هؤلاء الرجال الأربعة وحاكم المقاطعة منذ القدم وهم يمثلون البلدة فى محكمة المقاطعة Shiremoot . والآن وبناءً على دعوة الملك جون أصبح هؤلاء الرجال الأربعة ، وحاكم المقاطعة يمثلون محكمة المقاطعة فى المجلس القومى - أى

(1) Stubbs, *The Constitutional Hist, of England*, Vol.II, p.697 ; Green Op.Cit., p.165 ; Willson, Op.Cit., p.149 ; Traill, Mann, OP.Cit., p.568 .

(2) Stubbs, *Select charters*, p.282 ; Green, Op.Cit., p.165 ; Willson, Op.Cit., p.149 ; Lunt, Op.Cit., p.215 .

المجلس الكبير - " (١) وهذا يؤكد بجلاء ما ذهبنا إليه من قبل بأن فكرة التمثيل النيابي قد وجدت أصلاً في محكمة المقاطعة .

وبناءً على مرسوم الملك جون لحكام المقاطعات لم يكن اجتماع اكسفورد المقترح أكثر من مجرد اجتماع للمجلس الكبير مع حضور فرسان المقاطعة . وبالرغم من أنه ليس مؤكداً ما إذا كان اجتماع المجلس الكبير الذي دعى الملك رسمياً لانعقاده، أو أى اجتماع آخر قد عقد في التاريخ المحدد فإنه من المؤكد أن فكرة دعوة ممثلين عن فرسان المقاطعة للتشاور مع الملك ومجلسه إنما تنسب إلى الملك جون عام ١٢١٣. (٢)

بالإضافة إلى ذلك ليس غريباً أن يحظى عهد الملك جون (١١٩٩-١٢١٦م) بأهمية خاصة في التاريخ السياسى الإنجليزى، فقد شهدت السنوات الأخيرة من حكمه إخفاقه التام في إمكانية امتصاص غضب البارونات وإصرار صارم من جانبهم على تأكيد حقوقهم التى أقرها القانون الإقطاعى، وأعلن البارونات التأثيرين أنهم سوف يقاتلون من أجل الحريات التى يتضمنها مرسوم هنرى الأول ، المستمدة من القانون الإقطاعى كما طبقه وليم الفاتح. (٣) وجاءت الرغبة العامة والعارمة لهؤلاء التأثيرين باستعادة هذه الحريات بمثابة السبب الحقيقى للصراع بين الملك والبارونات ، وتفاقم النزاع بين الجانبين بعد هزيمة الملك وحلفائه في بوفيه على أيدى الملك الفرنسى عام ١٢١٤. وكيفما كان الأمر ، فإن طبقات الشعب الإنجليزى من البارونات ورجال الدين وأهل المدن اتفقت كلمتهم في خريف عام ١٢١٤ على ضرورة المطالبة بتنظيم ما لهم وما عليهم تجاه الملك ، وفي رينمييد Runnmede على ضفاف نهر التايمز وقع الملك على ما اصطلح على تسميته الماجنا كارتا أو العهد الأعظم . والتي استهدف البارونات من صياغتها التأكيد على ضرورة حماية حقوقهم وامتيازاتهم الإقطاعية ضد

(1) Stubbs, Op.Cit., P.282 ; *The Constitutional Hist, of England*, vol.II, P.697

(2) Lunt, Op.Cit., P.215 ; Willson, Op.Cit., P.149 ; Green , Op.Cit., P.165.

(3) " A. D 1100. AuG.5. charter of liberties Issued by Henry I. " in stubbs, *select charters*, pp.116 – 119 ;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

انتهاكات الملك وأسلافه . وتتمثل أهمية العهد الأعظم باعتبارها أولى القيود على السلطة الملكية المطلقة ، وإقرار مبدأ ضرورة احترام الملك للقانون الإقطاعي الذي يعتبر كل من الملك والبارونات حزبين متعاقدين في إطار حقوق وواجبات إقطاعية متبادلة . (١)

لامراء أن الماكناكارتا تمثل خطوة مهمة وفعالة في مسيرة التأكيد الملكي على أهمية وضرورة التمثيل النيابي للطبقة المتوسطة في المجلس الكبير من جهة ، والتاريخ الدستوري لإنجلترا من جهة أخرى .

فقد نصت الفقرة (١٢) منها على " يتعهد الملك بعدم فرض ضريبة الاسكوتاج أو الإعانات الإقطاعية على المملكة إلا بمشاورة المجلس العام للمملكة ، فيما عدا الأموال الإقطاعية الخاصة بافتدائنا من الأسر ، وتنصيب ابننا الأكبر فارس ، وزواج ابنتنا الكبرى . وبنفس هذا النهج تتخذ الإعانات الإقطاعية من مدينة لندن . " وجاء في الفقرة (١٣) " سوف تكون لمدينة لندن جميع الحريات التي كانت لها في الماضي ، والاعفاء من المكوس برأ وبحراً ، علاوة على ذلك سوف تمنح جميع المدن والبلدان والموانئ الأخرى جميع حرياتهما والإعفاء من المكوس "

وتضمن الفقرة (١٤) " للحصول على المشورة العامة للمملكة بصدد تقدير المساعدات الإقطاعية فيما عدا الحالات الثلاث المشار إليها آنفاً - أو الأسكوتاج ، سوف ندعو رؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، الأيرلات ، كبار البارونات ، كل على حدة بناء على خطابات منا ، إضافة إلى ذلك سوف ندعو بشكل عام من خلال حكام مقاطعاتنا وجميع نوابنا هؤلاء الذين يحوزون ضياعاً إقطاعية من التاج - الفرسان - للتاريخ والمكان المحدد للاجتماع ، والذي يعقد في غضون أربعين يوماً

(١) تقع الماكناكارتا في واحد وستين فقرة ، ولمزيد من التفاصيل انظر النص اللاتيني الكامل لهذا العهد عند :

Stubbs, *select charters*, pp.292 – 302 ;

وكذلك الترجمة الإنجليزية لهذا النص عند :

Warren, *King John* (London, Second edition, 1978) pp.266 – 277 .

على الأقل من توجيه الدعوة ، وسوف نحدد في جميع الخطابات سبب الاجتماع ، وأثناء الاجتماع سوف يتم العمل وفقاً لمشورة هؤلاء الحاضرين ، بغض النظر عن حضور جميع الذين تم دعوتهم .^(١)

وقبل أن يجف المواد الذي كتبت به الماجناكارتا نقض الملك جون شروطها وتنكر لمبادئها.^(٢) ولكن في ضوء هذا الصراع السافر بين الطرفين فإن المعارضة البارونية في صراعها من أجل الحريات أي حرية الامتيازات الإقطاعية والكنيسة ، تكون قد ساهمت في إرساء أحد الأسس اللازمة لإقامة حكومة دستورية فيما بعد .

ونترك عهد الملك جون جانباً ، ونمضي قدماً مع مسيرة تطور التمثيل النيابي للطبقة المتوسطة في المجلس الكبير . ففي أثناء حكم الملك هنري الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢) أعلن الملك عام ١٢٢٦ مرسوماً ملكياً بدعوة أربعة من فرسان كل مقاطعة بهدف التشاور السياسي حول التفسير المتنازع عليه لبعض بنود الماجناكارتا.^(٣) وفي عام ١٢٢٧ تولى حكام المقاطعات في محاكم المقاطعات مهمة انتخاب أربعة من الفرسان عن كل مقاطعة للاجتماع مع الملك ومجلسه الكبير . وجاء هؤلاء الفرسان بهدف تقديم تقرير بالشكاوى ضد حكام المقاطعات التي يمثلونها . وفي عام ١٢٥٤ تم انتخاب اثنين من الفرسان عن كل مقاطعة لحضور اجتماع المجلس الكبير في ويستمنستر ، بهدف تحديد المساعدة التي يجب أن ترسل للملك في جاسكوني^(٤) - إحدى الممتلكات الإنجليزية المتنازع عليها في فرنسا - ومن أبرز الأمثلة في عهد هنري الثالث على هذه الاجتماعات التي شهدت حضور ممثلين عن الطبقة المتوسطة

(1) *Great charter of liberites* . 1215 in stubbs (ed.) select charters , pp.294 , 295 ; Warren, Op.Cit., pp.268, 269 .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن مراحل الصراع بين الملك جون والبارونات انظر : *Annales londonienses*, vol.I, P.16 ; William of Newburgh, *Historia Rerum Angligarum*, Vol.2, pp.217 , 218, Warren, Op.Cit., p.236 ;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٧٧ - ٨٣ .

(3) *Writ for the summong of four knights of the shire A.D. 1226*, in Stubbs, Op.Cit., p.353 .

(4) *Writ of summons for two knights of the shire to Grantan Aid, A.D. 1254*, in stubbs, Op.Cit., pp.365 , 366 .

سواء فرسان المقاطعة ، أو البرجوازية ، وقد وصفت بالبرلمانات من جانب المؤرخين المعاصرين والمحدثين على حد سواء ، هذين الاجتماعيين اللذين دعى لعقدتهما زعيم المعارضة البارونية سيمون مونتفورت Simon de Montfort أيرل ليسستر Leicester . الأول بعد هزيمة القوات الملكية أمام الأيرل سيمون وقواته في معركة لويس Lewes في الثاني عشر من مايو ١٢٦٤م . والتي أسفرت عن وقوع الملك وولى عهده الأمير إدوارد في الأسر . وفي محاولة من جانب الأيرل لكسب تأييد المملكة ، دعى لعقد اجتماع ضم بارونات المملكة ، وأربعة من الفرسان عن كل مقاطعة . أما الاجتماع الثاني والذي حدث بعد أن دب النزاع في صفوف المعارضة البارونية الثائرة من خلال النزاع بين الأيرل سيمون ومونتفورت ، وريتشارد أيرل جوسسيتير Cloucester وبهدف تدعيم مركزه وشرعيته قام سيمون بعقد اجتماعه الثاني في أوائل عام ١٢٦٥ ، وهو الاجتماع الذي حاز شهرة واسعة من جانب عدد ليس بالقليل من المؤرخين المحدثين ، ففي هذا الاجتماع مثلت المدن لأول مرة بإيفاد اثنين عن كل مدينة .^(١)

(١) جاء عقد هذين الاجتماعيين انعكاساً للأوضاع الداخلية في عهد هنري الثالث ، حيث تورط الملك في نزاع مرير مع البارونات بزعامة الأيرل سيمون مونتفورت ، مما دفع الثائرين من البارونات والملك على الدعوة لعقد اجتماع للمجلس الكبير في اكسفورد عام ١٢٥٨ ، حيث قدم البارونات مطالبهم التي تجسدت في إبعاد جميع الأجانب ، وتعيين لجنة مكونة من أربعة وعشرين عضواً نصفهم من الجانب الملكي والآخر من البارونات ، والمطالبة بخطة للحكم يتم بمقتضاها نقل السلطة الكاملة من التاج إلى ممثلين عن البارونات يتولون السيطرة التامة على الإدارة ، وانتخاب حكام المقاطعات سنوياً ، وتجديدهم سنوياً ، وتعهد الملك بدعوة البرلمان - أي المجلس الكبير - للانعقاد ثلاث مرات في العام على غرار ما كان يحدث في عهد الفاتح . لينتهي ذلك بما عرف في التاريخ الإنجليزي بشروط اكسفورد provisions of Oxford ، مما جعل بعض المؤرخين يطلقون على اجتماع اكسفورد اسم البرلمان المجنون لشدة وجراة المطالب البارونية . وينتهي هذا النزاع بهزيمة الجيش الباروني بعد فرار الأمير إدوارد من الأسر ، وقتل الأيرل سيمون في معركة إيفشام Evesham ، والاستسلام النهائي للبارونات عام ١٢٦٧ . ولمزيد من التفاصيل انظر :

وتعليقاً على هذا الاجتماع الثانى للأيرل سيمون الذى شهد أول حضور نيابى عن المدن فإنه لم يكن أكثر من مجرد اجتماع ثورى للمعارضة البارونية ، فقد جاء انعكاساً للأوضاع السياسية المتردية أثناء حكم هنرى الثالث سواء فى الداخل أو الخارج ، نتيجة عدم استقرار الأوضاع فى جاسكونى ، وإخفاق هنرى فى استعادة أراضيه فى فرنسا . وفى ضوء هذه الأوضاع السياسية حيث المعارضة البارونية فى أوج ذروتها ، بعد وقوع الملك وولى عهده فى الأسر غداة معركة لويس فى الثالث عشر من مايو ١٢٦٤ ، وانتقال مقاليد الحكم إلى أيدي الأيرل سيمون ، إلى أن تمكن الأمير إدوارد من فك قيود أسره فى الثامن والعشرين من مايو ١٢٦٥ ، وتحقيق الانتصار الملكى فى معركة ايفشهام فى الرابع عشر من أغسطس عام ١٢٦٥ . معنى ذلك أن الملك وولى عهده قد بقيا فى الأسر لمدة تزيد على تسعة أشهر . وأن اجتماع الأيرل الذى عقد فى العشرين من يناير ١٢٦٥ ، أى أثناء أسر الملك وولى عهده . قد اقتصر فى معظمه على فريق من البارونات الثائرين من مؤيدي الأيرل سيمون . وفى ضوء الفكر السياسى للملكية الإنجليزية التى تقف بالمرصاد لأى محاولة قد تمثل أدنى انتهاك للسلطة الملكية المطلقة ، حتى فى الأوقات التى شهدت تردى هذه السلطة ، فإن ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالبرلمان فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم يكن الأمر أكثر من مجرد اجتماع للمجلس الكبير للملك ، والذى بدأ يشهد حضور ممثلين عن الطبقة المتوسطة حسب مشيئة التاج ، وبما يتفق وخدمة

Stubbs, Op. Cit., pp.369 – 389 ; *The chronicle of Bury st. Edmund's 1212-13* (London, 1964) pp.26-38 ; Matthew Paris, *English History from the year 1235 to 1273* (London, 1852) vol. I, p.194, Vol. III, PP.347 – 349 ; John Capgrave, *The chronicle of England* (London, 1858) pp.158-160 ;

أما المعلومات التى وردت فى المتن انظر :

Dietz, Op. Cit., p.84 ; Lunt, Op. Cit., p.215, Willson, Op. Cit., p.149 ; Vickers, Op. Cit., p.146 ; Stubbs, Op. Cit., pp.397 – 399 .

الأهداف السياسية والمالية للتاج . ولم ينطبق ذلك بالطبع على اجتماع الأيرل سيمون مما يؤكد وجهة نظرنا بأنه لم يزد عن كونه اجتماع ثورى للمعارضة البارونية .

على أية حال ، يمكن تفسير رغبة التاج أثناء حكم هنرى الثالث بصدد حضور نواب عن فرسان المقاطعة ، للحضور أمام المجلس الكبير للملك ، بأنها جاءت مثلما حدث فى الماضى استجابة لتحقيق أهداف إدارية ، والموافقة وليس التشاور على الضرائب المفروضة عليهم من قبل التاج ، ففي عام ١٢٥٤ - على سبيل المثال - كان هنرى الثالث فى حاجة ماسة للمال لتغطية نفقات حملته على جاسكونى . ومن واقع تجاربه السيئة فى الحصول على أموال إضافية ، وبالأحرى مساعدات غير إقطاعية ، رأى من الأفضل ضمان موافقة المقاطعات على ضريبة جديدة من خلال حضور ممثليهم من الفرسان . (١)

وفى نهاية حكم الملك هنرى الثالث أصبح حضور ممثلى الطبقة المتوسطة بهدف الاجتماع مع الملك ومجلسه أمراً مسلماً به . بيد أن إرساء مبدأ التمثيل النيابى باعتباره جزء ثابتاً من السياسة الملكية يتضح بجلاء أثناء حكم الملك إدوارد الأول (١٢٧٢-١٣٠٧) . فقد استهل فترة حكمه بعقد أول برلمان عام - أو بعبارة أدق اجتماع نيابى للمجلس الكبير - فى الثانى والعشرين من أبريل عام ١٢٧٥م ، بهدف فرض ضريبة على الجلود الخام والصوف ، والذى يمثل الإنتاج الرئيسى للمملكة ، ومن ثم فقد أصبح هدفاً شهياً للضريبة أسالت لعاب ملوك إنجلترا منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ففي عام ١١٩٤ تم الاستيلاء على كميات كبيرة منه بهدف تمويل القدية اللازمة لإطلاق سراح الملك ريتشارد الأول من الأسر الألمانى أثناء عودته من الحملة الصليبية الثالثة . ولذا كان طبيعياً دعوة ممثلى الطبقة المتوسطة وخاصة التجار والمدن التجارية " towns merchants " لحضور الاجتماع . بيد أن هذا الاجتماع لم تمثل فيه طبقة صغار رجال الدين . (٢)

(1) Stubbs, Select charters, p.365 ; Dietz, Op.Cit., p.88 ; Vickers, Op.Cit., p.146 .

(2) Lunt, Op.Cit., p.216 ; Dietz, Op.Cit., Vickers, Op.Cit., p.63 ; Willson, Op.Cit., p.149 ; Stubbs, Op.Cit., pp.440 , 441 ;

أيضاً شهد عهد إدوارد الأول عام ١٢٨٣ انعقاد ما اصطلح المؤرخون على تسميته باسم برلمان شيرسبوري Shrewsbury . والذي انقسم إلى اجتماعيين منفصلين ، وبينما بقى البارونات كما هم لمناقشة الموضوع الرئيس للاجتماع ممثلاً في الحكم على ديفيد David أمير ويلز وإدانته ، أثر رجال الدين الانسحاب ، مبررين ذلك بأن مهامهم المقدسة لا تحتم عليهم المشاركة في إراقة الدماء . في حين ذهب ممثلي المدن إلى مدينة أكتون بيرنيل Acton Burnell لمناقشة قضايا التجارة .^(١) ويعلق المؤرخ William Stubbs على ما يسمى برلمان شيرسبوري بقوله : " أن هذا الاجتماع يختلف عن البرلمان العادي في ناحيتين هامتين ، أولاً أنه لم يتضمن ممثليين عن القساوسة أو حتى الأساقفة . وثانياً أن ممثلي المدن تم دعوتهم بمراسيم مستقلة وليس من خلال حكام المقاطعات كما جرت العادة . وأن محاكمة ديفيد وأدانته كانت من خلال البارونات فقط . وأن ما يعرف باسم قانون أكتون بيرنيل قد شرع وشن في الواقع من خلال الملك ومجلسه . ومع ذلك فقد أطلقت كلمة برلمان على هذا الاجتماع"^(٢).

وعلى مدى العشرين عاماً التالية لعام ١٢٥٧ لم يتخلى الملك إدوارد الأول عن دعوة ممثلي الطبقة المتوسطة لحضور الاجتماعات الكبرى للمجلس الكبير والتي عرفت بالبرلمان من جانب المؤرخين^(٣). مما يعنى أن تجربة الملك إدوارد الأول مع الاجتماعات النيابية للأمة الإنجليزية لم تكن وليدة الاجتماع الشهير عام ١٢٩٥ .

ولمزيد من التفاصيل انظر الوثيقتين التاليتين

Summons of knights and Burgesses, A. D. 1275 .

Grant of Custonn on wool, woolfells and leather A.D. 1275,

وهاتين الوثيقتين ورد ذكرها كاملتين بالنص اللاتيني عند :

Stubbs, Op.Cit., pp.441 – 444 .

(1) Stubbs, Op.Cit., pp.456, 461 , 462 ; Powicke, *The thirteenth century 1216-1307* (Oxford , 1962) p.341, Tout, *An Advanced History of Great Britian* (London, 1912) p.191 ; Smith, Op.Cit., p.115 .

(2) Stubbs, Op.Cit., p.456 .

(3) Smith, Op.Cit., p.115, Tout, Op.Cit., p.191, Dietz, Op.Cit., p.88; Powicke, Op.Cit., p.341

وفى عام ١٢٩٥ دعى إدوارد الأول لعقد واحد من أهم المجالس النيابية التى عقدت حتى الآن ، بصورة لم تشهدها إنجلترا من قبل ، والذي ذاع صيته باسم البرلمان الكبير أو البرلمان النموذجى Model Parliament . إذ بالإضافة لأعضاء المجلس الكبير من رؤساء الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، الأساقفة ، البارونات ، تضمن ممثلين عن الطبقة المتوسطة من فرسان المقاطعة والمدن ، بمعدل اثنان من الفرسان عن كل مقاطعة واثنان عن كل مدينة ، علاوة على قساوسة الكنائس الكاتدرائية والأبروشية ، بيد أن هؤلاء القساوسة سرعان ما توقفوا عن الحضور بعد ذلك ، واثروا منح الضرائب الخاصة بهم للتاج من خلال مجالسهم الكنسية ، وترك مصالحهم الكهنوتية الأخرى لكبار رجال الدين من أعضاء المجلس الكبير . وبانسحابهم من حضور البرلمانات التالية حرموا من أن يصبحوا عنصراً فعالاً فى البرلمان والذي أصبح فيما بعد السلطة العليا فى المملكة .^(١)

ويتضح هدف الملك إدوارد الأول من عقد هذا الاجتماع فى ثانيا ديباجة المرسوم الملكى للأعضاء الذين تم دعوتهم للحضور جاء فيه " للنظر والتعامل مع القضايا الملحة والجوهرية لنا ومملكتهم ، وتقديم مشورتكم لنا . لأن ما يخص الجميع يجب أن يكون بموافقة الجميع ، وأن الأخطار العامة يجب أن تكبح بالجهود المتحدة ."^(٢)

فى ضوء ذلك يجب تفسير الأسباب الحقيقة لعقد هذا الاجتماع النيابى للمجلس الكبير عام ١٢٩٥م فى ضوء ظروف عصر الملك إدوارد الأول على المستويين الداخلى والخارجى . فعلى المستوى الداخلى شهد عهد إدوارد الأول اتساع نطاق النشاط التجارى ، وحركة البيع والشراء فى كل ميناء ، وازدهار التبادل التجارى مع المناطق المجاورة ، فى الوقت الذى تزايدت فيه أعباء الإدارة الملكية ، وازدياد

(1) Annales londonienses, Vol. I, p.85; *The chronicle of Bury St. Edmunds*, p.129 ; Stubbs, *The constitutional Hist, of England*, Vol. II, p.140; Stubbs, select charter, pp.477, 478, Hume, op.Cit, p.146 ; Smith, op.Cit, p.117 ; Dietz, op.Cit, p.89 ,

(2) Smith, Op.Cit., p.117 ; Dietz, Op.Cit., p.89 ; Tout, op.Cit, p.191 ; Hume, op.Cit, p.116, Hall & Albion, op.Cit, p.152.

المطالبة بتوفير سبل العدل والأمن بين الناس ، اقتضى ذلك بطبيعة الحال ضرورة إيجاد منافذ جديدة للتمويل . وبمنظرة ثاقبة رأى الملك أن أفضل السبل للحصول على الإيراد القومى اللازم لتغطية الأعباء العامة للإدارة الملكية تتمثل فى الدعوة لعقد هذا الاجتماع . لا سيما وأنه لا يستطيع أمام هذه المطالب المتزايدة أن يعتمد فقط على موارده الإقطاعية من الضرائب الإقطاعية المنتظمة وغير المنتظمة ، وأموال ضريبة الاسكوتاج Scutage ، أو موارده من الضياع الملكية ، والإيرادات الملكية الموروثة. ومن ثم فقد ساهمت الأموال الناجمة عن المكوس الجمركية فى تلبية بعض الاحتياجات الملكية ، مثلما حدث عام ١٢٧٥ عند وافق البرلمان - على حد تعبير المعاصرين - على منح إدوارد الأول كجزء من إيراد ثابت ومنتظم الأموال الناجمة عن الضرائب التى تقرر فرضها على تصدير الصوف والجلود الخام ، تجمع من كل موانئ التصدير فى إنجلترا ، ويلز ، وإيرلندا لصالح الملك ^(١). أيضا فرضت ضرائب على الاستيراد بمعدل اثنين شلن عن كل برميل ضخ من النبيذ الأجنبى ، وجنيه واحد على كل سلعة يتم استيرادها . وعرفت هذه الضرائب أو الرسوم الجمركية باسم "Tunnage and Poundage" أى الضريبة النسبية التى تحصل على كل جنيه أو سلعة ^(٢).

علاوة على ذلك فقد تلقى إدوارد الأول من خلال هذا المجلس النيابى تسع منح مالية ، على فترات متقطعة بلغت قيمتها الإجمالية ما يعادل أربعمائة وخمسون ألف جنيه إسترلينى ، وجاءت هذه المنح كما يقول المؤرخ المعاصر جولدوين سميث Coldwin Smith على شكل ضرائب مباشرة مشابهة لعشور صلاح الدين ^(٣).

معنى ذلك أن الإيراد الملكى من الدخل الإقطاعى لم يعد كافيا فى عصر جعل إيراد التاجر الإنجليزى من تجارة النبيذ والصوف أضعاف ما يدخل خزانة البارون من

(1) *The chronicle of Bury st Edmund*, p.129 ; Stubbs, *select charters*, pp.440-444 ; Smith, op.Cit, pp.114, 115 , Dietz, op.Cit, p.89 .

(2) Smith, Op.Cit., p.115, Hall & Albion, Op.Cit., p.151 .

(3) Smith, Op.Cit., pp.114 , 115 ; Hume, Op.Cit, p. 116.

الإيجارات الإقطاعية ، وبالتالي فإن الثراء الذى يتمتع به التجار والطبقة المتوسطة عامة أصبح يمثل إغراء شديد للتاج المثقل بالأعباء المالية .^(١)

وعلى المستوى الخارجى كان إدوارد الأول منغمساً فى حرب طويلة مع فرنسا ، العدو اللدود للملكية الإنجليزية منذ الفتح النورمانى عام ١٠٦٦ ، وأيضاً الحرب مع اسكتلندا ، وويلز ، بهدف توحيد الجزر البريطانية كلها فى مملكة واحدة ، علاوة على سلسلة من الأزمات التى عرضت سلام واستقرار المملكة للخطر .^(٢) ولأمراء أن دعوة ممثلى الطبقة المتوسطة من الفرسان والبرجوازية لحضور هذا الاجتماع ، إنما جاءت بهدف تلبية الاحتياجات المالية الملحة للتاج ، لتغطية نفقات الحرب مع فرنسا ، والتهديد الإسكتلندى من الشمال ، والحرب مع ويلز ، أى لمجرد الموافقة على الضرائب المقترحة من جانب الملك . مثلما حدث فى جميع الاجتماعات التى شهدت حضور ممثلى هذه الطبقة على مدى الفترة من ١٢٧٥ - ١٢٩٠ ، فقد

(1) Smith, Op.Cit., pp.114 , 115 ; Hume, Op.Cit., p.116 ; Lunt, Op.Cit., p.217 ; Feiling , *A Hist. of England : from the coming of the English to 1938* (London, 1948) p.181 ;

سعداوى ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٢) يعلق المؤرخ الإنجليزي William Stubbs على الأخطار التى جابهت الملكية عام ١٠٩٥ بقوله : " بأنه بات واضحاً أمام تقادم هذه الأخطار أن الملك لم يكن قادراً حتى شهر يونيو من عام ١٠٩٥ على اتخاذ الإجراءات اللازمة لعقد اجتماع نيابى أى البرلمان ، ولذا فقد أعلن مرسوماً ملكياً بدعوة أعضاء المجلس الكبير من رؤساء الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، رؤساء المؤسسات الدينية ، الأيرلات ، البارونات ، والقضاة لحضور اجتماع المجلس فى الأول من أغسطس ١٢٩٥ فى ويستمنستر ، بهدف مناقشة المقترحات الخاصة بالوساطة مع فرنسا ، من خلال اثنين من مبعوثى البابا ، مفوضان بسلطة عقد الهدنة . وبالرغم من أن هذا الاجتماع لم يشهد حضور ممثلين عن العموم أى الطبقة المتوسطة ، لم يخرج عن كونه اجتماع للمجلس الكبير ، فقد صنف فى سجلات البرلمان باعتباره برلمان " الأمر الذى يؤكد صحة استنتاجاتنا عن ماهية برلمانات هذه الفترة . وتجدر الإشارة أن البرلمان النموذجى قد عقد فى شهر نوفمبر من عام ١٢٩٥ . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Stubbs, *Select charters*, pp.477, 478 ; John Capgrave, Op.Cit., pp.170 - 172 ; Dietz, Op.Cit., p.88 ; Tout, Op.Cit., p.192 ; Smith, Op.Cit., p.117

أسفر ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالبرلمان النموذجي بعد مناقشة الطبقات الثلاث كل على حدة من البارونات ، كبار رجال الدين ، الطبقة المتوسطة ، اشتراك كل من الفرسان والبارونات في دفع ضريبة بنسبة ١١/١ من ممتلكاتهم ، والبرجوازية نسبة السبع ، ورجال الدين العشر ، ومن الجدير بالذكر أن فرسان المقاطعة منذ تمثيلهم في المجلس الكبير - البرلمان فيما بعد - وهم يعملون بالاشتراك مع أقرانهم من ملاك الأراضي أي البارونات . لأن مجلس العموم الذي تكون في القرن التالي من الفرسان والبرجوازية لم يكن قد ظهر بعد . وعن مغزى اندماج هاتين الطبقتين أي الفرسان والبرجوازية ، كانت الأخيرة تمثل طبقة اجتماعية جديدة على درجة عالية من الثراء ، ولكن ينقصها المكانة والهيبة اللازمة لتكوين مكانة سياسية مستقلة وفعالة ، في حين كان فرسان المقاطعة من نفس النسيج الاجتماعي لبارونات المجلس الكبير . وانضمامهم النهائي مع ممثلي المدن أعطى لهاتين الطبقتين المكانة والتأثير السياسي الفعال ، الذي لم يكن من المستطاع تحقيقه بأية طريقة أخرى . وفي عهد إدوارد الأول لم تكن ملامح هذا الانضمام قد اتضحت بعد .^(١)

لا مراء أنه باستثناء تلبية الاحتياجات المالية الملحة للتاج لم يسفر الاجتماع الكبير عام ١٢٩٥م عن اتخاذ أي إجراء حاسم ، لأن إدوارد الأول لم يعتزم بدعوته لهذا الاجتماع إرساء تقليد سياسي دائم ، أو منحه سلطة حقيقة فيما عدا توفير الاعتمادات المالية للتاج ، وأن يكون ذلك بموافقة جميع رعاياه . علاوة على ذلك لم يصبح حضور ممثلي الطبقة المتوسطة تقليداً دائماً في الاجتماعات النيابية التالية ؛ إذ نجد حوالي اثنا عشر اجتماعاً من الاجتماعات النيابية العشرين والتي عقدت بعد عام

(١) في ضوء المراسيم الخاصة بالبرلمان النموذجي ، تم توجيه خطابات مباشرة من الملك لدعوة كل من رؤساء أسقفيتي كانتربري ويورك ، ومقدم الاسبتارية ، واثنان وأربعون من رؤساء الأديرة ، والأساقفة ، وأحد عشر أيرل ، وثلاثة وخمسون من البارونات ، كبير القضاة ، ثمانى وثلاثون قاضياً ، وآخرون من القضاة الجوالين ، وأعضاء وموظفي المجلس لمزيد من التفاصيل عن وثائق هذا الاجتماع انظر :

Stubbs, *Select charters*, pp.479 – 482 ; smith, *Op.Cit.*, p.117 ; Lunt, *Op.Cit.*, p.216, Hall and Albion, *Op.Cit.*, pp.153, 154 .

١٢٩٥ لم تشهد حضور ممثلين عن المقاطعات أو المدن . وثلاث فقط هي التي حذت نموذج اجتماع ١٢٩٥ . وعلى حد تعبير المؤرخ سميث كان الاجتماع الكبير أو البرلمان النموذجي بمثابة خطوة على مسار طويل من الإجراءات والممارسات التي أرست تدريجياً مبدأ ضرورة وأهمية مشاورة الطبقة المتوسطة في البرلمان .^(١)

وتعليقاً على نعت الاجتماع الكبير عام ١٢٩٥ باسم البرلمان النموذجي يقول المؤرخ الإنجليزي المعاصر لونت Lunt " أن اصطلاح البرلمان النموذجي يعد تعبيراً مضللاً بعض الشيء ، لأنه لم يصبح نموذجاً دائماً تحتذى به جميع المجالس النيابية الكبرى التي عقدت فيما بعد . لأنه لم يتضمن حضور تلك الفئة من صغار رجال الدين من قساوسة الكنائس الأبروشية أو الكاتدرائية ، الذين توقفوا عن الحضور بعد هذا البرلمان ، وأثروا منح الضرائب الخاصة بهم من خلال مجامعهم الكنسية ، وترك التعامل بصدد مصالحهم الكنسية الأخرى لكبار رجال الدين من أعضاء المجالس الكبير .^(٢)

ويضيف المؤرخ الإنجليزي المعاصر ويلسون Willson مؤكداً ذلك بقوله : " بأنه ليس ثمة شيء نموذجي في هذا البرلمان باستثناء أنه ضم ممثلين عن جميع الطبقات التي ظهرت في البرلمانات التالية في العصور الوسطى .^(٣) وفي ضوء هذه الدراسة فإننا نتفق مع هذين المؤرخين .

وعن طبيعة دور الطبقة المتوسطة في البرلمانات التي عقدت في عهد إدوارد الأول ، نرى أن سلطة ومجال عمل ممثلي هذه الطبقة جاءت محددة وهامشية وفي أضيق الحدود . فمن خلال اجتماع الأعضاء جميعاً في قاعة واحدة ، يقف ممثلي هذه الطبقة في مؤخرة القاعة مجرد مستمعين ، مغالاة في إبداء الاحترام والتقدير . حيث يتشاور الملك معهم بصدد الضرائب المقترحة فقط ، والوقف على حالة الرأي العام في المناطق المحلية ، وأحياناً بصدد القوانين التي ينبغي إعدادها . ثم انصرفهم بعد

(1) Smith, Op.Cit., p.118 ; Dietz, Op.Cit., p.89 .

(2) Lunt, Op.Cit., p.216 .

(3) Willson, Op.Cit., p.149 . حاشية رقم (٥)

تسجيل موافقتهم على الضرائب المطلوبة منهم ، باعتبار ذلك الهدف الرئيسى لحضورهم ، تاركين الملك ومجلسه لقبول نصيحتهم أو رفضها . بينما البرلمان مستمر فى الانعقاد بعد ذهابهم . وقد يبدأ المجلس فى العمل قبل حضورهم ، ولا سيما وأن حضورهم لم يكن مفروضاً عليهم من الناحية القانونية ، لأنهم خارج شريحة التبعية الإقطاعية للملك . بيد أن الشئ الوحيد الذى كان باستطاعة ممثلى الطبقة المتوسطة القيام به يتمثل فى تقديم الالتماسات أو الشكاوى للملك سواء كانت شخصية أو جماعية. ومن خلال هذا المنفذ استطاعوا تدريجياً المشاركة فى العمل التشريعى . (١)

وتقدم الالتماسات للملك بدون مساندة كبار البارونات فى المجلس كما جرت العادة ، للبت فى شكاوى عامة أو فردية ، وإذا حظى الالتماس بموافقة الملك يتم إعداد وصياغة القانون الذى يستمد بنوده من مضمون الالتماس . (٢)

(1) Smith, Op.Cit., p.150 ; Powiche, Op.Cit., pp.344, 345 ; Green , Op.Cit., p.166 .

ولمزيد من التفاصيل عن ماهية الالتماسات المقدمة من جانب ممثلى الطبقة المتوسطة فى البرلمانات التى عقدت على مدى الفترة من ١٢٩٠ - ١٣٠٧ انظر الدراسة القيمة التى قام بها

Haskins, " The petitions of Representatives in the Parliaments of Edward I" in *E. H. R.*, Vol. L III, No, CCIX – January 1938, pp.1 –20 .

(٢) يذكر المؤرخ Haskins أن الشكاوى المقدمة من النواب فى المجلس الكبير كانت تقدم باسم أى شخص من السبعة وثلاثين مقاطعة التى اعتادت إرسال ممثلين عنها إلى البرلمان فى الفترة من ١٢٩٠ - ١٣٠٧ ، وأيضاً باسم أى من المدن المائة وخمسة وستون المعروفة بإرسال ممثلين عنها أثناء هذه الحقبة . وأيضاً باسم الأفراد ، ولا سيما وأن هناك مرسوماً ملكياً أعلن فى الثالث عشر من أكتوبر عام ١٢٨٩ يحث كل من لديه شكوى ضد وزراء ونواب الملك يجب أن يتقدم بها . وبالفعل تم تشكيل لجنة لسماع هذه الشكاوى التى كانت فى معظمها موجهة ضد موظفى الملك . وقدمت الشكاوى من جميع الطبقات الممثلة فى المجلس الكبير ، البارونات ، الفرسان ، البرجوازية ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، المؤسسات الدينية ، ويقدر المؤرخ عدد الشكاوى التى قدمت على مدى الفترة من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر بحوالى عشرين ألف . وقد تراوحت بين الآن ب إقامة سوق أو منح أرض ، مناصب ، حق التصويت ، عزم دفع ديون أو أجور الخ ، لمزيد من التفاصيل انظر :

Haskins, Op.Cit., PP.7 , 8 ; Smith, Op.Cit., P.118, Willson, Op.Cit., P.150 .

وفى ضوء ذلك أصبح حضور ممثلى الطبقة المتوسطة فى المجلس الكبير - البرلمان فيما بعد - أمراً لا مندوحة عنه ، وفى هذا العصر الذى شهد سوء الطرق ، وانعدام وسائل الاتصال السريع ، لا يستطيع الملك الوقوف على حالة الرأى العام فى المقاطعات بدون حضور ممثلى هذه الطبقة . ومن هنا تبدو أهمية المعلومات التى تسديها، علاوة على أن حضور ممثلين عن جميع مناطق المملكة فى اجتماع عام لا بد وأن يكون فرصة سانحة تجعل الأمر برمته رهن إشارة الملك ، والذى يتعذر تحقيقه بآية وسيلة أخرى . (١)

وإذا كان الهدف الأساسى للتاج من دعوة ممثلين عن الطبقة المتوسطة لحضور اجتماع المجلس الكبير للملك يتمثل فى الموافقة على الضرائب المقترحة ، إلا أن المطالب المالية للتاج لم تلق دوماً الاستجابة من رعاياه ، فقد حدث بعد عامين من الاجتماع الشهير عام ١٢٩٥ حادثة على جانب كبير من الأهمية فى مسيرة التطور البرلمانى فيما بعد . وفى عام ١٢٩٧ كان الملك إدوارد الأول فى حاجة ماسة لتمويل حملاته العسكرية المعتادة فى فرنسا واسكتلندا . وعندما طالب بفرض ضرائب باهظة سرعان ما اصطدم بصخرة المعارضة البارونية . وفى الاجتماع الذى عقد فى سالزبورى وكالعادة وصف بالبرلمان من جانب المؤرخين ، تراءت مشاهد رد فعل عنيف من قبل مجموعة بارونية تحدث الأوامر الملكية بصدد المشاركة فى الحملة العسكرية فى جاسكونى وفلاندرز ، وأبدى العديد من البارونات استيائهم للضرائب المتتالية التى فرضت عليهم ، ورفض رجال الدين بناءً على أمر البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤ - ١٣٠٣) دفع أية ضرائب بدون إذن البابوية . أيضاً شهد هذا الاجتماع استياء التجار للابنزازات الملكية المجحفة على تصديرهم للصوف ، حيث قدرت الضريبة المفروضة بحوالى أربعين شلن على كل جوال صوف ، والتى تعادل ثلث القيمة . (١)

(1) Lunt, Op.Cit., P.218 .

(1) *The chronicle of Bury St Edmunds*, p.138 ; Stubbs, *The constitution Hist, of England*, Vol. II, pp.160 , 161 ; *Select charters*, PP.482, 483 ; tout, Op.Cit., P.193 ; Smith, Op.Cit., p.119 ; Ashely, *Great Britain to 1688* (Michigan, 1961) P.124 .

وأثناء غياب إدوارد الأول فى القارة قام - البرلمان - بإعادة إعلان الماجنا كارتا ، والامتيازات والحريات التى سبق وتعهد بها أسلافه ، وضرورة مراعاتها بدون أدنى انتهاك لأى من بنودها . واضطر الملك فى نوفمبر عام ١٢٩٨ للموافقة على ما يعرف باسم إقرار العهد Confirmatio cartarum . والذى نص فى الفقرة السادسة منه على " يتعهد الملك من الآن فصاعداً بعدم فرض أى إعانات أو ضرائب أو هبات إلا بالموافقة العامة لجميع المملكة ، وللصالح العام للمملكة فيما عدا الإعانات والضرائب الإقطاعية القديمة والمعتادة " (٢)

(٢) يتضمن المرسوم الملكى الخاص بإقرار العهد سبع بنود هى كالتالى :

أولاً : إدوارد ، بمباركة الرب ، ملك إنجلترا ، وسيد أيرلندا ، ودوق اكوئين ، إلى جميع الذين سوف يسمعون أو يرون هذا المرسوم ، التحيات ، أنكم تعلمون أننا بمباركة الرب والكنيسة المقدسة ، ولصالح جميع مملكتنا ، منحنا من أجلنا وأجل ورثتنا هذا العهد الأعظم للحريات ، وقانون الغابة charter of the forest ، اللتين تم منحهما بالموافقة العامة لجميع المملكة فى عهد أبانا الملك هنرى . هذه العهود يجب أن تراعى فى كل بنودها بدون انتهاك ، وسوف نرسل هذه العهود موقعة بختنا إلى قضائنا ، وجميع حكام مقاطعاتنا ، وسائر هوابنا ، وكافة مدننا فى جميع أنحاء المملكة مع مراسيمنا التى تتضمن ذلك ، لكى يقوموا بإعلانها ، وأن يعلنوا للشعب أنه سوف يتم مراعاتها من جميع النواحي . وأن قضائنا وحكام المقاطعات والموظفون ، والذين يقع على عاتقهم إدارة القانون فى مملكتنا سوف يضعوا هذه القوانين المذكورة نصب أعينهم فى الدفاع وإصدار الأحكام . ومن البديهي أن يكون كل من العهد الأعظم باعتباره القانون العام ، وقانون الغابة لصالح شعبنا .

ثانياً : أننا نتعهد إذا صدر أى حكم من الآن فصاعداً ، مخالفاً لبنود العهود المذكورة ، من قبل قضائنا أو أى شخص آخر من وزرائنا ، سوف يتم محاكمتهم بمقتضى بنود العهود السالفة ، وحينئذ يفقد منصبه وحيازته .

ثالثاً : سوف نقوم بإرسال هذه العهود الموقعة بختنا لإيداعها فى الكنائس الكاتدرائية فى جميع أنحاء مملكتنا ، على أن تقرأ أمام الشعب مرتين فى العام .

رابعاً : يجب أن يعلن رؤساء الأساقفة والأساقفة عقوبة الحرمان الكنسى ضد جميع الذين يتسببون بالقول والفعل والمشورة ، فى انتهاك أو تجاوز أى من بنود العهود المشار إليها . وأن تعلن هذه العقوبات مرتين فى العام ، وتذاع من خلال الكهنة المشار إليهم . وإذا حدث أن تهاون أى من رجال الدين هؤلاء فى الإدانة بالعقوبات السالفة ، حينئذ يكون رؤساء أساقفة كانتربرى ويورك - كما جرت العادة - هما الملائمين لتوجيه اللوم لهؤلاء ، وإرغامهم على الإذعان للإدانة .

وبالرغم من أن إدوارد الأول لم يراع تماماً ما وعد به ، إلا أن أهمية أحداث عام ١٢٩٧ - فى ضوء المرسوم السابق - تؤكد بجلاء أنه تقرر من الآن فصاعداً عدم الموافقة على منح أية ضرائب غير إقطاعية بدون موافقة ممثلى الطبقة المتوسطة. وبالتالي تأكيد دعوة ممثلى هذه الطبقة لحضور اجتماعات المجلس الكبير للملك . وفى ضوء الثراء المالى لهذه الطبقة أصبحت موافقة ممثليها على منح الضرائب المفروضة عليهم من قبل الملك ، سلاحاً يستخدم مقابل انتزاع الامتيازات والسلطات المرغوبة من الملك . بيد أن دلائل ذلك لم تتضح فى عهد إدوارد الأول ،

خامساً : نظراً لخوف الكثيرين من شعبنا من الضرائب والإعانات التى كانت تقدم من أجلنا فى الماضى بشأن حروبنا والقضايا الأخرى . ويؤدونها عن طيب خاطر ، قد أصبحت عبئاً عليهم وعلى ورثتهم ، كما هو موجود فى السجلات . وعلى نفس النمط فإن الضرائب التى تؤخذ فى جميع أنحاء المملكة من خلال وزرائنا ، ومنحت من أجلنا نحن وورثتنا ، ومن ثم فإننا سوف لا نجعل هذه الضرائب والإعانات تتحول إلى تقليد يحاكى أى شئ أُتخذ فى الماضى ، وربما وجد فى السجل أو بأى أسلوب آخر .

سادساً : إضافة إلى ذلك فإننا نوافق باسمنا واسم ورثتنا ، أيضاً لرؤساء الأساقفة ، الأساقفة ، رؤساء الأديرة ، وسائر رجال الكنيسة المقدسة ، وأيضاً الأيرلات ، البارونات ، وجميع طوائف المملكة ، بأنه من الآن فصاعداً سوف لا نتبع هذا الأسلوب فى الضرائب فى مملكتنا ، إلا بالموافقة العامة لجميع المملكة ، ومن أجل الصالح العام للمملكة ، فيما عدا الإعانات والضرائب الإقطاعية القديمة والمعتادة سابقاً : حدث كثيراً أن معظم طوائف المملكة وجدوا أنفسهم يتنون من وطأة المكوس على الصوف ، لذا يبدو بديها فى ضوء ضريبة تقدر بحوالى أربعين شلن على كل جوال صوف أن يلتمسوا إلينا للتحرر من ذلك ، وإننا استجابة لالتماسهم سوف نحررهم من ذلك ، ونتعهد بعدم تكرار ذلك مستقبلاً ، أو أى شئ آخر بدون موافقتهم العامة ، وبارائهم ، فيما عدا ما كان يمنح لنا ورثتنا من مكوس على الصوف والجلود من قبل . ونصدق على ذلك من خلال خطاباتنا . وتم منح وإقرار ذلك فى chent فى اليوم الخامس من نوفمبر فى العام الخامس والعشرين من ولايتنا . هذا وقد اعتمدنا هنا على الترجمة الإنجليزية للنص اللاتينى كما ورد ذكرهما عند المؤرخ :

Stubbs, Select charters, p.490 - 493 ; *The chronicle of Bury St Edmunds*, pp.138, 139.

لتشهد القرون التالية إصرار الملكية الإنجليزية على ما هو أكثر من الدخل العادي ،
وتطلع البرلمان لما هو أكثر من صلاحياته العادية .^(١)

بيد أن عدم مراعاة إدوارد الأول لمرسوم عام ١٢٩٧^(٢) ، يجب تفسيره في
ضوء الوضع السياسي للملكية الإنجليزية من جهة ، والعلاقات بين الملكية الإنجليزية
والبابوية في العقد الأخير من حكم إدوارد الأول من جهة أخرى . فقد انغمس الملك
في رحى الحرب مع الملك الفرنسي فيليب الرابع بسبب الممتلكات الإنجليزية في
فرنسا ، والمتاعب الناجمة عن العرش الاسكتلندي بعد عام ١٢٩٠ ، وحث البابا
يونيافس الثامن الملكين المتنازعين على قبول وساطته ، من منطلق أيولوجيته
بضرورة سمو السلطة الروحية على السلطة الدنيوية ، في صيغة مشددة لم تستخدم من
قبل أي بابا آخر منذ بابوية انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) . ورفض الملكين
قبول وساطته . وفي الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٢٩٦ أعلن البابا بونيفاس
الثامن مرسومة الشهير clericis laicos ، الذي نص على منع رجال الدين في أي
مكان من دفع أي ضرائب عن إيراداتهم الكنسية للحكام العلمانيين بدون موافقة
البابوية^(٣)

وصادف هذا التحريم البابوي ترحيباً من رجال الدين الإنجليز الذين يتنون
آنذاك تحت وطأة الضرائب المتتالية على مدى السنوات الثلاث الماضية . وتحت قيادة
رئيس أساقفة كانتربري الذي أعلن للملك استحالة تجاهل الأمر البابوي ، رفضوا

(1) Smith, Op.Cit., pp.119, 120 ; Lunt, Op.Cit., p.219 .

(٢) من الجدير بالذكر أن إدوارد الأول قد حث بهذا المرسوم أكثر من مرة . لذا فقد تم إقرار التأكيد
النهائي على هذا المرسوم في البرلمان الذي عقد في لنكولن Lincoln في الرابع عشر من فبراير
عام ١٣٠١ . لمزيد من التفاصيل انظر :

The chronicle of Bury St. Edmunds, pp.140, 141 ; Stubbs, *Select charters*,
pp.490, 495; *The Constitutional Hist of England*, Vol. II, p.163

(3) John Capgrave, Op.Cit, pp.170, 171 ; Stubbs, *Select, Charters*, p.483 ;
Smith, Op.Cit., p.121, Powicke, Op.Cit., p.320 .

ولمزيد من التفاصيل حول مشكلة العرش الاسكتلندي انظر :

Capgrave, Op.Cit., p. 171 ;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ ، حاشية رقم (٣)

الإذعان للمطالب الملكية بدفع نسبة الخمس من إيراداتهم استناداً للمرسوم البابوي عام ١٢٩٦ . وأعلنوا أنهم يدينون بالطاعة للسلطين الملكية والبابوية ، ولكنهم يدينون بالطاعة أكثر للسلطة الروحية . وفي فرنسا منع الملك الفرنسي فيليب الرابع خروج الأموال من المملكة بدون الموافقة الملكية . وفي إنجلترا اعتبر إدوارد الأول معارضيهِ من رجال الدين مارقين عن القانون ، ووضعهم خارج حماية المحاكم الملكية والقانون العلماني . مما اضطر معظم رجال الدين للإذعان للملك بدفع ضريبة الخمس التي سبق أن طالب بها . في حين تمت مصادرة أموال الذين رفضوا دفع هذه الضريبة . واضطر البابا بونيفاس الثامن بتأثير معارضة ملكي فرنسا وإنجلترا للتراجع عن مرسومه المتشدد ، بتعديل بنوده ، حين سمح لرجال الدين بتقديم الهبات للملك بدلاً من الضرائب . بل وإلغاء مرسوم عام ١٢٩٦ تماماً في غضون عام تقريباً . وأسفر هذا النزاع بين رجال الدين والملك بصدد الضرائب الملكية ، عن انضمام رجال الدين لجانب المعارضة البارونية في الصراع من أجل تأكيد القوانين ، لينتهي النزاع بين الملك ومعارضيهِ بالانتصار التام للملك والبابوية ، حين أعلن البابا كليمنت الخامس Clement V (١٣٠٥-١٣١٣) فور ارتقائه الكرسي الرسولي تبرئة إدوارد الأول من القسم الذي اتخذهُ بشأن إقرار القوانين عام ١٢٩٧ ، وإعفاء وينشيلسي Winchelsey رئيس أساقفة كانتربري من منصبه باعتباره مسئولاً بدرجة كبيرة عن إثارة المعارضة الكهنوتية والبارونية ضد الملك عام ١٢٩٧ . وأمر البابا رجال الدين الإنجليز بأن يدفعوا للملك ضريبة بنسبة العشر لمدة سبع سنوات . وتعبيراً عن الامتنان سمح إدوارد الأول للبابا بفرض ضريبة جديدة على رجال الدين الإنجليز في الجزر البريطانية لمدة ثلاث سنوات ، ليجد رجال الدين أنفسهم بين شقي رحى الاحتياجات المالية للبابوية والملكية . (١)

(1) *The Chronicle of Bury St. Edmunds*, pp.151-154 ; Stubbs, *The constitution Hist. of England*, Vol. II, pp.165-166 ; *Select charters*, p.489 ; Smith, *Op.Cit.*, p.122. Lunt, *Op.Cit.*, p.221 ; Feiling, *Op.Cit.*, pp.183, 184 .

ويأبى عهد إدوارد الأول أن يأذن بالمغيب قبل أن يشهد إزاحة الستار عن ارتفاع صيحة العداء الشعبى من جانب العلمانيين والكنسيين على السياسة المالية للبابوية . وفى الاجتماع الذى عقد عام ١٣٠٧، والذى اصطلح المؤرخون على تسميته باسم برلمان كارسيل Carsile . ناشد المجتمعون من البارونات والفرسان والبرجوازية الملك لوضع نهاية للتجاوزات المالية للبابوية ، ومنع الجابى البابوى وليم تيستا William Testa ، الذى استدعى للمثول أمام المجتمعين ، من جباية أى ضرائب أخرى يأمر بها البابا . وبعد انتهاء هذا البرلمان قام الملك من منطلق التزامه باتفاقه السابق مع البابا كليمنت الخامس بإلغاء قرار المجتمعين بصدد منع الضريبة التى فرضت من قبل هذا البابا، وموافقة الملك على فرض ضريبة جديدة على رجال الدين فى الجزر البريطانية . والتى عرفت باسم Annates أى الملحقات أو الإضافات، وساند بشدة قرار المجتمعين من البارونات والاييرلات ورجال الدين وسائر طوائف المملكة ، وبشأن عدم جباية أى أموال أخرى لم تكن تؤدى فى الماضى إلى روما . (١)

لا مرأ أن هذا القرار كان له أكبر الأثر فى وقف الابتزازات المالية البابوية، التى استمرت بدون انقطاع لمدة تربو عن نصف قرن ، لذا يعتبر علامة بارزة ونقطة تحول مهمة فى تطور المعارضة الشعبية الإنجليزية تجاه السياسة المالية للبابوية ، وبداية لسلسلة من القوانين الهامة المضادة للبابوية ، التى شرعت بواسطة - البرلمان - أثناء القرن الرابع عشر ، هذا القرن الذى شهد نهاية الزعامة البابوية فى العصور الوسطى ، حيث اتخذ البابا مأواه فى أفينون Avignon بفرنسا لفترة امتدت زهاء سبعون عاماً فيما اصطلح على تسميته الأسر البابوى . (٢)

(1) Stubbs, *The Constitutional His. of England*, Vol. II, p.170 ; Smith, *Op.Cit.*, p.122 ; Lunt, *Op.Cit.*, P.222 ;

ولمزيد من التفاصيل عن هذا البرلمان انظر الدراسة التحليلية التى قام بها كل من : Richardson & Sayles " The parliament of Garlisle, 1307- some New Documents " in *E. H. R.*, Vol. LIII, 1938, PP.425-437 .

(2) Smith, *Op.Cit.*, p.122, Lunt, *Op.Cit.*, p.222 ; Green, *Op.Cit.*, p.166 ; Asheley, *Op.Cit.*, p.125 .

وفى نهاية هذا العرض للغوص فى أعماق جذور فكرة البرلمان الإنجليزى منذ التاريخ الباكر للملكية الأنجلونورمانية حتى الاجتماع الكبير أو ما اصطلح المؤرخون على تسميته باسم البرلمان النموذجى عام ١٢٩٥ . على مدى هذه الفترة التى شهدت إرساء اللبنة الأولى فى تكوين البرلمان الإنجليزى ، نقول أنه فى ضوء الفكر السياسى للملكية الإنجليزية ، فإن فكرة دعوة ممثلين عن الطبقة المتوسطة لحضور اجتماع المجلس الكبير للملك جاءت ملائمة لخدمة المصالح الملكية أكثر من الرعايا . فقد وجد النواب أنفسهم يتكبدون رحلات مضيئة وباهظة التكاليف لحضور اجتماع الملك فى قصر ويستمنستر . فقد قدرت نفقات تمويل رحلة ممثلى الفرسان والبرجوازية ، بما يعادل اثنين شلن يومياً للنائب عن المدينة ، وأربعة شلن للفرس . ومن ثم ليس ثمة غرابة أن تبذل المدن محاولات يائسة للتخلص من عبء الحضور ، فى عصر شهد سوء وسائل المواصلات سواء كانت برية أو نهريّة أو بحرية ، فقد أصرت بعض المدن على عدم إبلاغ حاكم المقاطعة بأسماء مرشحيها ، وقام البعض الآخر بشراء قوانين للإعفاء من هذا الامتياز المضى . مما يعنى أن حضور ممثلى المدن كان يشكل عبئاً ثقيلاً عليهم وعلى المدن التى أرسلتهم . علاوة على ذلك فإن مسألة اختيار ممثلى هذه الطبقة والتى تتم فى محكمة المقاطعة ، إنما تقع على عاتق حكام المقاطعات ، الذين يحسمون الانتخاب عادة لصالح مرشحيهم . فى حين لم تشارك جموع السكان سوى بدور ضئيل فى اختيار مرشحيها من خلال قلة من الشخصيات البارزة المفوضين لهذا الغرض .^(١)

ويذكر المؤرخ ريتشارد جرين Richard Green أن منح ممثلى المدن للضرائب فى المجلس الكبير - البرلمان فيما بعد - أثبت دوماً أنه أكثر فائدة من الابتزازات السابقة لمندوبى الخزانة ، وإذا ما أنست المدن فى نفسها قوة وأظهرت تردداً فى مساندتها العامة للتاج ، كان الملك لهم بالمرصاد ، إذ كان من السهل السيطرة عليهم ، لا سيما وأن اختيار المدن التى تمثل فى المجلس بقى كلية فى أيدي الملك ، ومن ثم فإن إعداد ممثلى المدن من الممكن أن تزداد أو تتضاءل حسب مشيئة

(1) Green, Op.Cit., P.166 .

الملك . الذى يترك تحديد ذلك لحاكم المقاطعة . ولعل أبرز الأمثلة على ذلك أنه بإيعاز من المجلس الملكى قام حاكم مقاطعة Wiltshire بتخفيض عدد ممثلى المدن الواقعة فى مقاطعته من أحد عشر إلى ثلاثة فقط . بيد أن هذه الممارسة لم تستطع عرقلة امتياز التمثيل النيابى للطبقة المتوسطة وتحديد المدن فى المجلس الكبير ، فى ضوء حرص بعض المدن على الاحتفاظ بهذا الحق . (١)

ونظراً للاحتياجات المالية الملحة للتاج بدت الإجراءات القانونية أمراً ضرورياً لضمان حضورهم فقد ورد فى أحد المراسيم " أن تقدم ثمانية ثيران وأربعة جياد مدربة أمام الملك فى يوم محدد ، ضماناً لحضورهم البرلمان . " (٢)

(1) Loc. Cit.

(2) Ibid., P.167 .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأوربية :

Annales Londoninenses ;

Chronicles of Reigns of Edward I and Edward II,
Vol. I (ed.) W. Stubbs in Rolles Series, London,
1881.

The chronicle of Bury St. Edmunds 1212-1301 (ed.) by
Antonia Gransden. London. 1964 .

Edward I. , King of England .

Confirmatio chartarum . A. D. 1298.

Summons of Knights and Burgesses, A. D. 1275.

Grant of Custom on Wool, Wollfells and leather.
A. D 1275 .

Henry I. King of England .

Charter of Henry I to the citizens of London .

Charter of Liberties Issued by Henry I.

Henry II., King of England .

Assisa de clarenduns facta a rege Henrico scilicet
secound, A. D. 1166 .

Charters of Boroughs granted by Henry II .

Henry III., King of England .

Charters of Towns granted by Henry III.

Second charter of Henry III, A. D. 1217 .

Writ for Summong of four Knights of the shire .
A. D. 1226 .

John ., King of England.

Charters of Towns granted by John.

Great charter of liberites 1215 .

كل هذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق الوارد ذكرها

عند :

Stubbs, Select charters, Oxford, 1921 .

John Capgrave.,

The chronicle of England, London, 1858 .

Matthew Paris.,

English History From the year 1235 to 1273,
London, 1858.

Richard I., King of England.

Charters of Towns, in Stubbs (ed.) Op. Cit.

William of Newburgh,

Historia Rerum Anglicarum, in chronicles of the
Reigns of stephen, Henry II and Richard, ed. R.
Howlett, 2 Vols, Rolles series, 1884, 1885 .

William I., King of England,

Ordinance of William Separating the Spirtual and
Temporal courts 1070, in Stubbs (ed.) Op. Cit.

ثانياً : قائمة المراجع الأوربية :

Adams, G. B ;

The political History of England : from the Norman conquest to the Death of John 1066-1216, New York and Bombay, 1905.

Ashley, M. ;

Great Britain to 1688, Michigan, 1961 .

Dietz ; F. G. ;

Apolitical and Social History of England, New York, 1937.

Feiling, K. ;

A History of England : From the coming of the English to 1938, London, 1948 .

Green, J. R. ;

A short History of the English people, 2 Vols, London, 1960.

Hall, W. P. & Albion, R. G.;

A History of England and the British Empire, London, 1946.

Haskins, G. M.;

“ The petitions of Representatives in the parliaments of Edward I. “ E. H.R, Vol. L III, NO.CCIX – January 1938, PP. A. – 20 .

Hume, D. ;

The History of England : from the Invasion of Julius Gaesar to the Revolution of 1688, London, 1836.

- Lloyd , H. R.;
The Norman conquest, London, 1967 .
- Lunt, W. E.;
A History of England, London, 1928 .
- Powicke, F. M.;
The Thirteenth century 1216-1307, Oxford,
1962.
- Richardson, H. G. & Sayles, G. O.;
“ The parliament of Garlisle, 1307- some New
Documents “ in E. H. R, Vol. L.III, 1938, PP.
425-437.
- Richardson, H. G;
“ Henry Is charter to London “ E. H. R, Vol.
XLII, Vo. 165, January, 1977, PP. 80-87 .
- Smith, Goldwin ;
A History of England, New York, 1966 .
- Stenton, D. M. ;
English society in the Early Middle Ages
1066-1307, Penguin, 1959.
- Stubbs, W.;
The constitutional History of England, 3 Vol.
Oxford, 1873 .
- Select charters and other Illustrations of
English constitutional History from the
Earliest times to the Reign of Edward the first,
Oxford, 1921 .

Tout, T. F.;

An Advanced History of Great Britain,
London, 1912,

Traill, H. D. & Mann, J. S; (eds.)

Social England : A Record of the progress of
the people from the Earliest times to the
present Day, London, 1979 .

Vickers, K. H. ;

- England in the later Middle Ages, London,
1926.

Warren, W. L.;

King John, London, 1878 .

Willson, D. H.;

A History of England, London, 1972 .

ثالثاً : المراجع العربية والمعربة :-

جوزيف نسيم يوسف : (دكتور) :

نشأة الجامعات في العصور الوسطى ، الإسكندرية ،

. ١٩٧١

زينب عبد المجيد : (دكتورة) :

الإنجليز والحروب الصليبية ، عين للدراسات والبحوث

الإنسانية والاجتماعية ، الطبقة الأولى ، ١٩٩٦ .

راوس : (ل .)

التاريخ الإنجليزي ، ت محمد مصطفى زيادة ، مكتبة

النهضة المصرية ١٩٤٦ .

سعداوى : (دكتور) :

تاريخ إنجلترا وحضارتها فى العصور القديمة
والوسطى ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٨ .

سعيد عاشور : (دكتور) :

الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى ، القاهرة ،
١٩٥٩ .

أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، التاريخ السياسى ،
الطبعة السادسة، ١٩٧٨ .

كانتور : (نورمان. ف.) :

التاريخ الوسيط ، جزءان ، ت قاسم عبده قاسم ، عين
للدراستات والبحوث الإنسانية والاجتماعية . الطبعة
الخامسة ، ١٩٩٧ .

موريس كين :

حضارة أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم
عبده قاسم ، عين للدراستات والبحوث الإنسانية
والاجتماعية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ .

عروض زواج العرائس في البلاط البيزنطي

(٧٨٨ - ٨٨٢م)

الدلالات السياسية والدينية

عبد العزيز رمضان

مصر

شهد البلاط البيزنطي منذ أواخر القرن الثامن وطوال القرن التاسع الميلاديين تقليداً فريداً من نوعه، كان نصيبه من التكرار خمس مرات فحسب، تمثل في إجراء عروض شاركت فيها فتيات جميلات جلبن من شتى أنحاء الإمبراطورية، وحظيت الفائزة منهن بشرف الزواج من وريث العرش الإمبراطوري.

ولأن هذا التقليد يتسم بالطرفة والتفرد في آن واحد، فقد استرعى انتباه عدد من الباحثين المحدثين الذين أقبلوا علي تناوله بالبحث والدراسة، واختلفوا فيما بينهم حول مدي مصداقيته من الناحية التاريخية، ففي حين اعتبره البعض^١ واقعاً تاريخياً لا يقبل الشك مدللين علي ذلك بأنه ورد في عدد من المصادر البيزنطية المعاصرة، تناوله البعض الآخر^٢ علي أنه مجرد إبداع أدبي صرف لا يرقى إلي مستوي الحقيقة التاريخية معتمدين في رأيهم هذا علي أن أغلب المصادر التي أوردته سير قديسين. وهذه الدراسة مجرد محاولة لتحديد تاريخية ذلك التقليد من خلال مصادر هذه الفترة لاستجلاء أسبابه ودلالاته السياسية والدينية، وهو الأمر الذي لم يتطرق إليه الدارسون الذين تناولوا هذا الموضوع بالبحث^٣.

^١ Treadgold, W.T., "Bride-Shows of the Byzantine Emperors," *B*, 49 (1979) 395-413; Garland, L., *Byzantine Empresses: Women and power in Byzantium AD.527-1204*, New York, 1999, 73, 80-1, 90, 96.

^٢ Rydén, L., "The Bride-Shows at the Byzantine Court: History or Fiction", *Eranos*, 83 (1985), 175 - 91; Speck, P., *Kaiser Konstantin VI*, 2vols, Munich, 1978, I, 203 - 8.

^٣ ركز تريديجولد في بحثه "عروض عرائس الأباطرة البيزنطيين" علي الآثار السياسية التي نتجت عن فشل الزيجات الناجمة عن هذه العروض، بينما عرضت جرلاند للموضوع في سياق كتابها "المرأة والسلطة في بيزنطة" دون الخوض في تفصيلاته.

وكان أول هذه العروض في عهد الإمبراطورة إيريني Irene، وتحديداً في منتصف عام ٧٨٨م، ويحدثنا عنه كل من الراهب ثيوفانيس Theophanes وكاتب سيرة القديس فيلاريتوس المعطاء St. Philaretus the Almsgiver،^٤ حيث يشير ثيوفانيس إلي أن الإمبراطورة إيريني أرسلت وقدماً من القضاة برئاسة البروتوسباتاريوس ثيوفانيس Theophanes protospatharios للبحث عن عروس تليق بأبنها قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧م) Constantine VI الذي كان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره^٥.

ويستكمل كاتب سيرة القديس فيلاريتوس القصة، فيخبرنا بأن القضاة بحثوا في كافة أنحاء الإمبراطورية، جنوباً وشمالاً وغرباً، دون أن يجدوا فتيات يناسبن الإمبراطور الشاب، فواصلوا رحلتهم إلى شرق الإمبراطورية حتي بلغوا بلدة أمنيا Amnia وفيها أستهل القضاة عملية البحث بقصر قديم وكبير لنبيل محلي يدعي فيلاريتوس، كان قد أنفق ثروته في التصديق علي الفقراء، ورغم أن أهل البلدة حاولوا لفت أنظار القضاة إلي فقره، إلا أنهم ظنوا أن تلك مجرد إشاعة روجت لإبعادهم عن الإقامة في قصره وعلي نفقته، وتلقاهم فيلاريتوس بترحاب بالغ، ولم يبخل عليهم بما أتيح له من كرم الضيافة، وساعده في ذلك كبار رجال البلدة.

ويواصل كاتب السيرة حديثه، فيخبرنا بأن القضاة سألوا فيلاريتوس عن بناته، فأخبرهم بأنه غير مسموح لهن بمغادرة حجراتهن، وتحت إلحاح شديد منهم سمح لهم فيلاريتوس برؤيتهن داخل حجراتهن الخاصة، وعندما وقعت أعين القضاة علي بناته وحفيداته لم يتمكنوا من تمييز حفيداته عن أمهاتهن لفرط جمالهن الذي بهر الجميع، ولما كانت البنات قد تزوجن بالفعل، فقد تحول القضاة نحو حفيداته الثلاث ماريّا

^٤ كاتب هذه السيرة هو نيقئاس الأمني، ابن شقيق القديس فيلاريتوس، وكتبها في حوالي عام ٨٢١ م أو ٨٢٢ م. انظر

La vie de S. Philarète, ed. et trad. Franc. M. H. Fourmy & M. Leroy, B, 9(1934), 85-107, esp 98; Rydén, L. , "The Revised Version of the Life of St. Philaretos the Merciful" and the "Life of St. Andreas Salos", *Analecta Bollandiana*, 100 (1982), 485-95, esp. 485.

Theophanes, *Chronographia*, trans. H. Turtledove, Philadelphia, 1982, 147. °

Maria وميرانثيا Myranthia ويونثيا Euanthia، وبعد أن أخضعوهن لاختبارات أعدت سلفاً، وجدوا أنهم جميعاً مؤهلات للمشاركة في العرض النهائي بالقصر الإمبراطوري، فاصطحبوهن مع كافة أفراد أسرة فيلاريتوس إلى القسطنطينية.

ويستطرد كاتب السيرة حديثه مشيراً إلى أن القضاة صادفوا توفيقاً في العثور على فتيات أخريات تنطبق عليهن الشروط والصفات المؤهلة للمشاركة في العرض الإمبراطوري، وكانت بينهن فتاة ثرية وجميلة ذكرت باسم "ابنة جيروننتيانوس Gerontianus"، التي رفضت باذراء اقتراح ماريّا حفيدة فيلاريتوس بعقد اتفاق ودي بين المتنافسات، قائلة "طالما أنني الأكثر ثراءً والأسمى نسباً والأفضل هيئة، فمن المؤكد أنني الفائزة".

وفي البلاط الإمبراطوري، تقدمت ابنة جيروننتيانوس جميع المرشحات، وحينما رآها الإمبراطور ووالدته قالاً لها: "إنك رائعة الحسن والجمال، غير أن تأنيقك يدل علي أنك لن تعني بأمر الإمبراطور"، ثم قدما لها الهدايا، ونحوها جانباً، وبعد أن فعلوا ذلك مع الأخريات، الواحدة تلو الأخرى، جاءت حفيدات فيلاريتوس في النهاية، وعندما وقعت أعين الإمبراطور ووالدته عليهن، خلبوا بجمالهن ورشاقتهن، فخطب الإمبراطور الفتاة الكبرى ماريّا^٦.

علي هذا النحو يسرد كاتب سيره القديس فيلاريتوس قصة أول عروض العرائس الإمبراطورية، ويتفق مع ثيوفانيس في أنه جاء نتيجة رغبة الإمبراطورة الأم

^٦ يذكر كاتب السيرة أن هذه الاختبارات ركزت في المقام الأول علي المقاييس المثالية لدرجة الجمال وهي طول القامة ومقاس الخصر والقدمين، دون الإشارة إلى أية صفات أخري تتعلق بالأخلاق أو التدين.

^٧ S.Philarete, 135 43; Garland, *Women and Power*, 81; Treadgold, *Bride-Shows*, 398-9; Kazhdan, A., & Sherry, L. F., "The Tale of a Happy Fool : The Vita of St.Philaretos the Merciful (BHG 1511z- 1512b) ", *B*, 66/2 (1996), 351-62, esp.355-7.

ويري كجدان وشيري أن قصة ماريّا في هذا العرض تشابه إلى حد بعيد قصة سندريلا الفلكلورية، حقيقة أن ماريّا لم تتعرض لاضطهاد زوجة أب شريرة، غير أن حسن حظها وجمالها والبهار الإمبراطور بها كان عاملاً حاسماً في اختيارها.

Kazhdan & Sherry, *Happy Fool*, 355.

إيريني في تزويج ابنها قسطنطين السادس، وأن جمال العروس كان العامل الأساسي في اختيارها، ولكن هل تبدو المسألة بهذه البساطة حقاً؟.

تتجه جرلاند Garland إلي أن إيريني استحدثت هذا التقليد لاستخدامه كوسيلة دعاية لنظامها الحاكم، أو ربما لأن إيريني نفسها أختيرت من قبل عن طريق عرض مشابه عند زواجها من الإمبراطور ليو الرابع (٧٧٥ - ٧٨٠م) Leo IV^٨، بينما يعتقد تريدجولد Treadgold أن إيريني أقدمت علي ذلك لحفظ ماء وجه الهيبة والكرامة الإمبراطورية بعد أن سحب ملك الفرنجة شارلمان Charlemagne وعده بتزويج إينته روترود Rotrud من قسطنطين السادس، ولتؤكد أن ابنها يمكنه الزواج من أجمل جميلات الإمبراطورية دون الحاجة إلي البرابرة الفرنجة^٩، ويدلل تريدجولد علي صحة رأيه برواية إينهارد Einhard كاتب سيرة شارلمان، التي تشير إلي أن ملك الفرنجة قرر في منتصف سنة ٨٨٧م سحب وعده بتزويج إينته من الإمبراطور البيزنطي^{١٠}.

وربما يكون من الأصوب أن ننظر إلي الأمر من زاوية أخرى، فالمتصفح لسياسة الإمبراطورة إيريني وشخصيتها، يدرك من الوهلة الأولى أنه أمام امرأة بهرها بريق العرش الإمبراطوري وملك عليها كل حواسها، فأرادت منذ اللحظة الأولى أن

٨ Garland, *Women and Power*, 73, 81.

تعتمد جرلاند في إقراضها الثاني علي أنه لا توجد أسباب واضحة لاختيار إيريني كعروس للإمبراطور ليو الرابع، حيث كانت فتاة يتيمة تنتمي إلي أسرة سارنتاباخوس الأثينية غير المشهورة، ولكنها في الوقت ذاته تؤكد علي عدم وجود دليل دامغ علي مشاركة إيريني في مثل هذا النوع من العروض

٩ Treadgold, *Bride-Shows*, 396-7.

١٠ إينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة. عادل زيتون، دمشق، ١٩٨٨ م، ص ١٢٠، ١٢٢-١٢٣.

ويذكر إينهارد أن سبب عدم إتمام شارلمان هذه الزيجة هو تعلقه الشديد ببنتاته إلي الدرجة التي جعلته لا يستطيع أن يؤدي عملاً من الأعمال إلا إذا كن في صحبته، ففرض عليهن التزام القصر وحرم عليهن مغادرته، كما أنه لم يجر لهن الزواج. انظر كذلك السيد الباز العريني، إينهارت، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٢١-٢٢.

تفرض علي ابنها نوع من الوصاية الدائمة، فيكون طوع أمرها، بحيث يخلص لها العرش وتغدو صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في شئون الحكم، امرأة لم تتردد في سمل عيني ولدها حينما استشعرت منه خطراً يهدد بقائها علي سدة الحكم^{١١}، امرأة بهذه الشاكلة هل كان من المتوقع أن تقبل بزواج ولدها من ابنة أقوى ملوك أوروبا في ذلك الحين؟

تشير أكثر الشواهد إلي أن إيريني لم تكن راغبة في إتمام مثل هذه الزيجة، وحتى إذا كان إينهارد صادقاً في روايته، وأن شارلمان هو الذي تتصل من ذلك الأمر، فالراجح أن إيريني كانت سعيدة بذلك، بل وربما تنفست الصعداء، ف راحت تبحث عن عروس تتناسب ولدها وطموحاتها السياسية في آن واحد، عروس لا تشكل أدنى خطر أو تهديد من ذلك النوع الذي كان من المحتمل أن تشكله الأميرة الفرنجية^{١٢}، بل ربما كان ثيوفانيس الأكثر مصداقية من إينهارد حينما أشار إلي أن رفض إتمام هذه الزيجة جاء من جانب إيريني نفسها، خاصة وأنه يقرن ذلك بقرار الإمبراطورة تزويج ابنها من ماريا حفيدة فيلاريتوس، ويؤكد علي أن هذه الزيجة تمت بضغط منها وضد رغبة الإمبراطور الشاب الذي كان مغرمًا بابنة شارلمان^{١٣}، وهو

^{١١} عن سياسة وشخصية الإمبراطورة إيريني. انظر علية الجنزوري، الإمبراطورة إيرين، القاهرة، ١٩٨١م Barbe, D., *Irène de Byzance : la femme empereur*, Paris, 1990.

^{١٢} يري بعض الباحثين أنه كان للبابوية دوراً في فشل هذه الزيجة، وأنها إذا كانت قد باركت خطي إيريني في سياستها المتحمسة لعبادة الأيقونات، والتي تجلت في مجمع نيقية عام ٧٨٧م، فقد ساورتها المخاوف من النتائج التي تترتب علي التحالف بين بلاطي بيزنطة وآخن، انظر، عفاف صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية زمن شارلمان، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٩٥-٩٦. ويتفق الباحث مع وجهة نظر الأستاذتين علية الجنزوري وعفاف صبرة حول أسباب فشل هذه الزيجة، حيث تقول الدكتورة علية الجنزوري: "ثمة رأي نرجح كفته عن سبب فسخ إيريني لخطبة أبنها من ابنة شارل ملك الفرنجة، وهو أنها خافت أن يصبح قسطنطين السادس ووالد زوجته شارل قوة تتلزع منها صولجان الحكم، وأن يتمكن قسطنطين بمساعدته من اعتلاء منصة الحكم بغيره، أما الدكتورة عفاف صبرة فتقول: "فكرت إيرين في إلغاء مشروع زواج أبنها من ابنة شارلمان وذلك لخوفها من اتحاد قوة شارلمان مع ابنها الذي بلغ سن الرشد وأصبح من حقه أن يحكم، ولم تكن عنده أي نوايا للتنازل عن الحكم، فإذا ما تم زواجه من ابنة شارلمان فسيؤدي ذلك إلي تقوية مركز أبنها علي حسابها." انظر علية الجنزوري، إيرين، ص ١٣٠ عفاف صبرة، الإمبراطوريتان، ص ٩٥.

^{١٣} Theophanes, 147-48.

الأمر الذي أكده كاتب سيرة الإمبراطورة إيريني حينما أشار إلي أنها بنفسها هي التي اختارت العروس من بين الفتيات الأخريات^{١٤}.

وهكذا كان العرض الذي أقامته الإمبراطورة إيريني لتزويج ابنها سابقة سار علي نهجها عدد ممن قدر لهم الجلوس علي العرش البيزنطي بعدها، إذ أنه بعد الإطاحة بها سنة ٨٠٢م علي يد وزير ماليتها نقفور الأول Nicphorus I، أقام الأخير ثاني عرض عرائس إمبراطوري معروف لتزويج ابنه ووريث عرشه ستوراقيوس Stauracius، ومصدرنا الوحيد عن هذا العرض هو ثيوفانيس، الذي يخبرنا بقصته قائلاً:

"بعد أن قام نقفور ببحث واسع النطاق شمل كافة أراضي الإمبراطورية الواقعة تحت سلطته لإختيار الفتيات اللاتي يصلحن للزواج من ابنه ستوراقيوس، وقع إختياره علي ثيوفانو الأثينية Theophano of Athens التي ترتبط بصلة القرابة بالإمبراطورة القديسة إيريني، ورغم أنها كانت مخطوبة فعلاً لأخر غيره، وشاركته الفراش مرات عديدة، إلا أن نقفور لم يأبه بذلك، ففصلها عنه وزوجها لابنه محطماً بذلك وبشكل مخز كل القوانين والأعراف، ولم يكتف بذلك، بل تخير لنفسه فتاتين أخريتين أكثر جمالاً، وأنغمس معهن في الفسق طوال أيام الزفاف، جالباً بتصرفاته تلك سخرية واشمئزاز الجميع^{١٥}."

ورغم ما يبدو واضحاً في رواية ثيوفانيس من تحامل شديد علي نقفور، إلا أن ما يعنينا منها هو البحث عن دافع نقفور الحقيقي من وراء إجراء هذا العرض، وهو بالطبع لم يكن الإعزاز لذكري إيريني أو الاعتزاز بتقليد استحدثته، وثيوفانيس نفسه يقدم لنا ذلك الدافع عندما أشار - بصورة متعمدة - إلي أن العروس الفائزة ترتبط بصلة قرابة للإمبراطورة إيريني، وهو أمر ربما كان يمثل أهمية قصوى لنقفور، الذي أدرك أن في نظر البيزنطيين مجرد مختصب للعرش الإمبراطوري، والأسوأ أنه

^{١٤} Halkin, F., "Le vie de l'impératrice sainte Irene", *Analecta Bollandiana*, 106 (1988), 5-27, esp. 16; Treadgold, W. T., "The Unpublished Saints' Life of the Empress Irene", *BF*, 7 (1982), 237-51.

^{١٥} Theophanes, 164.

اغتنصبه من الإمبراطورة إيريني التي تمتعت بشعبية جارفة بسبب مواقفها المعادية للحركة اللايقونية، والتي دفعت الكنيسة البيزنطية إلى تبجيلها ورفعها إلى مصاف القديسات^{١٦}، ولاشك في أن نقفور كان يعلم مقدماً أن ثيوفانو تنتمي إلى أسرة الإمبراطورة إيريني، وأنه كان حريصاً أشد الحرص على تدعيم وجود أسرته الحاكمة وإضفاء الشرعية عليها من خلال ربطها بصلة النسب مع أسرة الإمبراطورة السابقة^{١٧}.

أما عن ثالث هذه العروض فقد أقيم في عام ٨٣٠م بعد وفاة الإمبراطور ميخائيل الثاني (٨٢٠ - ٨٢٩م) Michael II حيث قررت زوجته يوفروسيني Euphrosyne - ابنة قسطنطين السادس من ماريا الأمنية التي فازت بأول عرض عرائس إمبراطوري - إجراء مسابقة لتزويج ابن زوجها ثيوفيلوس (٨٢٩ - ٨٤٢م) Theophilos الذي كان قد بلغ السابعة عشر من عمره، مواصلة بذلك التقليد الذي بواسطته إقترنت أمها بأبيها، ومصدرنا عن قصة هذا العرض هو الكاتب الحولي سيميون اللغثيت^{١٨} Symeon the Logothete، الذي يخبرنا بها قائلاً:

"لقد أرسلت - يوفروسيني - مبعوثيها إلي شتي بقاع الإمبراطورية لاختيار الفتيات الجميلات من أجل تزويج ابنها ثيوفيلوس، ورافقت المرشحات بنفسها إلي القصر الإمبراطوري، ثم أعطت ثيوفيلوس تفاحة ذهبية قائلة له "امنحها لمن تروق لك"، وكان من بين الفتيات الجميلات واحدة رائعة الجمال تدعى كاسيا Kassia، فتن ثيوفيلوس بجمالها وهيئتها، فخطبها قائلاً "من خلال المرأة جلبت الشرور علي

^{١٦} عن سياسة الإمبراطورة إيريني من الحركة اللايقونية. انظر،

Barbe, Irene, 313 ff ; Garland, *Women and Power*, 92-4

^{١٧} Garland, *Women and power*, 90; Treadgold, *Bride- Shows*, 401.

^{١٨} شغل سيمون وظيفة لغثيت الخزانة العسكرية (لغثيت الاستراتيجيوتيكون) وهو المشرف علي تقدير الضرائب

المفروضة علي أسر الجلود وحالات الإعفاء منها. لمزيد من التفاصيل انظر،

Bury, *Adm. System*, 90ff ; Kazhdan, A., "Logothetes Tou Stratiotikou", *ODB*, 2(Newyork, 1991), 1248.

الرجل"، فأجابته قائلة "ومن المرأة أيضاً جاء الخير كل الخير"، فجرح قلب ثيوفيلوس بردها فتجاوزها مانحاً التفاحة لثيودورا، الفتاة البافلاجونية^{١٩}.

ومن الملاحظ أن رواية سيميون اللغيث لا تشير بصورة صريحة إلى تدخل من جانب يوفروسيني في اختيار العروس، مثلما حدث في حالي الإمبراطورة إيريني والإمبراطور نقفور الأول، فثيوفيلوس - طبقاً لرواية سيميون - كان صاحب القرار الأول في عملية الاختيار، غير أن ذلك قد لا ينهض دليلاً قاطعاً على عدم التدخل من جانب يوفروسيني، فهي التي أرسلت المبعوثين لإحضار الفتيات، ثم رافقتهن بنفسها إلى القصر الإمبراطوري، حقيقة أن هدفها كان مواصلة تقليد كانت هي ذاتها أول ثمراته، إلا إن ذلك لا يمنع أنها تدخلت بصورة أو بأخرى في عملية الاختيار، وربما حدث ذلك دون دراية سيميون اللغيث، خاصة وأن هناك دافعاً قوياً يجعلها حريصة أشد الحرص على اختيار عروس ثيوفيلوس، فالعصر هو عصر مناهضة عبادة الأيقونات التي حمل لواءها أباطرة الأسرة الأيسورية منذ عهد ليو الثالث (٧١٧ - ٧٤١م) Leo وحتى عهد ميخائيل الثاني (٨٢٠ - ٨٢٩م) أول أباطرة الأسرة العمورية وزوج يوفروسيني الراحل، والذي كان من أشد المتحمسين لمذهب تحطيم الأيقونات، وكان ثيوفيلوس نفسه على

^{١٩} Leo Grammaticus, *Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonn, 1824, 213-14; Pseudo-Symeon, *Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonn, 1838, 624-25.

هناك رواية أخرى مختلفة يقدمها لنا كاتب سيرة الإمبراطورة القديسة ثيودورا مفادها أن الإمبراطور ثيوفيلوس أرسل موظفي البلاط إلى شتي بقاع الإمبراطورية لاختيار الفتيات الجميلات المؤهلات للزواج منه، وأنه انتقى من بيلهن سبعة، قدم لكل واحدة منهن تفاحة ثم أرسلهن إلى الحجرات المخصصة لهن، وفي اليوم التالي، استدعى الفتيات وسألهن عن التفاحات غير أنهن اكتشفن ضياع التفاحات فيما عدا ثيودورا التي بسطت كفيها لتكشف عن تفاحتين، فدهش الإمبراطور لما رأي وسألها عن تفسير لذلك، فأجابته بأنها قابلت في طريقها إلى القصر قديساً أعطاهم التفاحة وتبأ لها بأن الإمبراطور سيقدم لها تفاحة ثانية، وأن التفاحتين معاً ستكونان طريقها للفوز على الفتيات الأخريات، وعندئذ أعلنها الإمبراطور ثيوفيلوس زوجة له. انظر،

"The Life of St. Theodora the Empress", trans. M.P. Vinson, in.. *Byzantine Defenders of Images, Eight Saints' Lives in English Translation*, ed. A-M. Talbot, Washington D.C., 1998, 353-82, esp. 363-65

شاكلة أبيه في سياسته اللايقونية^{٢٠}، ولما كانت يوفروسيني -
شأنها في ذلك شأن أكثر نساء القصر^{٢١} - من أشد المتحمسين لعبادة الأيقونات، فمن
المحتمل أنها كانت حريصة علي اختيار عروس تشاطرها هذه الحماسة، وكانت
ثيودورا البافلاجونية هي تلك العروس^{٢٢}.

وبعد وفاة ثيوفيلوس عام ٨٤٢ م، تولت ثيودورا الوصاية علي ابنها
ميخائيل الثالث (٨٤٢ - ٨٦٧ م) Michael III الذي لم يكن قد أتم العامين من
عمره، بيد أن هذا الطفل سرعان ما أصبح مشكلة كبرى بالنسبة لها عندما بلغ الخامسة
عشر، حيث أقام علاقة غير شرعية مع إحدى فتيات القصر تدعي يودوكيا إنجيرينا
Eudokia Ingerina، وكانت خطورة هذه العلاقة من وجهة نظر الإمبراطورة الأم
أن يودوكيا هذه تنتمي إلي أسرة مارتيناكيوس Martinakios المؤيدة للحركة
اللايقونية^{٢٣}، ولأن ثيودورا لم تكن لتسمح باستمرار مثل هذه العلاقة التي تتعارض مع
مبولها الدينية، فقد قررت إقامة عرض عرائس لتزويج ابنها، متبعة في ذلك نهج
سابقها يوفروسيني عندما اختارتها هي نفسها بنفس الأسلوب ولذات السبب.

ويسروي لنا كاتب سيرة القديسة إيريني الصغري St.Irene the younger
قصة هذا العرض قائلاً أن الإمبراطورة ثيودورا قررت تزويج ابنها ووريث العرش

٢٠ - من أحدث الدراسات التي تناولت الحركة اللايقونية . انظر

Martin, E.G., *A History of the Iconoclastic Controversy*, London, 1978 ; Bryer, A., &
Herrin, J., (eds.), *Iconoclasm*, Birmingham, 1977 ; Gero, S., *Byzantine Iconoclasm
during the Reign of Leo III*, Louvain, 1973 ; Idem, *Byzantine Iconoclasm during the
Reign of Constantine V*, Louvain, 1977 .

٢١ - عن موقف نساء القصر المؤيد لعبادة الأيقونات . انظر

Huxley, G., 'Women and Byzantine Iconoclasm', in: J.Y.Perreault (ed.), *Les femmes et le
monachisme byzantine*, Athens, Canadian Archeological Institute, 1991, 11-24;
Talbot, A.M., & Kazhdan, A., 'Women and Iconoclasm', *BZ*, 84-85 (1991-92), 391-408;
Hatile, P., 'Women of Discipline during the Second Iconoclast Age', *BZ*, 89 (1996), 37-
44.

٢٢ - عن موقف الإمبراطورة ثيودورا من الحركة اللايقونية . انظر

Garland, *Women and Power*, 95-108; *Life of St. Theodora*, 353-382.

٢٣ - ولدت يودوكيا بالقسطنطينية عام ٨٤٠ م ، وتوفيت عام ٨٨٢ م ، وكان والدها ينحدر من اصل اسكندنافي ،
وعمل في وظيفة بالقصر الإمبراطوري . انظر ،

Kazhdan, A., 'Eudokia Ingerina', *ODB*, 2 (New York, 1991), 739.

من الأوساط الشهيرة الطيبة السمعة، ومن أسرة تقية مشهود لها بإيمانها الأرثوذكسي، فتاة تتسم بالفضيلة وتفوق من هن في مثل عمرها في نقاء الروح وجمال الهيئة، لذلك أرسلت مبعوثيها إلي كافة أنحاء الإمبراطورية لاختيار الفتيات اللاتي تتوافر فيهن هذه الخصال، ومن ثم فقد تهافت المواطنون من شتى الأنحاء علي إرسال بناتهم إلي العاصمة، وكان من بينهن إيريني، الفتاة المشهود لها بصفاء الروح وفتنة الجسد، والتي أرسلها والداها مع شقيقتها من موطنهما في قبادوقيا Cappadocia إلي القسطنطينية^{٢٤}.

ويبدو من رواية كاتب السيرة أن الإمبراطور ثيودورا كانت حريصة علي تمييز عروس ولدها بالفضيلة ونقاء الروح، وأن تكون من أسرة مشهود لها بإيمانها الأرثوذكسي، وهي بذلك تعبر عن ميولها الدينية ورغبتها في إبعاد يودوكيا إنجرينا عن المشاركة في هذا العرض، إذ أنها كانت تعي تماماً أن مثل هذه الشروط المتعمدة لا يمكن بأي حال أن تنطبق علي يودوكيا وأسرتها، حقيقة أن الإمبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢م) Leo VI يشير في مديحه لباسيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦م) Basil I، إلي أن ميخائيل الثالث كان لديه قدر من التأثير علي مجريات الأمور بحيث أتاح ليودوكيا فرصة المشاركة في هذا العرض^{٢٥}، غير أن هذه المشاركة كانت غير ذات جدوي لأن نتيجتها كانت معروفة مقدماً، حيث يشير سيميون اللغثي إلي أن الإمبراطورة ثيودورا لعبت دوراً رئيسياً في رفض يودوكيا إنجرينا، والضغط علي ولدها لقبول المرشحة الفائزة يودوكيا - أخرى - والتي تنتمي إلي أسرة غير مشهورة^{٢٦}.

٢٤- *The Life of St. Irene Abess of Chrysobalanton*, ed. & trans.M.O.Rosenqvist (Uppsala, 1986), 8-10.

انظر نص تلك السيرة على الموقع التالي، <http://www.fordham.edu>;

Treadgold, *Bride-Shows*, 405; Kazhdan, A., Irene of Chrysobalanton, *ODB*, 2 (New York, 1991), 1010.

٢٥- Vogt, A., & Hausherr, I., 'Oraison funebre de Basil I', *OCP*, 26 (1932), 54.

٢٦- Leo Grammaticus, 229-30; Pseudo-Symeon, 655.

وفي عام ٨٨٢م، اقامت يودوكيا إنجرينا آخر عروض العرائس الإمبراطورية المعروفة لتزويج ابنها ليو السادس، الذي كان قد بلغ السادسة عشر من عمره، ومصدرنا عنه هو كاتب سيرة القديسة ثيوفانو^{٢٧} St. Theophano، الذي يخبرنا بقصته قائلاً:

"لقد بدأت عملية البحث عن الفتيات الجميلات، المتألمات في فضائلهن، لاختيار عروس للإمبراطور ليو الحكيم، فأرسل الإمبراطور باسيل^{٢٨} مبعوثيه إلى كل مدينة ومقاطعة للبحث عن فتاة تليق بالإمبراطور الأكثر وسامة، فجلبوا معهم فتيات كثيرات من شتي الأنحاء كذلك قررت الإمبراطورة يودوكيا زوجة الإمبراطور باسيل اختيار بعض الفتيات الجميلات من مسقط رأسها للمشاركة في هذا العرض، وكان من بينهن الرائعة ثيوفانو، وعلي ذلك تم إختيار اثنتي عشر فتاة حشدت في الجناح الإمبراطوري لقصر ماجناورا Magnaura الشهير، وبقيين هناك في انتظار الإمبراطور وزوجته^{٢٩}."

ويستكمل كاتب السيرة روايته قائلاً:

٢٧- Kurtz, E., (ed.), *Zwei Griechische Texte über die Heilige Theophano, die Gemahlin Kaisers Leo VI*, St. Petersburg, 1898.

تعذر علي الباحث الرجوع الى هذا المصدر، ومن ثم فقد اعتمد على النصوص المقتبسة منه والتي ترجمها كل من تيريدجولد وجرلاندر في بحثيهما، وكاتب هذه السيرة كان صديقاً لعم ثيوفانو، العروس الفائزة في هذا العرض.

٢٨- واصل ميخائيل الثالث علاقته مع يودوكيا إنجرينا رغم زواجه، حيث حملت منه ابنهما ليو السادس، وحتى يضمن اعتلاء ابنه العرش كامبراطور شرعي، زوج يودوكيا من باسيل المقدوني ورفعته الى جواره على العرش كامبراطور شريك، النظر،

Mango, C., 'Eudocia Ingerina, the Normans and the Macedonian Dynasty', *Zbornik Radova Vizanto-Loskog Instituta*, 14-15 (1973), 17-24.

Kurtz, *Zwei Texte*, 5 (tr. Treadgold, 407.)

٢٩

عند هذه النقطة يسجل كاتب السيرة انه كان من بين المرشحات فتاة أثينية اشتهرت بالعرفانة والتجيم، تبأت بان الفتاة التي سترتدي حذاءها اولا وقت وصول الإمبراطور وزوجته هي التي ستفوز بهذا العرض، وبطبيعة الحال كانت ثيوفانو هي تلك الفتاة.

Treadgold, *Brid-shows*, 407.

"وعندما رأتها الإمبراطورة أسرت بجمالها وخفة روحها، فتركت الباقيات وتقدمت نحوها، وعندما أصبحت علي مقربة منها شدهت لسحر طلعتها، وعندما سألتها عن أسرتها ومكان مولدها، علمت أن الدماء الإمبراطورية تجري في عروقتها، فأخذت يدها وتوجهت نحو زوجها الإمبراطور"^{٣٠}.

وعند هذا الحد يوحى كاتب السيرة بأن اختيار الإمبراطورة قد وقع علي ثيوفانو، لكنه سرعان ما يستطرد حديثه قائلاً:

"غير أن الإمبراطورة تفحصت الأخريات وأنققت منهن فتاتين، وقدمت الهدايا للباقيات وأمرتهن بالعودة إلي ديارهن، ثم اقتادت الفتيات الثلاث إلي الحمام الإمبراطوري، وعندما كشفت عن أجسادهن لاحظت تفوق جمال ثيوفانو، فغطتها بشياب إمبراطورية وأخذتها من يدها اليمني إلي الإمبراطور الزوج، وأعلنتها عروس لابنها، وقد بهر الإمبراطور ليو نفسه بها فأخرج من عباءته خاتماً صغيراً مصنوعاً من اليشب ووضعها في إصبعها"^{٣١}.

عند هذا الحد يختتم كاتب السيرة قصة آخر عروض العرائس الإمبراطورية المعروفة بزواج ثيوفانو من الإمبراطور ليو السادس، ويتضح من خلالها - كما هو الحال في العروض السابقة - أن ليو لم يكن له دوراً مؤثراً في اختيار عروسه، فالإمبراطورة الأم يودوكيا هي التي لعبت الدور الرئيسي في اختيار المرشحة الفائزة دون أن تضع اعتباراً للرأي ولدها، ويبدو أن هذا الاختيار قد صدق عليه من قبل الإمبراطور باسيل المقدوني، وهو الأمر الذي يؤكد كاتب سيرة يوثيميوس Euthymios عندما سجل عن لسان الإمبراطور ليو السادس قوله: "إن كافة أعضاء السناتو يدركون جيداً أن هذه الزيجة تمت ضد رغبتني، وإنما خشية غضب والدي"^{٣٢}.

وعند هذه النقطة يتبادر إلي الذهن سؤال هام، أنه إذا كانت يودوكيا إنجربينا هي أول من أكتوي بنار عروض العرائس الإمبراطورية حينما استخدمته الإمبراطورة

Kurtz, *Zwei Texte*, 6 (tr. Treadgold, 407) .

-٣٠-

Kurtz, *Zwei Texte*, 6 (tr. Garland, 110) .

-٣١-

'Vita St.Euthymii,' ed.& tr. P. Karlin-Hayter, B,25-27(1955-57), 1-72;747-78.

-٣٢-

ثيودورا كوسيلة لفصلها عن معشوقها الإمبراطور ميخائيل الثالث، فما الذي يدعوها إلى إقامة هذا العرض؟ وإذا عرفنا أن ليو السادس في هذا الحين كان متورطاً في علاقة غير شرعية مع إحدى فتيات القصر تدعى زوي زوتزين^{٣٣} Zoe Zautzaina، فما هي الدوافع الحقيقية وراء تدخلها الواضح في إختيار العروس الفائزة وفرضها علي ابنها ليو بنفس الأسلوب الذي اتبعته ثيودورا مع ابنها ميخائيل الثالث؟.

يُري تريبجولد أن يودوكيا لم يكن لديها سبباً وجيهاً للاعتزاز بمثل هذا التقليد سوى أنه قد أخذ صفة الثبات في ذلك الحين^{٣٤}، بينما تري جرلاند أن العداء الذي نشب بين ليو وأمه يودوكيا، خاصة بعد أن تورطت مع باسيل المقدوني في مؤامرة اغتيال والد ليو، الإمبراطور ميخائيل الثالث، هو السبب الذي دفعها إلى الانتقام منه بفرض الزواج عليه من فتاة لا يرغبها^{٣٥}، أما شرينر Schreiner فقد ذهب إلى القول - منساقاً وراء رواية كاتب سيرة القديسة ثيوفانو - بأن جمال العروس كان العامل الأساسي في اختيارها^{٣٦}.

وربما يكون من الأفضل البحث عن الدافع الحقيقي من وراء اختيار يودوكيا للعروس ثيوفانو في ضوء الأهمية السياسية لذلك الاختيار، ويعد مانجو Mango هو أول من ألقى الضوء علي أهمية أسرة ثيوفانو في اختيارها كعروس لليو^{٣٧}، فهي تنتمي إلى أسرة مارتيناكيوس Martinakios، التي كانت يودوكيا نفسها أحد أفرادها، ومن ثم رأت فيما مؤيداً أهلاً للثقة، كما أن هذه الأسرة ترتبط مباشرة بصلات وثيقة بالأسرة العمورية، وكما يشير كاتب سيرة ثيوفانو إلى أنها تحمل في عروقتها الدماء

٣٣- كان ليو السادس على علاقة بزوي ابنة ستيليانوس زوتزس Stylianus Zautzes مستشار باسيل المقدوني، واستمرت هذه العلاقة حتى بعد زواجه من ثيوفانو، وقد تزوجها بعد وفاة زوجته مباشرة، لمزيد من التفاصيل، انظر،

Tougher, Sh., *The Reign of Leo VI, 886-912: Politics and People*, Brill, 1997, 136-8.

وسام عبد العزيز فرج، الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس، الإسكندرية، ١٩٩١، ٣٥-٣٦.

Treadgold, *Bride-Shows*, 406.

-٣٤

Garland, *Women and Power*, 110-11.

-٣٥

Schreiner, P., 'Reflexions sur la famille imperiale à Byzance (VIII^e- X^e)',

-٣٦

B,61(1991),181-93,esp.189.

Mango, *Eudocia Ingerina*, 17-27.

-٣٧

الإمبراطورية وأن ذلك كان أحد العوامل التي دفعت يودوكيا إلي اختيارها من بين العذارى الصغيرات، ومن المؤكد أن يودوكيا كانت تعرف ثيوفانو مقدماً وأنها خططت منذ البداية لاختيارها، ولاشك كذلك في أنه كان من الأهمية بمكان بالنسبة لباسيل المقدوني أن يوثق صلات أسرته المقدونية الناشئة بالأسرة العمورية السابقة من خلال أسرة مارتيناكيوس^{٣٨}.

ومما سبق يمكن القول بأن عروض العرائس الإمبراطورية كانت وسيلة إتبعها أباطرة بيزنطة منذ أواخر القرن الثامن وطوال القرن التاسع لتحقيق أهداف سياسية ودينية معينة من خلال تزويج ورثة العرش القصر بعرائس يخدمن هذه الأهداف، ولذلك فقد أقيمت تحت إشراف كامل من قبل الأوصياء سواء كانوا نساءً أو رجالاً، وظهرت خلالها رغباتهم واضحة دون اكتراث برغبات الأبناء، وربما كان جينكينز Jenkins محقاً في قوله "إن عروض العرائس الإمبراطورية لم تكن إلا إجراء أو تقليداً شكلياً، إذ المعروف أن العروس تكون معروفة مسبقاً ومتفق عليها"^{٣٩}، وعلي ذلك لم يكن الجمال هو العامل الأساسي في اختيار العروس كما ذهب بعض الباحثين^{٤٠}، بل كان أحد الشروط الأساسية التي ينبغي أن تتوافر في زوجة الإمبراطور المقبل، خاصة وأنه لا يتناقض مع الاعتبارات السياسية والدينية التي سبق ذكرها، وبالإضافة إلي الجمال وضعت الصفات الأخلاقية أيضاً في الاعتبار عند اختيار العروس، وأخيراً كانت نبالة الأصل أحد الشروط الضرورية في اختيار العروس، ففي العروض الخمسة تم اختيار العرائس من الأسرة الإمبراطورية وطبقة النبلاء المحليين في الأقاليم، ولكن إذا كانت نبالة الأصل أحد المؤهلات الرئيسية للعروس، فإن الثروة لم تكن كذلك، ففي العرض الأول كانت أسرة ماريا الأمنية نبيلة وفقيرة في الوقت نفسه، ولم يكن من بين الفائزات في هذه العروض واحدة يبدو عليها الثراء الفاحش أو تنتمي إلي أسرة ذات سلطة ونفوذ، وربما كان ذلك أمراً حرص عليه الأوصياء أنفسهم لتحقيق أهدافهم السياسية والدينية السالفة الذكر.

Tougher, *Leo VI*, 134-135.

Jenkins, R., *Byzantium : the Imperial Centuries A.D. 610-1071*, Newyork, 1966, 98.

Treadgold, *Bride-Shows*, 410 . Schreiner, *Famille imperiale*. 189.

إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل

محمود إسماعيل

مصر

معلوم أن الخلاف بين المؤرخين يكمن أساساً حول مسألة التفسير أو التأويل، أي معرفة الأسباب والعلل الكامنة وراء أحداث التاريخ ووقائعها، ذلك أن المؤرخ حين يؤرخ لموضوع ما عليه أن يجيب على أسئلة ثلاثة أساسية هي: ماذا حدث؟ وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟ والإجابة عن السؤالين الأولين لا تثير أي خلاف، إنما يشجر الخلاف أصلاً في الإجابة على السؤال الثالث، لا شيء إلا لأنها تعكس منظور أو "مخيال" المؤرخ الذي هو نتاج ثقافته وأيديولوجيته. ومعلوم أن الأيديولوجيا تفت في مصداقية المعرفة وتلونها بألوان قد تكون مجافية للحقيقة.

ولعل هذا يفسر دعوة بعض المدارس التاريخية إلى التغاضي عن تفسير الوقائع التاريخية والاهتمام فقط بتحقيق مصداقية الأخبار. لكن هذه الدعوة تنقص من قدر المؤرخ. كذا من نتاج عمله وتجعله "إخبارياً" ليس إلا، وتحكم على جهوده بالقصور، لأن علماً بلا تحليل ناقص في التحليل الأخير.

فغاية العلم هي الوقوف على الأسباب والعلل التي تحرك الظواهر الطبيعية والإنسانية على السواء. ومن ثم أصبح قانون "السببية" أهم قوانين العلم على الإطلاق. وفي مجال العلوم الإنسانية - ومن ضمنها التاريخ بطبيعة الحال - جري الاهتمام بالتعليل أو التأويل أو التفسير، إلى حد ظهور علم لهذا الغرض هو علم 'الهرمينوطيقا'. وتعاضد دور هذا العلم إلى درجة الطموح إلى التنظير باعتباره أقصى درجات العلم وأسمائها.

معلوم أن نشأة علم التاريخ عند المسلمين كانت نشأة عملاقة، بشهادة جمهرة الدارسين والباحثين، لذلك اهتم المؤرخون الرواد بالتعليل والتفسير باعتباره مطلباً أساسياً لاكتمال عملية كتابة التاريخ، وتطورت جهود الأجيال التالية من مؤرخي الإسلام لتصل مرموقة في هذا المجال بولوج باب "فلسفة التاريخ".

من هنا تطمح هذه الدراسة إلى معالجة إشكالية التفسير - التي لطالما اختلف القدماء والمحدثون بصددتها - عند المؤرخين المسلمين الأوائل بهدف إثبات خطأ الأحكام المتواترة عن تبني هؤلاء المؤرخين جميعاً الرؤية الدينية للتاريخ، بما يعني أن العناية الإلهية هي التعليل الأول والأخير لوقائع التاريخ وأحداثه. كذا إثبات خطأ زعم القائلين بأن فلسفة التاريخ لم يطرقتها مؤرخ قبل ابن خلدون.

ما سنحاول إثباته بالفعل هو أن المؤرخين المسلمين الرواد ولجوا باب التفسير إلى حد التنظير منذ نشأة علم التاريخ الإسلامي حول منتصف القرن الثاني الهجري وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، حيث بلغ تطور الفكر التاريخي ذروته، لقد مر الفكر التاريخي الإسلامي خلال هذه الفترة بحقب ثلاث، تمثل الأولي منها طور النشأة، وتبدأ من منتصف القرن الثاني إلى منتصف القرن الثالث الهجريين، وهي فترة شهدت سيادة نمط الإنتاج البورجوازي على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، ونشأة العلوم وتدوينها، كانعكاس للمد الثقافي المتعاضم والمعبر عن عطاء الطبقة الوسطى. وفي مجال علم التاريخ، وضعت مناهجه، وتحددت موضوعاته، وطرق المؤرخون باب التفسير علي استحياء.

أما المرحلة الثاني: وتشمل الفترة ما بين منتصف القرنين الثالث والرابع الهجريين، فقد سادها نمط الإنتاج الإقطاعي الذي عكس تأثيره علي سائر الأصعدة ومنها الصعيد الثقافي بطبيعة الحال. إذ انتكست النهضة العلمية و الثقافية بغلبة الاتجاهات الغيبية والنصية علي حساب المد العقلاني الذي لازم مرحلة التأسيس. وبديهي أن ينتكس الكر التاريخي، موضوعاً ومنهجاً ورؤية، بغلبة الرؤية اللاهوتية.

أما المرحلة الثالثة: وتشمل الفترة ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، فقد سادها النمط البورجوازي في الإنتاج مرة أخرى وأخيرة، الأمر الذي أسفر عن تأثيرات إيجابية سياسياً واجتماعياً وثقافياً، وبديهي أن يتأثر الفكر التاريخي، بتلك التحولات، ليصل إلى أوج ازدهاره ! حيث بلغ التفسير العلمي العقلاني للتاريخ مداه بحيث شهد العصر بواكير فلسفة التاريخ.

تلك تقدمه عامة، تعرض لغاية الدراسة وتحدد معالمها، تعد توطئة لبسط هذه المعالم مفصلة موثقة.

في طور نشأة علم التاريخ الإسلامي، يتفق الدارسون علي أن هذه النشأة الإيجابية كانت تعبيراً عن مد ثقافي مزدهر، باعتبار التاريخ من أهم مقومات الثقافة العربية والإسلامية^١. وقد أسهم في تلك النشأة جيل من المؤرخين الأفذاذ، كالطبري، والبلاذري، وابن طيفور، واليعقوبي، وابن قتيبة، وابن عبد الحكم وغيرهم ممن اعتبرهم ابن خلدون رواد علم التاريخ في الإسلام^٢.

وبتتبع منحي سير هؤلاء المؤرخين^٣ نجد أن معظمهم ينتمون إلي الطبقة الوسطى التي تبنت النهضة العلمية والفكرية في الإسلام، فكانوا موسوعي الثقافة ليبرالي التفكير^٤، بما ألهم لتأصيل ركائز علم التاريخ موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

وما يعنينا في هذه الدراسة هو الوقوف علي طبيعة هذه الرؤى، أو بالأحرى موقفهم من إشكالية التعليل والتأويل، وفي هذا الصدد، يخطئ من أن تصور أن الحديث عن هذه الرؤى عند هذا الجيل من المؤرخين أمر سابق لأوانه^٥، صحيح أن جل اهتمامهم انصب علي الأخبار وتحقيقتها، لكنهم لم يغفلوا تحليلها وتحليلها، وفي هذا المعني ذكر اليعقوبي: "وليعلم الناظر في كتابنا هذا إلي اعتماد في كل ما أخطرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه إنما هو علي ما رويت من الأخبار التي أناد ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلي روايتها، دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل".

^١ جب (هاملتون) دراسات في حضارة الإسلام، الترجمة العربية، ص ١٥٢، بيروت ١٩٦٤.

^٢ مقدمة ابن خلدون، ص ٤، القاهرة، ب. ت.

^٣ راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج ١، ص ٢٨٦، ٢٨٧، الدار البيضاء ١٩٨١.

^٤ روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، الترجمة العربية ص ٩٢، بغداد ١٩٦٤.

^٥ أنظر: علي أدهم، بعض مؤرخي الإسلام، ص ٣٣، القاهرة، ب. ت.

والدارس لأخبار اليعقوبي^٦ لا يعدم وجود رؤية خاصة للتاريخ فحواها الربط بين حركة الأحداث وحركة الأفلاك، وعند غيره من معاصريه نقف علي رأي أخري وضعانيه وعلميه، فالبلانري - مثلاً - عول علي تأثير الاقتصاد في الصيرورة التاريخية في كثير من الأحيان. أما ابن قتيبة فهو يمحور وقائع العصر الراشدي حول مسألة الصراع علي الخلافة، واتخذ بعض المؤرخين من ذكر عبارات بعينها في مواضع بعينها أيضاً - مثل والله أعلم - ما يدل علي موقف مضمحل للمؤرخ يفهمه القارئ اللبيب، نظراً لوجود محاذير وإكراهات تحول دون الإفصاح ولا غرو، فمعلوم أن الحنابلة رجموا دار الطبري بالحجارة^٧.

ولعل تلك المحاذير والإكراهات كانت من وراء تبني بعض المؤرخين تفسيرات أسطورية أو تيولوجية أوردوها من باب التقية^٨. كذا تعويل البعض الآخر علي التفسيرات العنصرية^٩ والطائفية تحت تأثير تواجد الشعبوية والصراعات المذهبية^{١٠}.

وقد تعاظمت هذه الرؤى اللاعلمية خلال المرحلة التالية التي شهدت ظواهر التمزق والفرقة السياسية وتفاقم النزعات العصبية والعنصرية وانتكاسة الفكر العقلاني، كنتيجة لغلبة الإنتاج الإقطاعي، مع تواجد شاحب للبورجوازية. بديهي أن يتأثر الفكر التاريخي بتلك المعطيات السلبية، ولا أدل علي ذلك من تدهور مكانة علم التاريخ في نظر مصنفي العلوم فأسقطوه بالكلية من مصنفاتهم باعتباره يفتقد إلي صفة العلمية^{١١}. وهو أمر لفت نظر مؤرخ فذ كالمسعودي، حين اعتبر مؤرخي العصر مسئولين عن تدهور علم التاريخ "وابادة وآثاره وطمس

^٦ كتاب البلدان: ص ٣٥٨، ليدن ١٨٩١.

^٧ ياقوت: معجم الأدياء، ج ١٨، ص ٩٥، طهران ١٩٦٥.

^٨ عن مزيد من المعلومات في هذا الصدد، راجع: محمود إسماعيل سوسيولوجيا، ج ١، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

^٩ راجع علي سبيل المثال: أبو العرب تميم: طبقات علماء إفريقية، ص ١٤ وما بعدها، تونس ١٩٦٨.

^{١٠} عن المزيد من المعلومات: راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، ج ١، ص ٢٩٧، ٢٩٨.

^{١١} روزنتال: المرجع السابق، ص ٤٨.

منارة^{١٢}، خصوصاً من أصبح منهم من "مؤرخين البلاط"، أو ممن أشتغل بالتاريخ خدمة لعلم الحديث بالأساس^{١٣}، فكانوا لذلك محدثين أكثر منهم مؤرخي، بشهادة ابن النديم^{١٤} لذلك لم يخطئ باحث ثقة حين اعتبرهم "أنصاف مؤرخين"^{١٥}، فهموا غاية التاريخ فهما قاصراً مؤداه التبرير للسلطين وإمتاعهم في مجالس السمر، حيث غدت "الأسمار مرغوباً فيها ومشتهاة .. فصنف فيها الوراقون وكذبوا"^{١٦}.

لقد أفسد "مؤرخو السلطة" علم التاريخ إلى حد تطويع الدين لخدمة السلطان، فها هو جعفر بن محمد المر وزي (ت ٢٧٤ هـ) يصنف في هذا المعني كتاب "تاريخ القرآن لتأييد كتب السلطان"^{١٧}، بينما أغفل تاريخ الشعوب ووصمها بأقبح النعوت، وفي هذا الصدد ألف الكثير عن "مساوئ العوام وأخبار السفلة والأغنام"^{١٨}.

وجري اعتبار ثوراتهم الاجتماعية من قبيل "المحن" و "الفتن"^{١٩} التي يجب أن يقمعها السلطان دون هوادة.

بديهي والأمر كذلك، أن تنزلق رؤى المؤرخين إلى التفسيرات الأسطورية والإثنية والطائفية وتقديس الأبطال المؤيدين بالعناية الإلهية^{٢٠}، كما فشت الرؤى التهويمية التي تربط حركة الأحداث بالطوالع والنجوم^{٢١}.

¹² المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١، ص٥، بيروت، ب.ت.

¹³ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الترجمة العربية، جـ٣، ص٦٨، القاهرة ١٩٩١.

¹⁴ الفهرست، ص٢٣١، ٢٣٢، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

¹⁵ أنظر: شاكر مصطفى: التاريخ والمؤرخون العرب، جـ١، ص٢٠٤، بيروت ١٩٨٣.

¹⁶ ابن النديم: المرجع السابق، ص٣٠٨.

¹⁷ نفسه، ص١٥٠.

¹⁸ نفسه، ص١٥٢.

¹⁹ صنف الشيباني (ت ٢٧٣هـ) كتابين يحملان هذين العنوانين.

²⁰ سالم أحمد محل: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي، ص١٢١، قطر ١٩٩٧.

²¹ روزنتال: المرجع السابق، ص١٥٩.

أما عن مؤرخي المعارضة فقد احتفظ بعضهم بالكثير من إيجابيات مرحلة التأسيس، فكتبوا التاريخ علي أساس "الدراية" لا "الرواية" معولين في التحليل والتفسير علي العقلانية والمنطق، منددين بمفاسد السلطة ورجالاتها^{٢٢}.

ومع ذلك تأثر البعض الآخر سلباً بمعطيات العصر السياسية والثقافية، فلم تخل مصنفاتهم من تهويم الرؤية والشطط في الرأي. لقد كتب هؤلاء في الغالب الأعم وفق منطق "الدفاع" عن مذاهبهم وأيديولوجياتهم، فاتسمت كتاباتهم بالسجالية والتعصب، كما روجوا لأفكار تهويمية أسطورية كفكرة "المهدي" أو "المخلص" مما فت في قيمة ما صنفوا من تواريخ دارت معظمها حول عقائد مذاهبهم ورجالاتهم^{٢٣}.

فعلي سبيل المثال أرخ شليمة محمد بن الحسن (ت ٢٨٠هـ) لبعض حركات المعارضة، لكن كتابه صوبر وأحرق، كما دون سعد بن عبد الله القمي (ت ٢٩٩ هـ) كتاباً عن الشيعة لاقى نفس المصير، وإذا أفلت كتاب "مقاتل الطالبين" للأصفهاني، من المصادرة فيعد أنموذجاً للكتابات ذات الطابع المأساوي "البكائي" التي تتعالى فيها التشنجات العاطفية علي التفسيرات العقلانية والواقعية.

وفي نفس المنحي صنف مؤرخو المعتزلة عن مذهبهم ورجالاته وأعلامه، كما هو حال البلخي (ت ٣١٩هـ) في كتاب "طبقات المعتزلة"، أما مصنفات المتصوفة فاتخذت في الغالب الأعم طابعاً أخلاقياً، إذا استهدف مصنفوها تغيير الواقع بالنصح والوعظ أو الدعاء من أجل الخلاص، يفهم هذا من مصنفات صوفية مثل "مواعظ الخفاء" و "ذم المنكر" و "الفرج بعد الشدة" .. الخ وكلها تتككب طريق العقلانية وتعول علي الخرافات والكرامات والخوارق.

علي أن الروى العقلانية لم تختف تماماً خصوصاً عند نفر من مؤرخي المعارضة. بل لا نعدم وجود ثلثة من المؤرخين الذين ارتقوا بالكتابة التاريخية موضوعاً ومنهجاً، تعليلاً وتحليلاً وتأويلاً. ويرجع ذلك فيما نري إلي أن الصراع بين

²² عن نماذج لهذا الصنف من المؤرخين: راجع: ابن النديم: المرجع السابق، ص ١٤٦، ١٤٧، ١٥٠،

١٥١.

²³ نفسه، ص ١٨٢، ١٢٧.

البورجوازية والإقطاع، ومن ثم بين العقل والنقل لم يحسم حسماً قاطعاً، مما أتاح للقوي البورجوازية وفكرها العقلاني النقدي التجريبي مكاناً في الساحة وإن كان ضيقاً ومحاصراً. وفي هذا الصدد يعد المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) المؤرخ أنموذجاً معبراً عن هذا التيار الأمر الذي جعلنا نتوقف عنده ملياً للوقوف على رؤيته العلمية للتاريخ.

ولعل في حياة المسعودي إبان أواخر عصر "الإقطاعية المرتجة" وأوائل عصر "الصحة البورجوازية الثانية" ما يلقي الضوء على عقلانيته وموسوعيته^{٢٤}. يضاف إلى ذلك كذلك كونه تاجراً ينتمي إلى الطبقة الوسطى اجتماعياً، وإلى الاعتزال الزيدي مذهبياً^{٢٥}، مما أهله ليتسم مكانة مرموقة بين مؤرخي عصره. ولعل اشتغاله بالجغرافيا ومزجه إياها بالتاريخ وتحويله علي الرحلات طوال أربعين عاماً^{٢٦} كان من وراء اتساع منظوره ورحابة مخياله ومن ثم اتسام رؤيته التاريخية بالعقلانية والواقعية والشمول.

في كتابه "مروج الذهب" تأريخ عالمي متطور بالقياس للتواريخ العالمية السابقة، ففي عرضه الأحداث مزج بين التاريخ وعمل الكلام فالعالم في نظره "مخلوق"^{٢٧} كما يذهب المعتزلة وفي وصفه للأمم والشعوب مزج بين الإثنوغرافيا والثقافة أو وقوفه علي ما يمكن تسميته بـ "الأنثروبولوجيا الثقافية" ومعلوماته الجغرافية حافلة بالتأويلات والتفسيرات التي تربط بين حركة التاريخ وحركة الكواكب، كذا بينه وبين الجغرافيا الطبيعية، وفي هذا الصدد وقف علي تأثير التربة في الإنتاج الغذائي، وتأثير الأخير في طبائع وأمزجة البشر^{٢٨}.

²⁴ شاكر مصطفى: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٤٧، ٤٨.

²⁵ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ ١، ص ٤ من مقدمة المحقق، بيروت، ب. ت.

²⁶ المسعودي، التنبية والإشراف، ص ٧، لندن، ١٨٩٣.

²⁷ مروج الذهب، جـ ١، ص ٢٦.

²⁸ نفسه، ص ٨٤، ٨٥.

وحيث عرض للعرب رصد أنماط حياتهم مميزاً بين مرحلتي البداوة "التوحش" والحضارة، مقدماً تصوراً متطوراً لطبيعة العمران البشري²⁹ تأثر به ابن خلدون فيما بعد، وفي تاريخه للعالم الإسلامي اتسمت رؤيته بالشمول فجمعت بين التاريخ السياسي والحضاري في آن، كما أعمل ميزان النقد في الروايات قبل اعتمادها. بنفس الدرجة التي عول فيها علي الاستقرار والاستتباط في مجال التفسير³⁰.

ولا نبالغ إذ نقرر أنه طرق باب "التظير" حين عول علي شمول النظرة خلال الأزمنة الطويلة، فأتيج له "استخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكنه" علي حد قوله³¹.

وفي كتابه "التنبيه والإشراف" نجد بدايات مقاربة "فلسفة التاريخ" ذلك أن هذا الكتاب يعد آخر ما صنف المسعودي، كما وأنه بمثابة "بانوراما" عامة لتاريخ البشرية، أفاد فيه من مؤلفاته السابقة، فلم يحفل بالأخبار وتحققها بقدر استنطاقها لتتبلور في صورة أحكام ومقولات أفاد في صياغتها من سائر المعارف المتاحة فقد أبرز مثلاً تأثير الجغرافيا في التاريخ السياسي فعرض لمباحث أشبه ما تكون "بالجيوبوليطيقا"³² كما عرض لتاريخ العقائد في مباحث ذات صلة بالانثروبوجيا الثقافية وعلم الأديان المقارن، حيث تابع ورصد المشترك الإنساني العام في مجال الدين مبرز اسمه "التواصل" و "الاستمرارية"³³ في صورة أقرب ما تكون إلي "الإنسانيات" المعاصرة، ولا غرو فقد تابع تأثيرها في التاريخ والحضارة الإسلامية³⁴، بما ينم عن نزعة "هيومانية" بعيدة عن التعصب والتحجر.

²⁹ نفسه، ص ١٣٧ - ١٧٠.

³⁰ شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٢.

³¹ مروج الذهب، ج ١، ص ٦.

³² التنبيه والإشراف، ص ٥٦.

³³ نفسه، ص ١٣٧ وما بعدها.

³⁴ نفسه، ص ٢١٤، وما بعدها.

وفي عرضه للتاريخ الإسلامي أبرز الأسباب والعلل المباشرة والعامّة^{٣٥}،
فطرق مجال الرأي والرؤية في آن، فإذا أضيف إلي ذلك إحكامه الصلة بين المعارف
المختلفة لتدخل ضمن موضوع التاريخ، تؤكد صدق حكم بعض الباحثين^{٣٦} بأن
المسعودي قدم الرؤية الحضارية للتاريخ.

ونذهب نحن إلي أبعد من ذلك فنعتبر المسعودي من رواد فلسفة التاريخ ولا
مبالغة في ذلك ألبيته، إذ نجد في مصنفة ما يشي بالرؤية البيولوجية للتاريخ حين تحدث
عن "نشأة الدول وشبابها وهرمها وعلل جميع ذلك"^{٣٧} ودعوته إلي ضرورة معرفة
المؤرخ "كيف تدخل الآفات علي الملك وتزول الدول. وتبيد الشرائع والملل، والآفات
الخارجية المفترضة لذلك"^{٣٨}، لقد وقف بحق علي ما أسماه فلاسفة التاريخ المحدثون
"بالظروف الموضوعية" التي هي نتاج عوامل داخلية وأخري خارجية تتضافر معاً
لإحداث "حركية" التاريخ وصيرورته. هذا فضلاً عن شمول هذه الصيرورة لسائر
الظواهر المادية^{٣٩} والروحية التي توحدت في مخيال المسعودي وتأطرت في ذهنه
تأطيراً عقلانياً.

كانت جهود المسعودي في مجال التفسير والتنظير مدخلاً أساسياً لازدهار
الفكر التاريخي خلال القرن التالي من منتصف القرن الرابع إلي منتصف القرن
الخامس الهجريين الذي شهد "صحوة بروجوازية" تركت أثراً إيجابياً في مجالات
السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة.

وبديهي أن يتطور علم التاريخ خلال قرن الازدهار هذا موضوعاً ومنهجاً
ورؤية.

³⁵ نفسه، ص ٣١، وما بعدها.

³⁶ أنظر: شاکر مصطفى: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٤٧.

³⁷ التنبیه والإشراف، ص ٣.

³⁸ نفسه، ص ٤.

³⁹ روزنثال: المرجع السابق، ص ١٨٧.

ولعل من أسباب ومظاهر هذا الازدهار اكتساع الكتابة التاريخية طابعاً دنيوياً بعد اختفاء المؤرخ المحدث وظهور الكاتب والتاجر والوراق والأديب وحتى الطبيب. منها أيضاً الازدهار الذي عم سائر أصناف العلوم والفنون والآداب المختلفة سواء علي الصعيد المنهجي أو المستوي المعرفي، وكما كان معظم مؤرخي العصر ذوي ثقافة موسوعية، فقد أفادوا منها في مجال الكتابة التاريخية، ولعل من أهم جوانب تلك الاستفادة اقتباس المشتغلين بالتاريخ الكثير من قواعد "المنهج العلمي التجريبي" الذي ترسخ في هذا العصر بفضل ابن الهيثم وابن سينا والبيروني وغيرهم كبديل عن اقتباس منهج أهل الحديث، كما كان الحال إبان القرن السابق، بفضل ذلك كله احتل علم التاريخ مكانة جلي في كتب تصنيف العلوم⁴⁰، فقد أفرد الخوارزمي باباً "لأخبار التاريخ" في مصنفه "مفاتيح العلوم"⁴¹ كما خصص ابن النديم فصلاً مطولاً عن "المؤرخين والتاريخ والنسابة"⁴² في كتابه "الفهرست" واعتبر إخوان الصفا علم التاريخ من العلوم الأساسية التي وظفوها لتتقيد الأتباع والأعوان.

وليس جزافاً أن يعترف جل دارسي علم التاريخ الإسلامي بهذه النقلة التي أكتمل بفضلها العلم "قبل سن الرشد"⁴³ واختلط المؤرخون طرائق وقواعد جديدة أثرت العلم موضوعاً ومنهجاً ورؤية⁴⁴، فتحول من الرواية إلي الدراية⁴⁵ ولا غرو، فقد تطورت موضوعات التاريخ المطروقة من قبل واستحدثت موضوعات جديدة،

⁴⁰ جب: المرجع السابق، ص ٧٧.

⁴¹ ص ٦٠ - ٨٠، القاهرة ١٩٣٠.

⁴² الفهرست، ص ٣٧ وما بعدها.

⁴³ شاكر مصطفى: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٠٣.

⁴⁴ ياسر نور، التأثير المنهجي لعلوم الحديث في مناهج المؤرخين المحثثين ص ١٠١، ١٤٩، رسالة ماجستير، مخطوطة، المنصورة، ١٩٩٩.

⁴⁵ عفت الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، ص ٧٦، بيروت، ١٩٧٣.

كالاهتمام بالتاريخ الاقتصادي ومفرداته^{٤٦}، ومزج التاريخ بالجغرافيا والسياسة والفلسفة^{٤٧} والعقائد والذهنيات وغيرها من مقومات التاريخ الحضاري.

وشهدت المظان التاريخية تطوراً مماثلاً، فجري الاعتماد علي الوثائق والمذكرات الخاصة والآثار والنقود وغيرها، كما جري الاهتمام بنقد المصادر المكتوبة^{٤٨}، فصنفت كتب خاصة في نقد الروايات والرواة، وغدت الأخبار المستقاة من المشاهد والعيان حجر الزاوية في المادة التاريخية المعول عليها.

وأفضي مناخ التسامح والحرية الذي ساد العصر إلي كسر الإكراهات والمحاذير التي كانت تغل يد المؤرخ في الكتابة، وتحول بينه وبين التزام الصدق والموضوعية، كما تقلصت السخائم العصبية والصراعات المذهبية والنعرات الإقليمية أو كادت لنجد بعض مؤرخي الفرس كحمزة الأصفهاني علي سبيل المثال ينصف العرب ويكتب بموضوعية عن أهل السنة رغم تشيعه^{٤٩}، وحين صنف ابن النديم كتاب "الفهرست" خصصه لما وقف عليه من مصنفات "عن جميع الأمم من العرب والعجم"^{٥٠}.

في ضوء تلك المعطيات الإيجابية وغيرها تطورت الكتابة التاريخية، وانصب الاهتمام علي التحليل والتعليل والتنظير خصوصاً بعد "استقرار الرواية"، واستهدف المؤرخون الوصول إلي الحقائق وتوظيفها في شحذ الوعي عن طريق التنقيف والتربية والتنوير^{٥١}، كما جمع بعض المؤرخين بين التاريخ وفلسفة الأخلاق، كما هو حال مسكوية علي سبيل المثال حرصاً علي توخي الصدق وتحاشي الكذب^{٥٢}. وفي هذا

⁴⁶ روزنتال: المرجع السابق، ص ١٦٣.

⁴⁷ ابن النديم: المرجع السابق، ص ١٢٠.

⁴⁸ مبيتز (آدم) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ١، ص ٢٤٠. القاهرة ١٩٥٧.

⁴⁹ بروكلمان: المرجع السابق، ص ٦٠.

⁵⁰ الفهرست، ص ٣.

⁵¹ محمود إسماعيل: إخوان الصفا، ص ٦٧ وما بعدها، القاهرة ١٩٩٨.

⁵² شاكر مصطفى: المرجع السابق، ج ١، ص ٤٥٤.

الباب كتب أحد مشاهير مؤرخي العصر يقول: "إن التاريخ تجارب..... والرأي لقاح العقل، والتجربة نتاجه، والخير مقصد الحجى، والاجتهاد منهاجه"⁵³.

ويشي هذا النص المقتضب بالكثير من خصائص الكتابة التاريخية في هذا العصر، وما يعيننا هو الوقوف علي تطور الفكر التاريخي خلاله في مجال الرأي والرؤية والتأويل والتنظير.

وأول ما يلاحظ في هذا الصدد، التعويل علي العقل في مجال التفسير⁵⁴ بحيث عرف البعض علم التاريخ بأنه "علم علل الأحوال"⁵⁵ واشتهر البعض الآخر بإرداف ذكر الحدث "بذكر السبب"⁵⁶ كما هو حال هلال الصابي ومسكويه علي سبيل المثال ولا غرو. فقد أخضع مؤرخو العصر الكثير من الموضوعات اللاهوتية والخيالية لسلطان العقل⁵⁷ فقد اتسعت رؤاهم لتجمع الكون برمته في وحدة كلية واحدة، يقول أحدهم "قالناظر في كتابنا هذا كالمشرف المطلع علي العالم مشاهداً حركاته وعجيب أفعاله"⁵⁸ ولم يجد جلهم غضاضة في الجمع بين الدين والعلم⁵⁹، فتناولوا الكثير من القضايا الدينية دون خوف أو وجل. وحسبنا أن حمزة الأصفهاني⁶⁰ علي سبيل المثال جمع بين التاريخ الديني والتاريخ الدنيوي في مصنف واحد، كما جمع أيضاً بين التاريخ والفلسفة، وكان ذلك إيذاناً بظهور التاريخ المفلسف، وفي هذا الصدد قام إخوان الصفا بدور بارز أفاد منه المعاصرون واللاحقون، وحسبنا الإشارة إلي بعض ما سطوروا في رسائلهم عن قيام الدول وسقوطها.

⁵³ أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ٤، القاهرة ب. ت.

⁵⁴ عبد العزيز عزت، ابن مسكويه، ص ٩٢، القاهرة ١٩٤٦.

⁵⁵ أبو شجاع: المرجع السابق، ص ٥.

⁵⁶ هلال الصابي: تاريخه، ص ٣٢٦، القاهرة، ب. ت.

⁵⁷ سالم أحمد محل: المرجع السابق، ص ١٢٢.

⁵⁸ المطهر المقدسي، البدء والتاريخ، ج ١، ص ١٧.

⁵⁹ روزنتال: المرجع السابق ص ٢٠١.

⁶⁰ أنظر: حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص ٢٧، برلين ١٣٤٠هـ.

يقول الإخوان^{٦١} "أعلم يا أخي بأن أمور هذه الدنيا دول ونوب تدور بين أهلها قرناً بعد قرناً ومن أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد... واعلم بأن كل دولة لها وقت منع تبتدئ وغاية إليها ترتقي، وحد إليه تنتهي، فإذا بلغت أقصى غاياتها، ومدي نهاياتها، تسارع إليها الانحطاط والنقصان، وبدأ في أهلها الشؤم والخذلان، واستأنف في الآخرين من القوة والنشاط والظهور والانبساط، وجعل كي يوم يقوي هذا ويضعف إلي أن يضمحل الأول المقدم، ويستمكن الآتي المتأخر.

ونعتقد أن الكثيرين^{٦٢} من صفوة مؤرخي العصر كانوا ضمن هذه الجماعة ولعل من أشهرهم مسكويه (ت ٤٢١هـ) الذي ترأس مدرسة ضمت أبا شجاع والصابي والبغدادي والبيروني وغيرهم. ونظراً لأهمية ما تضمنه كتابه "تجارب الأمم" من آراء ورؤى في تفسير التاريخ، نتوقف عنده لرصد بعض مقولاته وتنظيراته. يجمع الدارسون على أن مسكويه اختط للكتابة التاريخية مساراً جديداً قوامه تحويل الوقائع إلى أحكام ومقولات تبدأ بالتدبير الذي يسبق الحدث، ثم ذكر الحدث كتجربة إنسانية، ثم تحليل تلك التجربة، وأخيراً ما تمخضت عنه من دروس وعبر، لقد اعتبر مسكويه التاريخ مستودعاً للتجربة الإنسانية، وعنوان كتابه "تجارب الأمم" شاهد أمين على ذلك.

وما يعيننا إثباته أن رؤية مسكويه للتاريخ من نتاج عوامل شتى، منها كونه زيدياً اعتزالياً جمع بين عدل واعتدال المذهب الزيدي وبين عقلانية المعتزلة. منها أيضاً حظه العريض من تحصيل علوم عصره الطبيعية والرياضية والفلسفية والأدبية والاجتماعية، وإفادته منها جميعاً في صياغة منظوره التاريخي.

⁶¹ رسائل إخوان الصفا، ج١، ص ١٨٠، بيروت، ب. ت. وعن مزيد من النصوص في فلسفة التاريخ عند الإخوان، راجع: محمود إسماعيل: نهاية أسطورة، ص ٥٩ وما بعدها، القاهرة ٢٠٠٠.

⁶² أنظر: روزنتال: المرجع السابق، ص ١٩٧، عبد الله العروي العرب والفكر التاريخي، ص ٣٥٠،

بيروت ١٩٧٣.

والجديد الذي قدمه هذا المنظور يكمن في اطراح كل ما لا يقبله العقل حتى ولو كان مقدساً والإلحاح علي "ما كان تدبيراً بشرياً لا يقتزن بالإعجاز"^{٦٣} لقد أثبت أن الأحداث والوقائع التاريخية نتيجة فعاليات بشرية مسبقة بالتفكير والتدبير^{٦٤}.

وقد ساقته هذه النظرة إلي الاهتمام بالجوانب الاقتصادية بمفرداتها الدقيقة هو "ما لم يلفت إليه غيره، وقد يقف علي أمر صغير قد يكون فيه درس كبير"^{٦٥}، ومن هنا عول علي النظرة النقدية للمرويات، واعتمد فيها ما يقبله العقل، كما اعتمد علي حصاد مشاهداته وصلاته واستخلص منها جميعاً مادة كتابه الذي اعتبره البعض^{٦٦} أهم ما كتب في التاريخ الإسلامي، لقد نظر مسكويه إلي الروايات التي حوتها كتب التاريخ باعتبارها محض "أخبار تجري مجري الأسمار والخرافات لا فائدة منها غير استجلاب النوم بها"^{٦٧}، ومن هنا حرص اشد الحرص علي قياس الأخبار علي العقل المنوط بتمحيصها أولاً، ثم استكناه عللها بعد ذلك.

من الجديد الذي تفرد به مسكويه أيضاً، إدماج الراي في التجربة^{٦٨}، واستخلاص العوامل المؤثرة من هذا الدمج في صياغة الأحداث الكبرى، وفي هذا الصدد أولي مسكويه السياسات الاقتصادية اهتماماً كبيراً باعتبارها العامل المؤثر في السياسة^{٦٩} بل في العمران كله^{٧٠}.

وحق لنا أن نسجل له سبقاً فريداً حين فطن إلي مسئولية الطبقة الوسطي عن خراب العمران في العالم الإسلامي الوسيط^{٧١}، وتفسير حركات العيارين وثورات

⁶³ مسكويه: تجارب الأمم، جـ ١، ص ٣، طهران ١٩٧٨.

⁶⁴ نفسه ص ١٥٠.

⁶⁵ أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ ١، ص ٢٠٨، القاهرة ١٩٦٦.

⁶⁶ روزنثال: المرجع السابق، ص ١٩٦.

⁶⁷ تجارب الأمم، جـ ١، ص ٢٢.

⁶⁸ مرجويوث: المرجع السابق، ص ١٢٣.

⁶⁹ نفسه، ص ١٤٣.

⁷⁰ تجارب الأمم، جـ ٢، ص ٦٩، القاهرة، ب. ت.

⁷¹ نفسه، ص ١٤٣.

العوام بالسياسات والإجراءات الاقتصادية المشتتة^{٧٢}. وفق نفس الرؤية فسر استقرار الأحوال السياسية وازدهار العمران بالسياسات الاقتصادية الرشيدة^{٧٣}، لقد كان بحق أول مؤرخ إسلامي يفتن إلى أهمية التفسير المادي للتاريخ.

في نفس المكانة نضع أبا لريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ) كمؤرخ طفر بالفكر التاريخي طفرة كبرى، خصوصاً في مجال التفسير والتنظير.

كان البيروني كمسكويه والمسعودي شيعياً زيدياً إعتزالياً، إشتغل بالسياسة ثم لفظها إلى العلم والمعرفة^{٧٤}، فحاز قصب السبق في الإلهيات والمنطق والفلك والجغرافيا إلى جانب التاريخ بطبيعة الحال، وأسهم إسهامة كبرى في تطوير المنهج العلمي التجريبي، وحسبه أن كان أول من تحدث عن "القانون" العلمي كمصطلح^{٧٥}.

كتب البيروني عدداً من المؤلفات في التاريخ، لم يبق منها سوى كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مردولة" وكتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية"، وما يعيننا هو الوقوف على رؤية البيروني للتاريخ أو بالأحرى ما أضافه من جديد في مجال التفسير والتنظير.

يعد الكتاب الأول تاريخاً حضارياً للهند، مقارناً بحضارات الأمم الأخرى، بما يشي باتساع "المخيال" التاريخي لمؤلفه، فضلاً عن ثقافته العريضة والموسوعية التي تتمثل في احتواء الكتاب على دراسات معمقة في العقائد والإنتولوجيا والأنثروبولوجيا، إلى جانب أبحاث أخرى في الميتافيزيقا والطبيعة، مزج البيروني بينها جميعاً، وصاغ هذا المزيج صياغة فلسفية معمقة^{٧٦}.

⁷² نفسه، ص ٩١.

⁷³ نفسه، ص ١٢٧، ١٢٨.

⁷⁴ البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مردولة، ص ١٠، ١١ من مقدمة المحقق، بيروت ١٩٨٤.

⁷⁵ راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، ج ٢، مجلد ٢، ص ٤٠، ٤١، القاهرة ٢٠٠٠.

⁷⁶ البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، ص ٤ وما بعدها.

وبرغم وفرة وزخم تلك المعلومات إلا أن البيروني صنفها وبوبها في تسلسل واتساق ينم عن إدراك ووعي بالصلة الوثيقة بين المعارف المختلفة، وقدرة في فهم اصطلاحاتها.

والأهم من ذلك ما قدمه من رؤية "أنطولوجية" تجمع كل ظاهرات الوجود المحسوس والمعقول في وحدة واحدة، كذا النظر إلي الأمم والشعوب المختلفة نظرة متوحدة أيضاً، تأسيساً علي وجود "مشترك إنساني عام" في القيم والحضارة، فقد تساوت في هذا المعني جميع الأمم^{٧٧}، لذلك يعد الكتاب شاهداً علي منهجية جديدة تعالج موضوعات جد مبتكرة في صياغة فلسفية منطقية.

ولا جدال في أنه قدم رؤية فلسفية تجمع بين إنجازات العلوم المختلفة والتجارب البشرية التي أفرزتها في منظومة واحدة.

وفي هذا الصدد يقف الدارس علي مقولات هامة في فلسفة التاريخ، منها أن قيام الدول لا يتحقق "إلا بأجتماع الملك والدين"^{٧٨}، منها أيضاً الوقوف علي تأثير البعد الطبقي بمعناه العلمي في صياغة الوقائع والأحداث، تأسيساً علي أن الطبقات نتاج "عمل أو صناعة أو حرفة"^{٧٩}، منها أيضاً وجود علاقة عضوية بين المحسوس والمعقول^{٨٠} انطلاقاً من فلسفة "وحدة الوجود" فالعالم نتاج أفعال بشرية تصنع "العمران" وهو "معمور بالحرث والنسل"^{٨١} والحضارة "مشترك إنساني عام"^{٨٢}.

نستخلص مما سبق استناد فلسفة التاريخ عند البيروني علي العقل النقدي أولاً، والوجود المادي ثانياً، والفعل البشري أخيراً^{٨٣}، لذلك كان علي وعي تام بتفرده فيما توصل إليه، كما كان حريصاً علي تقديم دروس تعليمية للمؤرخين عن شروط الكتابة

⁷⁷ نفسه، ص ١٣٨.

⁷⁸ نفسه، ص ٥٥.

⁷⁹ نفسه، ص ٧٠.

⁸⁰ نفسه، ص ٧٨.

⁸¹ نفسه، ص ٣٥.

⁸² نفسه، ص ١١٩.

⁸³ نفسه، ص ١٠٧.

وإشكالياتها ومرجعياتها ومناهجها، وهي دروس تفرد بها عن رؤية ووعي، يقول في ذلك "لقد أعيتني المداخل فيه (أي ما توصل إليه) مع حرصي الذي تفردت به في أيامي"⁸⁴.

ومن أهم ما استحدث البيروني في مجال المنهج بخصوص "المرجعيات" حكمه بأن ما يحصله المرء عياناً أهم بكثير مما يعرفه سماعاً "فليس الخبر كالعيان.. لأن العيان هو إدراك عين الناظر المنظور إليه في زمان وجوده... أما الخبر فيكون عن الشيء الممكن الوجود"⁸⁵ وفي حديثه عن الأسباب التي تحول دون الموضوعية في الكتابة التاريخية يقول: "وللخبر آفات.. وفيه الصدق والكذب"، ورد الكذب إلي "تفاوت الهمم وغلبه الهراش والنزاع علي الأمم" فمن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه فيعظم به جنسه... ومن مخبر عن متقرب إلي خبر بدناءة الطبع أو متقياً لشر.. ومن مخبر عن جهل وهو المقلد للمخبرين"⁸⁶.

ونعتقد أنه وقف بذلك علي الأسباب الذاتية والموضوعية التي تحول دون المصداقية. والأهم من ذلك أن البيروني طبق القواعد المنهجية هذه حين صنف كتبه في التاريخ.

أما عن رؤيته التاريخية في كتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية" فكانت أكثر تفلسفاً وأعمق نظراً، لأن الكتاب مصنف في التاريخ العالمي، قدم فيه البيروني صورة للتاريخ البشري والحضارة الإنسانية وفق منهج يرصد النتائج الهامة والآثار العميقة التي وجهت التاريخ الإنساني كله، وغالبت الزمان والمكان لتقف شاهداً علي عظمة الإنسان، وفي هذا الصدد فطن المؤلف إلي ما يمكن أن نطلق عليه "الزمان التاريخي" إذ نقف عليه من خلال جدل الزمان مع الأحداث، حيث يفرق بين الغث منها والثمين، أما الغث فيذهب جفاء، وأما الثمين فيبقى لينفع الناس، وهذا الثمين هو الذي

⁸⁴ نفسه، ص ١٢.

⁸⁵ نفسه، ص ١٣.

⁸⁶ نفسه، ص ٦٤.

عرض له البيروني في كتابه بدلاً من "أعمال الملوك وأفاعليهم مما تمجه الأذان ولا تقبله العقول"⁸⁷.

وبصدد التمييز بين الغث والثمين في وقائع التاريخ، توسل البيروني بمنهج "الاستدلال بالمعقولات، والقياس بما يشاهد من المحسوسات" بعد "تنزيه النفس عن التعصب والتطافر وابتاع الهوي والتغالب بالرياسو"⁸⁸.

لقد عول علي المحسوس في معرفة المنقول، ووقف علي الغائب من خلال معرفة الشاهد، تأسيساً علي وحدة الوجود المعرفي، وقياساً علي وحدة الوجد الأنطولوجي. ومن خلال ذلك قدم البيروني تأريخاً مصفي بعيداً عن التحريف والزيف الذي "هو خداع للأمم"⁸⁹.

هذا المنهج القويم - فيما أري - جاء نتيجة ثقافة عريضة ودراسة في العلوم الطبيعية والرياضة، فضلاً عن نتاج جهوده للأرتقاء بالمنهج العلمي التجريبي، ولعله تأثر كذلك بهذا المنهج، حين انفرد بين مؤرخي العصر الوسيط بالوقوف علي أهمية ما نسميه الآن "بالمنهج الكمي" "الكوانتوم" المؤسس علي الجداول والإحصاءات والمعادلات الرياضية وتوظيفها في دراسة العلوم الإنسانية⁹⁰، لذلك كله وغيره حق للأستاذ "سخاو" القول بأن البيروني يعد من أعظم العقول التي أنجبتها البشرية.

خلاصة القول، أن نشوء وتطور منهجية التفسير التاريخي كان مرتبطاً بتاريخ العلم والثقافة في الإسلام، وكلاهما كانا بالمثل نتيجة معطيات سوسيو تاريخية، اقتصادية واجتماعية وسياسية.

⁸⁷ البيروني: الآثار الباقية، ص ١٠٠.

⁸⁸ نفسه، ص ٤.

⁸⁹ نفسه، ص ٢٠٤ وما بعدها.

⁹⁰ عن نماذج في هذا الصدد: راجع: الآثار الباقية، ص ١٠٥ علي سبيل المثال.

الألقاب والكنى الشعبية الساخرة في عصر سلاطين المماليك

٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م

محاسن محمد علي الوقاد

مصر

يشكل تاريخ المماليك في مصر تراكمًا للمصنفات والسجلات المليئة بالغموض والتناقض، الناجمين عن طبيعة تكوين طوائف المماليك، وطريقة تربيتهم وأسلوبهم في الحكم، وعن طبيعة تقاليدهم البدائية التي لم تكد تنهذب وتتأقلم بالبيئة المصرية المتحضرة، حتي تغذيها موجات مغولية جديدة بعقليتها البدائية، وأمزجتها وطبيعتها غير المصقولة، وقد ترتب علي ذلك أن الموجات اللاحقة أخذت في إفساد ما اكتسبته الموجات السابقة عليها من ألوان الثقافة والتحضر والتأقلم بالبيئة المصرية^(١)، ولا جدال في أن طبيعة المماليك الذين حكموا مصر زهاء قرنين ونصف من الزمان (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م) لم تتح لهم أدراك المفهوم الصحيح للأسرة، بل لم يكن لديهم حياة عائلية بالمعني المعروف، رغم أن غالبية أفرادها حرصوا على الزواج وعلى إنجاب الأطفال، ذلك أن أسلوب المماليك في الحياة لم يقيم على أساس وحدة الأسرة بأركانها المعروفة وهي: الأب والأم والأولاد، بقدر ما قام على أساس الرقيق والمماليك^(٢).

أضف إلى ذلك أن الدولة المملوكية كان يسودها النظام الإقطاعي الذي يميزه وجود طبقتين إحداهما أرستقراطية تمثل الثراء والبذخ، والأخرى وهي طبقة العوام التي كانت متردية في الفقر والعوز، نتيجة سوء الأحوال الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية^(٣).

(١) نظير حسان سعداوي، صور ومظالم من عصر المماليك، القاهرة ١٩٦٦ م، ص ٤.

(٢) أحمد عبد الرازق، المماليك ومفهوم الأسرة لديهم، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد الثاني ١٩٧٧ م، ص ١٨٨.

(٣) HOLT (P.M), Scenes of Daily life from Mamluk Miniatures, The Eastern Mediterranean Lands, in the Period of the Crusades, Worminster, England, 1977, P. 79; Poliak (A.N), Some Notes on the Feudal System of The Mamluk, Iras, 1937, pp. 97-107; Feudalism in Egypt, Syria Palestine and The Lebanon, 1250 - 1900,

وفي ظل هذا النظام استأثر المماليك بكل خيرات البلاد، ولم يتركوا لأهلها سوى الفتات^(١) وحياة الفقر والفاقة^(٢).

ومن مظاهر القهر الاقتصادي الذي تعرض له العامة في ذلك العصر احتكار الدولة لتجارة بعض السلع الأساسية وتحديد سعرها بما لا يتناسب مع القدرات الشرائية لهذه الطبقة^(٣).

كانت العلاقة بين السلطان والعامة ترتبط بالأحوال الاجتماعية والظروف السياسية والاقتصادية التي تمر بها الدولة ، ذلك بالإضافة إلى طبيعة السلطان ذاته وميوله واتجاهاته في الحكم ، وكانت الضرائب مؤشراً هاماً يعكس طبيعة هذه العلاقة، وغالباً ما كان فرض الضرائب سبباً من الأسباب الأساسية في إثارة العامة، حتى وإن كان فرضها مرتبطاً بتجهيز الجيش للدفاع عن البلاد^(٤).

على أن خضوع مصر لأرستقراطية حاكمة من المماليك تفتنت في استغلال البلاد وأهلها ، لم تفقد المصريين روح المرح التي عرفوا بها في كل زمان ومكان ، ولم تضعف هذه الروح حرمان الأهالي من المشاركة في حكم بلادهم أو قسوة الحكام في عقاب من يخرج عن طاعتهم من أبناء البلاد أو حتى الأوبئة التي تعرضت لها مصر بين حين وآخر في عصر المماليك^(٥).

The Royal Asiatic Society, London, 1939, pp. 1-17; Lane – Poole, History of Egypt, pp. 252-253.

(١) محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك ، مجلة عالم الفكر ، م ١٤ ، العدد (١) ١٩٨٣م ، ص ٢٠٦ .

(٢) محاسن محمد الوقاد ، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية (٦٤٨ – ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م) القاهرة ١٩٩٩م ، ص ١٢٥ .

(٣) Sobernheim (M), Encyclopedia of Islam, art. Mamluks, Leiden, 1987, Vol. 7, p. 217; محاسن الوقاد ، الطبقات الشعبية ، ص ١٢٥ .

(٤) علاء طه رزق ، عامة القاهرة في العصر المملوكي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الزقازيق، كلية الآداب ، ١٩٨٩م ، ص ٨٦ .

(٥) سعيد عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ط (١) القاهرة ١٩٦٢ م ، ص ١٠٠ وما بعدها .

والشعب المصري من أكثر الشعوب الإسلامية مواجهة لظلم الحكام وطغيانهم، فهو يقاومه وإن خضع له على مضض ومقاومته له قد تصل إلى حد الثورة^(١).

وبالرغم من سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للعامة في ظل حكم المماليك ، إلى جانب تفشى الأوبئة والمجاعات التي حدثت من وقت لآخر، والتي كانت تحصد أغلبهم ، رغم كل ذلك لم تفقد العامة روح المرح والتسلية بالاستمتاع ببعض وسائل الترفيه عن النفس ، وهذه السمة ظلت عزاء للعامة المصرية الكادحة ومتنفساً لها في الاحتفالات الكثيرة التي حظي بها العصر المملوكي^(٢) ، فقد أطلق الرحالة ابن بطوطة وصفه لأهل مصر على اختلاف طبقاتهم بأنهم " ذوو طرب وسرور ولهو "^(٣).

وقد تجلت روح المقاومة الشعبية في التراث الأدبي الشفاهي أو الشعبي ، ولا سيما في فترات حكم السلاطين المستبدين ، وإذا كان هؤلاء قد نجحوا في وأد روح المقاومة الإيجابية أو العسكرية التي كانت تشكلها هبات العامة، وانتفاضاتهم المستمرة، بزعامة الحرافيش والشطار والعيارين والزعار وأشباههم من البطالين أو العاطلين ، فإنهم لم ينجحوا أبداً في سلب هؤلاء العوام روح السخرية المريرة المشهورة التي توسلوا بها أدبياً وفنياً واجتماعياً ونفسياً، في التنفيس عن معاناتهم وآلامهم وآمالهم وأحلامهم، في الخلاص من بطش هؤلاء المستبدين المغرورين الذين مسهم الرق يوماً ما^(٤).

(١) عبد المنعم ماجد ، موقف المصريين من حكم المماليك في العصور الوسطى ، حوايات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، م ١٢ ، ١٩٦٩ م ، ص ٤٩ .

(٢) محاسن الوقاد ، الطبقات الشعبية ، ص ٢٤٧ .

(٣) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص ١٩ ؛ نقولا زيادة ، الرحالة العرب ، القاهرة ، ١٩٥٦ م ، ص ١٣١ .

(٤) رجب النجار ، الشعر الشعبي ، ص ٧٧٩ .

إن الأدب الشعبي والأدب العامي كان يمس كل منهما الحياة الاجتماعية من جميع جوانبها ، فهما تعبير عن خلد القطاع الاجتماعي الغفير ، بما يعتريه من مؤثرات اجتماعية أو هزات سياسية أو طبقية ، وما إلى ذلك مما ينتاب الشعوب من تغير في السلوك^(١).

لقد اضطر المجتمع الشعبي إزاء المحن التي ألمت به، وفشله الدائم في مواجهتها من ناحية، وعجزه عن تحقيق شخصيته ووجوده تحقيقاً إيجابياً، من ناحية أخرى، بعد أن جرده ظالموه من إمكانيات الرد ، إلى أن يلوذ بالسلاح الوحيد الذي لا يمكن لأحد أن يجرده منه - وهو لسانه - وإن قطعوه أحياناً ، ولكن عبثاً حاولوا القضاء على روح السخرية أو الفكاهة عنده، كما اضطر إلى الخروج النفسي من هذه المحن والكوارث بالفكاهة والتندر والسخرية متخذاً منها ملاذاً ومهرباً ومخرجاً ومتنفساً وعزاء واستكثاراً ، فقد أدركت العامة بفطرتها وفطنتها أن المأساة يمكن أن تتحول إلى ملهاة^(٢).

ولا يعدم الباحث في التاريخ المصري المملوكي أن يعثر في زحمة المتناقضات وفي غلبة الأحداث اليومية الصاخبة على طرفة من الطرف الجميلة أو نادرة من النواذر الشيقة، أو أعجوبة من الأعاجيب المثيرة ، التي لا تخرج عن كونها مجموعة من المرايا الصاقية التي تصور حياة المجتمع المصري المملوكي سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعسكرياً ، والتي تلقى ضوءاً كاشفاً على ما يجري بداخله^(٣).

إن العامة حين اتخذت من الفكاهة سلاحاً تطعن به طبقة المماليك تفننت في إبداعها الشعبي في ابتكار ما يمكن أن نسميه أدب السخرية والفكاهة، باعتباره إحدى الوسائل الفنية والنفسية البارعة، في محاربة السلطة الجائرة وكشف ألاعيبهم، وفضح جورهم وبطشهم وأنانيتهم وجشعهم واستغلالهم وصراعهم الدموي ، إن هذا اللون من

(١) صادق الجمال ، الأدب العامي ، ص ٧٥ .

(٢) رجب النجار ، الشعر الشعبي ، ص ٧٨١ .

(٣) نظير حسان ، صور ومظالم ، ص ٥ .

الأدب الشعبي قد زود العامة بقدر من المناعة أو الحصانة النفسية ، وعمل على رفع روحهم المعنوية وتزويدهم - ولو إلى - حين بجرعة من الشجاعة والقدرة على المجابهة والصمود والتحدى ، هذا الأدب الموجه ضد بعض القيود المفروضة عليهم في ظل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة^(١).

بل إن هذا الأدب الشعبي - في كثير من نماذجه الأصلية - تجاوز في وظيفته التعبير عن روح الشماتة والتشفى من حكامه المماليك، إلى تحقيق الشعور بالتفوق والاستعلاء والأصالة والانتصار^(٢).

وقد ظهرت هذه الروح بوضوح في بعض الألقاب والكنى التي أطلقها العامة، على بعض سلاطين المماليك والأمراء وكتاب الدواوين على سبيل التهكم والسخرية ، أو مودة وحباً في السلطان مثل السلطان "ركين"^(٣) أو السلطان يلباى "المجنون"^(٤) والسلطان "بخشى"^(٥) ، و "سلطان ليلة"^(٦) و "سلطان الجزيرة"^(٧) و "السلطان أبو عيشة"^(٨) ، وهذه الألقاب والكنى إنما تشير إشارة ساخرة إلى سلوكهم أو إلى كونهم العوبة في أيدي الأمراء ، أو إلى أنهم لم يلبثوا في السلطة غير ليلة واحدة أو تسلمن بعضهم في الجزيرة - بالنيل - لا العاصمة أثر انقلاب دموي .

(١) رجب النجار ، الشعر الشعبي ، ص ٧٨٧ .

(٢) رجب النجار ، الشعر الشعبي ، ص ٧٨٧ وما بعدها .

(٣) المقرئى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشره محمد مصطفى زيادة ، جـ ٢ ق ١ ، لجنة التأليف والنشر ، ١٩٤١م ص ٥٥ ، ابن أبياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، جـ ١ ق ١ ، القاهرة ١٩٨٢ م ، ص ٤٢٥ .

(٤) ابن أبياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٤٦٦ .

(٥) ابن أبياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٤٣٦ وما بعدها .

(٦) ابن أبياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٧ .

(٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، بدون تاريخ ، جـ ١١ ، ص ٣٧ .

(٨) المقرئى ، السلوك ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٢٨٦ ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبي ، ص ٨١ وما بعدها ، ص ٧٩٣ وما بعدها .

وبإحدى ذي بدء يتوجب علينا هنا تعريف الألقاب والكنى لغة واصطلاحاً :
يختلف المعنى اللغوي للقب عن المدلول الشائع، فاصل اللقب في النِّبَر ، وهو ما
يخاطب به الإنسان من ذكر عيوبه ، وما يحب ستره ، وقد ورد في القرآن الكريم بهذا
المعنى في قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا
مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا
بِالْأَلْقَابِ " (١) ثم أجاز استعمال اللقب في موضع النعت الحسن ، وكثرا استعماله بهذا
المعنى حتى اصطلح على مدلوله: التشريف والمدح (٢).

على أن الكتاب في عصر المماليك قد اصطلاحوا فيما بينهم على مدلول خاص
للقب ، وفرقوا بينه وبين ما سموه بالنعت؛ فسموا صفات المدح التي ترد بصيغة
الإفراد، أي التي تتكون من لفظ واحد، مثل الفاضل والشيخ ونحو ذلك ، ألقاباً ؛
وصفات المدح التي ترد على صورة التركيب ، أي التي تتكون من أكثر من لفظ واحد
مثل مولى أمير المؤمنين، ونصير الإسلام والمسلمين، وعضد الملوك والسلطين،
ونحو ذلك نعوتاً ، والنعت في اللغة: الصفة ؛ وكان يطلق على ما يختاره الإنسان
ويزيد في إجلاله، وهو بهذا المعنى عكس اللقب بمعناه الأول ، غير أنه استعمل أيضاً
في الذم ، وعلى هذا اتفق مع اللقب في جواز استعماله للمدح أو للذم ، وأخيراً غلب
العرف استعمال كلاً من النعت واللقب لصفات المدح والتكريم (٣).

وفيما يتعلق بالكنى : كنى عن كذا كنايةً : تكلم بما يستدل به عليه ولم
يصرح، كنى و - الرجل بأبي فلان وأبا فلانة كنايةً أطلق عليه هذه الكنية (٤).

(١) قرآن كريم سورة الحجرات آية رقم ١١ .

(٢) حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ١ ؛ مجمع
اللغة العربية ، المعجم الوجيز ط ١ القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٥٦١ ؛ الفيروز آبادي ، القاموس
المحيط ، ج ١ ١٩٧٧م ، ص ١٢٨ .

(٣) حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية، ص ١.

(٤) مجمع اللغة العربية ، المعجم الوجيز ، ص ٥٤٣ .

أما بحثنا هذا فنعنى بالألقاب؛ ما يطلق من الصفات رسمياً على سبيل المدح والتشريف أو الذم، بحيث يخرج من نطاقه الألقاب الشعبية التي لم تمنح لأصحابها بطريق رسمي .

وقد وجدت بعض الألقاب والكنى لم تفسر لنا المصادر المملوكية المعاصرة سبب إطلاق هذه الألقاب فبقيت بلا معنى ، في حين وصلتنا تفسيرات لأغلب الألقاب التي أطلقت على السلاطين وبعض الأمراء إبان العصر المملوكي .

أما عن الألقاب التي أطلقتها العامة على الأمراء مثل الأمير عز الدين أيخان المعروف بسم الموت^(١) والأمير طشتمر المعروف بحمص أخضر^(٢) ، والأمير قطلوبغا الفخري المعروف بالقول المقشر^(٣) ، والأمير سيف الدين ملكتمر الناصري المعروف بالدم الأسود^(٤) والأمير ناصر الدين فار السقوف^(٥) ، والأمير طشتمر طليعة^(٦) ، والأمير شمس الدين محمد أبي رقية^(٧) ، والأمير أزدمر العزى المعروف بأبو دقن^(٨) ، والأمير الطنبغا العلاء المعروف بفرفور^(٩) ، والأمير علي بن أيدير المعروف بالمزوق^(١٠) والأمير اسفندر الدياح^(١١) ، والأمير يلبيغا الأحمدى المجنون^(١٢) ، والأمير أبو زلطة^(١٣) ، وطشتمر المحمدى اللقاف^(١٤) ، وعز الدين

(١) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ص ١٨٧ وما بعدها .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

(٣) الصفدى ، أعيان العصر ، ج ٤ ، ص ١١٢ وما بعدها .

(٤) الصفدى ، أعيان العصر ، ج ٥ ، ص ٤٤٨ .

(٥) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ق ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٦) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٦٧٨ .

(٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ٧٦٦ .

(٨) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٨ ، ٧٨ .

(٩) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ١٨٣ .

(١٠) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ٤٠٠ .

(١١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ق ١ ، ص ١٨٣ .

(١٢) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٩ ، ج ٢ ، ص ٣٣٥ .

(١٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ٢ ، ص ٥٧٤ .

(١٤) ابن تغرى بردى ، بردى ، المنهل الصافى ، ج ٦ ، ٣٩٤ .

أيدمر أبو درقة^(١) ، والأمير ناصر الدين محمد بن الضاني^(٢) ، والأمير سن إبرة^(٣) ،
والأمير جمال الدين المعروف بأصفر عينه^(٤) ، والأمير أقبغا الطولوتمرى المعروف
باللكاش^(٥) ، والصاحب علم الدين يحيى المعروف بأبو كم^(٦) ، ومحمد محنى ذقنه^(٧) ،
وشمس الدين محمد بن عبد الخالق المناوى المعروف بالطويل وبالبدنة^(٨) ، وتاج
الدين ابن أحمد بن على المعروف بابن المكلة^(٩) ، والأمير يشبك الساقى المعروف
بالأعرج^(١٠) ، وفخر الدين بن السكر والليمون^(١١) ، والأمير خاير بك المعروف بخاين
بك^(١٢) ، والأمير أزدمر تمساح^(١٣) ، والأمير قانصوه المعروف بهات لبن^(١٤) ،
والأمير المعروف بروح له باشا^(١٥) ، والأمير المعروف بالفاجر^(١٦) ، والأمير قانصوة
السيفى أبو سنة^(١٧) ، والأمير جان بلاط المحمدى المعروف بالموتر ، والأمير

-
- (١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ٢ ، ص ٦٠٨ ، ٨٦١ .
(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ٢ ، ص ٧٧٠ ، ٨٠١ . من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه
كان كثير الأكل خاصة لحم الضأن بالإضافة إلى أنه كان سم .
(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٢٩٨ .
(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٢٩٨ ، ٣٢٣ .
(٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ٢ ، ص ٨٩٤ . يرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يتخبط
فى تصرفاته وسلوكه أمام الآخرين .
(٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٦٣٢ ، ٦٤٤ ، ٦٧٩ .
(٧) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ٣ ، ص ١١٤٠ ، ١١٧٣ . ربما أطلق عليه هذا اللقب لأنه
كان يميل إلى وضع الحناء على ذقنه .
(٨) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ق ١ ، ص ١٤٩ ، ١٧٠ .
(٩) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٧٦٦ .
(١٠) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ، ص ٧٦٣ .
(١١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ .
(١٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٧٦ ، ١١٠ .
(١٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٠١ .
(١٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٥ . من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب لوجود سنه
فى فمه مختلفة عن باقى الأسنان .
(١٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .
(١٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٤ .
(١٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص وما بعدها .

قانسوة كرت^(١) ، والأمير مصرباي المعروف بالأقرع^(٢) ، والأمير ارزمك المعروف بالناشف^(٣) ، والأمير برسباي حداية ، والأمير حاصل ماتم^(٤) ، والصنjq أو الصنjq أبو نبوت ، والصنjq سبع بنات ، والصنjq غليظ الرقبة ، ، وصنjq (سُنَّة) ، لأنه حصل على الثراء من سيدته بعد أن تزوجها^(٥) ، وهى أسماء وألقاب وكنايات ونعوت ، وجه الهزء فيها مستمد من لوازم سلوكية أو حركية أو قولية ، كانوا يقومون بها على شكل آلى جامد ، فارتبطت بهم ، فالتقطتها العامة ، ولصقوها واكتفوا باسم " الشهرة " الساخر الذى أطلقته العامة عليهم .

ويمكن تصنيف الألقاب والكنى الشعبية الساخرة فى العصر المملوكى إلى الآتى :-

- ألقاب وكنى تدل على المدح مثل لقب الأعرج الذى أطلق على السلطان الناصر محمد ، وعلى الرغم من أن هذا اللقب يعنى الذم ، فإن العامة أطلقته على الناصر لأن به عرجاً خفيفاً ، إلى جانب أنها كانت تكن له حباً ومودة ، سم الموت الذى أطلق على الأمير عز الدين ايجان ، وحمص أخضر (طشتمر) والفول المقشر (قطلوبغا).

ألقاب وكنى تدل على السخرية والاستهزاء مثل الأمير طल्लीة ، الأمير أبو دقن ، الأمير اللفاف ، الأمير أصفر عينه .

-
- (١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٤ ، ٥ .
- (٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١١٠ ربما أطلق عليه هذا اللقب لأن رأسه كانت خالية من الشعر .
- (٣) أنظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٤٥ وما بعدها ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٨ ، ٨٠٩ من المرجع أنه أطلق عليه هذا اللقب لضئالة ونحافة جسمه الزائد عن العادة .
- (٤) أنظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٤٥ وما بعدها ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٨ ، ٨٠٩ من المحتمل أنه لقب بهذا لكثرة كلامه دون أن يفعل شيئاً .
- (٥) أنظر ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٤٥ وما بعدها ، أنظر أيضاً رجب النجار ، الشعر الشعبى الساخر ، ص ٨٠٨ ، ٨٠٩ .

• ألقاب الذم والتقبيح مثل رِكَيْن ، دقین ، المجنون ، سلطان ليلة ، الدم الأسود ، فأر السقوف ، سن إبرة ، أبو زلطة ، أبو كم ، الطويل ، المؤذى ، ابن المكللة ، الدباح ، الفاجر .

• ألقاب تدل على مدى ما وصل إليه بعض الأمراء من ضعف مثل هات لبن ، روح لو .

• ألقاب تدل على الخيانة مثل لقب خاين بك .

• ألقاب وكنى فكاھية ساخرة مثل سلطان الجزيرة ، فرفور ، المزوق ، الضانى ، اللكاش ، محنى ذقنه ، السكر والليمون ، تمساح ، أبو سنة ، الموتى ، الأقرع ، حداية ، سلام عليكم ، الأمير حلاوة ، حاصل ما تم ، الأمير أبو نبوت ، الأمير الصنjq سبيع بنات ، الأمير سنjq سته .

والآن ينبغى التعرض بالتفصيل لكل لقب ودلالته التاريخية، على حده وفقاً للتصنيف التالى :-

أولاً : ألقاب المدح :

الأعرج :

أطلق هذا اللقب على السلطان الناصر محمد بن قلاوون،^(١) أثناء سلطنته الثانية ٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨ م حين تحكم كل من الأميرين سلار وبيبرس فى تصرفاته ، فضاق بهما وبتصرفاتهما^(٢) ونفذ صبره وشكا من ضيق يده وحرمانه من أبسط الحقوق الشخصية دون أن يجد معيناً له ، فتظاهر برغبته فى الحج

^(١) Amalia Levanoni, A Turning Point in Mamluk History: The Third Reign of al-Nasir Muhammad Ibn Qalawun (1310 - 1341), *Mamluk Studies Review*, Vol. I, The Univ. of The Proposers and Supervisors of al-Rawk, Chicago, 1997, p. 179 Sato Tsugitaka , al-Nasiri in Mamluk Egypt, *Mamluk Studies Review*, Vol II, Chicago, 1998, pp. 75, 85, 91.

^(٢) محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٧ م ص ٤٣ وما بعدها ؛ جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، العصران الأيوبي والمملوكي ، القاهرة ، ١٩٦٧ م ، ص ٦٥ ، ٢٢٦ .

حتى يسمح له بمغادرة البلاد ، ولكنه لم يكذ يصل إلى قلعة الكرك حتى أعلن عزمه على اتخاذ ذلك المكان محلاً لإقامته وكتب إلى الأميرين بيبرس وسلار باعتزاله الحكم في سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م^(١) ، فتم تنصيب بيبرس سلطاناً وعين سلار نائباً للسلطنة^(٢) .

بيد أن سلطنة بيبرس لم تدم غير سنة واحدة ، حيث لم تستقر له الأمور خلالها فقد نقص فيضان النيل وارتفعت الأسعار ، ونسبت العامة هذا كله إلى بيبرس وكرهوه وكرهوا عهده ، خاصة أنه اتبع سياسة العنف في معاملته للناس والأمراء ، فقد كان يخشى أن يتصل المماليك بالناصر أو أن يتآمروا على خلعه ، وأعلنت العامة سخطها بالتظاهر في شوارع القاهرة وهم يضحكون ويهزلون ، ويصنعون كلاماً ويلحنونه ، وصاروا يغنونه في أماكن التفرجات وفي الحدائق والطرقات بقولهم :

سلطاننا ركين

ونائبه دقین

يجينا الماء من أين

هاتو لنا الأعرج

يجي الماء يدحرج^(٣)

(١) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ط (٢) القاهرة ١٩٧٦ م ، ص ١١٧ ، ١١٨ ؛

Urbain Vermeulen. Some Remarks on A Prescript of An-nasir Muhammad B. Qala'un on the Abolition of Taxes and the Nusyris Mamlaka of Tripoli, 717/1317, *Orientalia Lovaniensia Periodica*, 1970, p. 198; David Ayalon, Discharges from service banishments and imprisonments in Mamluk Society, *Israel Oriental Studies*, Vol II, Tel Aviv, 1972, p. 40; idem, The Wafidiya in the Mamluk Kingdom, *Islamic Culture*, Vol. XXV, 1951, pp. 100, 101.

(٢) أحمد صادق الجمال ، الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٧٤ وما بعدها ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ١١٨ .

فسوزى محمد أمين ، المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى "الأول ٦٤٨ - ٧٨٤هـ / فاهرة ١٩٨٢م ، ص ٣٠ وما بعدها ؛

The Encyclopedia of Islam, art. Baybars II, New Edition, Leiden 1960, Vol. 1, p.1126.

(٣) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٢ ، ص ٤٦٧ وما بعدها ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق (١) ، ص ٤٢٥ .

وكان لقب السلطان بيبرس الجاشنكير هو ركن الدين فسماه العوام "رُكْن" احتقاراً ، وكان الأمير سلار - نائب السلطنة أجرد ، فى حنكه بعض الشعيرات لأنه كان من التتار فسموه دُقَيْن ، أما الملك الناصر محمد فقد كان به عرج خفيف فأطلق عليه العوام الأعرج^(١) .

خلاصة القول أن العامة تعالت بعدم وفاء النيل ، وأعلنت رفضها لحكم بيبرس وتأيدتها للملك الناصر ومطالبتها بعودته من منفاه الى عرشه ، الأمر الذى ثارت معه ثائرة بيبرس حين رأى العامة تتشد هذه الأغنية ، فأمر بالقبض على جماعة منهم ، فضرب بعضهم بالمقارع وأشهرهم فى القاهرة ، ورسم بقطع السنة البعض الآخر ، وازدادت معارضة العامة لحكم بيبرس ، وقد سارع بالهرب بعد أن وصل الناصر محمد إلى القاهرة قادماً من الكرك ، وعندما سمعت العامة خبر هروبه تبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجموه بالحجارة^(٢) .

سَم الموت :

أطلق هذا اللقب على الأمير عز الدين أيغان بن عبد الله الركنى ، واصله من مماليك ركن الدين بيبرس^(٣) ، وقد أطلق عليه هذا اللقب لجسارته وفتوته وسرعة انتفاضه على العدو^(٤) ، وكان من أعيان الأمراء وأكابرهم وشجعانهم ، كما كان من

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ق ١ ، ص ٥٥ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ١ ، ص ٤٢٥ وما بعدها ، على ابراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٤ م ، ص ٩٠ ، ٩١ .

Donald Little, An Introduction to Mamluk Historiography An Analysis of Arabic Annalistic and Biographical Sources for the Reign of al-Malik an-Nasir Muhummud Ibn Qalaun, Wiesbaden, 1970, pp. 11, 14, 94, 111; David Ayalon, Names, titles and "nisbas" of the Mamluks, *Israel Oriental Studies*, Vol. V, Tel. Aviv Univ. 1975, pp. 208. 209.

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٤٤ ؛ المنهل الصافى ، ج ٣ ، ص ٤٦ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ١ ص ٤٣٠ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى . ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٣) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٣ ، ص ١٨٧ وما بعدها .

(٤) نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

أبطال المسلمين ومشاهيرهم، وله المكانة العظيمة والحرمة الواقعة والكلمة المسموعة. في عهد الظاهر بيبرس، الذي اعتمد عليه في المهمات، وقد تولى عز الدين وظيفة مقدمة العساكر، ولكن ما لبث أن قبض عليه السلطان الظاهر بيبرس مع عدد من الأمراء وسجنوا بالقلعة^(١) وتوفي في سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م وكان أحد الموصوفين بالشجاعة والكرم مع شدة البأس^(٢).

حمص أخضر :

هو الأمير سيف الدين الساقى الناصرى، المعروف بطشتمر حمص أخضر، وقد اختلفت المصادر في أسباب تسميته بهذا اللقب فقيل لأنه كان يحب أكله فلقب به^(٣)، على حين ذكر البعض الآخر أنه لقب به لكثرة صدقاته على الأيتام المعروفين بالحرافيش^(٤)، كما زعموا أيضاً أنه عرف بهذا لأنه كان يوزع الفول والحمص الأخضر على الحرافيش وفقراء الصوفية في محاولة منه لاجتذابهم إلى جانبه حتى تقوى بهم شوكته تمهيداً لتحقيق مطامعه^(٥)، وقيل كذلك إنه عندما كان في الطباق كان لا يأكل سواه، فسماه خشداشيتته بذلك^(٦)، أما فيما يتعلق بلفظة طشتمر فقيل أن معناها الصخر أو الحديد^(٧).

(١) المقرئى، السلوك، ج ١ ق ١، ص ٥٢٣ وما بعدها، ص ٦٣٣؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٧٠.

(٢) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج ٣، ص ١٨٨.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ط ١ حيدر آباد ١٣٤٩ م، ج ٢، ص ٢١٩.

(٤) نظير سعداوى، صور ومظالم، ص ١٢٣.

(٥) رجب الفجار، الشعر الشعبى الساخر، ص ٨٠٩.

(٦) الصفدى، أعيان العصر، ج ٢، ص ٥٨٧.

(٧) Sauvaget (J), Noms et Surnoms de Mamelouk, *Journal Asiatique*, Tome CCXXXV III, Année 1950, p. 50.

وقد اشتراه السلطان الناصر محمد صغيراً، فرباه وحظى بمكانة كبيرة لديه ،
ثم قبض عليه وعلى جماعة اتهموا بإثارة فتنة ، ثم أفرج عنه لما ظهرت براءته ،
فاطلقه وذهب إلى الحج ثم أصبح من الأمراء الخاصكية^(١) .

تدرج فى سلك الوظائف فتولى نيابة^(٢) صفد^(٣) ، ثم نقل إلى نيابة حلب^(٤) ،
وقد كان طشتمر شديد البأس ظالم الصورة ، مرّ اللسان صعب الخلق ، كثير الشر
وفيه يقول جمال الدين إبراهيم الأديب المعمار^(٥)

لما طغى طشتمر واعتدى

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ج ٢ ، ص ٢١٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ،
ص ١٠١ ؛

The Encyclopaedia of Islam, Art KHASSAKIYYA, New Edition, Leiden, 1978,
Vol. IV, p. 1100.

(٢) تأتي النيابة فى مقدمة الوظائف على اعتبار أن نائب السلطنة كان بمثابة الرجل الثانى فى الدولة
المملوكية بعد السلطان مباشرة ، ولذا فقد وصفته المصادر المعاصرة بأنه سلطان مختصر لقيامه
مقامة السلطان أثناء غيابه ، ولاشتراكه معه فى توزيع الإقطاعات، وفى تعيين الموظفين ، بل
والحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ، ومن ثم فقد كان النواب يشكلون خطراً على بعض
السلاطين ، بل استطاع بعضهم بالفعل اغتصاب السلطنة لأنفسهم مثلما فعل كل من كتبغا فى عام
٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م ، ولاجين المنصورى عام ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م ؛ مما دفع ببعض السلطين
إلى العمل على إضعاف هذا المنصب بل وتعطيله فى كثير من الأحيان ، أحمد عبد الرازق ،
البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧١ م ص ٤٣ .

(٣) اليوسيفى ، نزهة النظر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق ودراسة أحمد حطيط ، بيروت ط ١
١٩٨٦ م ، ص ٣٢١ ، ٣٤٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ق ٢ ، ص ٤٠٣ ؛ ابن تغرى
بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٠١ ، المنهل الصافى ج ٦ ، ص ٣٩٢ ؛ حياة
ناصر الحجى ، أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى سلطنة المماليك فى
القرنين الثامن والتاسع الهجرى الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، الكويت ١٩٩٥ م ، ص
١٥١ وما بعدها .

(٤) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ، تحقيق بربارة شيفر ،
فيسبادن ١٩٧٨ م ، ص ٦٣ ، ١٦١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٠١ ؛
المنهل الصافى ، ج ٦ ، ص ٣٩٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، القاهرة ، بدون تاريخ . ج
١٤ ، ص ١٨٧ وما بعدها .

(٥) توفى عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م ، انظر ابن تغى برمى النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ٤٨ .

تفاعل الناسل بأقوالها

دنا حصاد الحمص المعتدى

ولم تزل مصر بأقوالها^(١)

وفى عام ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م تقلد نيابة السلطنة فى مصر^(٢) ، فاستغل صخر سن السلطان الناصر أحمد وتسلط وتحكم إلى درجة أنه عندما خلع السلطان أحمد على ناصر الدين المعروف بفار السقوف وجعله إماماً للسلطان وناظراً للمشهد النفسى بدون علمه ، بعث إلى فار السقوف بعدة نقباء ونزع عنه الخلعة وأمر بضربه وألزمه بحمل مائة ألف درهم وضربه عرياناً ، وأخذ منه المبلغ ، ثم أفرج عنه بعد أن تعهد بالآ يطلع إلى القلعة^(٣) .

ويدرك الحس الشعبى ، بعفويته وصدق فراسته أن المؤامرة لم تتم فصلاً فيقول شاعر شعبى مجهول ، لم تحفل ذاكرة التاريخ باسمه ، فى طشتمر عندما عاد من حلب لتولى نيابة مصر ، وبدأت مظالمه تترى :

لما رجعت إلينا .: من بعد ذا السعد والبين

خلناك تحنو علينا .: يا حمص أخضر بقلبين^(٤)

وقد أمر السلطان الناصر أحمد بالقبض على حمص أخضر ، وأخذه معه إلى الكرك ، وهناك أمر بقتله^(١) . عرف الناس بمقتله فرحوا جميعاً بذلك فقد كان كما

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ١ ، ص ٤٥٨ ، حياة الحجبى ، دراسات فى تاريخ سلطنة المماليك فى مصر والشام ، ط ١ ، الكويت ١٩٨٦ م ، ص ٢٦٦ وما بعدها .

(٢) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٠٥ ، المقرئى السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٦٠٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ٦١ ، الصفدى ، أعيان العصر . ج ٢ ، ص ٥٩٠ .

(٣) شجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢١١ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٣٠٦ وما بعدها ، محمد عبد الغنى الأشقر ، نائب السلطنة المملوكية فى مصر ، القاهرة ١٩٩٩م ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ١ ، ص ٤٩٨ .

ذكرنا سابقاً "ظلوماً عسوفاً سيء الخلق جائراً على أهل مصر فى أفعاله ، حتى قال فيه إبراهيم المعمار :-

أوردت نفسك ذلاً

ورد النفوس المهانة

وبالرشا حزت مالاً

ملأت منه الخزانة

وكم عليك قلوب

يا حمص أخضر ملانة

وقوله فيه أيضاً :

جنت بالملك لما

أتاك بالبسط ماجن

وقد أمنت الليالى

يا حمص أخضر وداجن

وقول فيه آخر من الشعراء :

طوى الردى طشتمر بعدما

بالغ فى دفع الأذى واحترس

عهدى به كان شديد القوى

أشجع من يركب الفرس

ألم تقولوا حمصاً أخضرا

(١) ابن حبيب ، تذكرة النبىه فى أيام المنصور وبنيه ، القاهرة ١٩٨٦م ، ج ٣ ، ص ٢٦ ؛ الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ص ٢١٢ ؛ العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

تعجبوا بالله كيف إندرس^(١)

وقد قام طشتمر بتشديد العديد من المنشآت مثل الدار العظيمة التي ذكرها المقریزی في خططه باسم دار البقر^(٢) ، كما عمر جامعاً بالصحراء ، والمنذنة الحزونية والجامعين بالزريبة والربع بالحرييين ، كما أنشأ قبة بشارع العفیفی بجبانة المجاورين شرقي القاهرة^(٣) .

الفول المقشر :

لقب أطلق على الأمير سيف الدين الساقی الناصری ، المعروف بقطلوبغا^(٤) الفخری، والملقب بالفول المقشر كناية عن لين عريكته وضعفه^(٥) ، اشتراه الملك الناصر محمد وأصبح من الأمراء الخاصكية^(٦) ، ولم يكن لأحد من الخاصكية سواء ولا من غيرهم حظوة لدى السلطان ، ولم يزل عند السلطان أثيراً على المكانة ، وكان يشتم السلطان في اللعب ، ويقول له : " يا أعرج ! " وكان السلطان ينسبه إلى الجنون

(١) ابن حبيب ، تذكرة النبیه ، جـ ٣ ، ص ٤٧ ؛ الصفدی ، أعيان العصر ، جـ ٢ ، ص ٥٩١ ؛ ابن أبی حجلة ، سكردان السلطان ، ص ٤٠٠ ؛ ابن ایاس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ١ ، ص ٤٩٧ وما بعدها ؛ فوزی أمين المجتمع المصري ، ص ٣٤ ، ٣٦

(٢) تقع هذه الدار خارج القاهرة بالنحاسين بجوار قلعة الجبل وبركة الفيل بخط حدرة البقر أنشأها الملك الناصر محمد داراً واصطبلاً للأبقار التي يرسم السواقی السلطانية ، وعرفت بدار الأمير طفتمر الدمشقی ، ثم عرفت بدار الأمير طشتمر حمصر أخضر ، أنظر المقریزی ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٦٨ .

(٣) الصفدی ، أعيان العصر ، جـ ٢ ، ص ٥٨٨ ؛ المقریزی ، السلوك ، جـ ٢ ق ٢ ، ص ٥٤٣ ؛ ابن تغری بردی ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ١٠٢ ؛ المنهل الصافی ، جـ ٦ ، ص ٣٩٤ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٢ ، ص ٢٢٠ ؛ الأشقی ، نائب السلطنة ، ص ٢٩٩ .

(٤) قطلوبغا أي سعيد الحظ أنظر

Sauvaget. Noms et surnoms de Mamlouk, P. 53

(٥) ابن تغری بردی ، النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ٣٤ ؛ نظير سعداوی ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

(٦) الصفدی ، أعيان العصر ، جـ ٤ ، ص ١١٢ ، وما بعدها ؛ ابن حجر الدرر الكامنة ، جـ ٣ ، ص ٢٢١ ؛ ابن تغری بردی ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ١٠٣ ؛ حياة الحجی ، دراسات في تاريخ السالكين ، ص ٢٦٦

ويقول : " هذا مجنون " وكان فيه هرج و مرج ، خفيف العقل كثير الشغف بالفسق ، لذا كرمه السلطان ونفاه إلى الشام ، ثم عاد وأفرج عنه^(١) .

كان الفخرى وطشتمر أخوين ، تربوا جميعاً وتأمروا جملة في بداية دولة الناصر محمد عند عودته من الكرك^(٢) ، وقد أراد السلطان إمساكه هو وأخاه طشتمر حمص أخضر ، وكان يدعوهم " أخى " فوقف الحرافيش تحت القلعة واستغاثوا ، ودخل خشداشيته على السلطان ، فأفرج عنهما ، وعرف أنه لا قبل له بهما^(٣) .

وقد عين قطلوبغا في نيابة دمشق في سلطنة الناصر أحمد^(٤) ، ولما انفرد طشتمر بأمور الدولة دون السلطان فكر الناصر في القبض عليه وهو وطشتمر ، وبعد خروجه إلى دمشق أرسل الناصر للقبض عليه ، ولما أحس بذلك فرق ما معه من الأموال وهرب ، ثم أمسك به وقيده ، ولما بلغ الناصر أحمد إمساكه خرج إلى الكرك ، وأخذ معه طشتمر ، واعتقل الفخرى وطشتمر بالكرك مدة يسيرة ، ثم أمر بقتلهما^(٥) .

ولما تم القبض عليه وقتل ، قال الأديب خليل بن أيبك الصفدى شعراً :-

سَمَتْ هَمَّةُ الْفَخْرَى حَتَّى تَرْفَعَتْ

عَلَى هَامَةِ الْجُوزَاءِ وَالنَّسْرِ بِالنَّصْرِ

وَكَانَ لِلْمَلِكِ فَخْرٌ فَخَانَهُ

(١) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٤٩ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

(٢) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٤٩ وما بعدها .

(٣) الصفدى ، أعيان العصر ، ج ٢ ، ص ٥٨٧ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٦٠٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ٦٢ .

(٥) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٠٩ وما بعدها ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، ج ٤ ،

ص ١١٨ ، ١١٩ ؛ ابن حبيب ، تنكرة النبيه ، ج ٣ ، ص ٤٦ ؛ المقرئى ، السلوك ، ج ٣

ق ٣ ، ص ٦٠٧ وما بعدها ؛ ابن أبى حجلة ، سكردان السلطان ، ص ٤٠٠ ؛ ابن تغرى بردى ،

النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٠٣ ؛ حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

الزمان فأضحى ملك مصر بلا فخر^(١)

ثانياً ألقاب الذم والقبح :

المجنون :

أطلق هذا اللقب على يابغا الأحمدي المجنون ، ففي عام ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م أنعم عليه السلطان الأشرف شعبان بتقدمة ألف ، وفي عام ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م استقر في كشف الوجه البحري^(٢) ، وفي عام ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥ م نقل إلى نيابة الوجه القبلي ، ثم في عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م عين أستاذاراً للسلطان خلفاً للأمير قطلوبك العلاني ، ومارس العمل في الاستدارية والكشف ، وأمر بالقبض على ناصر الدين محمد بن محمود الاستدار وألزم بسداد ثلاثة آلاف دينار بعد موت أبيه^(٣) .

كما أطلق هذا اللقب أيضاً على سودون المحمدي المعروف بتلى أي المجنون ، وكان من أعيان خاصكية ممالك السلطان الظاهر برقوق ، ومن ثم رقي في أيام ابنه الناصر فرج إلى أمير مائة ومقدم ألف ، ثم قبض عليه وحبس بسجن الإسكندرية ، ثم أفرج عنه في سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م ، واستقر في الأخورية الكبرى^(٤) ، وبعد ذلك استقر في دمشق على إقطاع ، ولما رجع إلى القاهرة تم القبض عليه بسبب عصيانه للناصر فرج وحبس بسجن الإسكندرية ، وبقي هناك إلى أن قتل في عام ٨١٨ هـ /

(١) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٠٦ ؛ الصفدى ، أعيان العصر ، ج ٤ ، ص ١٢٠ ؛

ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٠٣ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٨٣ ، ١٩٦ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات م ٩ ج ٢

، ص ٣٣٥ ابن حجر ، أنباء الغمر ، ج ٢ ، ص ٤٩٣ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ٢٠ ، ص ١٨٥ ن ٧٣٤ ، ٧٨٤ ، ٨٥٠ ، ٨٨٠ .

(٤) وظيفة يقوم صاحبها بالإشراف على اسطبل السلطان أو الأمير ورعاية ما فيها من خيل

وحیوانات ، انظر المقرئى ، السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٤٣٨ هامش ٣ ، سعيد عاشور ،

العصر الممالكي ، ص ٤١٤ .

١٤١٥ م ، وقد ذكره العيني بقوله : " سودون المحمدى المجنون كان شاباً شجاعاً مفرطاً فى الجهل " (١) .

وأطلقت المصادر المملوكية هذا اللقب على بعض السلاطين ، فقد ابتلى العصر المملوكى بسلاطين ضعاف ، لا يعرفون من أمور السلطنة أى شيء ، ولا يحسنون تدبير الأمور ، فى وقت كانت فيه أحوال السلطنة متدهورة مفتتة ، فقد ولى السلطنة بعد السلطان خشقدم يلباى المقلب بالمجنون وذلك فى عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م ، وكان أرشل قليل المعرفة ، فاطلقت عليه العامة لقب المجنون ، وقضى وقته على حد تعبير ابن إياس " فى غلاسة هو ومماليكه ، وكان ملبسه غلس وسماطه غلس ، وشكله سمج وتدبيره سيء ... فجمع بين قبح الفعل والشكل وسوء الطباع ومقت اللسان ، وكان عنده شح زائد ، وبخل كثير ، سيء التدبير فى سائر أفعاله ؛ كما قيل فى المعنى :

وفظ غليظ الطبع لا ودّ عنده

وليس لديه للأخلاء تأنيس

تواضعه كبر وتقريبه جفا

وترحيبه مقت وبشراه تعبيس (٢)

وكانت أيام سلطنته شر أيام مع قصرها ، وكان مع خايربك الدوادر فى غاية الضنك ، ليس له فى السلطنة إلا مجرد الاسم فقط ولا يتصرف فى شئ من أمور المملكة إلا بمشورة خايربك ، فكان إذا سئل فى شئ يقول : " إيش كنت أنا " قل له ،

(١) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٦ ،

ص ١١٨ وما بعدها ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٨٣١ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٤٦٦ ؛ صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقت

الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٥١ م ، ص ١٩٤ .

يعنى قُل لخيربك حتى سمته العوام " قُل له " (١) . وذلك من قبيل السخرية والاستهزاء ، ويعتبر قل له من الألقاب التي تتسم بالفكاهة والسخرية .
شيطان (٢) :

أطلق هذا اللقب على الأمير علاء الدين أقبغا بن عبد الله الظاهر ، وفي سلطنة المؤيد شيخ جمع بين ولاية القاهرة وحسبته وشد الدواوين في وقت واحد ، ثم قبض عليه وحبس ثم قتل وذلك في عام ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م (٣) ، وكان عنده نباهة ومعرفة مع ظلم وعسف ، إلا أنه كان عفيفاً عن المنكرات حسب شهادة المؤرخ ابن تغرى بردى (٤) .
الدم الأسود :

أطلق هذا اللقب أيضاً على الأمير سيف الدين ملكتمر الجمالي الناصري المتوفى عام ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م ، وكان ظلوماً غاشماً في الظلم المسرفين على أنفسهم ، وكان له إقطاع بدمشق ، فأخذ منه الخراج خمس مرات على مدار السنة ، ففعل ذلك شركاؤه ومن جاء بعده (٥) .
فأر السقوف :

أطلق هذا اللقب على ناصر الدين، متولى حسبة مصر ، أثناء سلطنة الناصر أحمد لكونه فتني (٦) .

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٤٦٦ وما بعدها ، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، ص ١٨٨ .

(٢) ربما أطلق عليه هذا اللقب لتصرفاته التي تتسم بالشیطانية .

(٣) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، جـ ٢ ، ص ٤٨٤ .

(٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ١٥١ .

(٥) يرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يحقد على الناس .

(٦) ابن أبي الفضائل ، تاريخ سلاطين المماليك ، باريس ١٩١٩ م ، جـ ٣ ، ص ٢٤٤ ؛ الصفدى ،

أعيان العصر ، جـ ٥ ؛ ص ٤٤٨ ؛ المقرئى ، السلوك ، جـ ٢ ق ١ ، ص ١٤١ ؛ ابن

تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ، ص ٢٢٨ ؛ المنهل الصافي ، جـ ٣ ، ص ١٨٨ .

(٧) نظير سعداوى ، صور ومظالم ، ص ١٢٣ .

وتروى المصادر أنه فى عام ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م وقفت العامة للسلطان فى الفأر ضامن^(١) المعاملات ، وشكوا مما أحدثه على القصب والمقانى وصاحوا : " يكفيننا النشو ، فلا تسلط علينا الفأر !! وتحسبه ، وتكتب على قيده مُخلداً ، ويضمن غيره بناقص عشرة آلاف درهم ، فطلب السلطان النشو وأنكر عليه ، ورسم لسنجر الحمصى أن يضرب الفأر ويحبسه ، ويكتب على قيده مخلداً ، ويضمن غيره بناقص عشرة آلاف درهم ، ففعل ذلك ، ومشت أحوال الناس^(٢) .

وفى عام ٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م رسم السلطان أن يعاد إلى ناصر الدين المعروف بفار السقوف ما أخذ له من نيابة الأمير طشتمر ، وخلع عليه بحسبة مصر عوضاً عن ابن بنت الأعز ، بشفاعة الأمير ملكتمر الحجازى ، فأعيد له مبلغ أربعين ألف درهم من بيت المال^(٣) .

(١) نظام الضمان الذى يمثل جانباً من مسئوليات الجهاز الضرائبى فى الدولة، حيث كانت مهمة الضامن تتحصر فى تعهد أحد الأشخاص للمستولين فى هذا الجهاز بتحصيل الضرائب المقررة على أى نشاط اقتصادي أو عمل حرفي ، ومن ثم توكل إليه مهمة القيام بهذه المسئولية بعد أن يدفع مبلغاً معيناً من المال وعلى ذلك يبدأ هذا الضامن ممارسة عمله فى جمع الضريبة المقررة من الناس المعنيين . ولكن فى سبيل استعادة ذلك المبلغ الذى دفعه مقدماً فإن الضامن يولى عناية خاصة بتحصيل أولاً - قدر مناسب من المال لجيبه الخاص ثم بعد ذلك تحصيل الضريبة المقررة رسمياً للحكومة ، فكان المواطن مجبر على دفع مبلغين من المال ، أو بالأحرى ضريبة مضاعفة نصفها لديوان المكوس ، ونصفها الآخر للضامن . مما يعنى مضاعفة المعاناة النفسية والخسارة المادية نتيجة لهذا النظام الضرائبى السيئ ، وقد تطاول الضامن ظلماً على حقوق الرعية ، وتغاضى أصحاب السلطة أو الحكومة عن الصور المختلفة من الظلم والتعسف والاضطهاد الذى يمارسه هؤلاء الضمان ضد الرعية وعلى حساب حقوقهم وحريتهم وأموالهم دون رقيب أو حسيب . أنظر حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٢٦٧ .

(٢) اليوسيفى ، نزهة النظر ، ص ٣٧١ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ٤٢٠ ؛ حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٢٤٠ .

(٣) Ahmad Abd ar-Ráziq, Les Muhtasibs de Fostat au temps des Mamlûks, pp. 127, 146 5-P. 130 fôr al-Suqûf, Nâsir ad-Din; La Hisba et le Muhtasib en Egypt au temps des Mamlûks, pp. 115-178 - 138;

المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٤ ؛ اليوسفى ، نزهة النظر ، ص ٣٩١ .

وفى عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م أعيد فأر السقوف إلى ضامن جهات القاهرة ومصر بأجمعها ، وكان قد سجن فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، وكتب على قيده مخلد ، بعد ما صودرت أمواله وضرب بالمقارع لقبح سيرته ، فلم يزل مسجوناً إلى أن أفرج عنه فى أيام الصالح إسماعيل ، وانقطعت أخباره إلى أن اتصل بالوزير منجك فسلمه الجهات بأسرها وخلع عليه ، وقد منع مقدمى الدولة من مشاركته فى التحدث فى الجهات ، ونودى له فى القاهرة ومصر فزاد فى المعاملات ^(١) ثلاثمائة ألف درهم فى السنة ^(٢) .

وفى عام ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م أصبح الناس فى بلاء عظيم من فأر السقوف ضامن المعاملات ، فقد أحدث حوادث قبيحة فى دار البطيخ ودار السمك ، وكثرت الشكوى منه ، ووقفت العامة تشكوه للسلطان ، فلم يتغير الوزير عليه ، ولكنه قبض عليه بعد قليل وضرب بالمقارع وأخذت منه جملة من الأموال وسجن ^(٣) .

وفى نفس العام أفرج ابن زنبور عن الفار الضامن بسفارة الأمير ملكتمر المحمدى ، وضمنه الجهات بزيادة خمسين ألف درهم ، وضمن الفار معاملة الكيزان ^(٤) من الأمير طيغنا المجدى بزيادة ثلاثين ألف درهم ^(٥) .

^(١) أشار المقرئى فى كتابه المواعظ ، والاعتبار ط ١ ص ١٠٥ إلى المعاملات بأنها المكوس السلطانية التى فرضتها دولة المماليك على الناس فى مصر منذ أيام السلطان المعز أيبك التركمانى ، لكنه لم يدل على هذه المكوس بتعريف واضح أنظر المقرئى ، السلوك ، ج ١ ص ٣٨٤ ، ٥٤٤ .

^(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٤٤ .

^(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٨٤ ، ٨٢٣ ، ٨٤٩ ؛ حياة الحجى ، أحوال العامة ، ص ٢٥٠ .

^(٤) عرف Dozy, Supp. Dict هذا اللفظ ومفرده كوز بأنه قدح لحفظ اللبن ويبدو أن المقصود بمعاملة الكيزان هنا أن صناعة هذه الكيزان كانت مما يقوم به أحد العاملين - أى المتعهدين - على قاعدة احتكار هذه الصناعة ، مقابل مبلغ ضمان يدفعه المعامل - أى المتعهد لصاحب الأرض التى تصلح طينتها لصنع هذه الأقداح ، أنظر المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٢٩ .

^(٥) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٢٩ وما بعدها .

ركين ودقين: (١)

أبو زلطة: (٢)

أطلق هذا اللقب على أيدير الشمسي نائب الوجه القبلى (٣) ثم الوجه البحري ، وما لبث أن شغل نيابة البحيرة فى عام ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م ، ويبدو أن أبو زلطة كان شرها فى جمع الأموال ، فقد أصدر السلطان برقوق أوامره بالقبض عليه ، ولما أحضر بين يد السلطان ضرب بالمقارع مع مجموعة من الأمراء ثم سلمهم إلى والى القاهرة ليدفعهم على حمل المال الذى اغتصبوه. (٤)

أبو كم: (٥)

أطلق هذا اللقب على علم الدين يحيى بن أسعد الدين الأسلمى الذى كان يباشر نظر الأسواق ثم استقر فى الوزارة ونظر الخاص ، عوضا عن صاحب فخر الدين ماجد بن غراب وذلك فى عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م ، وكان يريد الانتفاء من النصرانية ، فذهب إلى مكة للحج ، وأكثر من زيارة الصالحين . (٦)

وفى عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م صرف من الوزارة وتم القبض عليه وسلم إلى شاد الدواوين حيث صودرت أملاكه . (٧) وفى عام ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م اختفى الوزير

(١) أنظر لقب الأعرج ص ١١ من هذا البحث .

(٢) من المرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يتكلم بقسوة وتجهم وكأنه يلقى بزلطة فى وجه محدثه .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٩ ق ١ ، ص ٤ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ٢ ، ص ٥٧٤ ، ٧٥٢ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٩ ق ١ ، ص ٢٩٦ .

(٥) ربما أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يرتدي ملابس ذات أكمام واسعة .

(٦) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ق ٢ ، ص ٨٧٧ ؛ العينى ، السيف المهند ، ص ٣٤٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٦٢١ ، ٦٤١ ، ٦٧٩ .

(٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٦٣٢ ، ٦٤٤ .

أبو كم من داره ولم يعرف موضعه ، بسبب عجزه عن سد تكاليف الوزارة ، فأعيد إليها التاج بن البقرى^(١) .

سن إبرة: (٢)

أطلق هذا اللقب على علم الدين عبد الوهاب الطنساوى الذى استقر فى الوزارة عوضاً عن كريم الدين بن مكاس ثم سلم ابن مكاس وإخوته وأقاربه وحاشيته إلى شاد جهات الدواوين فقام بتعذيبهم^(٣) .

وقد تغير خاطر السلطان على علم الدين ، وقام بضربه ضرباً مبرحاً ، ثم أخلع عليه وأعادته إلى الوزارة^(٤) ، ويبدو أن سن إبرة كان يحب الأموال ويقوم بجمعها من الناس ، ففي عام ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ م أمر السلطان بالقبض عليه وسلمه إلى شاد الدواوين لمعاقبته على الأموال المغتصبة من الناس^(٥) .

الطويل : (٦)

نعت لشمس الدين محمد بن عبد الخالق المناوى ، الذى استقر فى حسبة القاهرة عام ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م وصرف الهوى ، ثم أعيد الهوى إلى الحسبة وعزل الطويل ، ثم أعيد وعزل ابن شعبان^(٧) .

(١) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ٢٥٠ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٦٧٩ .

(٢) يرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب لأن جسمه كان رفيع مثل سن الإبرة نحيلاً ، أو ربما كان يتدخل فى كل شئ .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٢٩٨ ؛ Ahamad Abd ar-Ráziq, Les vizirs Egypte au temp des Mamlûks, pp. 183 – 239.

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٨٩٤ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣٢٦ .

(٦) يحتمل أنه أطلق عليه ذلك بسبب طوله الفارع .

(٧) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ق ١ ، ص ٢٩ وما بعدها ؛ Ahmad Abd Ar-Razice, La hisba et le muhtasib en Egypt, p. 156.

وفي عام ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م تولى الطويل حسبة القاهرة ووكالة بيت المال ونظر الكسوة ونظر الأوقاف وكان في غاية الجهل وقد توفى في عام ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م^(١).

ابن المكللة : (٢)

أطلق على تاج الدين بن أحمد بن علي الذي استقر في حسبة القاهرة في سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م^(٣).

المؤذى :

كنية عرف بها سيف الدين تغرى بردى بن عبد الله البكلمشى^(٤) الدوا دار الكبير المعروف بالمؤذى ، وربما كان إطلاق هذا اللقب عليه بسبب إضراره بالناس لقيامه بمصادرة كثير من الأموال والأموال ، وهو أحد مماليك بكلمشى العللى الذى صار من جملة المماليك السلطانية ، إلى أن ترقى وصار من جملة أمراء العشرات فى دولة الناصر فرج ، وظل على ذلك نحو عشرين سنة الى أن أنعم عليه الملك الأشرف برسباى بإمرة طبلخانة فى عام ٨٣٤ هـ / ١٤٣٠ م ، وكان قد جعله قبل ذلك بمدة يسيرة من جملة رؤس النوب ، ثم صار رأس نوبة ثانية ، فلما ولى هذه الوظيفة

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ق ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) نوع من أنواع الأفاعى يطلق عليه الصل ، أو المكللة ، لأنها مكللة الرأس ، وهى شديدة الفساد ، تحرق كل ما مرت عليه ولا ينبت حول حجرها شئ من الزرع أصلاً . وإذا حاذى مسكنها طائر سقط ، ولا يمر بقربها حيوان إلا هلك ، وتقتل بصغيرها على غلوة سهم ، وضربها فارس برمح فمات هو وفرسه ، انظر كمال الدين الدميرى ، حياة الحيوان الكبرى ، طبعة القاهرة بدون تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٨٤ ؛ ثناء أنس الوجود ، رمز الأفعى فى التراث ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ١٩ وما بعدها .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ق ١ ، ص ٤٣ ؛

Ahmad Abd Ar-Ráziq, La hisba Le muhtasib en Égypt, P. 157.

(٤) ابن حجر ، إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج ٤ تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٩٨ م ، ص ٢٠٢ ؛ ابن تغرى برملى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٥ ، ص ٤٩٦ ؛ الدليل الشافى ؛ ج ١ ص ٢١٧ ، ترجمة رقم ٧٢٣ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٢٧ ، ١٢٣ ؛ التبر المسبوك ، ص ٤٤ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .

ومسك العصا في يده ، صار يضرب هذا وينهر هذا ، ويدفع هذا ، وأظهر ما كان خفياً عن الناس من شهرته بالمؤذى^(١) .

وفى عام ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م أصبح أمير مائة ومقدم ألف إلى أن ولاه الملك الظاهر جقمق حجوبية الحجاب عوضاً عن يشبك المشد ، ولم تطل مدة تغرى بردى فى الحجوبية ، وتم نقله إلى الدوادرية الكبرى ، وقد باشرها بحرمة وافرة وعظمة زائدة ، بحيث لم يدع لأرباب الدولة شيئاً من الأمر والنهي وكان محمود السيرة فى أحكامه إلا أنه كان فظاً غليظاً بذىء اللسان شرس الخلق ، يخاطب الرجل بما يكره غير بشوش ، متكبراً وعنده جبروت ، ولما عظم أظهر ما كان مخفياً من لقبه فانطبق الاسم على المسمى ، وقد توفى فى عام ٨٤٦ هـ / ١٤٤٢^(٢) ، بعد أن عمر مدرسته بالقرب من جامع أحمد بن طولون ، وجعل فيها خطبة ومدرساً وشيخاً وصوفية ، ووقف عليها أوقافاً كثيرة^(٣) .

السكر والليمون : ^(٤)

فى عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م استقر شخص من الكتبة يعرف بابن السكر والليمون ناظراً فى ديوان المفرد ، وفى عام ٨٥٩ هـ / ١٤٥٤ م ضرب السلطان الملك الأشرف فخر الدين الملقب بابن السكر والليمون ناظر ديوان المفرد علقة كبيرة بسبب تعويق جامكية المماليك السلطانية^(٥) .

(١) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، ج ١ تحقيق فهم محمد شلتوت ، القاهرة ، ١٩٩٠ م ص ٥٤ وما بعدها ، السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ، ١٣٥٤ ، ج ٣ ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٤ ، ص ٥٤ وما بعدها .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٦٣ ؛ منتخبات من حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ٥٥ ؛ على مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٨٠ ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

(٤) من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب ، لأنه كان يحب شرب الماء بالسكر والليمون ، وربما كان كلامه مثل حلاوة السكر والليمون .

(٥) ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ٣٨٩ .

وفى عام ٨٦٠ هـ / ١٤٥٥ م أخلع السلطان على فخر الدين واستقر فى
وظيفة ناظر الدولة بعد عزله عن ديوان المفرد^(١) .

الدباح^(٢) ، الفاجر^(٣) :

ضمنت علينا المصادر المملوكية المعاصرة بالمعلومات عن تلقب بكل من
الدباح والفاجر ، ولم يذكر ابن إياس المناسبة التى ذكر فيها هذان اللقبان .

ثالثاً : ألقاب السخرية والاستهزاء :

طلليه :

لقب أطلق على الأمير سيف الدين طشتمر ، وقد أطلق عليه هذا اللقب لأنه
كان إذا تكلم بشيء قال فى آخر كلامه طلليه كأنه يغنى بها ، وقد كان من المماليك
الناصرية ، عظم شأنه فى أيام المظفر حاجى ، وجعله أمير سلاح ، ولم يزل فى هذه
الرتبة إلى أن صار ربع الحياة من طلليه ظللاً ، وحمل إلى قبره ، وقد نشرت الرحمة
عليه ظللاً ، وقيل أنه توفى فى طاعون مصر سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م^(٤) .
أبو دقن : ^(٥)

لقب أطلق على الأمير عز الدين أزدمر العزى أمير سلاح الذى ولى إمرة
السلاح مرتين الأولى فى عهد السلطان حسن ، والثانية فى دولة السلطان الأشرف
شعبان ، كما تولى أيضاً نيابة حلب وطرابلس وصفد ، وغير ذلك من النيابات ، وكان

(١) ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوائث الدهور ، ج ١ ، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤٥٣ ، ٤٩٦ ؛
ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ٢٨٨ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ١ ،
ص ١٩٠ . ربما أطلق عليه هذا اللقب لما عرف عنه الفتك بالأعداء وكثرة سفك الدماء .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٤٠ ، ٤٧ . يرجح أنه أطلق عليه هذا اللقب نتيجة
لتصرفاته التى تتسم بالقجور والمجون .

(٤) الصنفى ، أعيان العصر ، ج ٢ ، ص ٥٩١ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٦٢٨ .

(٥) من المحتمل أنه أطلق عليه هذا اللقب بسبب طول لحيته ولذلك عرف بها .

أميراً معظماً مبعجلاً وله بر ومعروف توفى فى سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م منفياً بالشام^(١).

اللقاب : (٢)

لقب أطلق على الأمير طشتمر المحمدى ، الذى كان يجلس رأس الميمنة فى أيام السلطان نور الدين على بن الأشرف شعبان والذى أنعم عليه بجميع أملاك الأمير صير غتمش بعد القبض عليه^(٣).

وطشتمر اللقاف المحمدى أحد أمراء العشرات ، وقد خلع عليه واستقر أمير مائة مقدم ألف ، ثم قبض عليه وهموا بضرب عنقه لولا شفاعة الأمير قرطاي الذى ضمن لهم أن ينفق فيهم ما وعد به ، وما زال يتطلف بهم حتى أطلقوا سراحه ، وتوفى فى طاعون سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م^(٤).
أصفر عينه : (٥)

لقب أطلق على جمال الدين محمود بن على صاحب المدرسة المحمودية الواقعة فى القربين^(٦) ، وقد استقر شاد الدواوين^(٧) ، ثم عمل فى وظيفة الأستاذارية فى عام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، وبعد ذلك غضب السلطان الظاهر برقوق عليه وأمر بمعاقبته حتى يموت ، وتوفى فى عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م ودفن بمدرسته ، وكان

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ١١٨ ، ١٦٤ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٨ ، ٧٨ .

(٢) ربما أطلق عليه هذا اللقب لأنه كان يلف ويدور فى الكلام .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ١ ، ص ١٩٠ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ٢٨٧ وما بعدها ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٦ ، ص ٣٩٤ .

(٥) يرجح أنه لقب به لأنه كان كثير الحسد للآخرين .

(٦) انظر فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة ، أثر رقم ١١٧ مصلحة المساحة ١٩٥١م ، ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ١ ، ص ٣٤٩ ، ٣٧٤ .

(٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣٢٣ .

كثير الصلاة والعبادة إلا أنه كان شحيحاً شراً في الأموال ، وأكثر من ضرب الفلوس بمصر حتى فسد بكثرتها حال مصر^(١) .

سلطان ليلة :

بعد يلبای المجنون تولى السلطنة الظاهر تمرغا الرومي سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م ولم يستطع تمرغا إرضاء المماليك الخشقدمية وزعيمهم خيربك فعزله بعد شهرين ، ومن الواضح أن خير بك عندما دبر عزل تمرغا ، إنما كان يبغي الاستئثار بالعرش لنفسه ، فعلاً صعد خيربك إلى دست السلطنة أثناء الليلة ولقب نفسه بالظاهر تشبهاً بأستاذ الظاهر خشقدم ، ولكن الأتابك قايتباي أسرع إلى القلعة وسيطر علي الموقف ، وتولى السلطنة بعد عزل خير بك الذي أطلق عليه لقب " سلطان ليلة ، لأنه لم يبق في كرسي السلطنة سوى ليلة واحدة ، فكما قيل في المعنى :

" كلام الليل يحوه النهار " وقد سمته العامة سلطان ليلة ، وتم القبض عليه وسجن بالإسكندرية^(٢) .

سلطان الجزيرة :

لم يختلف عصر أحفاد الناصر عن عصر أولاده في صفاته العامة^(٣) وسلطاننا الذي نتحدث عنه من عصر أحفاد الناصر ، فبعد خلع الملك الأشرف شعبان من السلطنة تولى أنوك (٧٦٥ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦ م) ، ولقب بالملك المنصور ، ونودي باسمه في شوارع القاهرة ، فعند ذلك اضطربت أحوال الناس ، وأغلقت أسواق القاهرة ، وكانت سلطنته بجزيرة أروى فصارت العوام يرقصون

(١) المقرئزي ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٩٥ وما بعدها ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ١٥٨ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٧ .

(٣) سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص ١٣٤ .

ويقولون "سلطان الجزيرة ، ما يساوى شعيرة " يعنى يهزأون بالسلطان أنك الذى تمت سلطنته على يد الأمير يلغا بجزيرة أروى^(١) .

من هذا العرض يتضح لنا أن هذه المجموعة من الألقاب السابق الإشارة إليها تشير إشارة ساخرة إلى سلوك السلاطين وإلى كونهم ألعوبة فى أيدي الأمراء .

رابعاً : ألقاب الضعف :

هات لبن : (٢)

كنية أطلقت على الأمير قانصوه بن سلطان جركسي ، أمره السلطان قانصوه الغوري بأن يتوجه إلى الشرقية ، فلما وصل هناك امتنع عن مقابلته العربان وازدادوا عصياناً فوق عصيانهم ، ولقبوه بهات لبن ، ومكث هناك نحو أربعين يوماً ثم رجع بدون طائل^(٣) .

روح لو : (٤)

فى عام ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م خلع على الأمير قانصوه روح لوا باشا أحد الأمراء المقدمين بنيابة قطية ، وكان قبل ذلك نائب غزة و حلب ، إلى أن تولى نيابة قطية وهذه درجة سفلى إلى الغاية ، فقد ذلك من النوادر الغربية^(٥) .

(١) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ١٣٥ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ق ٢ ، ص ٤٧ وما بعدها .

(٢) عن المرجح أنه كان يعشق شرب اللبن ، بالإضافة إلى أنه كان لا يرى أحداً إلا ويقول له : هات لبن .

(٣) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٥ .

(٤) ربما أطلق عليه هذا اللفظ لضعف شخصيته واعتماده على الآخرين فى تصريف أموره .

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٩٢ وما بعدها .

وفى عام ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م خلع السلطان الغورى على الأمير قانصوه
روح لو وقرره كاشف الشرقية عوضاً عن قجماس الذى كان بها^(١) .

وفى عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م عثر على جثة الأمير روح لو أمام سبيل
السلطان والكلاب تنهش فى مصارينه وشحم بطنه ، فقد كان رجلاً جسيماً^(٢) .

خامساً : ألقاب الخيانة :

خاين بك :

هو خاير بك^(٣) نائب حلب ، كان موالسا على السلطان فى الباطن ، ويعتبر أول من
كسر عسكر السلطان وهرب عن ميسرته حتى انهزم السلطان الغورى ، ثم هرب إلى
حماة ، فما دخل ابن عثمان حلب خلع عليه وأصبح من جملة أمرائه ، وارتدى زى
التراكمة العمامة المدورة والدلامة ، وقام بقص ذقنه ، وأطلق عليه ابن عثمان لقب
خاين بك لأنه خان السلطان الغورى^(٤) .

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٤ ، ٣٩ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ١٥٦ .

(٣) Mohamed Mostafa, Háir Báǵ Sultán Laila, Studien Geschichte und Kultur des nahen und fernen ostens, pp. 125 – 132 Leiden 1935; Lindas Northrup, Letters de Hair Beg, dernier vâid Mamlouk d'Alep, à al porte Ottomane, *Journal Asiatique*, 1993, pp. 235 – 315 vol 281 No. 3 – 4; David Ayalon, Egypt as a Dominant Factor in Syria and Palestine During the Islamic Period, 1984, pp. 38; 39. The Encyclopaedia of Islam, New Edition Vol. (4) Leiden 1978. Art Kánsawh al Ghawri, pp. 552 – 553.

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ٧٦ .

Daivd Ayalon, The End of the Mamlúk Sultanate, *Studia Islamica*, Vol. 3, 1978, pp. 134, 138, 139; Names titles and "nisbas" pp. 224, 225-226.

P.M. Holt, The Last Mamlúk Sultan: Al-Malik Al Ashraf Tūmān Bāy, Jerusalem Studies in Arabic and Islam Vol. 25, 2001, pp. 234, 246.

جدول بالألقاب والكنى الشعبية الساخرة فى العصر المملوكى

ألقاب المدح	ألقاب الذم والقبح	ألقاب السخرى والاستهزاء	تابع ألقاب السخرى والاستهزاء	ألقاب الضعف	ألقاب الخيانة
- الأعرج	- ركين	- سلطان الجزيرة	- سلام عليكم	- هات لبن	- خا بك
- سم الموت	- دقين	- طالية	- حلاوة	- روح لو	
- حمى	- المجنون	- أبو دقن	- حاصل ما تم		
- أخضر					
- الفلى	- سلطا	- اللفاف	- أبو نبوت		
- المقشر	- ليلة				
	- الد	- أصفر عينه	- الصنjq سبع		
	- الأسود				
	- فل	- فرفور	- بنات		
	- السقوف				
	- سن إبرة	- المزوق	- صنjq سته		
	- أبو زلطة	- الضانى			
	- أبو كم	- الكاش			
	- الطويل	- محنى دقنه			
	- المؤذى	- السكر والليمون			
	- ابن المكلة	- تمساح			
	- الدباح	- أبو سنة			
	- الفاجر	- الموتى			
		- الأقرع			
		- حداية			

من هذا العرض يتبين لنا أن هذه الألقاب والكنى إن دلت على شيء فإنما تدل على تفاعل الشعب مع سلاطينه وأمرائه فى كل العصور ومراقبته لهم فى كل ما

يفعلونه فى فترة حكمهم من تصرفات شخصية أو عامة تمس الحكم وهذا أيضاً يعكس تمتع هذا الشعب بروح الفكاهة والدعابة التى صاحبتة فى كل الأزمنة ، والتى قد تكون مخرجه مما يعتريه من أزمات ومشاكل ينفرد بها عن شعوب العالم ، كما أن إطلاق هذه الألقاب الشعبية الساخرة يعكس أدباً شعبياً نضالياً وثقافة فطرية تتمتع بها العامة .

ومما لا شك فيه فإن لهذه الألقاب والكنى دلالات سياسية وإدارية واجتماعية واقتصادية تتبين لنا على الوجه التالى : فلقب الأعرج مثلاً والذى أطلقتة العامة على السلطان الناصر محمد له دلالة سياسية لدى شعب مصر فى العصر المملوكى ، فالعامة ترفض حكم السلطان بيبرس الجاشنكير لأن الناصر مازال يتمتع بعطف كثير من الناس داخل مصر وخارجها ، بالإضافة إلى أن أمراء حلب وطرابلس وحماة كان هدفهم القضاء على المظفر بيبرس وإعادة الناصر محمد إلى عرشه مرة ثالثة ، وأخيراً يخرج الناصر محمد من دمشق قاصداً القاهرة ، ويستقبل فى جميع البلاد التى مر بها بالترحاب والسرور والحب والمودة حتى دخوله قلعة الجبل .

كما أن هذا اللقب كشف عن ثقافة العوام باعتبارها دالة على أدب شعب فطرى ذى طابع نضالى كما سبق القول .

أما لقب سم الموت كما نعلم فقد أطلقتة العامة على الأمير عز الدين حيث يعرف العامة عنه تحليه بالشجاعة والجسارة والفتوة والقوة .

وبالنسبة للقب حمص أخضر فله دلالة اجتماعية فكاهية ساخرة لدى عامة شعب مصر فالأمير طشتمر كان يحب الفقراء والأيتام والحرافيش ويكثر من صدقاته لهم ، ولذلك أطلق عليه هذا اللقب .

أما لقب الفول المقشر فله دلالة اجتماعية فهو من الألقاب الفكاهية التى أطلقتها العامة على الأمير قطلوبغا الفخرى ، لما كان يتميز به من لين عريكتة وضعفه وتسامحه .

أما لقب طللية فله دلالة اجتماعية فكاهية ساخرة ، فقد أطلقتها العامة على هذا الأمير لأنه كما سبق وأن ذكرنا إذا تكلم قال فى آخر كلامه طللية كأنه يغنى بها ، فالعامة بتقافتها المحدودة عبرت عن سلوك هذا الأمير بإطلاق هذا اللقب .

وركين الدين يعتبر من الألقاب التى لها دلالة سياسية ساخرة ، فالعامة أطلقتها على السلطان بيبرس الجاشنكير لما فيه من تحقير واستهزاء به ، ولأنه اغتصب السلطنة من الناصر محمد ونفاه إلى الكرك ، ولذلك تعللت العامة بعدم وفاء النيل وأطلقت هذا اللقب عليه .

أما دقین فقد أطلقتها العامة على الأمير سلار احتقاراً له ولشخصه ولمناصرته لبيبرس الجاشنكير مغتصب عرش الناصر محمد .

ولقب المجنون ورد فى مصادر العصر المملوكى أكثر من مرة ، فقد أطلقت العامة هذا اللقب على يلباى بسبب سوء سلوكه وتصرفاته وسوء تدبيره وبخله الشديد ، وهذا اللقب له دلالة اجتماعية لدى العامة ، فقد عبرت عن سلوك هذا الأمير بلقب المجنون الذى أساء التصرف تجاه الآخرين .

وقد أطلقت العامة هذا اللقب أيضاً على الأمير سودون المسمى المجنون ، وكانت له دلالة سياسية وإدارية ، فالأمير يلغا استقر فى عدة وظائف إدارية مما ساعده على ظلم الناس منهم ناصر الدين محمود الاستادرا وابن الطبلوى إلى جانب اضطهاده للعامة مما أدى بهم إلى رجمه بالحجارة وإطلاق لقب المجنون عليه وذلك لتصرفاته السيئة تجاههم .

أما لقب الدم الأسود فهو من الألقاب ذات الدلالة السياسية فالأمير سيف الدين أكلتمر الناصرى كان ظالماً فى تصرفاته وسلوكه .

أما فأر السقوف فهو من الألقاب ذات الدلالة الاقتصادية والإدارية ، فقد كان ناصر الدين متولى حاسبة مصر أثناء سلطنة الناصر أحمد ، وقد أدت تصرفاته وسوء سلوكه تجاه العامة ومعاملته السيئة المستمرة إلى أن وقفت العامة تشكوه للسلطان فقبض عليه وسجن بعد مصادرة أمواله .

أما عن لقب اللفاف فقد ضنت علينا المصادر المملوكية المعاصرة بالمعلومات التى تفيد سبب إطلاق هذا اللقب .

وسن إيرة من الألقاب التى أطلقت على علم الدين ، ويعتبر من الألقاب الإدارية الفكاية الساخرة ، فعلم الدين كان يحب الأموال ويقوم بجمعها من الناس سواء عن طريق المصادرة أو الاغتصاب بالقوة .

ويأتى لقب إدارى فكاى ساخر آخر وهو لقب أبو زلطة الذى أطلق على أدمر الشمس الذى تولى نيابة الوجه القبلى ثم البحرى وأخيراً البحيرة ، وفى مدة ولايته أظهر شراهة كبيرة فى جمع الأموال واغتصابها من الناس .

وهناك ألقاب إدارية فكاية ساخرة مثل لقب أبو كم والطويل والمؤذى وابن المكلفة ، هذا بالإضافة إلى الألقاب ذات الدلالة الاجتماعية الساخرة والتى أطلقت على بعض الأمراء نتيجة لضعفهم واستهزاء الناس بهم مثل لقب هات لبن وروح لو .

وهناك ألقاب لها دلالة سياسية فقط مثل لقب خاين بك الذى كان السلطان الغورى وتسبب فى هزيمته أمام الجيوش العثمانية.

وكما سبق أن ذكرنا، فقد كانت الألقاب والكنى سلاح الفكاة فى محاولة للتغلب على المتناقضات ومقاومة الانحراف والتسلط وهذه واحدة ، أما الثانية فإن اللقب قد عبر عن السخرية من العصر المملوكى وما كان يحدث فيه من ظلم وفرض للضرائب على المجتمع المصرى ، بالإضافة إلى أن اللقب رسم صورة لحياة المجون واللهو التى كان يحياها سلاطين الممالك والأمراء إبان تلك الحقبة من الزمان .

والثالثة توضح كيف رسم مفهوم اللقب صورة لحياة الريف المهمل من قبيل سلاطين الممالك .

وتوضح الرابعة كيف عبر مفهوم اللقب عن كيفية تغيير سلطان بآخر ، وأخيراً فإن الخامسة بينت أن اللقب كان يعبر عن مدى تسلط الموظفين وظلمهم للشعب المصرى إبان العصر المملوكى ، والذى قد يمتد أثره حتى اليوم متمثلاً فى الروتين الوظيفى عند تقديم الخدمات للمواطنين .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المطبوعة :

- شهاب الدين بن أبى حجلة
- سكردان السلطان، القاهرة بدون تاريخ
- ابن أبى الفضائل (مفضل ابن أبى الفضائل ت ٧٦٠ هـ / ١٣٥٨ م) .
تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد والدر الغريد فيما
بعد تاريخ ابن العميد ، نشره وترجمه للفرنسية وعلق عليه :
E. Blouchet, *Patrologia Orientalis*, XII, XIV, XXII,
Paris, 1919.
- ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، خمسة أجزاء ، ط ٢ ،
تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٨٢ - ١٩٨٤ .
صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ،
تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٥١ م .
- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م)
تحفة النظر فى غرائب الأمصار وعجائب الاسفار ،
بيروت ١٩٦٠ م .
- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ /
١٤٦٩ م)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب
الـ سرية حتى جـ ١٢ ، جـ ١٣ تحقيق محمد فهم شلتوت ، جـ ١٤
تحقيق جمال محرز ، فهم شلتوت القاهرة ١٩٧١ ، جـ ١٥ تحقيق
إبراهيم طرخان، القاهرة، ١٩٧١ م .

- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى جـ ١ ، ٢ تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤ م جـ ٣ ، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز ١٩٨٦ م ، جـ ٤ تحقيق محمد محمد أمين ١٩٨٦ م جـ ٥ تحقيق نبيل محمد عبد العزيز ١٩٨٨ م ، جـ ٦ تحقيق محمد أمين ١٩٩٠ م .
- الدليل الشافى على المنهل الصافى ، تحقيق فهم شلتوت ، منشورات مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى ، السعودية ١٣٧٥ هـ .
- حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، القاهرة ١٩٩٠ م .
- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) .
- تذكرة النبىه فى أيام المنصور وبنيه جـ ١ ، ٢ ، ٣ تحقيق محمد محمد أمين ، مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ م ، ١٩٨٢ م ، ١٩٨٦ م .
- ابن حجر (الحافظ بن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م)
- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، ط ٢ ، حيدر أباد ١٩٥٤ م .
- أنباء الغمر بأنباء العمر ، الأجزاء من ١ - ٣ تحقيق حسن حبشى القاهرة ١٩٦٩ م ١٩٧٢ .
- ابن الصيرفى (على بن داود الصيرفى المعروف بالخطيب الجوهري ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م)
- نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان الأجزاء من ١ - ٣ تحقيق حسن حبشى دار الكتب المصرية ١٩٧٠ - ١٩٧١ ، ١٩٧٣ م
- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م)

- تاريخ الدول والملوك ج ٧ ، ٩ (أربع مجلدات) نشره قسطنطين زريق ، ونجلاء عز الدين ، بيروت ١٩٣٩ م .
- ابن كثير (عماد الدين أبو القداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) .
- البداية والنهاية ، ط ١ القاهرة ١٩٦٦ م .
- الدميرى كمال الدين الدميرى .
- حياة الحيوان الكبرى ، القاهرة بدون تاريخ .
- السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر عثمان السخاوى ت ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م)
- التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، المطبعة الأميرية ١٨٩٦ م
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ١٢ جزء القاهرة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م .
- الشجاعى (شمس الدين الشجاعى)
- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده تحقيق بربارة شيفر فيسبادن ١٩٧٨ م .
- الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) .
- أعيان العصر وأعوان النصر ، تحقيق على أبو زيد وآخرون ط ١ ١٩٩٨ م
- العينى (بدر الدين محمود العينى مولده ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)
- السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ الحمودى ، تحقيق فهم محمد شلتوت ، محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٧ م .
- الفيروز آبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب ت ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م) .

- القاموس المحيط ٤ أجزاء ج ١ ط ١٩٧٧ م ج ٢ ط ١٩٧٨ م ج ٣ ط ١٩٧٩ م ج ٤ ط ١٩٨٠ م .
- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) .
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزء - نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية) .
- المقرئى (تقى الدين أحمد بن علي المقرئى ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة لبنان ١٩٥٩ م .
- السلوك لمعرفة دول الملوك نشره محمد مصطفى ج ١ ج ٢ ستة أقسام ونشره سعيد عاشور ج ٣ ج ٤ فى ستة أقسام عن دار الكتب المصرية سنة ١٩٧٠ م ، ١٩٧٢ م ، ١٩٧٣ م .
- اليوسفى :
- نزهة النظر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق ودراسة أحمد حطيط ، ط ١ بيروت ١٩٨٦ م .
- ثانياً : المراجع العربية :
- أحمد عبد الرازق
- دراسات فى المصادر المملوكية المبكرة ، القاهرة ١٩٧٤ .
- المماليك ومفهوم الأسرة لديهم ، مجلة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، العدد الثانى ١٩٧٧ م .
- البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك القاهرة ١٩٧٩ م .
- أحمد صادق الجمال

- الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى ، القاهرة
١٩٦٦ م .

• ثناء أنس الوجود

- رمز الأنفى فى التراث العربى ، القاهرة ١٩٩٦ .

• جمال الدين الشىال .

- تاريخ مصر الإسلامية ، العصران الأيوبى والمملوكى ،
القاهرة ١٩٦٧ م .

• حسن الباشا

- الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة
١٩٥٧ م .

• حياة ناصر الحجى

- أحوال العامة فى حكم المماليك ٦٧٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٧٩
- ١٣٨٢م دراسة فى الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ،
الكويت ١٩٨٤ .

- دراسات فى تاريخ سلطنة المماليك فى مصر والشام ط ١
الكويت ١٩٨٦ م .

- أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى
سلطنة المماليك فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى الرابع عشر والخامس
عشر الميلاديين الكويت ١٩٩٥ م .

• سعيد عبد الفتاح عاشور

- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة
١٩٦٥ م .

- العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ م .

- عبد المنعم ماجد
- موقف المصريين من حكم المماليك فى العصور الوسطى ،
حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس م ١٢ ، ١٩٦٩ م .
- على إبراهيم حسن
- دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر
بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٤ م .
- على مبارك
- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٨٠ .
- علاء طه رزق
- عامة القاهرة فى العصر المملوكى ، رسالة ماجستير غير
منشورة ، جامعة الزقازيق ، كلية الآداب ، ١٩٨٩ م .
- فوزى محمد أمين
- المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول ٦٤٨ –
٧٨٤ هـ / القاهرة ١٩٨٢ م .
- محاسن محمد على حسين الوقاد
- الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية ٦٤٨ – ٩٢٣ هـ /
١٢٥٠ – ١٥١٧ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م .
- محمد جمال الدين سرور
- دولة بنى قلاوون فى مصر الحالة السياسية والاقتصادية فى
عهدهما بوجه خاص ، القاهرة ١٩٤٧ م .
- محمد رجب النجار
- الشعر الشعبى الساخر فى عصور المماليك ، مجلة عالم
الفكر ، م ١٤ ، العدد الأول ١٩٨٣ م .
- محمد عبد الغنى الأشقر

نائب السلطنة المملوكية في مصر ، القاهرة ١٩٩٩ م .

• مجمع اللغة العربية

المعجم الوجيز ط ١ القاهرة ١٩٨٠ م .

• نظير حسان سعادوى

صور ومظالم من عصر المماليك ، القاهرة ١٩٦٦ م .

• نقولا زيادة

الرحالة العرب ، القاهرة ١٩٥٦ م .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

- **Ahamd 'Abd Ar-Rāziq,**
 - Les Muhtasibs de Fostāt au temps des Mamlāks pp. 127 – 146 – 5 P. 130 fōr as Suqūf Nāsir ad-Din.
 - La Hisba et le Muhtasib en Egypte au temps des Mamlūks, pp. 115 – 178 – 138.
 - Les vizirs Égypte au temp des Mamlūks pp. 183 – 239.
- **Amalia Levanoni,**
 - A Turning Point in Mamluk History: The Third Reign of Al-Nāsir Muhammad Ibn Qalāwūn (1310 – 1341), *Mamlūk Studies Review*, Vol I, The Univ. of Chicago, 1997, p. 179.
- **Ayalon (D)**
 - The Wefidiya in the Mamluk Kingdom, *Islamic Culture*, Vol. XXV, 1951.
 - Discharges from Service' Banishments and Imprisonments in Mamluk Society, *Israel Oriental Studies*, Vol. II, Tel. Aviv, 1972.
 - Names, titles and "Misbas" of the Mamluks, *Israel Oriental Studies*, Vol. V, Tel Aviv Univ, 1975.
 - The End of The Mamluk Sultanate, *Studia Islamica*, Vol. 3, 1978.

- Egypt as a Dominant Factor in Syria and Palestine During The Islamic Period, 1984.
- **Donald Little,**
 - An Introduction to Mamlūk Historiography An Analysis of Arabic Annalistic and Biographical Sources for the Reign of Al Malik An-Nāsir Muhammad Ibn Qalā'un, Wiesbaden, 1970.
- **Holt (P.M)**
 - Scenes of Daily Life from Mamluk Miniatures, The Eastern Mediterranean Lnds in The Period of the Crusades, Worminster, England, 1977.
 - The Last Mamlūk Sultan: Al-Malik Al Ashraf Tūmān Bāy, *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, Vol. 25, 2001.
- **Lane Poole,**
 - History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.
- **Lindas Northrup,**
 - Letters de Hair Beg, dernier nâid mamlouk d'Alep, à al Porte Ottomane, *Journal Asiatique*, 1993.
- **Mohamed Mostafa,**
 - Hāir Bāj Sultān Laila, Studien Geschichte und Kultur des nahen und fernen ostens, Lieden 1935. pp. 125-132.
- **Poliak (A.N),**
 - Some Notes on the Feudal System of The Mamlūk Jras, 1937.
- **Sauvaget (J),**
 - Noms et surnoms de Mamelouk, *Journal Asiatique*, Tome CCXXXV III, Année 1950.
- **Sato Tsugitak,**
 - The Proposes and Supervisors of Al-Rawk Al-Nāsiri in Mamlūk Egypt, *Mamlūk Studies Review*, Vol. II, Chicago, 1998.
- **Sobernhetm (M),**

- Encyclopedia of Islam. Art. Mamlūks, Leiden, 1987.
- Urbain Vermeulen,
 - Some Remarks on A Prescript of An-Nasir Muhammad B. Qalā'ūn on the Abolition of Taxes and the Nusayris Mamlaka of Tripoli, 717/1317, *Orientalia Lovaniensia Periodica*, 1970.
- The Encyclopaedia of Islam, art Khassakiyya, New Edition, Leiden, 1978.
- The Encyclopaedia of Islam, Art Baybars II, New Edition, Leiden 1960.

السياسة المالية للفاطمين بين النظرية والتطبيق

تريمان عبد الكريم

مصر

نجح الفاطميون في أن يحكموا مصر ما يزيد عن القرنين من عام ٣٥٨ - ٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م . فكان هدفهم بعد إقامة خلافتهم بالمغرب ، هو وراثة الخلافة العباسية وحكم العالم الإسلامي ، لذلك كان انتقالهم إلى مصر ، التي اتخذوها مركزاً لإمبراطورية كبرى ، شملت معظم ملك العباسيين ، كما دخلوا بغداد نفسها ، واستمروا فيها لمدة أربعين أسبوعاً ، ولم يكن من السهل تحقيق ذلك إلا من خلال تقوية مركزهم في الداخل والخارج ، معتمدين على موقع مصر المتميز و ثرائها وكسب المصريين إلى جانبهم ، ولذلك قدموا من البداية عرضاً شاملاً لسياستهم العامة ، من خلال الأمان الذي أعطاه جوهر لأهل مصر ، فضلاً عما حوته كتب الدعوة الفاطمية وما ألقى في مجالسها من شرح لبعض الأمور الحيوية ، التي تخص المصريين .

فمع وصول جوهر إلى تروجه بالقرب من الإسكندرية^(١) ، قام المصريون بنبذ الوزير جعفر بن الفرات للمفاوضة وطلب الأمان ، وتم اختيار أحد العلويين لرأس الوفد ، الذي مثل جميع فئات وطبقات المصريين^(٢) ، فكتب لهم جوهر أماناً وجدده عدة مرات^(٣) ، وحوى كتابه بعض الأمور المتعلقة بالناحية المالية منها ما هو عام وما هو خاص أو حتى ذكر بشكل ضمني ، محاولاً إظهار ما للفترة السابقة من سلبيات ، كما مهد لفترة جديدة استهدفت الإصلاح .

وجاء في هذا الأمان : «هذا كتاب من جوهر عبد أمير المؤمنين لجماعة أهل مصر .. أنكم التمستم كتاب يشمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم .. إذ تخطفتكم الأيدي واستطال عليكم المستذل ، وأطمعته نفسه بالافتدار على بلادكم والتغلب على من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم .. ولكم على أمان الله التام

(١) المقرئى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ ، ج١ ، ص ١٠٣ .

(٢) المقرئى ، اتعاظ ، ج١ ، ص ١٠٣ .

(٣) التويرى ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، حققه محمد محمد أمين - محمد حلمى محمد ، القاهرة ١٩٩٢ ، ج٢٨ ، ص ١٢٨ .

العام الدائم على مر الأيام وكروور الأعوام فى أنفسكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم ، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجن^(٤) .

وارتباطاً بذلك ذكر النعمان^(٥) فيما ينبغى للوالى من أهل الخراج : "انظر كل ما يصلحهم ، فإن صلاحهم صلاح من سواهم ، فانظر فى عمارة أرضهم وصلاح معاشهم ، أشد من نظرك فى زجاء خراجهم ، أجمع أهل الخراج من كل بلد ، ثم مرهم فليعلموك حال بلادهم ، والذي فيه صلاحهم وحال أرضهم ، فإن شكوا إليك ثقل خراجهم أو غلة دخلت عليهم من انقطاع شرب أو فساد أرض ... فأكفلهم مؤنة ما كان من ذلك ولا تتقلن شيئاً خفته عنهم ، فإن العدل يحتمل ما حملت عليهم وعمران البلاد أنفع من عمران الخزائن ، فإن خربت انقطعت مادة الخزائن ، فخربت بخراب الأرض" وفى موضع آخر^(٦) : "ولا بأس بالمزارعة بالربع والنصف على ما أتفقا عليه ، ولا بأس باستتجار الأرض بالعين وقتاً معلوماً" .

وشمل أمان جوهر أيضاً : "وما أمره به مولاه المعز من اسقاط الرسوم الجائرة، التى لا يرتضى بإثباتها عليكم ، وأن أجيركم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى فيها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ... والزكاة على ما أمر الله فى كتابه ... وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه ... ثم تجويد السكة وصرفها على العيار الذى عليه السكة الميمونة المباركة وقطع الغش منها ... ولكم على الوفاء بما التزمته وأعطيتكم آياه"^(٧) .

وما ورد أيضاً : "لا بأس باستتجار الدور والأرضين فيما يحل ، ولا يحل الفصل فى الدور والحوانيت ، وأشباه ذلك ، ومن أكرى مشاهرة على أنه سكن يوماً لزمه الشهر"^(٨) .

(٤) المقرئى ، اتعاظ ، جـ ٣ ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٥) دعائم الإسلام ، حققه آصف بن على فيظى ، القاهرة ١٩٥١ ، جـ ٧ ، ص ص ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٦) النعمان ، الاقتصار ، حققه ميزرا ، دمشق ١٩٥٧ ، ص ص ٨٩ - ٩٠ .

(٧) المقرئى ، اتعاظ ، جـ ١ ، ص ١٠٣ .

(٨) النعمان ، الاقتصار ، ص ص ٩٠ - ٩١ .

إلى جانب ذلك ذكرت كتب الدعوة^(٩) ، عدة أمور وثيقة الصلة بالنواحي المالية ، منها : "ونهبوا عن الحكرة ، إذا عز الطعام وعن التسعير" .

فضلاً عن ذلك ، فقد عرض لكيفية اختيار العمال : "أنظر في أمور عمالك ، الذين تستعملهم ، فليكن استعمالك إياهم اختياراً ، ولا يكن محاباة ، ولا إثارة ، فإن الأثرة بالأعمال والمحاباة بها شعب الجور وادخال الضرر على الناس ، وليست تصلح أمور الناس ولا أمور الولاية إلا بصلاح من يستعينون به على أمورهم"^(١٠) .

وبذلك قدم الفاطميون ، صورة عامة لطبيعة السياسة المالية ، التي سوف ينتهجونها مع المصريين ، بينوا فيها مساوئ الحكم السابق ، مستفيدين من الأحوال السيئة ، التي وصلت إليها مصر في أواخر حكم الإخشيديين ، ولما كانت السياسة المالية تشكل جزءاً لا يستهان به من السياسة العامة للدولة ، بل هي العمود الفقري لها ، فلا بد أن تتسق مع أهدافهم ، التي أتوا إلى مصر من أجل تحقيقها . فهل سيتعارض الأمران ؟ في الوقت الذي كان على الفاطميين أن يؤكدوا فعالية مع ما أعلنوه وما صرحوا به وأن يسيروا على منهاج قد رسموه بأيديهم . لذلك فهي محاولة للوقوف على طبيعة السياسة المالية ، التي نفذها الفاطميون بالفعل ، وإلى أي حد قد توافقت أو اختلفت أو حتى حدث توازناً بين الإطار النظري والإطار التطبيقي ؟ .

ولما كانت الأرض تمثل أحد المحاور التي شملها أمان جوهر ، فهذا الأمر يرتبط بعدة أمور : منها ضريبة الأرض ، سياسة الدولة تجاه تحسين وسائل الزراعة ، احترام الملكية الخاصة ، وعدم انتزاعها من أيدي أصحابها ، وهذا يقودنا إلى وضعية الأرض في عصر الفاطميين ، ومدى هيمنة الدولة عليها ، وإلى أي حد شكل الإقطاع جزءاً من سياستهم ، فضلاً عن أشكاله التي وجدت آنذاك ، وهل كان هناك ملكية خاصة ومدى ارتباطها بمتغيرات السياسة الفاطمية ؟

أما الخراج ، فهو الضريبة المفروضة على الأرض ، وهي إما مقداراً من مال أو حصة معينة مما تخرجه الأرض . وقد فرض مع بداية الفتح الإسلامي على أراضي غير المسلمين ، وبمضي الزمن أصبح الخراج إيجاراً دائماً للأرض سواء ظل صاحبها

(٩) النعمان ، الاقتصار ، ص ٨٤ .

(١٠) النعمان ، دعائم الإسلام ، ص ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

على دينه أو كانت ملكاً لأحد المسلمين^(١١) . وفى العصر الفاطمى كان الخراج المقدر على الأرض فى الوجه البحرى يجبى بالدنانير ، على كل فدان ثلاثة دنانير ونصف بينما كان خراج الوجه القبلى يجبى عيناً ، لا سيما الحبوب ، فكان يفرض على كل فدان ثلاثة أراذب ، تبعاً لما ذكره ابن مماتى^(١٢) ، الذى خدم فى دواوين الفاطميين فى أواخر أيامهم ، بينما يذكر ابن حوقل^(١٣) : "أنه عند مجئ الفاطميين ، قام جوهر بمضاعفة قيمة الخراج إلى سبعة دنانير للفدان" ، وكان هذا الإجراء ليس فقط بسبب احتياج جوهر للأموال بقدر ما كان تغطية لنفقاته المباشرة ، التى قام بها قبل صدور هذا القرار ، وبطبيعة الحال ، قد أدى ذلك إلى ارتفاع ما جباه جوهر عام ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م إلى أكثر من ثلاثة ملايين من الدنانير^(١٤) .

ومن اللافت للنظر أن ارتفاع هذه القيمة جاء فى وقت عانت فيه البلاد من أزمة اقتصادية طاحنة بسبب قصور مياه النيل وانتشار الوباء والغلاء ، وما نتج عن ذلك من قيام الجند بالسلب والنهب ، مما حدا بالبعض^(١٥) أن يتساءل كيف يمكن للمصريين دفع هذا الخراج المضاعف ، فى الوقت الذى يستبعد فيه قيام جوهر بهذا الإجراء ، وهو يستهل عهداً جديداً ، ويسعى جاهداً لاستمالة المصريين^(١٦) ، وعلى ذلك يبدو أن هذا كان إجراءً مؤقتاً ، وكان لابد من التفكير فى نظام أكثر استمرارية^(١٧) ، لكن هذا الأمر جاء تدريجياً خلال وقت قصير ، فأبقى جوهر القائم بالخراج من أيام الإخشيديين وهو يحيى بن العرمم ، ثم سرعان ما أشرك معه أحد المغاربة^(١٨) ، وعندما استقر الأمر للفاطميين مع مجئ المعز . تم إقرار نظام جديد لتقدير الأملاك ،

(١١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٠٩ ، ص ص ١٥٢ ، ١٤٢ .

(١٢) توانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٢٥٩ .

(١٣) صورة الأرض ، لين ١٩٣٨ ، ص ١٥٢ .

(١٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٥٢ .

(١٥) أيمن فؤاد سيد ، الدولة الفاطمية فى مصر - تفسير جديد ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٨١ .

(١٦) راشد البراوى ، حال مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ٣٠ .

(١٧) انظر : Shaban, Islamic History. A New Interpretation. A.D. 756-1055 A.H. 132-448, Cambridge 1976, p. 200.

(١٨) المقرئى ، اتعاظ ، ج ١ ، ص ١١٩ .

وتحديد الضرائب التي تفرض على كل منها وجمعت مصادر الضرائب على اختلافها^(١٩) وكان الخراج يشكل جزءاً منها .

واعتمد الفاطميون على يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن اللذين قاما بهذا الأمر ، وقد تشددا أيضاً في تحصيل البقايا من الأموال على المالكين والمتقبلين والعمال^(٢٠) . وحسبنا أن نشير إلى كيفية جباية خراج الغلات ، وعلى رأسها القمح والشعير والفول ، لنرى كيف كانت الدولة الفاطمية تنفذ سياستها المالية ، فكان مقدار الخراج يتفق مع غلة الأرض من حيث الزيادة والنقصان ، كما كان يختلف باختلاف المحاصيل ، فكانت النسبة المئوية للضريبة تصل إلى ٣٠% من إنتاج الأرض المزروعة قمحاً^(٢١) أو شعيراً ، وكان على عمال النواحي أو الجهات التابعة لديوان الخراج ، أن يقدموا ما عليهم من ضرائب إلى الديوان ، وكذا يطالب الفلاحين بالحضور في بعض الأحيان ، خاصة في أيام الأزمات الاقتصادية ، ويسجل ذلك في سجل الجهيز مع مبلغ أو قيمة الغلة المقررة عليهم^(٢٢) .

وفي إطار جهود الدولة لتحسين الزراعة ، قام الفاطميون بدور ملحوظ ، باعتبار أن الأراضي الزراعية تشكل أهم قوى الإنتاج ثباتاً وعطاء^(٢٣) . فبدت بعناية جوهر في إصلاح وتجديد ما فسد من الجسور والقناطر^(٢٤) ، أما المعز ٣٦٢ - ٣٦٥ هـ / ٩٧٢ - ٩٧٥ م ففضلاً عن قيامه بتنظيم الإدارة المالية وجباية الخراج ، فقد عنى بعمارة الجسور^(٢٥) ، كما أوجد الفاطميون مع خلافة الحاكم بأمر الله ٣٦٨ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٢٠ م قصبة لقياس الأرض عرفت بـ "القصبة الحاكمة"^(٢٦) وظلت إلى

(١٩) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٩٨ .

(٢٠) المقرئزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت ، ج ١ ، ص ٨٢ .

(٢١) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٥٤٨ .

(٢٢) المقرئزي ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة - جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٢١ .

(٢٣) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، الدار البيضاء ١٩٨٠ ، ج ٢ / ١ ، ص ١٤٠ .

(٢٤) ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، حققه محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٧٥ ، ج ١ / ١ ، ص ١٩٢ .

(٢٥) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، حققه أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٦٧ .

(٢٦) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الأنشا ، القاهرة ، ج ٣ ، ص ٤٤٢ . القصبة الحاكمة ٤٠٠ قصبة طول في عرض ٢٠ قصبة ، انظر . المقرئزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

آخر دولتهم ؛ فضلاً عن ذلك قام الفاطميون في عصره بمشروع كان له أهمية كبيرة ، وهو تطهير خليج الإسكندرية عام ٤٠٤هـ / ١٠١٣م^(٢٧) ، بعد أن طم تقريباً ، خاصة في قسمه الأول عند خروجه من رشيد ، وأدى ذلك التطهير إلى استفادة كثير من الترعة خاصة في البحيرة^(٢٨) .

وحتى يقضى الخليفة الحاكم على المجاعات ، التي كان قصور مياه النيل أحد أسبابها ، سارع إلى استدعاء الحسن بن الهيثم ، الذي قال : "لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل النفع" ومن المحتمل أنه كان يريد أن يقيم سداً ينظم مياه النيل ، وقامت الدولة بتوفير الإمكانيات المالية وتسيير الصناع معه في طول الإقليم ، لكنه اعتذر عن عجزه للقيام بهذا الأمر^(٢٩) ، ويشير المؤرخون^(٣٠) إلى قيام الخليفة الظاهر ٤١١ - ٤٨٧هـ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥م بحفر ترعة كبيرة خارج القاهرة وعليها ثلاثمائة قرية ، تبدأ من فم الخليج في الفسطاط حتى تصل إلى القاهرة .

ومع عصر المستنصر ٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م شهدت البلاد في الفترة الأولى من خلافته استقراراً ، كان استمراراً للفترة السابقة ، بحيث ما سجله ناصر خسرو^(٣١) ، حتى عام ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م يدل على ذلك ، ومنها : "أن النيل يتفرع منه ترع صغيرة وعليها تقع الولايات والقرى ، كما أقيمت بمصر أسواق كثيرة يصعب حصرها" وقد تبدلت حالة الرخاء بصفة عامة بعد ذلك على أثر المجاعات وفتن الجند ، لكن الأحوال تحسنت مع استدعاء بدر الجمالي عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م الذي قام بإطلاق الخراج للمزارعين لمدة ثلاث سنوات^(٣٢) ، وكذلك العناية بالترع والجسور^(٣٣) ، ومع الأفضل بن بدر الجمالي تم تنفيذ مشروعاً يخدم الري ، وهو حفر خليج يخرج من النيل إلى الشرقية ، بسبب أن هذه المنطقة كان لا يصل إليها الماء إلا من خليج السويس أو من بعض المجارى المائية البعيدة ، مما أدى إلى أن تشرق البلاد في أغلب أراضي

(٢٧) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ١٧١ .

(٢٨) ابن ممتى ، قوانين الدواوين ، ص ٢٢٢ .

(٢٩) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، تحقيق صالحانى ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ٣١٦ وما بعدها .

(٣٠) ناصر خسرو ، سفر نامه ، تحقيق يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ١٠٧ .

(٣١) ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٧ .

(٣٢) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٥٣ .

(٣٣) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٤ .

الشرقية فى معظم السنوات^(٣٤) . وقام بهذا الأمر أبو المنجا بن شعيا فى عام ٥٠٦هـ / ١١١٣م ، الذى كان على رأس الإدارة الزراعية فى هذه المنطقة ، وقد استغرق حفر هذا الخليج ، الذى أخذ اسم "أبى المنجا" عامين وإن كان قد تكلف أموالاً طائلة ، فقد قدم خدمة جليلة للزراعة بسبب امتداد الرى لهذه المناطق فى الدلتا^(٣٥) .

كذلك يبدو حرص الأفضل الشديد على النهوض بالزراعة بإصداره أمراً على ألا تكون هناك بئراً معطلة أو أرضاً بائرة أو خراباً^(٣٦) . وبسبب هذا الاهتمام تم حفر الخلجان حتى أصبحت الأراضى المصرية تشقها شبكة من الخلجان والترع وصلت فى الوجهين البحرى والقبلى إلى أعداد كبيرة^(٣٧) .

كما قام الوزير المأمون البطائحي^(٣٨) الذى تولى للأمر الوزارة من ٥١٥-٥١٩هـ / ١١٢٢-١١٢٥م ، بدور آخر حاول من خلاله أن ينظر فى مصالح الرعية ، فعفى عن أراضى الديوان المغتصبة من قبل بعض الملاك فى الصعيد ، حيث وصله من الوالى والمشارف^(٣٩) ، أن من بيده السواقى كثيرون وأن واضعى اليد عليها لم يستطيعوا أن يثبتوا ملكيتها ؛ لأنها انتقلت إليهم عبر الزمن وكان تحصيل ما عليهم كثير ، فكتب بذلك منشوراً قرئ بالصعيد بإقرار جميع الأملاك والأرضين والسواقى بأيدى أربابها من غير انتزاع وأن يقرر الخراج عليهم ، كما تضمن المنشور أيضاً دعوة كل من يريد عمارة أرض بائرة أو إدارة مهجورة معطلة فى أن يسلم إليه ذلك ولا يؤخذ منه خراج إلا فى السنة الرابعة ، وأن يكون خواجه مؤبداً^(٤٠) .

(٣٤) ابن المأمون ، أخبار مصر ، حققه أيمن فؤاد السيد ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١١ .

(٣٥) Mann, J., The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, انظر ، Oxford 1967. 1, p 215.

(٣٦) المقرئى ، اتعاط ، ج٣ ، حققه محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٤٣ .

(٣٧) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ص ٢٠٥-٢٠٦ بلغت عدد الخلجان ثمانية وعدد الترع ١١٧

(٣٨) هو أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدين أبى شجاع فاتك ، اتصل بخدمة الأفضل بن أمير الجيوش عام ٥٠١هـ / ١١٠٧م وسلم إليه خزائن أمواله وكسوته ، ونعته بالقائد ، فلما قتل الأفضل عام ٥١٠هـ / ١١١٦م قام المأمون بخدمة الخليفة الأمر واطلعه على أموال الأفضل إلى أن عين وزيراً له . انظر الخطط ، ج١ ، ص ٤٦٢ وما بعدها .

(٣٩) المشارف : وهو يزيد على الناظر بأن يكون الحاصل من المستخرج فى مودعه وتحت

حوطته ، بعد أن يكون مختوماً عليه . انظر ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٢ .

(٤٠) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٨٤ .

ويبدو أن المأمون أقدم على هذا الإجراء ليقينه بأن أملاك الديوان جميعها لا تقدم ما يجب عليها^(٤١). لذلك استطاعت السياسة الجبائية للفاطميين في الفترات التي شهدت اهتماماً من قبل الدولة أن تجمع بين مصلحة الدولة والعدل في الرعية^(٤٢)، حقيقة أن هذه الإجراءات التي تمت منذ خلافة المستنصر مع بدر ثم استتبعته بعد ذلك مع الأفضل والمأمون، تدل على جهود الدولة في العناية بشئون البلاد، خاصة من قبل الوزراء أصحاب السيادة العليا من دون الخلفاء والتي سوف لا نسمع عن مثلها حتى نهاية العصر الفاطمي.

كذلك يذكر المؤرخون^(٤٣)، أن الفاطميين رصدوا لعمارة الجسور ثلث الخراج لما فيه مصلحة الري والرعية، لكن ليس هناك شك في أن هذا الرقم مبالغ فيه^(٤٤)، حتى المقرئ نفسه استهل هذه العبارة الواردة بهذا الشأن بكلمة "وقد حكى" كما ذكروا أيضاً، أن الدولة كانت تصرف من خزينة السلطان عشرة آلاف دينار مغربي لتجديد عمارة الجسور في الولاية^(٤٥)، حيث كان هناك نوعين من الجسور: السلطانية التي تقوم بإنشائها الدولة لتنظيم الانتفاع بمياه النيل والجسور البلدية، والتي يقيمها الفلاحون في القرية أو الناحية^(٤٦). وحرص الفاطميون على عدم اضطراب المزارعين بمنع النداء على زيادة النيل أو نقصانه، حتى لا يؤدي هذا إلى الغلاء، ولا يسمح به إلا إذا وصل النيل إلى ستة عشر ذراعاً^(٤٧). لكن يطالعنا ناصر خسرو^(٤٨) بنص يستلقت النظر فيذكر: «ما لم يصل الارتفاع إلى ثمانية عشر ذراعاً، لا يأخذ السلطان الخراج» صحيح أنه قد زار مصر في وقت تألق خلافة المستنصر، وضمن كتابه تلك المشاهدات التي بهرته، لكن يتضح أنه قد بالغ في الوصف لهذه المشاهدات في بعض الأحيان.

(٤١) المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٨٥.

(٤٢) محمود اسماعيل، سوسيولوجيا، ١/٢، ص ١٥١.

(٤٣) المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٦١.

(٤٤) البراوي، حالة مصر الاقتصادية، ص ١٠٥.

(٤٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٩٨.

(٤٦) المقرئ، الخطط، ج ١، ص ١٠١، اتعاط، ج ١، ص ١٢٨.

(٤٧) المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٦١، وكان هذا المنع مع الخليفة المعز، عام ٣٦١هـ/

٩٧٢م.

(٤٨) ناصر خسرو، سفرنامه ص ٩٧.

كما عملوا على إدخال شجرة البلسان التي أتوا ببذرتها من بلاد المغرب وزرعوها في إحدى حدائقهم بعين شمس ، وكانوا يستخرجون منها دهن البلسان^(٤٩) ، فضلاً عما قاموا به من الاهتمام بقصب السكر والتوسع في زراعته^(٥٠) . واهتموا بالإشراف على الزراعة بشكل عام من خلال الدواوين التي أنشئت في عهدهم ، فجعلوا على الخراج وسائر وجوه الأموال موظفاً باسم «متولى الخراج»^(٥١) ويرى البعض^(٥٢) «أن جباية الخراج قد تطورت في عهد الفاطميين ، حتى اشتملت على عدة دواوين ، وأكبر الظن أنها استحدثت خلال هذا العصر» ومنها ديوانين يقومان بالإشراف على جباية الخراج ، أحدهما يعرف باسم "ديوان الصعيد" والثاني "ديوان أسفل الأرض"^(٥٣) ؛ بالإضافة إلى «ديوان الخاص» الذي ظهر في خلافة الأمر ٤٩٥ - ٥٢٤ هـ / ١١٠١ - ١١٣٠ م . وكان يشرف أيضاً على الخراج المستخرج من الأرض^(٥٤) .

لكن كان يقابل اهتمام الدولة بالزراعة بعض الفترات ، التي ساءت فيها أحوال البلاد ، بسبب التعرض للمجاعات أو الإهمال لسوء تدبير الوزراء العظام في أخريات عهد الدولة .

وحسبنا أن نشير إلى قيمة الخراج ، الذي جبته الدولة لنقف على حقيقة الأمر من خلال ما ذكره المؤرخون^(٥٥) . والذي وصل أقصاه إلى أربعة ملايين ديناراً في أيام يعقوب بن كلس ، الذي تشدد في الجباية ، كما بلغ أدناه إلى ٦٠٠,٠٠٠ دينار أثناء المجاعات خلال خلافة المستنصر ، بينما كان في وزارة بدر الجمالي أكثر من ثلاثة ملايين ديناراً ، وهذا أمر طبيعي ، بسبب الإصلاحات الاقتصادية التي قام بها ، لكن

(٤٩) ناصر خسرو ، سفرنامه ، نفس المصدر ، ص ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥٠) المخزومي ، المنتقى من كتاب المنهاج في علم خراج مصر ، تحقيق كلود كاهن ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٥ .

(٥١) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٤٥ ، ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، القاهرة ١٩٧٣ ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٥٢) ماجد ، نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٥٣) القلقشندي ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٩١ .

(٥٤) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٧٩ .

(٥٥) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٥٩ : المقرئزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٠ ، وإذا وفي النيل ستة عشر نواعاً ، فقد وجب الخراج ، وإذا زاد عن ذلك نواعاً ، زاد في الخراج مائة ألف دينار ، فإن نقص نواعاً ، نقص الخراج مائة ألف دينار .

مع وزارة الأفضل ارتفع إلى خمسة ملايين ، وهذا المبلغ كان شاملاً المكوس ، مع الأخذ في الاعتبار أن الأفضل كان أحد الوزراء الذين اهتموا بشئون البلاد ، وساعد حفر خليج أبى المنجا على زيادة الخراج ولم يكن المأمون البطائحي أيضاً أقل اهتماماً من الأفضل ، لا سيما أنه كان بمثابة ساعد الأفضل الأيمن^(٥٦) . وجاء الخراج فى عهده أقل وهذا يرجع إلى أن المأمون سامح الناس فيما عليهم من بقايا^(٥٧) ، لكن بعده إلى نهاية الدولة ، كان لابد أن يحدث انخفاضاً ملحوظاً فى الخراج بسبب الظروف التى ألمت بالبلاد من تصارع الوزراء وتقلص ممتلكات الخلافة .

أما فيما يخص الأرض ، فإن هذا الموضوع يعد من الأمور الملغزة فى تاريخ مصر الإسلامية ، لذلك فتناول أشكال ملكيتها أو حيازة الدولة لها وكذلك وجود الإقطاع لا يكون بالأمر السهل ، خاصة وأن هناك أشكالاً مختلفة للإقطاع من إقطاع تمليك وإقطاع استغلال فضلاً عن الارتفاع ، فكانت هناك قبالة الأراضى والمزارعة والملكية الخاصة ، مما لا تعطى صورة واضحة ومحددة ، كما أنها تطرح كثيراً من التساؤلات بشأن خصوصية كل فترة ، ومدى امتلاك الدولة للأرض ، وتواجد الملكية الخاصة .

ومعلوم أن الدولة الفاطمية ظهرت على المسرح السياسى ، خلال فترة اتسمت بشكل عام بوجود تحولات على كافة الأصعدة فى العالم الإسلامى ومنها الاقتصادية ، فوقفنا معها على أعتاب فترة جديدة ، حملت فى طياتها بعض سمات الفترة السابقة فى ذات الوقت ، وبخصوص الإقطاع الذى قامت هذه الدولة فى ظله ، والذى كان منتشرأ فى العصر الإخشيدى^(٥٨) ، فحسبنا على ذلك المصادرات فى أواخر هذا العصر ، لذا لم يستأصل الإقطاع دفعة واحدة ، إنما راعت الدولة فيه المرحلية^(٥٩) .

ولأن الفاطميين ورثوا أملاك الإخشيديين ، وصادروا الإقطاعات القديمة التى كانت فى الغالب إقطاعات تمليك ، ونظرياً كان الإمام يملك الأرض فى منطقة

(٥٦) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٨٣ .

(٥٧) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٨٣ .

(٥٨) ملك أبو بكر المارذائى الذى وزر للأخشيد عام ٩٤٠/٣٢٨ م ، ضياعاً بلغ دخلها أربعمئة ألف دينار فى كل سنة ، وتعرض لمصادرة الأخشيد هو وغيره من أسرة المائريين وكذلك كبار رجال الدولة . انظر: سيدة كاشف ، مصر فى عهد الإخشيديين ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ص ١٦٠ ، ٢٤٤ .

(٥٩) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ١/٢ ، ص ١٤٢ .

نفوذه^(٦٠) . وعلى ذلك قام الفاطميون بإقطاع المغاربة ، الذين أتوا معهم الاقطاعات^(٦١) ، كما منح الخليفة العزيز ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م ، الوزير يعقوب بن كلس الاقطاعات في الشام ومصر بلغت ثمانى آلاف ديناراً سنوياً^(٦٢) ، كما قام برجوان أثناء وصايته على الخليفة الحاكم بإقطاع قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى مبلغه خمسة عشر ألف ديناراً في السنة^(٦٣) ، وغيره من رجال العلم^(٦٤) .

وكانت الأسرة الحاكمة نفسها تملك كثيراً من الاقطاعات ، فاقطعت ست الملك ارتفاع لبعض ضياع الصعيد والوجه البحرى^(٦٥) . وفى إطار سياسة الحاكم التى هدفت فى البداية إلى الإصلاح وهب وأقطع الضياع والأعمال والعقارات والأماكن السلطانية^(٦٦) ، لكن بعد وفاته قبضت أخته على جميع هذه الاقطاعات^(٦٧) . وعلى ذلك استمرت الدولة فى منح هذه الاقطاعات ، فمنح الخليفة الظاهر إقطاعات لشمس الملك مسعود بن طاهر الوزان رئيس ديوان الكتامين عام ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م^(٦٨) .

ومما سبق يتضح أنه كان هناك إقطاعاً خلال العصر الفاطمى الأول وكان يمنح لكبار رجال الدولة من الوزراء ورؤساء الدواوين بدلاً من الرواتب^(٦٩) ، كما أن ما يمنحه الخليفة هو نعمة ، وله حق الملكية والمنح^(٧٠) ، كما كان هذا الإقطاع ، إقطاع

^(٦٠) انظر Shaban, Islamic History, p. 200.

^(٦١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، حققه إحسان عباس ، بيروت ، ج ١ ، ص ص ٣٧٧-٣٧٨ ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٧٣ .

^(٦٢) ابن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٠٩ ، ويختلف معه المقرئى فى مبلغ هذا الاقطاع ويجعله ثلاثمائة ألف دينار ، انظر ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٦ .

^(٦٣) المقرئى ، اتعاظ ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٠٧ .

^(٦٤) ابن حجر ، رفع الأصد عن قضاة مصر .

^(٦٥) المقرئى ، اتعاظ ، ج ٣ ، ص ٣٣ . اقطعت سيدة الملك اقطاعاً مبلغه مائة ألف دينار منها ضياع فى الصعيد وأسفل الأرض ثمانية وستون ألفاً وأربعمئة وخمسون ديناراً منها بوتيج ستة آلاف وسبعمئة وخمسون ديناراً وصهرشت سبعة عشر ألف ديناراً .

^(٦٦) المقرئى ، اتعاظ ، ص ص ٧٤ ، ٩٢ ، ١٠٢ .

^(٦٧) يحيى بن سعيد ، تاريخ أو صلة تاريخ أوتخا ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٢٢٧ .

^(٦٨) المسبحى ، أخبار مصر فى سنتين ، تحقيق وليم ج ميلورد ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٥٠ .

^(٦٩) انظر : Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt A.H. 564-741 A.D. 1169-1341, London 1972, p. 26.

^(٧٠) وأنفذ شمس الملك إلى الحضرة يسأل فى تسليم إقطاعه ، فقل له : هذه نعمة أمير المؤمنين عليك وعلى أمثالك ليس تنزع منهم ، انظر . المسبحى ، أخبار ، ص ٥٠ .

ارتفاع^(٧١) ، وهو ما يستفيد به المقطع من خراج بعض النواحي مقابل دفع العشر إلى الخزانة ، وبذلك يعد الإقطاع خلال هذه الفترة إقطاعاً مهماً .

ولابد أن وضع الاقطاعات خلال عصر المستنصر ووصول وزراء السيف إلى السلطة بداية من بدر الجمالي ، الذي يعد فاتحة للوزراء المستبدين قد تغير ، وذلك من حيث اتساع هذه الاقطاعات ونوعيتها أى انتقالها إلى شكل آخر من أشكال الإقطاع وهو "إقطاع التملك"^(٧٢) وهذا يتضح مما قام به بدر الجمالي من حبس بعض الأراضى على عقبه ، حيث كان هذا الحبس يشتمل على مناطق واسعة فى بهتين والأميرية والمنية ، وكان أيضاً ناحية الجيزة فى سبط ووسيم^(٧٣) ، فهى إذ لم تكن إقطاعاً له ويملكه ، فكيف يكون له الحق فى توريثه لذريته ؟ كما أقطع أبو على بن الأفضل شاهنشاه الطائفة الحجرية إقطاعات بسبب وقوفها بجانبه للوصول إلى الوزارة عام ٥٢٤هـ - ١١٣٠م^(٧٤) . أما بهرام فقد أقطع أخيه المعروف بالباساك ولاية قوص وولاه عليها ، وكانت تعتبر من أعظم ولايات مصر آنئذ^(٧٥) . ويبدو أنه أقطع الجند الأرمن بعض نواحي الصعيد ، حتى أنه بعد هزيمته أمام رضوان بن ولخشى عام ٥٣٣هـ / ١١٣٩م ، خير هؤلاء الجند فى البقاء كفلاحين فى هذه الأراضى أو العودة إلى بلادهم^(٧٦) . كما وردت كلمة الضياع فى المصادر^(٧٧) خلال هذه الفترة لتدل على شيوعها . ففى العصر الفاطمى الثانى أصبح كبار رجال الدولة يحصلون على الاقطاعات إلى جانب الرواتب^(٧٨) .

(٧١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٩٤ .

(٧٢) وإقطاع التملك إما موات وأما عامر وأما معدن ، والموت ما كان كذلك على مر الزمان أو كان عامراً فخرب وصار مواتاً عاطلة ، وأما العامر ، فالذى لم يتعين مالكوه ، فإن كان الإمام اصطفاه لبيت المال من الفتوح بحق الخمس أو برضاء الفاتحين ، لم يجر إقطاع رقبته وصارحكم الوقف وللسلطان استغلاله لبيت المال أو اختيار من يقوم بعمارة رقبته . انظر . الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٩٠ وما بعدها .

(٧٣) المقرئى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ .

(٧٤) المقرئى ، المققى الكبير ، القاهرة ١٩٩١ ، جـ ١ ، ص ٣٩٦ .

(٧٥) المقرئى ، اتعاظ ، جـ ٣ ، ص ١٦٥ .

(٧٦) المقرئى ، المققى ، جـ ٢ ، ص ٥١٥ ، نفسه ، ص ص ١٦١-١٦٢ . وأورد للجند الأرض جهات منها سملوط وأثلوسنا وإيوان والبرجين فى صعيد مصر وضبعة أخرى بالمحلة .

(٧٧) المسبحى ، أخبار ، ص ص ١٧٦ - ٢٢٥ .

(٧٨) القلقشندي ، صبح ، جـ ٣ ، ص ٥٢١ .

وتطالعنا المصادر^(٧٩) ، بأن الفاطميين اتبعوا نظام قبالة الأرض ، الذى كان سائداً فى مصر قبل مجيئهم ، باعتبار أن الأرض ملكاً للدولة ، فتقوم بتأجيرها إلى كبار المزارعين بوصفهم متقبلين يقومون بدفع ما عليها من ضرائب مقابل استغلالها ، من خلال المزايدة وحصول المتقبلين للنواحي على خراجها مقابل إصلاح جسورها وعمارتها وسد ترعها ، ثم دفع حصة الدولة من خراجها على أقساط بعد خصم تكاليف المرافق السابقة . وكانت مدة القبالة فى أول الأمر أربع سنوات مراعاة لظروف الأرض ومياه النيل ، أو ما عبر عنه بالظماً والاستبحار^(٨٠) ، حتى يعوض المتقبل النقص فى حالة المحصول السيئ ، معنى ذلك أن الفلاحين قاموا بزراعة الأرض مقابل ما يدفعون من خراج للدولة ، ويعتبر البعض^(٨١) : "أنه بذلك لم يوجد فى مصر سوى مستأجرين من الدولة وليس فيها أرض خراج بالمعنى الصحيح ، لأن الخراج الذى يؤديه الفلاحون آنئذ ما هو إلا أجره حكرية ، التزم بها المزارعون تجاه الحكومة" ونظام القبالة على ذلك يؤكد فى حد ذاته أيلولة غالبية أرض مصر للدولة ، التى أصبحت حرة فى توزيعها كيفما تشاء .

كذلك بخصوص القبالة ، التى حددت بأربع سنوات ، فهى فى الواقع لا تزيد عن نظام الالتزام ، كما يعبر عنه البعض^(٨٢) بأنه إقطاع استغلال ، فالمقطع يدفع مبلغاً من المال يذكر فى الأمر الصادر بإقطاعه عن جهة ما ، وهذا المبلغ يقل بطبيعة الحال عما يجبيه المقطع من أهل الناحية والفارق بينهما هو الفائدة التى تعود على المتقبل .

بدأ نظام القبالة مع خلافة المعز استمراراً لما كان موجوداً فى مصر الإسلامية ، فقد عهد الخليفة به إلى يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن عام ٣٦٣هـ / ٩٧٤م ، وجلسا فى جامع ابن طولون ، ولم يقوما فقط بالمزايدة على الضياع وتوزيعها على المتقبلين ، بل طالبا بالبقايا^(٨٣) . ومن الواضح أن هذا الأمر كان متاحاً لجميع الناس فى القرى والمدن ممن يستطيعون القيام به ، ومع عصر المستنصر ، الذى اتسم

(٧٩) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٨٢ .

(٨٠) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٨٢ .

(٨١) كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية بدر الدين القاسم ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٢٣ .

(٨٢) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٥٨ .

(٨٣) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٨٢ .

بوقوع الأزمات الاقتصادية وزيادة سطوة الجند ، كنتيجة للصراع بينهم ، الذى فسره البعض^(٨٤) أنه بسبب احتياز الأرض ، والأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى مصادرة الخليفة نفسه ، ثم تقاسموا الأعمال ، وكانوا ينتقلون فيها بحكم من تغلب عليها على حد قول المقرئى^(٨٥) . ولما طالب الأتراك الوزير ابن كدينه عام ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م بالأموال ، قال : "وأى مال بقى الريف فى يد فلان والصعيد فى يد فلان"^(٨٦) . وهذا يؤكد عجز الدولة عن دفع الرواتب والأعطيات ، فجاء اغتصاب الجند للأراضى أمراً واقعاً ، مما مهد الطريق لسطوة العسكر الأرمنى ، خاصة بعد تولى بدر الجمالى واستبداده بالسلطة^(٨٧) .

وكان طبيعياً أن تستشرى هذه الظاهرة ، حتى إذا وصلنا إلى بداية القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى، وجدنا غالبية الأرض فى يد القادة والجند ، وبسبب تسلط قادة الجند ، بدأت شكوى الجند مع وزارة الأفضل من قلة ارتفاع اقطاعاتهم فى الوقت الذى تضاعفت فيه اقطاعات الأمراء وازدادت عن غيرها^(٨٨) . ويبدو أن الأمراء وكبار المقطعين انتهزوا فرصة الاضطراب أيام المستنصر فزادوا اقطاعاتهم ، ثم أخذوا فيما بعد يجيرون على ما فى أيدي صغار المقطعين ، ويحتمل أنهم ارغموهم على التماس الحماية مقابل رسم مقرر ، ولهذا ازدادت اقطاعاتهم^(٨٩) .

ولذلك أمر الأفضل بحل الاقطاعات جميعها وروكها أى مسحها ثم إعادة توزيعها من جديد ، وكان هذا الإجراء الفورى من قبل الدولة ، بقدر ما يحقق انصافاً للجند ، فكان لابد أن يعود بفائدة مالية على الدولة ، بسبب وجود بقايا أموال الديوان لدى المقطعين ، الذين كانوا لا يدفعون للدولة كل ما عليهم . وأعيد توزيع الأرض من جديد بالمزايدة ويتضح أن المقطعين الجدد كانوا من الأقوياء ، الذين هم فى الغالب أما قادة الجند أو كبار رجال الدولة من العاملين بالدواوين ، فضلاً عن الأجناد ، فلم يكن

(٨٤) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ١/٢ ، ص ٢٣٩

(٨٥) المقرئى ، اغاثة ، ص ص ٢٢ - ٢٣ .

(٨٦) المقرئى ، اتعاظ ، جـ ٢ ، ص ٢٧٥ .

(٨٧) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ١/٢ ، ص ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٨٨) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ ، المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٨٣ .

(٨٩) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٦٠ .

من السهل على عامة المصريين الاشتراك في المزايدات ، التي كانت تعقد بشأنها^(٩٠) ، وهذا لا يرجع فقط بسبب سوء الأحوال الاقتصادية ، لكن أيضاً بسبب تطاول العسكر وتصدرهم السلم الاجتماعي آنئذ .

كما زادت فترة القبالة إلى ثلاثين عاماً ، وهذا معناه أنها تحولت إلى الإقطاع ، لكنه مع ذلك لا يتشابه مع ما ستشهده البلاد فيما بعد ، فعلى الرغم من إطالة الفترة ووقوع الأرض في أيدي الأجناد فإنه لا يشترط في حيازة الأرض أى التزام بالخدمة العسكرية ، لكنه ملزم بأداء العشر الواجب على كل مسلم ، كما كان المالك يخضع لإشراف الدولة^(٩١) ، وبعد هذه الفترة يحق للدولة نقله إلى غيره ، ويصبح المحصول من نصيب المقطع الجديد ، ويرد الأرض المقطعة ، فلا ينقل شيئاً من المنشآت المقامة فيها ، ولا يتصرف في التبن المودع بمخازنها^(٩٢) ، كما كان هناك جمعاً بين الرواتب والإقطاع ممثلاً في الأسطول ، فكان من يعمل به يصل راتبه إلى عشرين أو خمسة عشرة ديناراً وكان له اقطاعاً يعرف «بأبواب الغزاة»^(٩٣) . ومع ذلك فهذا التحول قد مهد لنظام الاقطاعات الحربية الذي أدخله الأيوبيون^(٩٤) ، أو بمعنى آخر كانت هذه الفترة السابقة إرهاصاً لسيادة الإقطاع في العصر الأيوبي^(٩٥) .

ويتضح من العرض السابق أن الاقطاعات كانت قليلة في بداية الدولة ، كما كانت بمثابة تعويضاً من الدولة عن الرواتب ، لكنها تزايدت في أواخر حكمهم وأخذت أشكالاً أكثر ثباتاً أسلمت البلاد فيما بعد إلى الإقطاع العسكرى .

كما كانت الدولة تؤجر الأراضي التابعة لبيت المال للفلاحين ، ويدفعون عنها إيجاراً محدوداً أو يزرعوها وفق نظام المزارعة أو المقاسمة في المحصول^(٩٦) ، فضلاً

(٩٠) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٦١ .

(٩١) كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ص ١٢٤ .

(٩٢) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٦٧ .

(٩٣) المقرئى ، اتعاظ ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

(٩٤) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٦١ .

(٩٥) عبد العزيز الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١٠٢ .

(٩٦) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٥٣ .

عن ذلك ، كان للخلفاء أملاكاً واسعة مثل الخليفة المستنصر ، الذى كان له ثلاثمائة قرية فى ساحل الخليج^(٩٧) . وكان من ممتلكات الخليفة الأمر قرية من قرى قليوب تعد متنزهاً له ، عرفت باسم «قصر الورد»^(٩٨) ، فضلاً عما حازه الوزراء من ممتلكات مثل ما حبسه أمير الجيوش أو ما تركه ابن رزيك من أملاك موقوفة^(٩٩) .

وارتباطاً بما سبق لنا أن نتساءل ، هل كانت هناك ملكية خاصة للمصريين بعيداً عما ملكه القطاع الحاكم ؟ يذكر المقدسى^(١٠٠) : «ليس فى مصر خراج ، ولكن يعتمد الفلاح إلى الأرض يأخذها من السلطان ويزرعها ، فإذا حصدت .. يخرج الخازن وأمين السلطان فيقطعون كرى الأرض ويعطيا ما بقى للفلاح ، وفيهم من يأخذ من السلطان تقوية ، فيرد علة فى كرى الأرض بمقدار ما أقطعه ، فلا يكون لأحد ملك وضيعة ، قال : اللهم أن يكون رجل قد اشترى ممن أقطعه السلطان فى القديم ووهبها ، فاحتاج هو وذريته إلى ثمنها ، فباعها لعامة الناس» .

فهذا النص فضلاً عن أنه يجمل ما اسلفناه ، فهو يؤكد على أن الملكية الخاصة تكاد أن تنعدم من خلال احتياز الدولة للأرض ، وتوجد فى نطاق ضيق ، ولا تأتى إلا عن طريق إقطاع الأرض ولا سيما التملك ، فتتقل بالبيع لعامة الناس . ومن المعلوم أن المقدسى زار مصر خلال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وأن كانت هذه المعلومات لم يستقها من مصر نفسها ، بل سأل أحد المصريين ببخارى عن حال الأرض فى مصر ، فكان ما أوردناه . والبعض^(١٠١) فند هذا رأى وأكد على وجود الملكية الخاصة ، لكنه قد استند فى ذلك على نصوص ترجع إلى ما بعد زيارة المقدسى لمصر وحتى آخر عصر الفاطميين ، فالنص الذى أمامنا يبين حال الأرض فى بداية عصرهم وكانت الدولة لا تزال مالكة للأرض ، وهى التى تمارس توزيعها أما بالقبالة أو بالمزارعة مع وجود الملكية الخاصة فى نطاق ضيق .

(٩٧) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٧ .

(٩٨) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٨٨ .

(٩٩) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(١٠٠) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٢١٢ .

(١٠١) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ص ٥٢ - ٥٦ .

لكنها ازدادت بمضى الزمن ، حتى كان الوقف معبراً عنها ، لأنه لا يمكن أن يمنح شخص حق الاستفادة في أرض ليس له فيها سوى حق الانتفاع ، ولا معنى إنه يوقف إيرادها ، لأنه بذلك يسلب المالك الأصلي حق الاستفادة من ملكه^(١٠٢) . ومن خلال أحد عقود الوقف الذي يرجع إلى عام ٤٠٢ هـ / ١٠١٢ م^(١٠٣) نتبين ذلك ، كما أورد المقریزی^(١٠٤) خلال وزارة الأفضل : «قد طالع المجلس الأفضل بحال أرباب الأملاك هناك وأنهم قد استضافوا إلى أماكنهم من أملاك الدواوين أراضي اغتصبوها ومواضع مجاورة لأماكنهم تعدوا عليها وخطوها وحازوها» ويبدو أن هؤلاء استفادوا من فترات الاضطرابات السابقة واغتصبوا أراضي الدولة مع بقاء الملكيات الخاصة .

كذلك عندما أراد الأفضل أن يحل الاقطاعات ، أخذ كل من الأقوياء والمميزين يتضررون ويذكرون أن لهم بساتيناً وأملاكاً ومعاصر في نواحيهم ، فقال : "من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل في الأقطاع وهو محكم إن شاء باعه وإن شاء أجره" فهذا النص تقرير صريح عن وجود الملكية الخاصة واعترافاً من الدولة بحق وحرية صاحبها في التصرف فيها ، لكن هؤلاء أو أولئك قد ظهوروا في أخريات العصر الفاطمي ، حتى سمحت لهم الظروف بالظهور بهذه الكيفية ، كما وصف الآخرين بأنهم من الأقوياء أو المميزين ، فيبدو أنهم كانوا من قادة الجند أو أمراء النواحي ، الذين ظهوروا في أخريات عهد الدولة ، وكان لهم شأناً فيها ، وهذا معناه أن المالكين للأرض كانوا يرتبطون بشكل أو بآخر بالدولة ، أو من المحتمل أنهم كانوا بقايا فلول جند السودان ، الذين أجبروا على التقهقر إلى الصعيد أبان فتن الجند .

خلاصة القول ، أن الملكية الخاصة قد وجدت في بداية عهد الفاطميين في نطاق ضيق ، لكنها ازدادت بمضى الوقت ، ولم يقف الأمر عند حد الامتلاك ، بل تعداه إلى اغتصاب الأرض ، كما أن المالكين لم يكونوا من عامة المصريين ، وأن كان ذلك ربما يرجع إلى الافتقار إلى نصوص متعلقة بهذا الشأن .

(١٠٢) البراوي ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٥٥

(١٠٣) انظر · Répertoire chronologique d'épigraphie arabe, Le Caire Tome VI. No. 2148.

(١٠٤) المقریزی ، الخطط ، ج ١ ، ص ٨٥

وقد تضمن الأمان ، الذى أعطاه جوهر للمصريين أيضاً : «اسقاط الرسوم الجائرة» وهذا يشير إلى وجود بعض التجاوزات لسياسة الإخشيديين المالية ، والتي عانى منها المصريون^(١٠٥) ، فإلى أى حد استطاع الفاطميون أن يؤكدوا فعالية هذا التصريح خلال حكمهم لمصر ؟

تطالعنا المصادر^(١٠٦) بأنه مع الفتح الإسلامى لمصر فرضت ضرائب على الصناع والأجراء ، لكنها كانت تقسم عليهم فى كل قرية بقدر احتمالهم ، وفى نهاية عصر الولاة ، فرض أحمد بن المدير عامل الخراج ضرائباً عرفت باسم «الهالى»^(١٠٧) منها ما فرض على الكلا وعرف بـ «المراعى» أو ما يخرج من البحر وعرف بـ «المصايد» وعلى الرغم من أن هذه الضريبة فرضت على نطاق ضيق ، فإنها أثقلت كاهل الرعية ، ولذلك عمل أحمد بن طولون عندما ولى مصر على إسقاطها^(١٠٨) رغبة منه فى التقرب إلى المصريين .

وعلى الرغم من التجاوزات المالية ، التى أشار إليها المؤرخون خلال العصر الإخشيدى ، فإنها فى الغالب ارتبطت أولاً بشخص الإخشيد ، الذى قام بمصادرة كبار موظفى الدولة أو ممن كانت لهم معاملات معها وأصابوا منها مالا كثيراً ؛ فضلاً عن استيلائه على جزء من تركة كبار التجار والموظفين وثانياً جعفر بن الفرات ، الذى تولى الوزارة فى نهاية عصر الإخشيديين وقام بمصادرة الكثيرين من وجوه القوم^(١٠٩) ، منهم يعقوب بن كلس ، الذى هرب إلى المعز يحرضه على المجئ إلى مصر ، فضلاً عن البراطيل^(١١٠) التى عرفت آنذاك .

(١٠٥) اشتد الغلاء فى مصر من عام ٣٥٢هـ/٩٦٣م واستمر تسع سنوات متتابة ، وكان سببه الرئيسى يرجع إلى النقص فى فيضان النيل مما أدى إلى اختفاء القمح واضطراب الأحوال وكثرة الفتن ونهب الضياع ، ثم مات كافور ، فكثر الاضطراب وتعددت الفتن ، سيدة كاشف ، مصر فى عهد الإخشيديين ، ص ٣٤٦ .

(١٠٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ١٧٩ .

(١٠٧) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ١٠٣ .

(١٠٨) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ١٠٤ .

(١٠٩) سيدة كاشف ، مصر فى عهد الإخشيديين ، ص ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(١١٠) المقرئى ، اتعاظ ، ج١ ، ص ١١٧ .

ومع الفاطميين بعد أن استقر الأمر لجوهر ، طاف صاحب الشرطة السفلى^(١١١) ، يصحبه رسول جوهر وأمناء الناس وأعلنوا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مؤنة^(١١٢) ، كما قام جوهر في نفس العام ، الذي سخل فيه مصر بنسقاط البراطيل^(١١٣) . وبعد مجئ المعز إلى مصر ، أمر يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، بوضع نظاماً جديداً للضرائب ، جمعت أقسامه في مكان واحد . كما كان من بين الأعمال التي تقلدها الأثنان السواحل والأعشار^(١١٤) ، وفي خلافة العزيز أقر الوزير عيسى بن نسطورس ضرائباً ومكوساً زائدة^(١١٥) . وهذا يبين أن الضرائب التي فرضها الفاطميون كانت منذ بدء خلافتهم وأنها عرفت باسم "المكوس" مما حدا ببعض^(١١٦) أن يذكر أن الفاطميين وضعوا المكوس على الناس ، وأنهم أحدثوا شيئاً لم يكن على الأقل موجوداً في العصر السابق عليهم .

وإن كانت هناك إشارات بأن العرب ، كانوا يفرضون ضرائب على التجارة ، وكانت تعرف هذه الضرائب بالمكوس ، استمراراً لما كان معروفاً أيام البيزنطيين^(١١٧) ، وكذلك أن ربيعة بن شرحبيل كان والياً لعمرى على المكوس ، واستمرت هذه الوظيفة بحيث ورد اسم زريق بن حيان في خلافة عمر بن عبد العزيز^(١١٨) ، وليس هناك شك في وجود هذه الضرائب وهذه الوظيفة ، لكن الخلاف حول المسمى ، فمن المعلوم أن المقس أنشأ في القاهرة ، فعند مجئ المعز ، رأى أن المدينة الجديدة لا ساحل لها فلم يعجبه ، وقال يا جوهر : «فأنتك عمارتها ههنا ، يريد

(١١١) لما أنشئت العسكر على يد أول الولاة العباسيين في مصر أنشئت فيها شرطة جديدة سميت بـ "الشرطة العليا" تميزاً لها عنا الشرطة السفلى في النصوص و ترجع هذه التسمية إلى الموقع وحدود الاختصاص ، وكان صاحب الشرطة السفلى عظم شأناً من زمينه بوصفه صاحب القسم الرئيسي . انظر سيدة كاشف ، مصر في عهد الإخشينيين ، ص ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(١١٢) المقرئى ، اتعاظ ، جـ ١ ، ص ١١٠ .

(١١٣) المقرئى ، اتعاظ ، جـ ١ ، ص ١١٧ .

(١١٤) ابن ميسر ، أخبار ، ص ١٦٣ .

(١١٥) يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ١٨٠ .

(١١٦) أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، جـ ١ ، ص ٢١ .

(١١٧) سيدة كاشف ، مصر في فجر الإسلام ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٦٢ .

(١١٨) المقرئى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ .

المقس»^(١١٩) ثم حُرِفت بعد ذلك إلى كلمة المكس ، حيث كان الماكس يجلس ليستخرج المكس^(١٢٠) . فمن المرجح أن هذه الكلمة «مكوس» قد عرفت مع الفاطميين ، ولأن ما كان يجبي من ضرائب منذ الفتح لم يكن سوى عشور التجارة التي حددت للمسلمين بربع العشر ومن أهل الذمة بنصف العشر ومن أهل الحرب بالعشر^(١٢١) ، فضلاً عن ضرائب التجارة الداخلية التي كانت تفرض داخل البلاد^(١٢٢) . وكذلك لأن الكلمة كانت تفيد الضرائب ، وبذلك انسحبت على الفترات السابقة على الفاطميين .

والمكوس^(١٢٣) ، ضرائب تفرض على كل نشاط حرفي يمارس في مصر الفاطمية ، فإذا كان الخراج ضريبة تفرض على الأرض ويدفعها القطاع الفلاحي ، فالمكوس تفرض على الصناعة والتجارة ويدفعها الصناع والتجار ، وتختلف المكوس عن الخراج أيضاً في وقت جبايتها ، فبينما الخراج يجبي حسب السنة الشمسية^(١٢٤) ، كانت المكوس تجبي حسب الشهور الهلالية^(١٢٥) ، ولذلك عرفت أيضاً باسم الهلالي والمرافق والمعاون . وقد استمرت هذه الأسماء في بعض الأحيان مع الفاطميين^(١٢٦) . وقد أصبحت المكوس تفرض على نطاق واسع ولم تترك شاردة ولا واردة إلا وفرضت عليها الدولة رسوماً وضرائب . وقد ذهب البعض^(١٢٧) ، إلى إنها ضريبة تفرض على الإنتاج .

وفيما يخص الضرائب المقررة على الصناعة ، فكانت كثيرة ، منها ما يفرض على صناعة الفاخور والنبذ ومعاصر الزيت والخل^(١٢٨) ، فمثلاً كان يفرض على زق

(١١٩) المقرئى ، اتعاظ ، جـ ١ ، ص ١١٢ .

(١٢٠) القلقشندي ، صبح ، جـ ٢ ، ص ٣٥٧ ؛ المقرئى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٢١ .

(١٢١) أبو يوسف ، الخراج ، القاهرة ، ١٣٩٧هـ ، ١٢٣ .

(١٢٢) سيدة كاشف ، مصر في فجر الإسلام ، ص ٦٣ .

(١٢٣) انظر : Dozy, Supplément aux dictionnaire arabe, 1927, 11, p. 606.

(١٢٤) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٥ .

(١٢٥) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٦ .

(١٢٦) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ص ١٠٤ ، ١٠٧ .

(١٢٧) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ ١ ، ص ١١٧ .

(١٢٨) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .

الزيت ديناراً^(١٢٩) ، بالإضافة إلى ما يفرض على مطابخ السكر ودار الجبن وبيوت الغزل ، فكانت الضريبة المقررة على صناعة الحرير في القسطة ٣٣٤ دينار^(١٣٠) ، وبالمصادفة ، هناك وثيقة ترجع إلى عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م^(١٣١) من المحلة تعطى نفس القيمة ، ومن وثيقة أخرى^(١٣٢) ، تتوافق الضرائب الخاصة بصناعة الحرير تبعاً لمراحلها المختلفة ، والتي يتم مباشرتها من قبل الصناع والحرفيين المشار إليهم عند المقدسى^(١٣٣) ، حيث الرسوم ، التي كانت تحصل في تنيس ودمياط ، مقابل حمل المنسوجات وشدها وحزمها ، بالإضافة إلى ما كان يفرض من ضرائب على صباغة الحرير^(١٣٤) ، بل تعدت الضرائب إلى حضانات الفراريج^(١٣٥) كسائر الحرف والصناعات ، وكذلك استمرت الضريبة المقررة على المصايد^(١٣٦) وغيرها مما ذكره المؤرخون وكان يوجد في كل سوق من الأسواق على أبواب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم^(١٣٧) .

وفيما يخص النشاط التجاري ، فقد فرضت الدولة كثيراً من الضرائب سواء على التجارة الخارجية أو الداخلية ، لا سيما أن التجارة شهدت تقدماً ملحوظاً مع قيام الدولة الفاطمية ، كما لعبت مصر دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب ، وعلى الصعيد الداخلي ، تأثرت التجارة في مدن مصر بهذا النشاط فضلاً عن التقاليد الاجتماعية التي أرسنها طبيعة الحكم الفاطمي من ميل إلى الترف وحب المظاهر ، فشهدت الأسواق الداخلية لذلك حركة دائبة .

(١٢٩) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ ، والزق ، كل وعاء أتخذ للشراب ونحوه ، انظر ، ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ١٩٨٨ ، ج ٦ ، ص ٦٠ .

(١٣٠) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(١٣١) Goitein. S.D., A Mediterranean Society, Economic Foundations, Los Angeles, 1967, 1, p. 116.

Goitein, Med Soc., 1, p. 116.

(١٣٢) انظر :

(١٣٣) أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

(١٣٤) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(١٣٥) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

(١٣٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٣٢ .

(١٣٧) المقرئى ، إغاثة ، ص ١٨ .

أما التجارة الخارجية ، أو ما يقصد بها الصادر والوارد فى موانى ومدن مصر المختلفة مثل الإسكندرية وتتيس ودمياط ورشيد وعيذاب^(١٣٨) وغيرها . فكانت الضرائب تستأدى من الروم فى الإسكندرية والقسطنطينية^(١٣٩) ، أما أسوان فيدفع فيها الضرائب على السلع الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن^(١٤٠) . ولقد اختلفت قيمة الضرائب ، بسبب أن القائمين بالتجارة كانوا ينتمون إلى طوائف مختلفة من مسلمين وغير مسلمين ، لذلك نجد أن هذه الضرائب ارتبطت بالطائفة التى فرضت عليها مثل العشر ، الذى فرض على التجار المسلمين والخمس على التجار الغير مسلمين والأجانب ، خاصة الروم وعرف بهم^(١٤١) . وإن اختلف الخمس أيضاً من فئة إلى أخرى حسب أنواع السلع وقيمتها وكذا جنسيات التجار . فكان يحصل من بعض تجار الروم الخمس ومن بعضهم العشر ، ومن هنا جاءت كلمتا العشر والخمس كمرادف لكلمة مكوس . كما كانت تخفض الضرائب على التجار الأوروبيين ، خاصة تجار المدن الإيطالية . فضلاً عن حصولهم على بعض الامتيازات بسبب ما يحملون من مواد خام يحتاجها الفاطميون مثل الخشب والحديد^(١٤٢) .

ولقد وضع الفاطميون كثيراً من الضوابط لأحكام تحصيل هذه الضرائب ، فعندما تأتى السفينة ، يصعد إليها الأمناء ، وهم موظفون من قبل الدولة ومهمتهم تسجيل جميع ما جلب من بضائع ، ويتم نقل هذه البضائع إلى الفنادق حيث تقدر أثمانها بواسطة سماسرة تابعين للدولة أيضاً ، ثم يساق التجار بعد ذلك إلى مكان التفتيش^(١٤٣) ،

(١٣٨) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٦٤ .

(١٣٩) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٩ .

(١٤٠) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٣٣ .

(١٤١) المخزومى ، المنهاج ، ص ٤٥ . والخمس عبارة عما يستأدى من تجار الروم الواردين على الثغر بمقتضى ما صولحوا عليه ، وربما يستخرج عما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثين ديناراً وإنما انحط عن العشرين ديناراً وسمى كلاهما خمساً ، انظر . ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦ .

(١٤٢) هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٩١ ، جـ ٢ ، ص ٣٤ .

(١٤٣) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٧ .

فضلاً عن الأمناء المسؤولين عن تحصيل الضرائب المستحقة على القوافل ، التي تأتي إلى حدود البلاد^(١٤٤) .

أما السلع التي تصدر من مصر عبر المواني المصرية ، فيدفع صاحب السلعة رسوماً معينة إذا حملت السلعة إلى المراكب ، كما تحمل سلعة كل تاجر علامة خاصة به ، ثم يتم التفتيش قبل التحرك ، وتوكل الدولة لتحصيل هذه الضريبة موظفاً يسمى «ضرائبياً» يكون مسئولاً في كل ميناء من مواني مصر عن جباية الأموال المختلفة^(١٤٥) . وكان يؤخذ مثلاً في القلزم على كل حمل درهم ، وكان يؤخذ في الإسكندرية والفسطاط واخميم دون بقية البلاد ضرائب بتقرير الديوان^(١٤٦) . ولكثرة ما كان يجبي من ضرائب ، أوجدت الدولة ديواناً سمي بـ «ديوان الثغور» ليقوم بالإشراف على الثغور الساحلية^(١٤٧) .

كما كان لنشاط التجارة الكارمية ، أثر في تحصيل هذه الضرائب ، خاصة أن الفاطميين قد دفعوا بهذه التجارة قدماً ، عندما زاد اهتمامهم بالبحر الأحمر وتجارة الشرق^(١٤٨) . حتى أصبحت كلمة كارم مع القرن ٦هـ/١٢م ، شائعة في بيوت الفسطاط^(١٤٩) . وكانت رسوم هذه التجارة تحصل في أربعة سواحل ، في عيذاب والقصير والطور والسويس^(١٥٠) ، وعلى ذلك قامت الدولة بحماية سفن التجارة الكارمية من خلال إقامة أسطول في عيذاب^(١٥١) ، مما يبين أنه كان هناك أسباباً مالية من وراء هذه الحماية ، فقد كان كبار التجار قادرين على الدفع ، أما صغار التجار فكانوا مضطرين إلى أن يتحملوا تقلبات القراصنة ، التي كانت تشكل خطراً فعلياً وقتذاك في

(١٤٤) المقرئزي ، الخطط ، ج١ ، ص ١٠٤ .

(١٤٥) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

(١٤٦) المقرئزي ، الخطط ، ج١ ، ص ١١٠ .

(١٤٧) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٣٩١ .

(١٤٨) بعد فقدان الفاطميين للمغرب وصقلية أقل نجمهم في البحر المتوسط ، وكان عليهم أن يؤكدوا وجودهم في مكان آخر ، فاتجهوا إلى البحر الأحمر ، لاسيما تجاه اليمن والهند ، وبذلك أصبح البحر الأحمر خلال ق ٥هـ/١١م طريق التجارة الرئيسية إلى الهند والبحر المتوسط ، انظر : Shaban, Islamic History, P. 203.

(١٤٩) انظر : Goitein, New lights on the beginning of the Karimi Merchants (JRAS), p.181.

(١٥٠) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(١٥١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٥٢٠ .

جنوب البحر الأحمر^(١٥٢) ؛ فضلاً عن قيام الخلفاء أنفسهم وغيرهم من كبار رجال الدولة بالمشاركة في هذه التجارة ، من خلال السفن التي أعدت لهذه التجارة ، مستفيدين من انتعاش هذه التجارة^(١٥٣) ، مما يدل على ارتفاع الرسوم المقررة على تجارة الكارم . وكانت دار مائك الصغرى ، التي كانت تقع في الفسطاط مكاناً لدفع المكوس^(١٥٤) على السلع المصدرة ومنها تجارة الجملة مثل الكتان والتوابل^(١٥٥) .

ولحاجة الفاطميين إلى تحصيل الأموال في موانئ مصر سواء التي تربطها بأوروبا أو بالشرق ، عمل الفاطميون على تشجيع التجارة ، فأنشأت الأساطيل التجارية ، كما أعيد حفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر فيما عرف بـ «الخليج الحاكمي»^(١٥٦) ، كذلك أعيد حفر خليج الإسكندرية ٤٠٤هـ / ١٠١٣م^(١٥٧) ، فضلاً عن تشجيع التجار الأجانب على المجئ إلى مصر من خلال تخفيض الرسوم وإقامة الفنادق في الموانئ الهامة وفي غيرها من المدن ، حيث انتشرت من الإسكندرية حتى أسوان^(١٥٨) ، إلى جانب تعهد الدولة في بعض الأحيان ببسط حمايتها على التجار الموجودين في أنحاء البلاد^(١٥٩) . كما أمر الأمر ببناء دار الوكالة لمن يصل من العراق والشام من التجار ، ولم يسبقه إلى ذلك أحد^(١٦٠) .

أما الضرائب المقررة على التجارة الداخلية ، فكانت كثيرة ، منها ما يفرض على عبور السلع من القناطر والمعديات . أو التوابل والقطن والصوف والأبقار والحنة والفحم وغيره^(١٦١) . وقد أوردت وثائق الجيزة^(١٦٢) قيمة بعض هذه الضرائب ، منها

^(١٥٢) انظر : Goitein, New Lights, p. 182.

^(١٥٣) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ ١ ، ص ٣٠١ .

^(١٥٤) المسبحي ، أخبار ، ص ١٨٩ ؛ ودار مائك تقع بشارع الزياتين ، انظر . ابن دقماق ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٥-٦ .

^(١٥٥) انظر : Goitein, Med. Sec. IV, p. 27.

^(١٥٦) المقرئزي ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٧١ .

^(١٥٧) المقرئزي ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٧١ .

^(١٥٨) ابن جبير ، الرحلة ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٣٧ ؛ هايد ، تاريخ التجارة ، جـ ٢ ، ص ٤٣ .

^(١٥٩) هايد ، تاريخ التجارة ، جـ ٢ ، ص ٤٠ .

^(١٦٠) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٩٢ .

^(١٦١) المقرئزي ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٤ .

^(١٦٢) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, pp. 194, 276.

درهمين على الحمار ، بينما كان ثمنه ما بين دينارين وخمسة دنانير وثلاثة دنانير للمتوسط ، والجمل يباع بخمسة دنانير وضريبته خمسة دراهم أى حوالى ٢,٥ % . ثمنه . كما كانت الدولة تفرض الضرائب على الأسواق المتخصصة مثل سوق السكر والدقيق والجمال والدواب والسمك والذبائح وغيرها^(١٦٣) ، بالإضافة إلى ما يدفعونه مقابل ما يباع وما يشتري^(١٦٤) ، أما تجارة المنسوجات ، فقد فرضت عليها رسوماً باهظة كما راقبتها الدولة رقابة شديدة سوف نشير إليها فيما بعد .

وكانت هناك أيضاً بعض الضرائب التى تفرض على السلع ، منها مكس حقوق الساحل أو الغلة ، وهى ضريبة مقررة على القمح المجلوب إلى ساحل القاهرة والفسطاط^(١٦٥) حيث كان يفرض عليه الضريبة قبل أن يباع ، ويبدو أن هذه الضريبة فاطمية الأصل أو حتى مبكرة^(١٦٦) ، إلى جانب ما كان يفرض على الكتان والقطن وعما يحصل فى ساحل السنط بالفسطاط على الأخشاب ، التى تنقل إليه والمباعة للتجار بالوجه القبلى^(١٦٧) ، كما كانت تؤخذ الرسوم بشكل عيى على بعض السلع وهذا يتضح مما سُمح به فى وزارة المأمون البطائحي عام ٥١٥هـ / ١١٢٢م^(١٦٨) ، وكذلك ما كان يؤخذ من الجاموس للديوان على كل رأس من الراتب نظير ما يتحصل منه فى كل سنة من خمسة إلى ثلاثة دنانير ، فضلاً عن الضرائب المقررة عليه^(١٦٩) ، وبذلك أمدت ضرائب السوق الفاطميين بأموال ضخمة^(١٧٠) ، وفى الغالب كانت تجمع الضرائب من خلال الضمان بمقدار معين لكل جهة إن زادت فله وإن نقصت فعليه^(١٧١).

(١٦٣) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٤ .

(١٦٤) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٧٥ .

(١٦٥) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٤ .

(١٦٦) انظر : Rabie, The Financial System, pp. 103 - 104.

(١٦٧) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١١١ .

(١٦٨) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٨٣ - ٨٤ . ومقدار ما سُمح به إلى آخر عام ١٠هـ /

١١١٦م تسعمائة وثلاثة عشر قنطاراً من الشب ومن الحديد خمسمائة رطل ، ومن الملح الفان وسبعمائة وثلاثة وتسعون أرباً وثلاث ومن الشمع أربعمائة وأربعون لطلاً .

(١٦٩) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٨٣ - ٨٤ .

(١٧٠) انظر : Ashtor. E., Social and economic History of the Near east in Middle Ages. London 1976, p. 200.

(١٧١) القلقشندي ، صبح ، جـ ٣ ، ص ٤٦٦

ومن الملاحظ أيضاً ذكر مناطق متعددة لجباية ضرائب التجارة الداخلية في ساحل الفسطاط والقاهرة ، كما خصصوا أماكن معينة يرد إلى كل منها نوع معين لتقرير الضريبة عليه ، وأن هذه الضرائب اختلفت من حيث ورود كلمات تعبر عنها مثل رسوم ، مكس ، حماية ، واجب ، سمسرة السلع ، سمسرة الدلالة^(١٧٢) . وكان هناك ديواناً يشرف على التجارة الداخلية يسمى «ديوان الهالى»^(١٧٣) ويوجد أيضاً في كل ناحية متولى المال ، حيث يوجد ديوان الحكومة في الناحية ، أما الحسابات النهائية ، كانت توجد في المركز الرئيسى بالقاهرة^(١٧٤) ، ولعله الديوان السالف الذكر .

لذا نجد الفاطميين يهتمون بالأسواق لتشجيع التجارة الداخلية ، فكان أغلبها مغطى بالسقائف وتضاء ليلاً بالقناديل ، خاصة في عهد الحاكم بأمر الله ، الذى أمر بإضاءة الشوارع والأسواق والحوانيت في مصر والقاهرة ليلاً^(١٧٥) . كما كانت معظم الأسواق مبلطة^(١٧٦) . إلى جانب توفير الدواب للركوب للانتقال بين الأسواق^(١٧٧) . وكان هناك موظفاً مسئولاً عن الإشراف على التجار^(١٧٨) ، ربما يكون أحد العرفاء الذين استعان بهم المحتسب^(١٧٩) ، أو أنه كان يهتم بشئون اليهود وحدهم .

ولحرص الفاطميين على تشجيع التجارة ، استطاع القاضى النعمان أن يجد حلاً لممارسة الربا بشكل شرعى ، فمع عدم شرعية الربا كما هو معلوم ، فقد تمت ممارسته ، لكن خلال تحديداً خاصاً بهم قام على التفاضل في عملية الدين ، وهو : «لا بأس باقتضاء الفضة من الذهب والذهب من الفضة ، إذا اتفقا على ذلك ، ومن أسلف دراهم فأعطى أجود منها فلا بأس»^(١٨٠) وهذا الأمر ينسحب على السلع أيضاً .

(١٧٢) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٤ .

(١٧٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٩٢ .

(١٧٤) انظر :

Goitein, Med Soc., p. 267.

(١٧٥) المقرئى ، اتعاظ ، جـ ٢ ، ص ٣٩ .

(١٧٦) الشيزرى ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١١ .

(١٧٧) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ص ١٢٠ - ١٢١ .

Mann, The Jews in Egypt. 1. p. 81.

(١٧٨) انظر :

(١٧٩) المقرئى ، إغائة ، ص ١٨ .

(١٨٠) النعمان ، الاقتصار ، ص ٨٤ .

وإضافة إلى الضرائب التي فرضت على النشاط الصناعي والتجاري ، كان هناك نظام التصاريح أو التراخيص ، الذي كان من الأمور المعمول بها خلال العصر الفاطمي ، فكان على كل حانوت أن يستخرج رخصة شهرية مقابل واجبات مالية يجب أن تؤدي ، وهذا الأمر لم يكن مطبقاً فقط على المصانع ، لكن أيضاً على حوانيت بيع المواد الغذائية أو غيرها من السلع الأخرى ، وهذه الواجبات كانت تجمع تبعاً للشهور الهلالية ، وهي لم تكن إيجارات لما تؤجره الحكومة ، وهذا النظام ، بالإضافة إلى أنه يعد مصدراً للدخل ، فهو يجعل الحكومة قادرة على أن تشرف على أوجه النشاط الصناعي والتجاري لرعاياها^(١٨١) .

ومع ذلك ، قد تجاوزت المكوس في بعض الأحيان هذين المجالين ، فقرضت على الحجيج في البحر الأحمر إلى مكة عن طريق عيذاب ، وهي سبعة دنائير ونصف عن كل إنسان^(١٨٢) ، إلى جانب ما يدفعونه عن كل حمل طعام من ضريبة معلومة^(١٨٣) . ومن لم يؤد هذه الضريبة منع من الحج وعذب^(١٨٤) ، وهذا الأمر لا يخلو من المبالغة ، فإذا كان الفاطميون حريصين كل الحرص على فرض الضرائب وجبايتها ، فلا يمكن أن يشوهوا صورتهم بهذه الكيفية ، في الوقت الذي كانوا يتطلعون فيه إلى حكم العالم الإسلامي ، وإذا كانت فرضت بالفعل ، فلعلها ارتبطت بالعصر الفاطمي الثاني ، حيث ضعفت موارد الدولة وبدأت تبحث عن موارد أخرى لتغطي نفقاتها ، كذلك كان المكس يؤدي على شرب مياه النيل^(١٨٥) ، حتى من يغرق في النيل كان على أهله أن يدفعوا واجب الصناعة للدولة مقابل اخراجه ، وبلغ هذا الواجب دينارين وقيراطين^(١٨٦) . وبذلك لم تترك الدولة شيئاً إلا وفرضت عليه رسوماً وضرائب وأن الهواء وحده أخلى سبيله وبقي حراً^(١٨٧) .

(١٨١) انظر : Goitein, Med Soc., pp. 269 - 270.

(١٨٢) المقرئزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج١ ، ص ٦٤ .

(١٨٣) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٧٤ .

(١٨٤) المقرئزي ، السلوك ، ج١ ، ص ٦٤ .

(١٨٥) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٥ .

(١٨٦) المسبحي ، أخبار ، ص ٦٠ "غرق في دار النيل حدث يعرف بابن الاسكاف ، وطرحه النيل على الشط ، وصار أهله إليه ليحملوه ، فمنعهم أصحاب الشريف متولى الصناعة من حمله وطالبوهم بدينارين وقيراطين واجب الصناعة من حق من غرق في النيل ، فدفع ذلك إليهم" .

(١٨٧) ماجد ، نظم الفاطميين ، ج١ ، ص ١١٧ .

واعتبر البعض^(١٨٨) ، أن هذه الضرائب جائرة وغير قانونية ، حيث كانت قيمة المكس تتراوح بين ١٠ - ٢٥% من قيمة السلعة ، فكانت الضرائب ثقيلة خاصة في تنيس ودمياط على ساحل النيل^(١٨٩) ، واستطاعت الخلافة الفاطمية أن تحصل من المكوس الشيء الكثير ، منها ألف دينار يومياً بساحل تنيس ، ونفس القيمة من القسطنطينية ، فضلاً عما كان يجبي في الموانئ من التجارة الواردة ، وكانت أكثر الجهات وأشدّها ما هو مقرر على التجار الآتين من الشام والعراق ، حيث كانت تحصل منهم الضريبة في الفرما^(١٩٠) . كما تشير وثائق الجنييزة^(١٩١) إلى ثقل هذه الضرائب بشكل عام ، عندما جاءت سفينة من بيزنطة وعليها أسرى كثيرين ، فطلب يهود الإسكندرية المساعدة من ابراهيم ، الذي لم تحدد الوثيقة وضعه ولعله من أغنياء الإسكندرية ، أو أحد المسؤولين عن الجالية اليهودية فيها ، لعجزهم عن توفير الأموال ، إذ الأوقات صعبة والضرائب ثقيلة ، كما أن ضريبة الختم على البضائع قد لوحظ أنها ثقيلة جداً ، فكان يدفع لكل خمسين ديناراً ، دينار أي بواقع ٢% ، وتشير الرسائل إلى احساس التجار بثقل هذه الضريبة ، وأنه لا يستطيع معها أن يحصل أي فائدة ، وربما كان ارتفاع هذه الضرائب من وراء استخدام التجار الرسائل الشفوية ، لأن الدولة كانت تفرض رقابة اقتصادية على الرسائل^(١٩٢) .

بداية ، تعتبر المكوس ضرائب غير شرعية ، كما أنها في الأصل غير مباشرة ، وهي بذلك تخضع لظروف الدولة وحاجتها للأموال أو رغبتها في التخفيف لمراعاة ظروف خاصة بها لحاجتها مثلاً في التعامل مع تجار إحدى الدول من أجل سلعة معينة ، وعلى الرغم من أنها في الأصل تتفق وما عرف بالعشور كما أسلفنا ؛ لكنها مع الفاطميين شملت نواح أخرى كثيرة ، كما أنها كانت متجاوزة عن الحد في بعض الأحيان كما بينا . ومع ذلك لم يكن الفاطميون أول من بالغ في قيمة هذه

(١٨٨) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ ١ ، ص ١١٨ .

(١٨٩) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

(١٩٠) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٩٢ .

(١٩١) انظر :

Mann, The Jews in Egypt, 1, p. 91.

Goitein, Med Soc., 1, p. 271.

(١٩٢) انظر :

الرسوم ، بدليل ما أورده أبو يوسف^(١٩٣) من ضرورة إصلاح الجهاز الجمركى للعباسيين إبان خلافة الرشيد .

ولما كانت المكوس قد بدأت مع المعز وزادت مع ابن نسطورس . ومع استمرارها طوال العصر الفاطمى ، مع ذلك كانت هناك بعض الفترات التى شهدت فيها البلاد إسقاط لهذه الضرائب . فعندما وزر ابن عمار للخليفة الحاكم اسقط الرسوم الغير مقررّة لابن نسطورس ورد الأمور إلى ما كانت عليه^(١٩٤) ، كما قام الخليفة الحاكم بإسقاط المكوس والمؤن التى تؤخذ من المسافرين عن الغلال والأرز^(١٩٥) ، وبدأ ذلك فى عام ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م ثم تلاه بإسقاط مكوس الساحل^(١٩٦) ، فضلاً عن إصدار سجلاً بالمنع من تفتيش المسافرين وأن تخلل هذه السنوات إعادة المكوس التى ألغيت^(١٩٧) ، وفى عام واحد يسقط الخمس ثم يعيده ، ولذلك ، فمهما قيل فى سياسة الحاكم وما قام به من إلغاء بعض الضرائب ، فقد ارتبطت بقتل برجوان والتخلص من وصايته ، أو أنه أراد من وراء ذلك تنفيذ سياسة إصلاحية ، بسبب نزعة التصوف أو رغبة فى التقرب من الناس بعد اتهامه بادعاء الألوهية^(١٩٨) . ولذلك فسياسة الخليفة الحاكم كان يشوبها عدم الاستقرار .

ولما كانت سياسة الدولة المالية ترمى إلى فرض الضرائب ، فكان طبيعياً أن تقوم ست الملك ، التى أصبحت وصية على الخليفة الظاهر ، بإعادة المكوس إلى ما كانت عليه ، قبل إسقاطها^(١٩٩) . لكن بعد وفاتها فى عام ٤١٥هـ / ١٠٢٤م أصدر الخليفة الظاهر أمراً بإسقاط جميع المكوس عن سائر أصناف الغلات الواردة إلى سواحل القسطنطينية ، وهذا الإجراء ارتبط بالغلاء الذى وقع فى نفس العام^(٢٠٠) . كما كان حرص الخليفة الأمر على الضرائب عند توليته للمأمون البطائحي ، فاشتراط عليه بالآ

(١٩٣) الخراج ، ص ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(١٩٤) يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ١٨٠ .

(١٩٥) المقرئى ، اتعاظ ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(١٩٦) المقرئى ، اتعاظ ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(١٩٧) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

(١٩٨) يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ٢٢٢ .

(١٩٩) المقرئى ، اتعاظ ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

(٢٠٠) المسبحى ، أخبار ، ص ١٩٦ .

يجبى الأموال ، إلا بالقصر^(٢٠١) ، وهذا الأمر مرتبط بما عرف عن الأمر من إنه ظلم الناس وأخذ أموالهم^(٢٠٢) . وما حدث فى وزارة رزىك بن الصالح طلائع من إسقاط رسوم الظلم على حد قول المقرئزى^(٢٠٣) ، على الرغم من أنه تولى الوزارة بعد أبيه الصالح ، الذى تولى الوزارة للخليفة الفائز ثم العاضد ٥٥٠-٥٥٦هـ / ١١٥٤-١١٦١م ، كان أشد الناس تطلعا إلى ما فى أيدى الناس من أموال ، وباع الولايات^(٢٠٤) ، وفرض على الولاة والقضاة والمحتسبين أموالا مقررة ، وجعل مدة كل متول ستة أشهر وعرفت هذه الأموال باسم "البراطيل"^(٢٠٥) ، مما أدى إلى ضرر الناس .

وهناك إشارات إلى أن المكوس ، قد ازدادت فى أخريات الدولة الفاطمية ، ولابد أن هذا الأمر ارتبط ببداية حالة الضعف التى ألمت بالبلاد خلال عصر المستنصر ، الذى اسلم البلاد لحالة سيئة ، فيذكر المقرئزى : «ثم أعيدت الأموال الهاللية فى أثناء الدولة الفاطمية ، عندما ضعفت وصارت تعرف بالمكوس»^(٢٠٦) وهذا ليس معناه أن المكوس فرضت مع نهاية الدولة ، فمن المحقق أنها عرفت معهم من البداية ، لكن الذى يفهم من هذا النص إنها زيدت فى العصر الفاطمى الثانى من حيث تنوعها ومقدارها وعددها^(٢٠٧) ، لأن ضعف الدولة الفاطمية قد اقترن بهذه الفترة المتأخرة . ولهذا فإن كلمة "أعيدت" قد جاءت مرتبطة بما قام به أحمد بن طولون فى النص من إسقاط الأموال الهاللية .

وابن خلدون ، يلقى الضوء على هذا الأمر ويربط زيادة الجباية مع آخر الدولة بأسباب الترف ، وأن الدولة عندما يصيبها الهرم وتضعف عصبيتها عن جباية الأعمال ، فتنقل الجباية : «فيستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدرا معلوما»^(٢٠٨) وهو بالفعل يعطى أمثلة منها الدولة الفاطمية .

(٢٠١) المقرئزى ، الخطط ، ج١ ، ص ٤٤١ .

(٢٠٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٣٣ ، ج٥ ، ص ١٧٥ .

(٢٠٣) المقرئزى ، اتعاظ ، ج٣ ، ص ٢٥٣ .

(٢٠٤) ابن ظافر ، أخبار ، ص ١١١ .

(٢٠٥) المقرئزى ، الخطط ، ج١ ، ص ١٠٤ .

(٢٠٦) المقرئزى ، الخطط ، ج١ ، ص ١٠٤ .

(٢٠٧) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ٣٤٢ .

(٢٠٨) المقدمة ، بيروت ، صفحات ، ٢٨٠ - ٢٨١ .

وإذا حاولنا أن نطبق هذا النص ، نجد أن زيادة رغبة الدولة في الانفاق على الحفلات والمواكب والأسمطة^(٢٠٩) وغيرها ، خاصة مع خلافة الأمر ، والتي اكتملت فيها الرسوم الفاطمية ، فكانت الدولة في حاجة دائمة إلى الأموال ، فضلاً عن انقطاع موارد التجارة ، فلم تجد الدولة ، مخرجاً من الضائقة المالية غير الإسراف في فرض الضرائب والمكوس^(٢١٠) . وعلى ذلك لا نستبعد أن القائمة ، التي أوردها المقرئى^(٢١١) ، ربما ترجع إلى هذه الفترة أو بعدها بقليل ، لا سيما أن الضرائب قد انخفضت خاصة المفروضة على التجارة الخارجية خلال هذه الفترة مما أدى إلى هبوط المتحصل بشكل عام^(٢١٢) ، ويعد ما كان يؤخذ من التاجر ٣٥ دينار عن كل مائة دينار انخفضت إلى عشرين ، حتى وصل ارتفاع ثغر الإسكندرية عام ٥١٧هـ/١١٢٣م في الشهر إلى خمسمائة دينار^(٢١٣) ، وكذا بسبب اضطراب أحوال البلاد من جراء الصراع الدائر بين الوزراء العظام فيما بعد ، حتى وصل المتحصل منها مائة ألف دينار في السنة^(٢١٤) ، ومقارنة بما كان يجبى في السابق في تنيس والاشمونين وهدما ووصل إلى مائتي ألف دينار في السنة ، نجد أن السبب ربما يرجع أيضاً إلى تشجيع التجار الأجانب على المجئ إلى مصر ، فقامت الدولة بتخفيض الضرائب المقررة عليهم . وعلى أية حالة قد وصلت قيمة الضرائب مع صلاح الدين قبل إلغائها إلى ما يقرب من مليون دينار في السنة^(٢١٥) .

ومن خلال ما أوردناه يتضح أن المكوس كانت تشكل عبئاً ثقيلاً على الرعية «حتى أنها خرجت في التزيد عن الحد ودخلت الشبهة في أموال الكثير من الناس بسببها»^(٢١٦) . كما أنه بسبب زيادة الضرائب على الصناعة ، كانت أسعار الصناعات

(٢٠٩) والمواكب منها العظام في أول العام - أول شهر رمضان - أيام الجمع من شهر رمضان - صلاة عيد الفطر والأضحى - تخليق المقياس - فتح الخليج . أما الأسمطة : سباط شهر رمضان - العيدين . انظر . القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٩٩ وما بعدها ؛ المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٧٠ وما بعدها .
(٢١٠) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا ، ١/٢ ، ص ٢٤١ .
(٢١١) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٤ ، وما بعدها .
(٢١٢) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٦ .
(٢١٣) . أنقرئى ، اتعاظ ، جـ ٣ ، ص ٩٧ .
(٢١٤) المقرئى ، اتعاظ ، جـ ٣ ، ص ٩٧ .
(٢١٥) المقرئى ، اتعاظ ، جـ ٣ ، ص ٩٧ .
(٢١٦) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٦٦ .

المنتجة مرتفعة أيضاً ، ومع ذلك كان دخل الصناع منخفضاً^(٢١٧) ، حتى أن العامل الماهر كان يكسب خمسة دراهم يومياً^(٢١٨) ، وبخصوص الوضع الاقتصادي لمجموع العاملين ، فإن وثائق الجنيزة^(٢١٩) تخالف الكتاب القدامى والمحدثين ، الذين وصفوا العصر الفاطمي بالازدهار ، فإذا كان هذا العصر يعتبر بداية العصر الذهبي للبرجوازية ، لكن العاملين كانوا أسوأ حالاً ، بسبب ارتفاع الضرائب . وهذا ليس فيه إنكاراً كاملاً للازدهار الاقتصادي ، الذي اتسم به العصر الفاطمي ، لكن الفاطميين استطاعوا أن يستفيدوا من كل الأوضاع المتاحة من سياسية واقتصادية ؛ فضلاً عن فرض الضرائب الباهظة مما كان له انعكاساً واضحاً على حالة الصناع ، أى أن هذا الازدهار لم يمس إلا الدولة وبرجالها والطبقة العليا من المجتمع .

وكان التلويح بإسقاط بعض المكوس أو بإلغائها نهائياً هدفاً سياسياً ، مثلما حدث مع أهل الإسكندرية ، الذين رفضوا تسليم مدينتهم لشاور ، وسلموها لشيركوه ، الذي تركها لابن أخيه صلاح الدين ، فحاول شاور أن يساوم أهلها بأن يسلموه صلاح الدين مقابل أن يرفع عنهم الضرائب ، لاسيما المكوس ، ضريبة الأسواق البغيضة ويعطيهم الأخماس^(٢٢٠) ، كما كان إلغاؤها على يد صلاح الدين عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠م^(٢٢١) ، يهدف أيضاً إلى التقرب من المصريين .

وبذلك لم يستطع الفاطميون أن ينجزوا ما جاء في أمان جوهر ، لكنهم على العكس من ذلك تجاوزوه ، فيما فرضوه من ضرائب خرجت عن حدود العدل ، حتى ما قرره من إبطال المكوس في فترات متباعدة ، لم يكن وفق سياسة مرسومة ، أرادوا من ورائها التخفيف عن كاهل الرعية ، لكنها كانت تأتي بعد فترات اضطراب الحكم ، ومحاولة منهم لاحتواء وكسب الرعية ، بل وبسبب هذه المسامحات ضعفت الجباية ومن ثم زادت في أواخر عهد الدولة . ولم يكن ما أعلنه جوهر في أمانة من إسقاط

Ashtor. Social and Economic History, p. 200.

Goitein, Med. Soc. 1, p. 97.

Goitein, Med Soc, 1, p. 97.

(٢١٧) انظر :

(٢١٨) انظر :

(٢١٩) انظر :

(٢٢٠) التويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص ٢٣٧ .

(٢٢١) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٤ ، وما بعدها .

الرسوم الجائرة سوى هدفاً دعائياً من أهداف الفاطميين ، خاصة أن فرض المكوس كان ضرورة للفاطميين واستمراراً لما فرضوه في بلاد المغرب من ضرائب^(٢٢٢) .

وارتباطاً بسياستهم المالية ، لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أضافوا ضرائباً جديدة على الرعية مثل "النجوى" وهي ضريبة الدعوة ، التي يدفعها أتباع المذهب الاسماعيلي ، وهي ثلاثة دراهم وثلاث ، وكان أغنياء الشيعة يدفعونها ثلاثة وثلاثين درهماً^(٢٢٣) . وقد تبدو هذه الضريبة اختيارية ، لكنها حسب كتب الدعوة الاسماعيلية كانت إجبارية^(٢٢٤) . كما كانت هناك «الفطرة» التي كانت تدفع في عيد الفطر^(٢٢٥) . ويرى البعض^(٢٢٦) «إن هذه الضرائب المتعلقة بالمذهب لم تكن لها معنى ضرائب حقيقية ، إنما كانت أشبه بواجبات دينية أو مذهبية» وقد أصبحت هذه الضرائب بمضى الوقت كما تذكر المصادر^(٢٢٧) : «صارت هذه الصدقات فرضاً واجباً على كل مؤمن العمل به ، ومن تركه كمن ترك فرضاً من فرائض الصلاة والصوم والحج والجهاد» وطالما كان هناك اهتمام بأمر الدعوة ونشر المذهب الاسماعيلي ، كان المتحصل منها الشيء الكثير . وصحيح أن الحاكم أبطل أخذ هاتين الضريبتين عام ٤٠٠هـ / ١٠١٠م لكنه سرعان ما أعادهما في نفس العام أيضاً^(٢٢٨) .

كما حوى أمان جوهر «وأن أجيركم في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال» وهذا النص يطرح عدة أمور أولها ، الأخذ

^(٢٢٢) النعمان ، المجالس والمسائرات ، بيروت ١٩٩٦ ، ص ص ٣٣٦ - ٣٣٧ . وعندما غادر الخليفة المعز حاضرة دولته في المغرب متجهاً إلى مصر ، أخذ يوصي بلكين بن زيري وقال له : "إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية" .

^(٢٢٣) المقرئزي ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٩١ .

^(٢٢٤) النعمان ، الهمة في آداب أتباع الأئمة ، تحقيق كامل حسين ، جـ ١ ، ص ٧ .

^(٢٢٥) المقرئزي ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٩١ .

^(٢٢٦) ماجد ، نظم الفاطميين ، جـ ١ ، ص ١٢٠ .

^(٢٢٧) السجلات المستنصرية ، تقديم وتحقيق عبد المنعم ماجد ، القاهرة ١٩٥٤ ، سجل رقم ٢٣ ، ص ٨٤ .

^(٢٢٨) المقرئزي ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ .

بقانون الوراثة الذي وضعه القاطميون وثانيها أن هذا النص يعد برهاناً غير مباشر على معارضة الفاطميين اعتباراً للمواريث الحشرية كمصدر من دخل الدولة^(٢٢٩) .

وقانون الوراثة لدى الفاطميين^(٢٣٠) ، يقوم على أساس الرحم ولا يعول على التعصيب ، فهو يجيز للبنت إذا انفردت أن تأخذ الإرث جمعية بلا عصبية ولا بيت مال ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى إيجاد مبرراً لإثبات أحقية فاطمة الزهراء في ميراث أبيها ، حتى يكون لهم الحق في حكم العالم الإسلامي بدلاً من العباسيين . كما يوضح أيضاً ما كان سائداً قبل مجيئهم وهو أن من مات ولم يكن له من يرثه من عصبية أو ما يتبقى بعض إعطاء الأسهم يذهب إلى بيت المال ، وهذا الأمر لا غبار عليه ، إلا أنه من وجهة نظرهم غير مقبول . لكن ما كانت تأخذه الدولة الإخشيدية من التركات وكان معروفاً بـ «ضريبة الإرث» كانت ضريبة غير شرعية^(٢٣١) بيد أنه في خلافة الظاهر حصلت الدولة على ثلث تركة إحدى المتوفيات ، اللاتي تمت بالقرابة لجوهر ، بسبب أن جوهرأ كان عبداً للسلطان^(٢٣٢) .

ولذلك تم الفصل في القضايا الخاصة بالمواريث مع الفاطميين تبعاً لمذهبهم ، رغم امتعاض القاضي السني والشهود على ذلك^(٢٣٣) . وأصبح بعد ذلك من الأمور الملزمة ، الأخذ بمذهبهم في الميراث لجميع الرعية^(٢٣٤) ، ومع الوزير بدر الجمالي تغير هذا الوضع ، فأقر نظاماً جديداً يقوم على : «أن كل من مات يعمل في ميراثه على حكم مذهبه»^(٢٣٥) ومن المحتمل أن هذا التغيير يرجع إلى حاجة الدولة إلى الأموال ، لأن هذا النظام سوف يزيد من أموال الدولة مما يتحصل من أموال الأيتام

^(٢٢٩) انظر : Rabie, The Financial System, p. 127.

^(٢٣٠) يرى الشيعة أنه لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الذكر ، كان أو أنثى إلا الزوج والزوجة والأبوان والجدات ولا يرث مع الأم إلا من يرث مع الولد . وخاطب القاضي جوهرأ في بنت وأخ وأنه قد حكم قديماً للبنت بالنصف والأخ بالباقي فقال : «ما أفعل ، فلما ألح عليه قال : يا قاضي هذه عداوة لفاطمة عليها السلام ، انظر . النعمان ، دعائم الإسلام ، ص ص ٣٧٩-٣٨٠ ، المقرئ ، المقفى ، ج ٣ ، ص ١٠٣ .

^(٢٣١) آدم مئز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

^(٢٣٢) المسبحي ، أخبار ، ص ص ٥٤ - ٥٥ .

^(٢٣٣) حسن إبراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

^(٢٣٤) المقرئ ، اتعاظ ، ج ٣ ، ص ٨٩ .

^(٢٣٥) المقرئ ، اتعاظ ، ج ٣ ، ص ٨٩ .

وهو ربع العشر أو ضريبة التركات ، خاصة أنه كان يحاول أن يخرج الدولة من أزمتها الاقتصادية المتعاقبة ، على الرغم مما وصف به من كونه متشيعاً متعصباً ضد السنة^(٢٣٦) . وربما تم إنشاء ديوان المواريث الحشرية في عهده وأن كان الترجيح لإنشاء هذا الديوان لابنه الأفضل ، فقد ذكر المؤرخون^(٢٣٧) أنه أفرد مال المواريث .

كما اتبع الأفضل سياسة مغايرة لأبيه بخصوص المواريث ، فمنع من أخذ شيئاً من التركات وأمر بحفظها بمودع الحكم ، حتى إذا حضر من يطلبها وتأكد القاضي بأحقيته أطلقت لمستحقيها^(٢٣٨) ، لكن مع الوزير المأمون البطائحي ، طرح هذا الموضوع للمناقشة من قبل الفقيه أبي بكر محمد الطرطوشي فيما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام ، وانتهى الأمر بإصدار عدة قرارات منها : أن يخلص لحرم ذوى التشبع الوارثات جميع موروثنهن ، وأن الناس على اختلاف مذاهبهم يحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته والمشهور به اعتقاده إلى حين وفاته ، ويشترك معهم بيت مال المسلمين في موجودهم ، فضلاً عن عدم أخذ ربع العشر من أموال الأيتام ، وعلى ذلك يعرض أمناء الحكم عنه من مال المواريث الحشرية لمن يموت وليس له وارثاً سواء حاضراً أو غائباً ، فموجوده إلى بيت المال ، وأن كان للمتوفى وارث غائب فلتحفظ تركته ، وإذا حضر وأثبت استحقاقه على الأوضاع الشرعية فليخرج الأمر بتسليمه ذلك^(٢٣٩) .

وهذه القرارات عبارة عن صورة توفيقية بين ما كان موجوداً قبل الفاطميين وأثناء عصرهم ، كما أنه أتاح الحرية للمذاهب السنية ، وربما ذلك يرجع إلى أن القاضي الذى استعان به الوزير كان سنياً والمأمون البطائحي رغم تشيعه لدولة متمذهبة^(٢٤٠) ، فكان ينشد الاستقرار والإصلاح ، أو أن المذهب الفاطمي مع العصر الثانى لم يعد يحفل به بالقدر الكافى .

(٢٣٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٥ ، ص ١٢٠ .

(٢٣٧) ابن ميسر ، أخبار ، ص ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢٣٨) المقرئى ، اتعاظ ، جـ ٣ ، ص ٧٢ .

(٢٣٩) القلقشندي ، صبح ، جـ ١٠ ، ص ١٦٦ .

(٢٤٠) المقرئى ، اتعاظ جـ ٣ ، ص ٨٩ .

وأما بخصوص الزكاة ، التي تعد الحق الشرعى الوحيد فى مال المسلمين «وليس فى المال حق سواها ، سواء كانت ظاهرة كالزروع والثمار والمواشى أو الباطنة من ذهب وفضة وعروض تجارة»^(٢٤١) فهي لا تأتى بأموال كثيرة ، لأنها ضريبة شرعية مقدرة ، كما أنها تصرف فى المصارف الشرعية ، وعلى ذلك لم نسمع عن وجود والى للصدقات ، ويذكر المقرئى^(٢٤٢) ؛ بأنها تركت للناس يدفعونها إلى أربابها دونما تدخل من الدولة ، وأن صلاح الدين أول من جبى الزكاة بمصر ، لكن هناك إشارة تفيد بأن أموال الزكاة كانت تدفع إلى الأئمة أو إلى بيت مال الخليفة شأنها شأن النجاوى والفطرة^(٢٤٣) . كما أنه مع الخليفة الأمر هناك إشارة إلى تعيين أحد رجال الدواوين على الزكاة إلى جانب ضرائب أخرى^(٢٤٤) ، لكننا لا نستطيع أن نقف على كيفية توزيعها أو تولى بيت المال لهذا الأمر كما أن ورود جملة «بيت مال الخليفة» تعطى إحياءاً بأنها أموال شخصية أو ربما ارتباط اسم الخليفة ببيت مال المسلمين يرجع إلى اعتبار شخص الإمام الفاطمى . صحيح أن المصادر غاصة بما كان يقوم به الخلفاء من توزيع الصدقات والأموال أثناء المواقب أو أثناء الخروج إلى المناظر المختلفة^(٢٤٥) ، لكن ليس من المؤكد أنها كانت من أموال الزكاة لأنهم كانوا ينفقون فيها الكثير وكان الغرض منها هو كسب قلوب المصريين .

أما ما جاء فى شأن أهل الذمة فى أمان جوهر : «أجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه» فمعلوماً أن سياسة الفاطميين تجاه الذميين اتسمت بالتسامح واطلاق الحريات الدينية والاقتصادية ، حتى وصل التسامح أقصاه مع الفاطميين ما لم نسمع عنه فى فترات أخرى سواء فى مصر أو غيرها من بلدان العالم الإسلامى ، لكن فى ذات الوقت بحيث لا يؤثر ذلك على سياسة الدولة المالية ، التى قامت بتحصيل الجزية المفروضة على اليهود والنصارى والتى وعدوا أن تستمر كما هى فى العصر السابق مما يبين أنها لم تخرج عن الحد من وجهة نظر الفاطميين ، ومن خلال ما ذكرته

^(٢٤١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١١٣ ، وما بعدها .

^(٢٤٢) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٨ .

^(٢٤٣) النعمان ، تأويل الدعائم ، تحقيق محمد حسن الأعظمى ، القاهرة ١٩٦٩ ، ج ٢ ، ص ٨٧ -

٩٠ ؛ السجلات المستنصرية ، سجل رقم ٢٣ ، ص ٨٤ ، سجل رقم ٣٦ ، ص ١٢٢ ، سجل رقم ٥٧ ، ص ١٨٨ .

^(٢٤٤) المقرئى ، اتعاظ ، ج ٣ ، ص ١١٥ - ١١٦ .

^(٢٤٥) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٧٩ وما بعدها .

المصادر أثناء العصر الإخشيدي نستطيع أن نقف على قدر الجزية ، وهل سار الفاطميون على منوالها لنبرهن عن مدى وفاء الفاطميين بما أعلنوه ، أو أنهم قد خرجوا عند هذا الحد مع الذميين ، لتتسق بذلك سياستهم المالية التي التزموا بها ومارسوها ، فهناك إشارة من وثيقة بردية^(٢٤٦) ، ترجع إلى عام ٣٣٠هـ/٩٤١م تتضمن إيصالاً ، باستلام جزية قدرها ثلث دينار وثلثا قيراط . كما سجل في الديوان في عام ٣٤٤هـ/٩٥٥-٩٥٦م أن أحد الأشخاص من الأشمونيين قد دفع أقل من دينار في جزيته ، وفي وثيقة مؤرخة بعام ٤١٦هـ/١٠٢٥م أن أبو الياس بن مينا دفع ديناراً وثلثي قيراط ونصف قيراط في الجزية عن عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م^(٢٤٧) . كما كان الرجل لا يستطيع أن يترك مدينته قبل أن يتم كل واجباته ، فتشير وثيقة إلى ما تعرض له أحد الذميين من الشرطة ، وكان عليه أن يدفع درهمين غرامة ، حتى اضطر إلى مغادرة المركب^(٢٤٨) . كذلك يشير أبو صالح الأرمني^(٢٤٩) أن الجزية وصلت في عهد الأمر عن كل نفس ديناراً وثلث وأحياناً دينارين . وفي وزارة رضوان بن ولخشي أقر في عام ٥٣٢هـ/١١٣٧م الجزية . وهي تتفق مع ما ذكره المخزومي^(٢٥٠) ، الذي عمل في ديوان الفاطميين الأواخر فكان على الغنى أربعة دنانير وسدس والمتوسط ديناران وقيراطان ومن الفقير دينار واحد وثلث وربع وحبثان وابن مماتي^(٢٥١) يذكر أيضاً نفس قيمة الجزية ، لكنه أضاف بأن كل جزية مضافاً إليها درهمان وربع عن رسم المشد والمستخدمين .

وهذه التقديرات تشير في الغالب إلى نهاية العصر الفاطمي ، وما أشرنا إليه يخص الطبقة الدنيا من المجتمع . ويبدو أن غالبية أهل الذمة في أواخر العصر الفاطمي كانوا من هذه الطبقة والغنى فيهم قليل^(٢٥٢) ، ويبدو أنها كانت حالة المجتمع من مسلميه وذهبييه . ومع ذلك فحتى بالمقارنة بين ما أوردناه فيما يخص العصر الإخشيدي والفاطمي وإذا كان كلاهما يشير إلى الطبقات الدنيا ، لكن يظل هناك فرقاً بينهما وعلى

(٢٤٦) سيدة كاشف ، مصر في عهد الأخشيديين ، ص ١٧٧ .

(٢٤٧) انظر : Rabie, The Financial System, pp. 108 - 109.

(٢٤٨) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 300.

(٢٤٩) كنائس وأديرة مصر ، تحقيق Evetts ، اكسفورد ١٨٦٤ ، ص ١٢ .

(٢٥٠) المنهاج ، ص ٣٥ .

(٢٥١) قوانين الدواوين ، ص ٣١٨ .

(٢٥٢) المخزومي ، المنهاج ، ص ٣٥ .

الرغم من أن الجزية حتى قبل الإخشيديين قد ريدت في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي إلى نصف دينار ، فسبب ذلك الكثير من التذمر كما حدث في تيس عام ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م ، بينما مع بداية حكم الفاطميين بقليل زيدت إلى دينار أو نصف ومع ذلك ، فلم يسبب هذا إلا تدمراً قليلاً^(٢٥٢) . ويبدو أن الذميين قد نقص عددهم عن ذي قبل ، حتى كان يطلق على الجزية «الجوالى» وأنشأ لهم ديواناً خاصاً بهم^(٢٥٤) .

ومما تقدم يتضح أن الفاطميين قد زادوا في الجزية المقررة على الذميين . ومن المحتمل أن هذه الزيادة ارتبطت بقلّة أعدادهم أو طبيعة الفترة التي حكم فيها الفاطميون ثم أن الزيادة التي حدثت في أواخر أيامهم ترجع أيضاً إلى فقدان الدولة لبعض مواردها وبذلك تساير هذه الزيادة ما أسلفناه من زيادة المكوس في أخريات عمر الدولة الفاطمية .

كما وعد جوهر أيضاً بتجويد السكة وصرفها على العيار المعمول به في خلافتهم بالمغرب ومنع الغش فيها . ويبدو أن سوء الأحوال الاقتصادية في أواخر العصر الإخشيدي قد أدت إلى تعطيل دار الضرب بها ، لذلك عندما جاء جوهر ، قام بضرب عملة جديدة وكانت العملة السارية عند مجيئهم ، الدينار الراضى والدينار الأبيض والدرهم الرباعى ، فقام جوهر بضرب الدينار المعزى عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م^(٢٥٥) ، كما أدخل الفاطميون معهم الدينار المغربى ، الذى أصبح عملة سارية حتى عصر المستنصر^(٢٥٦) أو حتى بعده .

ولم تقم الدولة الفاطمية بمنع العملة العباسية ، واكتفت بمنع العملة ذات الفئة القليلة مثل المتقال والقطع^(٢٥٧) ، لكن مع ذلك اتخذت بعض الإجراءات لمحاربتها ، فعمل جوهر عند ضربه للدينار المعزى على تثبيت قيمته إلى خمسة وعشرين درهماً ، بينما ثبت قيمة الدينار الراضى عند خمسة عشر درهماً والدينار الأبيض وصل إلى ستة

^(٢٥٢) لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ هـ - ١١٠٠ م) ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ص ٣٢٨ .

^(٢٥٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٩١ .

^(٢٥٥) المقرئى ، المقفى ، ج ٣ ، ص ١٠٠ ، اتعاط ، ج ١ ، ص ص ١١٥ - ١١٦ .

^(٢٥٦) سفر نامه ، ص ١٢٥ .

^(٢٥٧) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٤ .

دراهم كما رفع المعاملة بالدنانير المتقية ، التي ترجع إلى عصر المتقى العباسي^(٢٥٨) . وهذا التحديد لقيمة كل عملة تسبب في ضرر الصيارفة ، لما لديهم من هذه الدنانير ، فقاموا بثورة ، إلا أن جوهرأ هدد بحرق مكانهم^(٢٥٩) . ومع الخليفة المعز قام يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن بجباية الخراج وامتنع عن أخذ الخراج إلا بالدينار المعزى ، مما كان له أثر في انحطاط قيمة الدينار الراضى بمقدار الربع^(٢٦٠) ، وإن كان من الثابت أنه كان أكثر وزناً وأشد نقاوة^(٢٦١) ، وهذا الإجراء قد أدى إلى سحب العملة الجيدة وشرائها بأقل من قيمتها الحقيقية ، مما عاد على الدولة بالربح وإلى سيادة العملة الفاطمية .

لكن من الملاحظ أن قيمة الدينار المعزى خلال العصر الفاطمى قد تراوحت بين ٤،٣٠٠ إلى ٤ جرامات من عصر المعز حتى عصر المستنصر ، وارتفع خلال عصر المستنصر الطويل وسجل أعلى ارتفاع له عام ٤٨٢هـ / ١٠٩٨م إلى ٤،٥٠٠ جرام ، والدنانير الفاطمية المضروبة في مصر فيما بين عام ٣٥٨-٤٨٧هـ / ٩٦٩-١٠٩٤م تتسم في مجملها بارتفاع العيار^(٢٦٢) . ومما يدل على حالة الاستقرار النسبى وصول وزن الدينار في عام ٥٠٩هـ / ١١١٥م إلى ٤،٥٠٠ جرام ، كما أنه بسبب جهود الوزير المأمون البطائحي وإنشائه لأول دار ضرب بالقاهرة عام ٥١٦هـ / ١١٢٢م بلغ الدينار نسبة عالية من النقاء^(٢٦٣) ، حتى صار الدينار المصرى يمثل أعلى عيار في جميع ما يضرب لجميع الأمصار ، لكن من اللافت للنظر أن الدينار الفاطمى وصل مع

(٢٥٨) المقرئى ، المتقى ، ج-٣ ، ص ١٠٧ .

(٢٥٩) المقرئى ، اتعاظ ، ج-١ ، ص ١٣٢ .

(٢٦٠) المقرئى ، الخطط ، ج-٢ ، ص ٦ .

(٢٦١) الكرملى ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٨٥ .

(٢٦٢) مایسة محمد داود ، المسكوكات الفاطمية ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ص ٣٧٧ ، ٤٢٥ - ٤٢٦ ؛

أحمد السيد الصاوى ، المجاعات وتأثيرها على النواحي المالية والحضارية زمن الفاطميين ،

دراسة أثرية حضارية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨٥ ،

ص ٣٣٣ . انظر :

La Voix, Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque National, Paris 1896, p. 88, 89, 163.

(٢٦٣) ابن المأمون ، أخبار مصر ، حققها ايمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٣٨ ، المصدر

السابق ، ج-١ ، ص ٤٤٥ .

خلافة العاضد عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م إلى ٦٣٠هـ، جرام^(٢٦٤) ، على الرغم من سوء الأحوال السياسية للبلاد ، التي تأثرت بها الأحوال الاقتصادية بالتبعية .

كما تم صرف الدراهم في خلافة الحاكم بأمر الله ورفع من سعر الفضة في مواجهة الدينار وأصبحت مصر تعتمد في نقدها على قاعدة المعدنين ، حيث تقرر أمر الدراهم الجدد على ثمانية عشر درهماً للدينار ، وعرف منها الدراهم القطع والمزايدة ، ويشير المقرئى إلى أن طرح هذه الدراهم أحدث أثراً سيئاً ، تزامن مع قصور مياه النيل ، ثم ارتفعت الأسعار ووقفت الأحوال في الصرف في الدراهم المتداولة ، حتى وصل صرف الدينار إلى ستة وعشرين درهماً ، ثم تزايد حتى وصل في عام ٣٩٧هـ/١٠٠٧م إلى كل أربعة وثلاثين درهماً بدينار مما أدى إلى ارتفاع السعر واضطربت أحوال الناس ، فقامت الدولة بإنزال عشرين صندوقاً من بيت المال مملوءة دراهم فرقت على الصيارفة ، كما نودى في الناس بالمنع من المعاملة بالدراهم القطع والمزايدة وأن يحملوا ما بأيديهم إلى دار الضرب ، وهذا الأمر أضر بالناس ، لأنهم كانوا يدفعون في الدرهم الواحد من الدراهم الجدد أربعة دراهم من القطع أو المزايدة^(٢٦٥).

وبذلك ، كان وفاء الفاطميين فيما وعدوا به المصريين بشأن تجويد العملة مرتبطاً بعدة عوامل منها : رغبة الفاطميين في أن تكون لهم السيادة المالية من خلال إصدار عملة جديدة تحمل اسمهم وتشير إلى مذهبهم ، حتى تحقق لهم هدفاً سياسياً طالما سعوا إليه ، كذلك توفر الذهب ، فكان الفاطميون شأنهم شأن من حكم الشمال الإفريقى مسيطرين على ذهب السودان ، حتى أن جوهراً عندما جاء إلى مصر كان محملاً بصناديق الذهب^(٢٦٦) ، وفي مصر تم لهم استغلال الذهب الموجود في الجنوب ، لاسيما

La Voix, Catalogue, p. 169.

^(٢٦٤) انظر :

^(٢٦٥) المقرئى ، إغائة ، ص ٦٥ ، الدراهم القطع دراهم غير كاملة لذهاب جزء منها بسبب القطع ، وكانت تلك الدراهم تقل في معاملات الأفراد حسب الوزن ، غير أن الحكومات كانت ترفض التعامل بها وتسمى الدراهم الغلة ، أما الدراهم المزايدة ، فهي التي كانت تزيد عن الدراهم الجيدة في الحجم وليس في الوزن ، انظر : المقرئى ، إغائة ، ص ٦٤ هامش ٣ ، ص ١٤ - ١٥ ؛ أحمد الصاوى ، المجاعات ، ص ٣٢٨ .

^(٢٦٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٤ ، ص ٢٨٨ .

فى العلاقى^(٢٦٦) ، فضلاً عن المكوس التى قاموا بتحصيلها ، والتى أثقلت كاهل الناس ، سواء من أهل البلاد أو من الوافدين عليها فى طريق الحج والتجارة إلى جانب ما صاحب المجاعات من شيوخ ظاهرة الاكتناز للاستفادة من قيمة الدينار بعد انتهاء المجاعات ، حتى أن الشدة المستتصيرية وغيرها من الأزمات لم تؤثر كثيراً فى وزن الدينار الفاطمى^(٢٦٨) ، فكل ذلك قد وفر لهم حصيلة من الذهب وقاعدة نقدية استطاعوا من خلالها أن يقوموا بإصلاح العملة وتجويدها وأن كان ما قاموا به أدى إلى اضطراب أحوال الناس الاقتصادية وأوقع الضرر بهم كما أسلفنا .

أما الرباع السلطانية ، فقد جاء بصدها : « لا بأس باستئجار الدور والأرضين ، فيما يحل ، ولا يحل الفصل فى الدور والحوانيت وأشباه ذلك ، ومن أكثرى مشاهرة على أنه أن سكن يوماً لزمه الشهر » وكذلك ما شمله أمان جوهر بخصوص « الرباع » والفرق هنا يتضح ، فيما تقوم الدولة بتأجيرها وحرصها على الحصول على الإيجار كاملاً ، أما كلمة الرباع الثانية فهى تتعلق بما يملكه المصريون من أدر وحمامات وحوانيت وغيرها ، ويطلق على ما يتحصل منها « المال الهلالى » لذلك فهناك من يربط بينها هى والزكاة والجوالى والمواريث وبين المكوس^(٢٦٩) ، من حيث جبايتهم حسب الشهور الهلالية ، لكن هناك اختلاف بينهما ؛ لأن ما يؤخذ من الزكاة والجوالى يعتبر أموالاً شرعية ، أما المكوس على عكس ذلك بينما الرباع السلطانية ما يؤخذ منها يعتبر إيجاراً ويستخرج مشاهرة ، لكن ينظم حسابها بالحول .

وكانت الرباع السلطانية مما يملكه الخليفة من الأدر والحمامات والحوانيت والمعاصر والطواحين والقياسر وغيرها لا يمكن حصرها فكان للخليفة المستنصر يملك فى القاهرة وحدها ثمانية آلاف بيت معدة للإيجار وعشرين ألف دكان يؤجر الواحد ما بين دينارين وعشرة دنانير فى الشهر^(٢٧٠) ، ولكثرة ما يملكه الخليفة كان هناك مسئولاً عن هذه الرباع يسمى « متولى الرباع » يقوم بالإشراف عليها وحمايتها واستخراج مالها من السكان مستخرجاً غاية الاستطاعة والإمكان^(٢٧١) .

(٢٦٦) الأريسي ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ١٩٨٩ ، ص ٣٢ .

(٢٦٨) أحمد الصاوى ، المجاعات ، ص ص ٣٢٠ ، ٣٣٣ .

(٢٦٩) المخزومى ، المنهاج ، ص ٣٤ .

(٢٧٠) سفرنامه ، ص ١٠٤ .

(٢٧١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

ومع ذلك فقد أتاحت الدولة الملكية الخاصة ، لكن بضوابط أيضاً : «ليس لأحد أن يملك عقاراً أو بيتاً غير المنازل ، وما يكون قد بناه الفرد لنفسه»^(٢٧٢) وعلى ذلك يقوم أصحاب المنازل بتأجيرها لمن يريد ، وناصر خسرو عندما أتى إلى مصر أجر منزلاً في الفسطاط بخمسة عشر ديناراً في الشهر^(٢٧٣) ، كما قام أحد التجار في عام ٤٩٦هـ/١١٠٢م بتأجير جزء من منزل في القاهرة مقابل ثلاثمائة دينار في الشهر لتقيم فيه أسرته^(٢٧٤) ، كما كانت النساء في هذا العصر مغرمات بالملكية العقارية ، خاصة المنازل ، كما تجاوزت ملكياتهن إلى الدكاكين ومطاحن الدقيق^(٢٧٥) .

وهناك شكل آخر تتضح فيه الملكية الخاصة يتمثل في الأحباس^(٢٧٦) من رباع وقياسر أو غيرها ، والتي يقوم أصحابها بحبسها على جهة ما . ومع مجيئ الفاطميين إلى مصر بطل تحبيس البلاد ، وصار قاضى القضاة يتولى أمر الأحباس من الرباع ، كما أصبح للأحباس ديواناً مفرداً ، وأمر المعز عام ٣٦٣هـ/٩٧٤م بحمل مال الأحباس إلى بيت المال ، كما طوّل أصحاب الأحباس بالوثائق لإثبات أحقيتهم فيما يرتفع منها^(٢٧٧) ، وكانت تلك خطوة من الفاطميين سيطروا من خلالها على مال الأحباس من ناحية ، كما تسنى لهم الحصول على مورد ثابت ينفقون منه على المساجد في مصر ، ولذلك أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بحصر المساجد سواء التي ليس لها وقفاً ، أو التي لا يكفيها ريع ما يخرج مما هو مقرر لها ، وخصص لكل مسجد اثني عشر درهماً في الشهر^(٢٧٨) .

وعلى الرغم من شيوع ظاهرة الأحباس في العصر الفاطمي ، لكن لم تصلنا وثائق كثيرة بشأنها ، اللهم إلا ما حبسه الخليفة الحاكم بأمر الله عام ٤٠٤هـ/١٠١٣م من قياسر وأمالك على الجامع الحاكمي والحجة التي ترجع إلى أواخر العصر

(٢٧٢) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٤ .

(٢٧٣) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٤ .

(٢٧٤) انظر : Goitein, From the Mediterranean to India, Documents on the trade to India, South Arabia, and East Africa from the Eleventh and twelfth centuries, Speculum, xxxix, 1954, p. 191.

(٢٧٥) انظر : Ashtor, Histoire des prix et des salaires dans l'orient médiéval, Paris 1969, p. 184; Goitein, Med. Soc, 111, pp. 189, 327.

(٢٧٦) المقرئى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ ، اتعاط ، جـ ١ ، ١٤٨ .

(٢٧٧) المقرئى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٢٧٨) المقرئى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ .

الفاطمي ، وهى حجة وقف الصالح طلائع بن رزيك^(٢٧٩) ، الذى أوقف فى بداية عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م بعض الرباع وغيرها على الأشراف المقيمين فى القاهرة والفسطاط وكذلك على اشراف المدينة ، وعلى ما يبدو أن الحبس الخيرى كان أكثر ثباتاً من الحبس الأهلى ، بحيث أن الدولة لم تستطع أن تتدخل أو تحل أو تبطل ما تم حبسه ، طالما كان يقوم على توفير الأموال لصيانة المساجد والمشاهد ، أما الوقف الأهلى ، فقد تأثر إلى حد كبير بالتغيرات السياسية ، إذ كان هذا الحبس يرتبط بكبار رجال الدولة^(٢٨٠) ، لكن من المتوقع لو أنه كان هناك حبساً أهلياً للرعية ، ربما كان لا يتعرض لهذا الأمر ، ولا تكون السياسة عامل من عوامل حله .

ونظراً لما أسلفناه من ضرائب فرضتها الدولة على كافة أوجه النشاط الاقتصادى أو الإيجارات المقررة على أملاكها ، كان لابد أن تكون جباية هذه الأموال بشكل يضمن للدولة القدرة على تحصيلها ، مع بقاء الضوابط التى وضعتها ووجود العاشر أو الماكس فى الموانى والمدن فى كافة أنحاء مصر ، لكن كان هناك أيضاً نظام الضمان ، اذى يتعهد من خلاله الضامن أن يدفع مبلغاً من الماء سنوياً للدولة عن قيمة الضرائب المفروضة على جهة ما ، ولما كان المبلغ الذى يقوم بدفعه أقل من المتحصل ، كانت هناك الفائدة وكان العسف أيضاً .

وبدا هذا النظام مع خلافة المعز ، إذ قام القاضى أبو طاهر الذهلى بضمان الأحباس بمبلغ ألف ألف وخمسمائة درهم^(٢٨١) ، وفى عهد العزيز قام جماعة من كبار رجال الدولة بضمان أوجه الأموال المختلفة ، حيث ضمن على بن عمر بن العداس

(٢٧٩) المقرئى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ص ٢٧٧ ، ٢٩٤ . أوقف الصالح طلائع بن رزيك ناحية بلقس ونصف بركة الحبش . سجلات المحكمة ، صندوق ١ ، وثيقة رقم ١ .

(٢٨٠) حبس أمير الجيوش على ذريته أثناء وزارته ، فكان فى البر الشرقى بهتين والاميرية والمنية وفى الغربى سبط ونهيا ووسيم ناحية الجيزة ، وظل بأيدى الورثة ، حتى وزارة المأمون البطائحي ، فلما توفى الخليفة الأمر واستولى أبو على الأفضل على الوزارة ٥٢٤هـ/١١٣٠م أعاد الجميع إلى الملاك لكون نصيبه فى ذلك الأوفر ، وبعد قتله أعيدت الأملاك إلى قبضة الدولة فى خلافة الحافظ بعد أن حلت هذه الأحباس ، لولا تدخل أحد غلمان الأفضل بأبقائها ، ولما انقرض عقب أمير الجيوش ولم يبق سوى امرأة أفتى الفقهاء ببطلان الحبس ، فصار ماله يحمل إلى بيت المال . المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١١٠ .

(٢٨١) المقرئى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ .

مال الدولة والنفقات عام ٣٨١هـ/٩٩١م^(٢٨٢) ، وتكرر الأمر في خلافة الحاكم بأمر الله عندما عين الأخوين الحسن وعبد الرحمن عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م في الوساطة بعد أن ضمنا أموال الدولة وأجراها على رسومها^(٢٨٣) . كما كانت الرباع السلطانية تخضع أيضاً لهذا النظام سواء ضمناً لوجوه أموال الدولة أو منفردة^(٢٨٤) ، وعلى ما يبدو أن هذا النظام الجامع للأموال ، كان في البداية مع كبار رجال الدولة ، ثم أصبح بمضى الوقت منفرداً لكل باب من أبواب مالية مصر التي اتسعت .

لكن هذا النظام كان يشوبه بعض الظلم والعسف كما أسلفنا سواء من قبل الديوان نفسه أو من القائمين عليه بين المدفوع للدولة والمتحصل من الرعية ، وقد ظهر هذا جلياً في وزارة المأمون البطائحي ، من قيام الديوان بقبول الزيادات وفسخ عقود الضمان وأخذها ممن تعب في تحصيلها ونقلها إلى من يتعهد ببذل زيادة في قيمتها ، ولذلك أصدر المأمون منشوراً عام ٥١٦هـ/١١٢٢م^(٢٨٥) يتضمن كافة الإجراءات ، التي من شأنها أن تبين مواضع الخلل ، وقرئ بالجامع الأزهر وجامع عمرو ، بإنكار ذلك ومنعه ، كما أعفى كافة الضماناء والمعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ، ما داموا قائمين بأقساطهم ، واشترط على الضماناء الامتثال لما جاء في هذا المنشور ، كما حذرهم بعد ثبوت قيمته في ديوانى المجلس والخاص من تجاوزه ، وإذا أصر أحد على المغالطة فسخ عقده . كذلك ألزم أرباب الدواوين والمتصرفين والمستخدمين بالعمل بهذا المنشور .

وهذا يبين أن ما حدث في وزارة المأمون البطائحي من اختلال في نظام الضمان ، لم يكن وليد ساعته ، لكنه يعبر عن استمرار الخلل خلال فترة طويلة قد وصلت قممها معه ، أو أنه بحكم رغبته في الإصلاح ، استطاع أن يوقف استمرار الظلم والعسف ، وبالنسبة للضماناء ، الذين كان يرهقهم الديوان بطلب الزيادة ، ولا يستطيعون الوفاء بما عليهم ، فكثر البقايا والمتأخرات ، لذلك أمر المأمون البطائحي

(٢٨٢) ابن الصيرفى ، الإشارة إلى من نال الوزارة ، القاهرة ، ١٩٢٤ ، ص ٢٤ .

(٢٨٣) ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٣٠ .

(٢٨٤) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٨٤ ؛ كان الموفق الدمياطى بن قانوس ضامن الثغور ككتيس ودمياط وبعد وفاته عام ٥١٠هـ/١١١٦م تولى ابنه ضمانه الثغور بعده ، انظر : المقفى ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٢٨٥) ابن المأمون ، أخبار ، ص ص ٢٩ - ٣١ ؛ المقرئى ، اتعاظ ، ج ٣ ، ص ٨١ .

فى عام ٥١٥هـ/١١٢١م بكتابة سجل يتضمن لمسامحة مما عليهم . نظراً لوجود البقايا لدى الضمنا والمصرفين وهدف من وراء ذلك إلى شئ مهم ليس فقط رفع الظلم الواقع على هؤلاء الضامنين من الديوان ، لكن أيضاً إلى منع التعسف الذى نال الرعية ، لكن بشكل ضمنى فجاء فى سجل المسامحة^(٢٨٦) : «إنما بما تضمنه هذا السجل من المسامحة قصداً فى استخلاص من طالبت غفلته وخربت ذمته وإنقاذ عامل أجحف من الديوان» .

ومن الواضح أن هذه المسامحة ، كانت الأولى من نوعها ، فقد ذكر فى السجل أيضاً «كان ذلك من جميل الأحداث التى لم نسبق إليها ولا شاركنا ملك فيها»^(٢٨٧) وشمل هذا السجل عدد ومبلغ ما سُمح به من العين والغلة . كذلك أصدر الخليفة الأمر فى عام ٥١٧هـ/١١٢٣م منشوراً بمسامحة كثرة سكان الرباع السلطانية بالقاهرة والفسطاط ، بأجرة شهر رمضان ، وكان طبيعياً أن يقابل ذلك بالدعاء للأمر ، ومن الأمور النادرة ، أن تكون المسامحة فى بعض الأحيان بسبب نقص العائد وعدم قدرة الضامن على التسديد^(٢٨٨) ، وحدث ذلك فى وزارة رضوان بن ولخشى عام ٥٣٠هـ/١١٣٦م ، عندما سُمح هبة الله بن عبد المحسن الشاعر ، الذى انكسر مال فى ضمانه^(٢٨٩) .

وعن مدى التزام الفاطميين بما ورد فى كتب الدعوى عن النهى عن الحكرة ، إذا عز الطعام وعن التسعير ، فهذا يجرنا إلى الحديث عن احتكار الغلات وعن سياسة التسعير ومدى ممارسة الفاطميين لها ، فضلاً عن ذلك ، فهو يفرض علينا تجاوزه إلى دراسة مدى ممارسة الدولة للسياسة الاحتكارية بشكل عام . باعتبار أن منظومة الاحتكار إن وجدت ، فلا بد أن تتسحب على السلع والموارد الأخرى .

ولمصر ظروف اقتصادية مرتبطة بقصور مياه النيل أو زيادته عن الحد المطلوب مما ينجم عنه الغلاء ، وهذا الحد يتراوح ما بين ستة عشر وثمانية عشر ذراعاً وتكون معه الزراعة مستقرة فإذا قصر النيل أو زاد ، أضر بأحوال البلاد

(٢٨٦) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٨٣ .

(٢٨٧) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٨٣ .

(٢٨٨) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٤٦٦ .

(٢٨٩) ابن ميسر ، أخبار ، ص ١٢٩ .

الاقتصادية ، حيث تنعدم الزراعة وتقل الأقوات ، وترتفع الأسعار ، ولذلك من يتحرى أسباب المجاعات فى مصر يجد النيل يكاد أن يكون القاسم المشترك فى هذه المجاعات ، بالإضافة إلى الحكام واختلال أحوال البلاد أو استيلاء الأمراء على الدولة وكذا وقوع الفتن ، وإجمالاً سوء تدبير الحكام^(٢٩٠) .

وهذا الأمر قد واجه جوهراً عندما فتح مصر للفاطمين ، حيث كانت البلاد تعاني من المجاعات منذ أواخر أيام كافور الإخشيدي واستمرت حتى مجيئه^(٢٩١) ، فاتخذ جوهراً من الإجراءات التى استطاع بها أن يقضى على هذه المجاعة ، وأن ظل خطرها فترة ، ومنها ، أنه جمع سماسرة الغلات وأنشأ مخزناً عاماً للحبوب لا يشتري إلا منه ويشرف عليه المحتسب ، وجلد بعض أصحاب المطاحن ممن لم يمثل لأوامره^(٢٩٢) . وبذلك منع من احتكار التجار للغلات ، خاصة أنه أتى ببعض السفن المحملة بالحبوب من المغرب^(٢٩٣) .

وقد توالى المجاعات فى مصر الفاطمية وارتفعت الأسعار بشكل ملحوظ واتخذت الدولة خلالها من الإجراءات ما استطاعت معها فى الغالب أن تقضى عليها ، لكن من الملاحظ أن هناك أمراً قد تواتر خلال المجاعات من خلافة الحاكم إلى الفائز ، وهو لجوء الدولة إلى تحديد سعر الغلة ، ففي مجاعة عام ٣٨٧هـ / ٩٩٧م أمر الحاكم بأن يكون كل أثنى عشر رطلاً من الخبز بدرهم ، كما أصدر أوامره أيضاً بالنظر فى الأسعار ، ثم تم جمع خزان الغلال والطحانيين والخبازين وحدد سعر القمح ، كل تليس بدينار إلا قيراط ، والشعير عشر وبيات بدينار ، وسعر سائر الحبوب والمبيعات ، وكبست عدة حواصل للقمح وفرق ما فيها على الطحانيين بالسعر المحدد^(٢٩٤) . وكذلك فى مجاعة ٣٩٨هـ / ١٠٠٨م حيث قصر مياه النيل ، وخير أرباب الغلات فى أن يبيعوا بالسعر الذى يقرره ، بما فيه الفائدة المحتملة لهم ، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ، ولا يمكنهم من بيع شئ منها إلى حين دخول الغلة الجديدة ، فاضطروا إلى

(٢٩٠) المقرئى ، إغائة ، ص ٢٤ .

(٢٩١) المقرئى ، إغائة ، ص ١٢ .

(٢٩٢) المقرئى ، إغائة ، ص ص ١٣ - ١٤ .

(٢٩٣) ماجد ، ظهور ، خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٦٢ .

(٢٩٤) المقرئى ، إغائة ، ص ١٦ .

الاستجابة إلى ما حدده من سعر^(٢٩٥) . كما أن السجل الذي أصدره الخليفة الظاهر عام ٤١٥هـ/١٠٢٤م ، تضمن أيضاً : «ان يبيع الناس كما يؤثرون بما أطعم الله بغير تسعير»^(٢٩٦) .

وفي عصر المستنصر ، الذي حدثت فيه مجاعات متوالية ، واستمرت لعدة سنوات وبلغت ذروتها عام ٤٦٢هـ/١٠٦٩م وعرفت بـ «الشدة العظمى»^(٢٩٧) ، فقام الوزير اليازورى خلال المجاعة التي وقعت عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م بمطالبة الفلاحين ببيع غلاتهم قبل حصادها ، كما قرر ثمن التليس ثلاثة دنانير ، بعد أن كان ثمانية دنانير^(٢٩٨) ، وفي خلافة الأمر ارتفع سعر القمح حتى بيع مائة أردب بمائة وثلاثين ديناراً ، فقام الوزير المأمون البطائحي ، بالختم على مخازن الغلات ، وكرر ما فعله الخليفة الحاكم بين الختم على الغلات أو البيع بالسعر المحدد ، الذي تحدده الدولة ، وهو مائة أردب بثلاثين ديناراً^(٢٩٩) . أى أنه قام بتسعير القمح للتجار أو السماسرة ، كما أمر ببيع جزء من غلات الديوان للطحانيين بالسعر الذي حدده السوق .

وإذا كان ما قام به الفاطميون من التدخل في تحديد أسعار الغلال ، لا سيما القمح ، الذي يعتبر واحداً من السلع الحيوية واليومية ، فهذا يتعارض مع ما عرضوه في كتب الفقه الخاصة بهم والتي تبين رفضهم لسياسة التسعير ، لكن مثل هذه الإجراءات التي أسلفناها ، كانت الدولة مدفوعة إليها بغرض التقليل من حدة الغلاء ومحاربة احتكار التجار ، كما أنها حينما تدخلت لتحديد الأسعار كانت تقوم بتخفيضها إلى معدل أقل من السعر الجارى آنذاك ، محاولة منها فى تخطي الأزمة ، ومن المحتمل أن هذا الإجراء يتفق مع غالبية فقهاء السنة بخصوص التسعير ، فهم لا يعارضونه لما له من نفع للناس ، فيرى الإمام أبو حنيفة «لا ينبغي للسلطان أن يسعر

(٢٩٥) المقرئى ، إغاثة ، ص ١٨ .

(٢٩٦) المسبحى ، أخبار ، ص ١٩٦ .

(٢٩٧) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٥ ، حدثت المجاعات فى عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢م و ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، ثم ٤٥٧ - ٤٦٤هـ/١٠٦٤ - ١٠٧١م .

(٢٩٨) المقرئى ، إغاثة ، ص ٢١ ، والتليس ، والتليسة أيضاً وعاء يسوى من الخوص ، شبه قفة ،

أنظر . ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ، جـ ١ ، ص ٤٣٩ .

(٢٩٩) المقرئى ، إغاثة ، ص ٢١ .

على الناس ، إلا إذا تعلق به حق ضرر العامة» أما الإمام الشافعى فيرى «جواز التسعير للناس ، إذا كان بالناس حاجة»^(٢٠٠) .

وبذلك يكون الفاطميون مضطرين للتسعير فى وقت الأزمات ، فهل هذا السعر الذى تحدده الدولة يظل بعد انفراج الأزمة ، ويكون هو المعمول به من قبل الدولة ، وحين تتوالى الأزمات ، ترتفع الأسعار ، فتتدخل الدولة لتثبيتها إلى ما كانت عليه ؟ هناك إشارة لناصر خسرو^(٢٠١) ، الذى زار مصر أثناء خلافة المستنصر : «بأن تجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعون ، وإذا كذب أحدهم على مشتر ، فإنه يوضع على على جمل ويعطى جرساً بيده ، ويطوف به فى المدينة ، وهو يدق الجرس وينادى قائلاً : قد كذبت وها أنا أعاقب» وهذا يبين أن التجار كانوا يبيعون بأسعار محددة ، من قبل الدولة وإذا خالفوها ، عوقبوا مما يدل على أن الفاطميين كانوا يتبعون سياسة التسعير بشكل عام ، بدليل وجود العرفاء ، وقيام المحتسب بمراقبة الأسواق ، كأحد اختصاصاته المنوط بها ، ومنها مراقبة الأسعار^(٢٠٢). صحيح أن هذا الإجراء يحمى الرعية من جشع التجار ، لكن يظل هذا الأمر متعارضاً مع ما ذكره الفاطميون عن التسعير وبيان أنه كان منفذاً ، فمثلاً كان هناك تحديداً لأسعار السوق عند ورود السلع الخاصة بتجارة العبور ، أو قبل رحيل القوافل وإرسال السفن^(٢٠٣) .

وفيما يخص احتكار الغلات ، فهذا الأمر شائكاً ، إلى حد لا يمكن الدارس من الوقوف على حقيقته ، فقيام الفاطميين أثناء المجاعات بالضرب على أيدي التجار المحتكرين وتأديبهم ومحاربة الاحتكار بالختم على مخازنهم وإلزامهم بسعر محدد ، قد وضع حداً لاحتكار التجار ، أما فيما يتعلق بالفاطميين أنفسهم ، فهل احتكروا الغلات ؟ هناك إشارات غير مباشرة أثناء المجاعات منها : «وقبض على ما بالساحل من

^(٢٠٠) ابن تيمية ، الحسبة ومسئولية الحكام ، تحقيق صلاح عزام ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٩ .

^(٢٠١) سفرنامه ، ص ١٢٠ .

^(٢٠٢) ودور المحتسب الاقتصادى يظهر فى ذهابه إلى الأسواق وتفتيشه على بضائع التجار من حيث الجودة والرداءة ومنعه لهم من الغش والتطفيف فى الكيل والميزان وإلزامهم البيع والشراء بالسعر المحدد والتفتيش على عيار الصنج والمكايل والموازين للتأكد من سلامتها وصلاحياتها ، أنظر ، سهام مصطفى أبو زيد ، الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ص ١٦٥ - ١٦٦ .

^(٢٠٣) انظر : Goitein , Med. Soc., 1, p. 218.

الغلال»^(٣٠٤) وأيضا . «وحمل الغلال من النواحي إلى المخازن السلطانية بمصر»^(٣٠٥) .

وإذا كانت رغبة الدولة في جمع الغلال ، ربما محاولة منها لوضع حداً لاحتكار التجار من ناحية ، وحل الأزمة من ناحية أخرى ، خاصة أن النهي عن الاحتكار يتفق وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم قال : «لا يحتكر إلا خاطئ»^(٣٠٦) ، لكن الفاطميين أقاموا المتجر^(٣٠٧) ، الذي كان في الأصل لخزن الغلال ، فضلاً عن الأهراء^(٣٠٨) ، التي كان يأتي إليها المتحصل من خراج الوجه القبلي ؛ الذي كان يجبي عينا ، خاصة الحبوب ، ثم تحول المتجر بعد ذلك كأحد مناقذ استثمار أموال الخليفة ، فكان يباع للخليفة المستنصر في كل سنة غلة بمائة ألف دينار^(٣٠٩) ليواجه بها احتكار التجار وقت المجاعات ؛ أو لأنها كانت تجارة مربحة ، خاصة أن الخلفاء أسهموا بأموالهم في التجارة . هذا الأمر حتى عصر المستنصر يعد احتمالاً ، لا سيما أن هذا المتجر سرعان ما تحول مع عام ٤٤٤هـ / ١٠٥٢ ، إلى شراء وخزن سلع أخرى ليس منها ضرر ولا كلفة على الناس وأكثر فائدة . كما رأى اليازوري الذي حسن للخليفة المستنصر هذا الأمر وأخذ به^(٣١٠) وهذا يوضح أثر آخر وأهم في خزن الغلات وهو أنه يضر بأحوال الناس ، مما يبين أن المتجر ، كان يعد وسيلة مباشرة للاحتكار .

وبتوالي المجاعات بعد المستنصر ، نلمس محاربة الوزراء المسيطرين على البلاد ، لاحتكار التجار للغلات ، مع قيامهم باحتكارهم لها بالفعل ، فمع وزارة الأفضل ٤٨٧-١٥هـ / ١٠٩٤ - ١١٢١م ، وجد في مخازنه بعد وفاته وتحت يد عماله

(٣٠٤) المقرئزي ، إغائة ، ص ١٦ .

(٣٠٥) المقرئزي ، إغائة ، ص ٢١ .

(٣٠٦) أبو داود ، صحيح سنن المصطفى ، بيروت ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .

(٣٠٧) المقرئزي ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٩ ، والمتجر عبارة عما يبتاع للديوان من بضائع تدعو إليها الحاجة ويقتضيه طلب الفائدة .

(٣٠٨) والأهراء هي الأماكن التي تخزن بها الغلال والاتبان الخاصة بالخليفة أو السلطان احتياطاً لأمثال الطوارئ الاقتصادية ، وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة ، المقرئزي ، إغائة ، ص ٢٨ .

(٣٠٩) المقرئزي ، إغائة ، ص ٢٠ .

(٣١٠) المقرئزي ، إغائة ، ص ٢٠ .

والجباة وضمن النواحي أصناف الغلال والحبوب^(٣١١) . وربما كان ذلك من أسباب المجاعة ، التي كانت في عصر الأمر ؛ لأن المقریزی لم يذكر أنها كانت بسبب قصور مياه النيل ، كذلك احتكر الصالح طلائع بين رزيك أثناء وزارته ٥٤٩-٥٥٦هـ/ ١١٥٤-١١٦١م ، الغلات ، مما كان سبباً بالفعل في ارتفاع أسعارها في أيام الخليفة الفائز ٥٤٩-٥٥٥هـ/ ١١٥٤-١١٦٠م ، مع قصور مياه النيل ، فأخرج الوزير ما كان بالأهراء من الغلات ما لا يحصى وفرقها على الطحانيين^(٣١٢) .

وكان طبيعياً أن تتضح سياسة الدولة الاحتكارية في مجالات أخرى بشكل أوسع ، لكنها مع ذلك ، مارست سياسة شبه احتكارية وأخرى احتكارية خالصة لبعض الصناعات والسلع والموارد ، التي تمثل أهمية اقتصادية ، سواء التي تميزت مصر بإنتاجها ، أو التي افترقت إليها وكانت عليها أحرص ، ومن الصناعات التي لم تصل إلى حد الاحتكار الكامل ، صناعة النسيج وتجارته وكذا السكر وغيره ، ثم احتكار بعض الموارد مثل الشب والنظرون ، وبعض السلع مثل الخشب والحديد والرصاص وزيت الزيتون وغيرها ؛ فضلاً عن بعض الصناعات السيادية المرتبطة بقوة الدولة مثل صناعة السلاح والسفن والعملية .

ولما كان ازدهار مختلف فروع الصناعة في العصر الفاطمي ، ظاهرة اقتصادية ارتبطت بالتطور الكبير في تجارة مصر الدولية وفتح أسواق جديدة لها ؛ فضلاً عن رفاهية البلاط الفاطمي^(٣١٣) . لذلك فصناعة النسيج ، التي اشتهرت بها مصر في ربوع العالم الإسلامي ، ظلت مع الفاطميين تمثل أهمية كبرى ، لذا عمل الفاطميون على إنشاء المصانع الحكومية ، التي تسمى «طرازاً»^(٣١٤) في طول البلاد وعرضها^(٣١٥) ، وهذه الدور لم تنشأ مع الفاطميين ، بل وجدت منذ الفتح العربي ،

(٣١١) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٣ .

(٣١٢) المقریزی ، إغاثة ، ص ٢٨ .

(٣١٣) انظر :

Ashtor, Social and Economic history, p. 198.

(٣١٤) كان لفظ الطراز يعنى في أول الأمر الكتابة الزخرفية ، التي توجد على الأقمشة وهو لفظ

أعجمي مأخوذ من كلمة "طرازين" ومعناها التطريز ، ثم اتسع مدلولها فأصبحت تستعمل للكتابة

على الورق والنسيج ، انظر : سعاد ماهر ، النسيج الإسلامي ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٢٥ .

(٣١٥) المقریزی ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤١٣ .

وظلت حتى مجئ الفاطميين تأثراً بالبيزنطيين^(٣١٦) ، أو أن هذه المصانع نشأت في العصر الإسلامي في عهد الدولة الأموية مع خلافة الوليد بن عبد الملك^(٣١٧) ، ومع الفاطميين عمت هذه المصانع أنحاء مصر في تيتيس ودمياط والإسكندرية^(٣١٨) وطحا بالصعيد^(٣١٩) وغيرها ، ويبدو أنه كان بالمدينة الواحدة أكثر من دار واحدة للطراز^(٣٢٠).

وكان حرص الفاطميين على النهوض بالصناعة واضحاً مما وألجأهم في بداية دولتهم إلى اختيار الصناع المهرة والحاquem بخدمة الدولة في الصناعات ، التي كانت تهتم بها ، ولذلك جعل المعز كل ماهر في صنعة صانعاً للخاص ، وأفرد لهم مكاناً برسمهم ، كما شرط على ولاية الأعمال عرض أولاد الناس بأعمالهم ، فسيروا إليه بعضهم ، فأفرد لهم دوراً وأطلق على هؤلاء صبيان الحجر^(٣٢١) . وتؤكد وثائق الجنيزة^(٣٢٢) هذا الاتجاه ، حيث كان يجبر العمال المهرة على العمل في مصانع النسيج الحكومية من خلال المسئول عن الجند ، بانتقاء الحرفيين المهرة ، وكانوا بذلك لا يستطيعون الخروج مطلقاً من القاهرة لسنوات عديدة ، إلا من خلال أمر خلافي يؤمنهم ، ومن خلال حالة التماس^(٣٢٣) رفعت للخلافة تؤكد هذه الحقيقة ، وتبين إلزام هؤلاء العمال بالخدمة في المصانع الحكومية ضد رغبتهم ، حتى أن أحدهم كتب يشكو بمرارة أنه غير قادر على المشاركة في الحياة الاجتماعية والدينية مع أخوته .

وهناك اختلاف بين المؤرخين المحدثين ، حول وضعية هذه المصانع ، فمنهم من يرى^(٣٢٤) : «أن إنشاء هذه الدور يعد احتكراً لصناعة النسيج» ومن يرى أنه^(٣٢٥) : «ينبغي ألا نظن أن الحكومة الفاطمية كانت تحتكر صناعة النسيج وتجاريتها» ، وكل ما في الأمر أن الحكومة الفاطمية كانت تنظر إلى تأجير ما تملك من مبان كمصدر إيراد

(٣١٦) زكي حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١١ .

(٣١٧) سعاد ماهر ، النسيج الإسلامي ، ص ص ٢٥ ، ٢٨ .

(٣١٨) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٢ .

(٣١٩) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٢ ، وكان يعمل بها ثياب الصوف الرفيعة .

(٣٢٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٩ .

(٣٢١) المقرئزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٤٣ .

Goitein. Med Soc, 1, p. 82.

(٣٢٢) انظر :

Goitein. Med Soc, 1, p. 82.

(٣٢٣) انظر :

(٣٢٤) زكي حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١١ .

(٣٢٥) لويس ، القوى البحرية ، ص ٢٦٢ .

لها وليس لهذا علاقة بحرية الصناعة^(٣٢٦) وهذا الرأي مرتبط بما أورده ناصر خسرو^(٣٢٧) من قيام الحكومة الفاطمية بتأجير المخازن والمتاجر لصناع وتجار المنسوجات .

بداية لا نستطيع أن نقرر بأن الفاطميين احتكروا صناعة النسيج في مصر ، لأنهم أعطوا الفرصة للمصريين لمزاولة هذه الصناعة ، بدليل انتشارها في جميع أنحاء مصر ، فتذكر المصادر^(٣٢٨) أن كثيراً من مدن الوجه البحرى اشتهرت بهذه الصناعة منها تليس ، التى كان معظم أهلها حاكّة ، ودمياط ودبيق وشطا في الوجه البحرى ؛ فضلاً عن الإسكندرية ، وفي الوجه القبلى اشتهرت الأشمونيين واسيوط وأهناس والفيوم ، التى كان يسكنها الصناع وأرباب الحرف والنساجون وغيرها^(٣٢٩) . كما تطالعنا وثائق الجنيزة^(٣٣٠) ، بوجود مصانع للغزل والصباغة في الفسطاط والمحلة . كذلك كشفت أوراق البردى^(٣٣١) في مدينة البهنسا عن قائمة تتضمن أشخاص يملكون أنوالاً للنسيج ، فمنهم من كان يملك أربعة أنوال ، ومنهم من كان يملك خمسة مما يدل على اشتغال أهل هذه المدينة بهذه الصناعة .

لكننا لا يمكن في ذات الوقت أن نقول بحرية هذه الصناعة الأهلية ، حيث أنها كانت تخضع لإشراف الدولة من خلال فرض الضرائب ، ووضع الضوابط لإنتاجها ، فكان غير مسموحاً ، بإنشاء مصانع للغزل في بيوت خاصة أو تصنيعها بدون دفع الضريبة^(٣٣٢) ، وفي تحريم الدولة على النساجين في تليس ودبيق أن ينسجوا شيئاً إلا تحت إشراف الدولة عن طريق ختم ما يتم نسجه بختم السلطان^(٣٣٣) ، الذى عرف بـ

(٣٢٦) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٢٤ .

(٣٢٧) سفر نامه ، ص ١٢٢ .

(٣٢٨) مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ٨٧ .

(٣٢٩) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٣٣٠) انظر :

Goitein. Med Soc, 1, p. 362 - 366.

(٣٣١) جروهمان ، أوراق البردى العربية ، تحقيق عبد العزيز الدالى ، القاهرة ١٩٧٤ ، الجزء

السادس ، بردية رقم ١٨٧ ، ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الهجريين - العاشر أو الحادى عشر الميلاديين ، ص ص ٧٠ - ٧٢ .

(٣٣٢) انظر :

Goitein. Med Soc, 1, p. 116.

(٣٣٣) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

«خاتم الشرب والديقى»^(٣٣٤) ، الذى يبين أن هذه المنتجات قد استوفت الضريبة المستحقة عليها ، ولذلك كان ممنوعاً على مصانع النسيج والصباغة فى البيوت الخاصة ، أو التى تصنع خلافاً لذلك بهدف التحايل فى دفع الضريبة المستحقة ؛ لأنه يمكن التعرف عليها على الفور مع غياب الختم^(٣٣٥) ، كما لا تباع هذه المنسوجات إلا على أيدى السماسرة المكلفين بهذا العمل من قبل الدولة ويناط بأحد كتاب الديوان تسجيل ما يباع ، وبعدها تحمل المنسوجات لمن يقوم بشدها وحزمها ، ثم تفتش المراكب التى تحملها مثلما يحدث للثياب المنتجة فى شطا^(٣٣٦) ، والتى تعد مثالا لما يحدث للمدن الأخرى المنتجة لهذه المنسوجات .

ولما كانت صناعة النسيج تمثل الصناعة الرئيسية فى إقليم البحر المتوسط فى العصور الوسطى^(٣٣٧) ، وكانت مصر إحدى هذه الدول التى كانت مصانعها تنتج أنواعاً مختلفة من المنسوجات الجيدة ، من هنا جاء اهتمام الفاطميين بالخامات المنتجة لهذه الصناعة ، لاسيما الكتان ، حيث تتوفر فى زراعته فى الدلتا ، فى بنها وبوصير وسمنود والفيوم^(٣٣٨) ، لذلك كان الكتان يجلب للدولة من مناطق زراعته من خلال الوكلاء الحكوميين ، وقبل سفرهم إلى هذه المراكز ، كان على التجار أن يجهزوا الخطابات ليقدموها إلى العامل أو متولى الأموال^(٣٣٩) ، ويرجع حرصهم على الحصول على الكتان لاستخدامه فى مصانعهم الخاصة ، وتصديره للشرق والغرب^(٣٤٠) ، خاصة تونس وصقلية^(٣٤١) ومن هنا كانت الدولة أكبر مستهلك للكتان^(٣٤٢) . أما الحرير الذى لم تكن مصر من البلاد التى تعنى بإنتاجه^(٣٤٣) ، فكانت لذلك حريصة على استيراده

^(٣٣٤) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٤ .

Goitein. Med Soc, 1, p. 117.

^(٣٣٥) انظر :

^(٣٣٦) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

Goitein Med Soc, 1, p. 101.

^(٣٣٧) انظر :

^(٣٣٨) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٩ ، المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢١ ، ٢٢ .

Goitein. Med Soc, 1, p. 267.

^(٣٣٩) انظر :

^(٣٤٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٤٩ .

Goitein. Med Soc, 1, p. 154.

^(٣٤١) انظر :

Goitein. Med Soc, 1, p. 267.

^(٣٤٢) انظر :

^(٣٤٣) البراوى ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٧٦ .

خاصة من صقلية وأسبانيا^(٣٤٤) ، ومن خلال أحد الخطابات في وثائق الجنيزة^(٣٤٥) ، الذى يرجع إلى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، أن كل الحرير ، الذى وصل إلى الإسكندرية ، تسلمته الحكومة ، باستثناء كميات صغيرة ذات جودة أقل ، وعندما ينخفض سعر الحرير فى الفسطاظ كان على التجار أن يبيعوا مخزونهم منه للحكومة ، ويتلقون المبلغ الذى يحدد علانية^(٣٤٦) ، كما كان الحرير يصادر ويحتجز ومثال ذلك ما حدث فى الإسكندرية عام ٥٣٥هـ/١١٤٠م^(٣٤٧) ، أما القطن ، فعلى الرغم من كونه أحد الخامات المنتجة لصناعة النسيج ، حيث يزرع فى مصر ، خاصة فى الفيوم^(٣٤٨) وكانت الدولة تفرض عليه الضرائب^(٣٤٩) ، وتصنع منه الثياب فى البهنسا^(٣٥٠) ، فإنه لم يصل خلال العصر الفاطمى ، لما وصلت إليه الخامات السابقة .

ويرجع اهتمام الفاطميين بهذه الصناعة أيضاً إلى أن تجارة المنسوجات المصرية كانت رائجة وتمثل سلعة سوق فى العالم الإسلامى أو بيزنطة ، بسبب ما كانت تنتجه المصانع من أقمشة عالية الجودة ، وفى الوجه البحرى ، حيث صناعة الأقمشة الكتانية ، كانت تنيس تنتج القصب الملون والبوقلمون ، وكلاهما لا ينتج فى مكان آخر فى جميع العالم^(٣٥١) ، أما دمياط فاشتهرت بإنتاج القصب الأبيض والشرب^(٣٥٢) ، وليس أدل على شهرة دمياط من أن مدينة كازورون الفارسية قلدت المنتجات المصرية وعرفت بـ «دمياط الأعاجم»^(٣٥٣) وتنتج دبيق وهى إحدى قرى دمياط قماش مزركش ؛ فضلاً عن مدينة شطا القريبة من تنيس ودمياط ، التى ينسب إليها الثياب الشطوية^(٣٥٤) .

Goitein. Med Soc, 1, p. 154.

Goitein. Med Soc, 1, p. 268.

Goitein. Med Soc, 1, p. 267.

Goitein. Med Soc, 1, p. 268.

(٣٤٤) انظر :

(٣٤٥) انظر :

(٣٤٦) انظر :

(٣٤٧) انظر :

(٣٤٨) ابن ممتى ، قوانين الدواوين ، ص ١٠٦ .

(٣٤٩) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ١٠٤ .

(٣٥٠) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٢٣٧ .

(٣٥١) سفرنامه ، ص ٩٢ .

(٣٥٢) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٩٢ .

(٣٥٣) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٤٣٣ .

(٣٥٤) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٢٦٦ .

ويبدو أن هذه الصناعة قد تقدمت مع الفاطميين بحيث وجدت مناطق جديدة في دبقو ودميرة^(٣٥٥) وتونة ، حيث يغزل فيها الغزل الرفيع^(٣٥٦) ؛ فضلاً عن منية الخصيب ومنية غمر ومنية زفتي^(٣٥٧) ، كما استحدثت مع الفاطميين أنواعاً أخرى من الأقمشة مثل العتابي^(٣٥٨) ، الذي ينسب إلى بغداد ، والسقلاطون من بلاد الروم في خلافة العزيز ، بسبب العلاقات السياسية الطيبة بين الخليفة الفاطمي وعضد الدولة البويهى من ناحية والصلح الذي تم مع الروم عام ٣٧٧هـ/٩٨٧م من ناحية أخرى وساعد بذلك الاتصال التجاري ، أيضاً على قيام الصناع المصريين بتقليد أنواع الأقمشة^(٣٥٩) ، مثل الطبرستاني ، الذي تم تصنيعه في تيس ودمياط والأرمني في أسيوط^{٣٦٠} أما الحرير فكان ينسج ويصنع ليس فقط في الإسكندرية ، لكن أيضاً في المدن الصغيرة في ريف مصر ، ومنها المحلة ، حتى أن النساء كن مشغولات بحل ولف ونسج وصباغة الحرير في كل مكان^(٣٦١) .

لذلك لعبت صناعة النسيج دوراً ملحوظاً في التجارة الخارجية ، خاصة المنسوجات الكتانية ، التي كانت تشكل للفاطميين الغاية الأساسية للتجارة الدولية^(٣٦٢) ، فحملت منتجات تيس إلى المشرق والمغرب وبيزنطة على وجه الخصوص ، أما العراق ، فكانت مصر تصدر إليها القماش الشرب ما بين عشرين إلى ثلاثين ألف ديناراً^(٣٦٣) على الرغم من العداء السياسي ، الذي كان بين الخلافتين معظم الوقت ، وحظيت مدينة أسيوط بشهرة فائقة في المشرق ، بسبب ما كانت تنتجه من منسوجات صوفية دقيقة ، حيث كانت تصدر إلى بلاد فارس منتجاتها ، التي عرفت هناك بـ «الصوف المصري»^(٣٦٤) .

^(٣٥٥) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٥٦ ، حيث كان بها طرازاً للخاصة وطرازاً للعامة .

^(٣٥٦) المقرئزي ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٧٧ .

^(٣٥٧) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 198.

^(٣٥٨) انظر ، نوع الثياب الحريرية نسب إلى ابن حنيد عميرة المسمى عتاب Dozy. Supplément, 11, p. 93.

^(٣٥٩) البراوي ، حالة مصر الاقتصادية ، ص ١٢٣ .

^(٣٦٠) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 198.

^(٣٦١) انظر : Goitein, Med Soc. 1, p. 102.

^(٣٦٢) انظر : Goitein, Med Soc. 1, p. 105.

^(٣٦٣) المقرئزي ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٧٧ .

^(٣٦٤) سفر نامه ، ص ١٢١ .

كما اهتم الفاطميون بصناعة النسيج من أجل الدعاية لدولتهم ، حيث حملت مصنوعاتهم عقائدهم الإسماعيلية ، وكذلك لتلبية حاجة البلاط الفاطمي الذي اتسم بالمبالغة والرفاهية ، ولحاجة الدولة أيضاً لما توزعه على العاملين بها من كسوة وخلع في المناسبات المختلفة ، وحسبنا ما ذكره المؤرخون^(٣٦٥) سواء عن القصر أو ما تركه الوزراء من الثياب . وبذلك حققت هذه الصناعة شهرة كبيرة ، لاسيما في العصر الفاطمي الأول ، حيث كان الأمن مستتباً ، فأدى هذا الاستقرار السياسي إلى استغلال المقدرات المحلية والإقليمية في إنتاج مصنوعات على درجة عالية من الجودة والدقة^(٣٦٦).

وكل ما سبق يفسر حرص الفاطميين على صناعة النسيج وتجارتها ، بل واحتكارها لكل ما ينتج سواء في دور الطراز الحكومية أو في المصانع الأهلية ، فكان ما يصنع في الدور الحكومية لا يباع ولا يعطى لأحد^(٣٦٧) ، ويكفي أن نشير إلى أن هذه الدور ، كانت تتعت بـ "مصانع السلطان"^(٣٦٨) صحيح ، أن هذه المصانع كانت مخصصة لإنتاج ملابس الخليفة وأهل القصر ، والخلافة كانت في حاجة إليها لتسد مطالبها ، مما ألجأها مثلاً إلى أن تنشأ دار الديباج^(٣٦٩) ، التي يصنع بها الحرير . أما المصانع الأهلية ، فكانت تخضع للحكومة أيضاً من خلال ما فرض عليها من ضرائب ، إلى جانب الإشراف الدقيق عليها . ومن هنا كانت هيمنة الدولة الفاطمية على صناعة النسيج لم تصل إلى حد الاحتكار بل مارست الدولة عليها سياسة شبه احتكارية .

كذلك أشرفت الدولة الفاطمية على صناعة السكر بشكل يستلقت النظر ، حتى كادت أن تحتكرها أيضاً ، بدليل ما قامت به من إنشاء المعاصر ومراكز تصنيع السكر

^(٣٦٥) احتوت خزائن الفرش والأمتعة على ألوان مختلفة من الأقمشة ، المقریزی ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، وجد للأفضل بن بدر الجمالی من المقاطع والستور والمطارج والمساند الديباج والديبقي الحرير والمذهب على اختلاف أجناسها ، ومن العتابي وغيره تسعون ألف ثوب ، وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها ديقي وشرب عمل تبتيس ودمياط ، ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٢ ، المقریزی ، اتعاظ ، جـ ٣ ، ص ٧١ .

^(٣٦٦) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، جـ ١/٢ ، ص ٢٦١ .

^(٣٦٧) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٩٢ .

^(٣٦٨) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٩٢ .

^(٣٦٩) المقریزی ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ .

فى مختلف أنحاء البلاد ، ومنها القسطاط ، التى اشتملت على مصانع كثيرة^(٣٧٠) ، كذلك فى الوجه القبلى فى ترنوط وغيرها^(٣٧١) ، كما عمت مصانع العسل أنحاء البلاد أيضاً^(٣٧٢) ، ولذا أجبرت الدولة الفلاحين على أن يحملوا القصب الخاص بهم إلى هذه المعاصر الحكومية^(٣٧٣) ، ونفس الشيء بالنسبة لأراضى الاقطاعات ، فكان على المقطع أن يعصر القصب الخاص به فى معصرة الدولة^(٣٧٤) ، وكان اهتمام الدولة بهذه الصناعة ربما يرجع إلى أنها كانت تجبى مقادير طائلة من خراج الأرض المزروعة قصباً^(٣٧٥) ، ولذلك اهتمت بزراعته ، حتى أنه مع أواخر العصر الفاطمى ، كانت زراعته منتشرة على جانبى النيل من الصعيد حتى مصب النهر ، وكانت أصلح الجهات لزراعته ، تلك التى تقع بين فرعى رشيد ودمياط^(٣٧٦) ، كما يشير ابن حوقل^(٣٧٧) إلى الصاقية من أعمال الغربية ، بأنها ضيعة كثيرة القصب .

ويرى البعض^(٣٧٨) ، أن الحكومة الفاطمية احتكرت صناعة السكر ، ويعتبر الخليفة الحاكم أول من أدخل الاحتكار لهذه الصناعة فى مصر ، معتمداً على ما قام به الخليفة من إتلاف مقادير كبيرة من الزبيب والعنب وإلقاء العسل فى النيل^(٣٧٩) ، لكن ليس لدينا ما ينهض دليلاً على أن الفاطميين احتكروا صناعة السكر فى عصره ، لأن الغرض مما قام به الخليفة هو منع شرب الخمر ، كما أن الفاطميين أتاحوا الفرصة للمصريين لإنشاء المصانع الخاصة المنتجة للسكر والعسل ، بيد أن ما قامت به الدولة من وضع الضوابط على هذه الصناعة وإحكام قبضتها عليها كاد أن يكون نهائياً .

(٣٧٠) ابن دقماق ، الانتصار ، بيروت ، جـ ٤ ، ص ص ٤١ - ٤٢ .

(٣٧١) البكرى ، المغرب ، ص ٢ .

(٣٧٢) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ .

(٣٧٣) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٦٧ .

(٣٧٤) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٦٧ .

(٣٧٥) حسن ابراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٥٩٤ .

(٣٧٦) الأبريسى ، نزهة المشتاق ، ص ص ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ .

(٣٧٧) صورة الأرض ، ص ١٢٤ .

(٣٧٨) انظر : Mazuel, Jean, Le sucre en Egypte, Le Caire 1937, p. 11.

(٣٧٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٤ ، ص ١٧٧ . اراق الخليفة الحاكم بأمر الله خمسة الاف جرة من العسل فى البحر خوفاً من أن تعمل نببداً .

وتطالعنا وثائق الجنيزة^(٣٨٠) عن وجود هذه المصانع الخاصة في الفسطاط ، حيث كانت تمثل أكبر صناعة في هذه المدينة في العصر الفاطمي ، حتى أن كثيراً من العاملين بهذه الصناعة قد ارتبطت أسماؤهم بها ، فكان اسم «السكرى» من أسماء العائلات الشائعة^(٣٨١) ، ولم تكن هذه الصناعة وفقاً على مدينة الفسطاط ، فكان هناك أيضاً مطبخاً للسكر في شرقى الدلتا في منية زفتى^(٣٨٢) ، ويظهر من هذه المصانع ما هو صغيراً ؛ بالإضافة إلى المصانع الكبيرة أو الفابريكات ، التي كان أصحابها من الأثرياء ، لأن هذه المصانع كانت تساوى فوق آلاف الدنانير ، ويعمل بها عدد كبير من العمال ، بينما كانت المعامل الصغيرة من الممكن أن يتم تشغيلها بعشرة دنانير^(٣٨٣) ، وكانت هناك شريحة من المجتمع في أواخر العصر الفاطمي وصفت بأنها من الأقوياء المميزين ، الذين كانوا يملكون المعاصر^(٣٨٤) .

وهذا معناه أن هذه الصناعة قد مارسها المصريون على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ، من خلال امتلاك المعاصر أو مطابخ السكر أو المسابك ومصانع العسل سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، كما أن الأخيرة قد توائمت وروح العصر من حيث ضخامتها وكثرة عدد الصناع بها^(٣٨٥) ، مما يدل على أن هذه الصناعة قد تمتعت بحرية العمل^(٣٨٦) ، لكن لما كانت الدولة تجبر الفلاحين والمقطعين على عصر القصب بمعاصرها الخاصة ، التي انتشرت في أنحاء البلاد ، فربما كانت تعود وتبيع لهذه المصانع القصب ، الذي يرد إليها ، ثم تفرض عليها الضرائب والتي بلغت على مطابخ

Ashtor, Social and Economic History, p. 200.

(٣٨٠) انظر :

Goitein, Med. Soc, 1. pp. 266 - 267.

(٣٨١) انظر :

Goitein, Med. Soc, 1. pp. 126.

(٣٨٢) انظر :

Goitein, Med. Soc, 1. pp. 81.

(٣٨٣) انظر :

(٣٨٤) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٨٣ .

(٣٨٥) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، جـ ١/٢ ، ص ١٦٣ .

Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٣٨٦) انظر :

وما يدل على حرية العمل في هذه الصناعة إلى حد ما ، ما تشير إليه بردية من قيام تاجر بعمل حساب أسبوعى لسكر موزع ، انظر : جروهمان ، أوراق البردى العربية ، بردية رقم ٣٦٩ ، جـ ٦ ، ص ١٢٦ .

السكر ١٣٥ دينار وعلى دار القند فى القسطة والقاهرة ٣٠١٨ دينار ، وعلى مربعة العسل ٢٣٢ دينار^(٣٨٧) ، فضلاً عما كان يدفعه أصحاب المعاصر لتكرير السكر^(٣٨٨) .

ويرى البعض^(٣٨٩) : «أن الضريبة على صناعة السكر فاطمية الأصل» وربما ذلك يرجع إلى أن زراعة القصب عرفت فى مصر فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلاد^(٣٩٠) ، وشهدت تطوراً ملحوظاً فى العصر الفاطمى ، حتى ذكر المخزومى^(٣٩١) : «وقد استوفينا من ذكر القصب قدراً لا يؤثر عنه التجاوز ، إنما ذكرنا هذا القدر منه لكون زراعته خطرة ولكونه أعلى أصناف المزروعات» ولذلك توفرت لزراعته الأسباب من اختيار الخولى العارف بالأرض والكرامين ، الذين يقومون بخدمة الأرض والواقفون المشرفون على إدارة السواقي ، كما يرتب الحراس لحراسة القصب^(٣٩٢) .

ولقد اهتمت الدولة الفاطمية بهذه الصناعة أيضاً بسبب أهميتها التجارية مثل صناعة النسيج من حيث ما ذكرناه من كونها سلعة سوق ولسد حاجة البلاط الفاطمى ، بالإضافة إلى ما تحتاجه الدولة من كميات وفيرة لتفى بالتزاماتها فيما تقوم بتصنيعه من حلوى وتوزيعه على الرعية ، ولتوائم إنتاجه مع حاجة المجتمع الذى تعود على الرفاهية ، وعلى ذلك استخدمت وسائل وأساليب جديدة لتكريره ، وتحسنت الطريقة القديمة^(٣٩٣) ، كما أنتجت عدة أنواع من السكر تبعاً لدرجة تكريره .

وتبدو أهمية السكر فى أنه كان من أهم الصادرات الضئيلة ، التى تمثلت فى فائض الإنتاج الزراعى والصناعى آنذاك^(٣٩٤) . حتى أصبح السكر يمثل أهم منتج

^(٣٨٧) المقرزى ، الخطط ، ج١ ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .

^(٣٨٨) هناك وثيقة ترجع إلى عام ٤٩٤هـ/ ١٠٠٠م تبين أنه دفع ثلاثة عشر درهماً مقابل تكرير السكر ، انظر Goitein, Med. Soc., 1, p. 116.

^(٣٨٩) انظر : Rabie, The Financial System, p. 82.

^(٣٩٠) جروهمان ، أوراق البردى العربية ، ج٦ ، بردية رقم ٢٣٢ ترجع إلى عام ٢٨٨هـ/ ٩٠٧م ، ص ٢٦ . ذكر فيها ما دفع إلى نواطير القصب ، وفى بردية أخرى رقم ٢١٦ ترجع إلى ق٣هـ - ٩م ، ج٤ ، ص ٦ يذكر فيها ما زرع من قصب .

^(٣٩١) المنهاج ، ص ٥ .

^(٣٩٢) المنهاج ، ص ص ٤ - ٥ .

^(٣٩٣) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

^(٣٩٤) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، ١/٢ ، ص ١٨١ .

اقتصادي في مصر خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وعرف في الشرق الأقصى باسم "المصري"^(٣٩٥) وكانت له شهرة تفوق جنديسابور ، التي اشتهرت بالسكر^(٣٩٦) . فقد راجت لذلك تجارته في وقت كانت مصر تمثل أحد أقطاب التجارة الدولية ، ومعنى ذلك أن الإنتاج الزراعي قد كرس للسوق وليس لمجرد الاكتفاء الذاتي^(٣٩٧) ، حيث أن هذه الصناعة كانت واسعة الانتشار لارتباطها بالمناطق التي تزرع قصباً^(٣٩٨) ، ولذلك كانت مصر تنتج عسلاً وسكراً كثيراً^(٣٩٩) ، كما كانت هذه الصناعة ذات طابع رأسمالي ، حيث أن الطرق المعقدة التي استخدمت في إنتاجها ، لا يمكن استخدامها إلا في المصانع الكبيرة ، التي كان يطلق عليها "مطابخ السكر"^(٤٠٠) .

كذلك لسد حاجة البلاط الفاطمي ، حيث تذكر المصادر^(٤٠١) الأسطة التي كانت تعد ويستخدم فيها مقادير كبيرة من السكر ؛ بالإضافة إلى سياسة الدولة تجاه الرعاية استلزمت إنشاء دار الفطرة^(٤٠٢) ، لإنتاج حلوى عيد الفطر ، وما كان يستهلك فيها أيضاً ، وما حوته من أسماء الحلوى ، التي كانت توزع على العاملين في الدولة في مناسبات مختلفة ، ولابد أن الرعاية تأثروا بهذه التقاليد ، حتى كان للحلوى سوقاً في مدينة القسطنطينية على أنواع عديدة منها خاصة في الأعياد^(٤٠٣) .

(٣٩٥) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٣٩٦) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٤٠٨ .

(٣٩٧) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، ١/٢ ، ص ١٥٦ .

(٣٩٨) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٣٩٩) سفرنامه ، ص ١١٨ .

(٤٠٠) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٤٠١) ما كان يعمل في سماط عيد الفطر ، قصران من حلوى في كل واحد سبعة عشر قنطاراً من السكر ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٨٨ ، وكذلك ما تم عمله في سماط عيد الأضحى في خلافة الظاهر ، وصل السماط المعمول من السكر والقصور وعدد قطع تماثله مائة وسبعة وخمسين قطعة ومن القصور السكر الكبار سبعة قصور ، انظر : المسبحي ، أخبار ، ص ٢٠١ . كذلك بلغ راتب السكر المستخدم في سماط عيد الفطر خمسون ألف من ، وقد أعد على مائدة السلطان شجرة للزينة تشبه شجرة النلنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر ، انظر ، سفرنامه ، ص ١٢٣ .

(٤٠٢) قام الخليفة العزيز ببناء دار الفطرة وقرر ما يعمل فيها وما يحمل للناس ، وبلغ السكر المستخدم في هذا اليوم سبعمائة قنطار ، انظر ، المقرئ ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٤٠٣) المقرئ ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٤٥ - ٤٤٦ ، جـ ٢ ، ص ٦٩ ، ومن أصناف الحلوى الشائعة الخسكناج والبسندود والفانيد .

ونظراً لما تقدم ، اهتمت الدولة بهذه الصناعة ، وعملت على تحسين وسائل تكرير عصير القصب فى مصانع السكر العديدة الموجودة فى مدن وقرى كثيرة فى مصر ، حيث استخدم النطرون والشب فى تنقية المواد المتخلفة ، عوضاً عن الغلى المتكرر^(٤٠٤) ، وكان استخدام المادة القلوية فى التنقية يعد اختراعاً تم فى مصانع السكر المصرية^(٤٠٥) ويرجع ذلك إلى تكريس النهضة العلمية لخدمة أغراض عملية^(٤٠٦) .

وبناءً على ما سبق ، فلا يمكن أن نؤكد أن الدولة احتكرت صناعة السكر وما قيل عن صناعة النسيج يصدق على صناعة السكر ، فعلى الرغم من سيطرة الدولة الكاملة عليها من حيث إنشاء المصانع السلطانية أو من خلال تشديد القبضة فى الإشراف عليهما وكذلك احتكار تسويقهما ؛ فإن إتاحة الفرصة لإنشاء المصانع الأهلية للصناعتين ، ترجح أنهما قد خضعتا لسياسة شبه احتكارية من قبل الدولة .

كما طبقت الدولة الفاطمية هذه السياسة على صناعات أخرى مثل الشمع والصابون ، فعلى الرغم من وجود مصانع الشمع المنتشرة فى الإسكندرية^(٤٠٧) ، فإنه كان أيضاً يمثل أحد السلع الثابتة ، التى تأتى من تونس ، ولوجود مصانع أهلية لهذه الصناعة ، كان اسم الشماع أيضاً واحداً من أسماء العائلات اليهودية^(٤٠٨) آنذاك ولأهمية هذه الصناعة ، كان يوجد لها سوقاً بالفسطاط عرف بـ "سوق الشماعين"^(٤٠٩) ، كما كانت الدولة تفرض ضريبة على السلع تسمى "خاتم الشمع" تدل على استيفاء الصناعة التى تم ختمها للضرائب^(٤١٠) . وقد خصص الفاطميون خزائن للشمع عرفت بخزائن دار أفكين بسبب حاجتها له^(٤١١) . وكانت الدولة لذلك تحتكر كل ما يرد إليها من بلاد المغرب^(٤١٢) .

(٤٠٤) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٤٠٥) انظر : Ashtor, Social and Economic History, p. 199.

(٤٠٦) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا ، ١/٢ ، ص ١٦١ .

(٤٠٧) ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ١٠٨ .

(٤٠٨) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 125.

(٤٠٩) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٩٦

(٤١٠) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٠٤

(٤١١) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٤٢٢

(٤١٢) انظر Goitein. Med. Soc 1, p. 60

أما الصابون ، فقد كثرت مطابخه في القسطنطينية ، وكانت الدولة تعتمد على ما يرد إليها من زيت الزيتون من منطقة القيوم ، كما أشار ابن دقماق^(٤١٣) إلى قيسارية الصبانة ، التي كانت موجودة بالقسطنطينية وتضم العديد من الحوانيت لبيع الصابون ، كما كانت الإسكندرية إحدى المراكز الهامة لصناعة الصابون نظراً لزراعة أشجار الزيتون في نواحيها الغربية^(٤١٤) ، وقد أشار ابن جبير^(٤١٥) إلى موضع الصبانة بها ، ولا شك أنها كانت تضم مطابخ أخرى للصابون خلال العصر الفاطمي ، ولما كانوا يستخرجون الزيوت من نباتات أخرى مثل اللفت والخس ، فكانوا يصنعون منه أنواعاً من الصابون عالية الجودة في أنحاء مصر^(٤١٦) . ومع ذلك كانت الدولة تقوم باستيراده من تونس ، لكنها كانت تضع الضوابط على التجار المستوردين له ، فإذا ارتفع سعر قنطار الصابون الوارد من تونس إلى حد كبير ، تسمح الحكومة لنفسها فقط بأن تبيعه بمثل هذا السعر^(٤١٧) .

لكن الدولة الفاطمية قامت بالفعل باحتكار بعض الموارد والسلع إما بسبب أهميتها الاقتصادية في الصناعة أو لاستخدامها في ضبط الميزان التجاري لاستيراد سلع أخرى أو لافتقار الدولة في إنتاجها أو لحاجتها الملحة والشديدة لتأكيد وضعها السياسي .

وبسبب القيمة الاقتصادية للشب والنطرون ، لاسيما في الصناعة ، حيث يدخل الشب في صناعات المنسوجات والسكر كما سبق ، فضلاً عن أن الشب والنطرون كانا من السلع المهمة ، التي تشارك في التجارة خاصة مع بيزنطة ، لذلك قامت الدولة الفاطمية باحتكارهما . ولم يبتدع الفاطميون احتكار هذين المعدنين ، فقد احتكرهما من قبل أحمد بن المديبر^(٤١٨) .

ولما كان الشب يوجد بالصعيد ، خاصة في أخميم وأسيوط والبهنسا ، فكانت الدولة تحصل عليه من خلال اتفاق بينها وبين العربان ، ويتم تسليم المستخرج منه إلى

(٤١٣) ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٠٨ .

(٤١٤) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٧ .

(٤١٥) الرحلة ، ص ٩٥ .

(٤١٦) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٢٩ .

(٤١٧) انظر :

Goitein, Med. Soc. 1, p. 267.

(٤١٨) المقرئ ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

الديوان ، ولا يستطيع أحد منهم ابتياعه لغير الدولة ، بل ويحظر عليهم وعلى غيرهم ذلك ، ولو عثر على أحد أنه اشترى منه الشب أو ابتاعه سوى الديوان ، صودر ما وجد عنده ، ونفس الشيء يقال عن النظرون ، الذى كان يوجد فى البر الغربى من أرض مصر ، وكانت تحصل منه الدولة فى كل عام عشرة آلاف قنطاراً^(٤١٩) . كما اتبعت الدولة نظام الضمان للنظرون ، وكان على الضامن أن يقدم حصة مقدرة للديوان سنوياً وصلت إلى ثلاثين قنطاراً^(٤٢٠) . كذلك خضع الشب لهذا النظام ، حتى أنه بلغ ما سُمح به من الشب فى وزارة المأمون البطائحي فى عام ٥١٠هـ/١١١٧م ، ٩١٣،٥٠٠ قنطاراً^(٤٢١) . وهذا يبين أن نظام الضمان مع الشب والنظرون قد اختلف عنه فى الموارد الأخرى ، بسبب اتباع سياسة الاحتكار .

وكانت ما تحصل عليه الدولة من الشب تقوم ببيعه لتجار الروم ، حيث تخصص مما يأتى إليها من هذا المعدن اثنى عشر قنطاراً^(٤٢٢) ، وكان احتكار الشب يمثل للدولة أيضاً سلعة تجارية هامة ليس فقط من خلال مشاركتها فى التجارة الخارجية ، لكن أيضاً ، بسبب ما تحصل عليه من ربح من خلال الفرق بين سعر الشراء والبيع ، فهى تشتريه من العربان بالقنطار الليثى ، الذى يزن مائتى درهم بثلاثين درهماً ، بينما تبيعه لتجار الروم بالقنطار الجروى الذى يزن ٣١٢ درهم بين أربعة وست دنائير^(٤٢٣) . وإذا وضعنا فى الاعتبار الفارق فى الوزن بين القنطارين^(٤٢٤) لوجدنا أن الليثى يساوى ثلثى الجروى تقريباً ، وأن السعر المقرر للدينار ثمانية عشر درهماً^(٤٢٥) . ومتوسط سعر البيع خمسة دنائير ، فكانت تحصل عليه الدولة من فائدة تصل إلى حوالى مائة فى المائة .

(٤١٩) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(٤٢٠) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(٤٢١) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٨٣ .

(٤٢٢) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(٤٢٣) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(٤٢٤) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٨ .

(٤٢٥) المقرئى ، إغاثة ، ص ٦٥ ، اختلفت قيمة الدينار من وقت لآخر حتى وصل فى القرن ٦هـ/

١٢م إلى ستة وثلاثين درهماً وأحياناً أربعين درهماً : انظر :

Goitein, Med. Soc., p. 97

وفى نفس الوقت كان المخصص للمصريين من الشب ثمانين قنطاراً فقط وتباع بواقع ستة دنانير ونصف للقنطار^(٤٢٦) ، فهذا معناه أن الدولة تخصص نسبة ضئيلة للصناعة المحلية ، وهذا الأمر لا يمكن قبوله ، لأن الصناعات التى اهتمت بها الدولة كانت تحتاج إلى الشب ، لكن لما كانت الدولة قد أسهمت بنصيب فى هذه الصناعات ومنها النسيج والسكر ، فمن المحتمل أنه كان يخصص فى الديوان السلطانى ما يستخدم فيهما من الشب . وربما كان الغرض من تخفيض ما يخصص للتصنيع المحلى يرجع لأهمية الشب فى التجارة الدولية بسبب احتياج الفاطميين لاستيراد بعض السلع الأخرى وعلى رأسها الخشب ، حتى نجد أنه إذا زاد ثمن المبتاع من التاجر عما يجب عليه من الخمس ، أعطى شياً بحق الثلث^(٤٢٧) ، كما يشير هذا الإجراء إلى استغلال المصريين فى حالة الشراء من العربان والبيع للصناع .

كما احتكرت الدولة الفاطمية بعض السلع الأخرى ، التى حواها المتجر مع اليازورى ، بداية من عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢م ، عندما أشار على الخليفة المستنصر بشراء وخزن سلع أكثر فائدة^(٤٢٨) ، حيث كان المتجر يستطيع أن يوفر ربحاً من خلال الفرق بين الشراء والبيع ، وكذلك ما وجد فى خزائن الأفضل بن بدر الجمالى بعد وفاته ومنها الخشب والحديد والرصاص والشمع والصابون وزيت الزيتون^(٤٢٩) . أما الخشب الذى يعد أهمها على الإطلاق فقد تناولناه فى بحث سابق^(٤٣٠) ، وانتهينا إلى أن الفاطميين قد احتكروه ، لكن سياستهم قد تلوّنت طوال العصر الفاطمى تبعاً لحالة القوة والضعف ، ففي العصر الفاطمى الأول كان احتكاره من أجل التوسع ، لذا فرضوا إرادتهم رغم الحظر البيزنطى ، بينما فى العصر الفاطمى الثانى حيث ضعفت الخلافة، مالوا إلى الدبلوماسية فى سبيل الحصول عليه من أجل التجارة ، كما أنهم قد احكموا قبضتهم على الخشب المحلى والمستورد بسبب الحاجة الشديد إليه .

(٤٢٦) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(٤٢٧) المخزومى ، المنهاج ، ص ص ٤٨ ، ٥٧ .

(٤٢٨) المقرئى ، إغاثة ، ص ٢٠ .

(٤٢٩) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٣ ، اتعاط ، جـ ٣ ، ص ٧١ .

(٤٣٠) انظر ، احتكار الخشب فى مصر الفاطمية ، فصلة من مجلة بحوث كلية الآداب جامعة المنوفية ١٩٩٧ ، العدد ٣٠ .

أما عن السلع الأخرى ، التي احتكرتها الدولة الفاطمية ، فإنها كانت تعتمد على استيرادها إما بسبب حاجتها الملحة لها في الصناعة أو لنقص المنتج منها محلياً . ومنها الحديد ، الذي تبدو أهميته في ارتباطه ببعض الصناعات الهامة مثل صناعة السفن والأسلحة وغيرها ، لذلك كان يرتبط استيراده دائماً بالخشب ، خاصة من المدن الإيطالية وغيرها ويخضع لما يتعرض له الخشب من قبل بيزنطة من فرض سياسة الحظر على تصديره إلى مصر^(٤٣١) ، كما كان يحمل من صقلية وبلاد المغرب التي تعتبر الموطن الأصلي لإنتاجه^(٤٣٢). ومع ذلك قلما يرد ذكر الحديد في وثائق الجنيزة^(٤٣٣) «وعند الإشارة إليه نجد أن تجارته لم تكن حرة . ولم يخرج الرصاص عن نفس الاهتمام في استيراده ، حتى ما كان يتم جلبه من الخارج كانت السلطات الحكومية تستحوذ عليه»^(٤٣٤) .

أما الشمع ، فكان من السلع الثابتة ، التي تستورد من تونس^(٤٣٥) ، وكان ما يأتي منه يستنفذ من قبل السلطات الحكومية في الإسكندرية^(٤٣٦) ، وكان التجار يبيعونه بأقل ما يشترونه^(٤٣٧) ، كما كان يتعذر في بعض الأحيان الحصول على الصابون بسبب القيود التي تضعها الدولة^(٤٣٨) .

كذلك كان زيت الزيتون من السلع التي حرصت عليها الدولة الفاطمية ، على الرغم من قيامها باستخراج الزيوت من نباتات أخرى^(٤٣٩) ، وكذلك برغم زراعته في مصر ووجود معاصر له في بعض المدن ، لاسيما في صندقا بكورة البهنسا والفيوم

(٤٣١) لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ص ٣٠٢ ، ٣٣٥ .

(٤٣٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٦ ؛ الإبريسي ، ص ١١٧ ، متر ، الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ .

(٤٣٣) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

(٤٣٤) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

(٤٣٥) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 125.

(٤٣٦) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

(٤٣٧) عندما يكون سعر الشمع في القيروان ٦ دينار لكل مائة رطل ، كان التاجر يبيعه بـ

٤ ، انظر : Goitein, Me. Soc. 1, p. 219.

(٤٣٨) انظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 184.

(٤٣٩) سفر نامه ، ص ١٢٠ .

والفسطاط^(٤٤٠)، فكان يتم استيراده من تونس^(٤٤١) خاصة سفاقس^(٤٤٢) ، وربما لارتباطه على وجه الخصوص بصناعة الصابون . ويبدو احتكار الدولة له من خلال ممارسة الحظر عليه ، والتي تتضح من خلال خطابات الجنيزة^(٤٤٣) ، ومنها خطاب يرجع إلى حوالي القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ذكر فيه : «ان زيت الزيتون قد منع بواسطة الحكومة» كما نسمع عن منع تجار تونس من تصدير بضائعهم ، خاصة زيت الزيتون ، الذي يعد أهم صادراتها الزراعية ، وكذلك عن حرمان التجار من استيراده^(٤٤٤) ، ولكثرة ما تحصل عليه الدولة سواء من المنتج محلياً ، أو الوارد من تونس بواسطة كان سعره رخيصاً في أسواق الفسطاط^(٤٤٥) مقارنة بزيت السيرج المستخرج من السمسم ؛ لأن المعروض من زيت الزيتون كان كثيراً .

وفيما يخص اختيار العمال ، وما ورد بشأنهم في كتب الدعوة : "على ألا تكون بمحاباه ، حتى لا تؤدي بالضرر على الناس ، والحرص على اختيار أهل الورع والفقہ والعلم" وغيره من الصفات والواجبات التي تؤدي إلى صلاح الأحوال ، لكن يبدو أن الخلافة الفاطمية كانت حريصة ومنذ البداية على اختيار من ينفذ سياستها المالية بكل دقة . وما عرضناه سلفاً من تطبيق لهذه السياسة يتضح أن الدولة كانت تحتاج إلى رجال من طراز يختلف اختلافاً بيناً في الغالب على ما تضمنه النص السالف الذكر .

فعلى الرغم من استياء جواهر من سياسة الإخشيديين الاقتصادية بشكل عام ، نراه يقر جعفر بن الفرات في الإشراف على النواحي المالية . وربما يرجع هذا الإجراء لأنه كان لا يزال مشغولاً بإتمام الفتح ، حتى أنه أقر بقية المناصب بما فيهم القاضي السني رغم الاختلاف المذهبي^(٤٤٦) ، لكن بعد استقرار الأمور ومجيء المعز ، عرض على ابن الفرات أن يتولى الوزارة استمراراً لدوره أيام الإخشيديين ، لكن

(٤٤٠) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٧ .

(٤٤١) الأديسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٠٩؛ أنظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 154.

(٤٤٢) البكري ، المغرب ، ص ٢٠ .

(٤٤٣) أنظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 268.

(٤٤٤) أنظر : Goitein, Med. Soc. 1, p. 60.

(٤٤٥) سفر نامه ، ص ١٢٠ .

(٤٤٦) المقرئزي ، اعطاء ، ج١ ، ص ١١٩ .

جعفراً اعتذر للخليفة^(٤٤٧) . ثم قام المعز بتولية يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، كافة وجوه الأموال . صحيح أن اختيار ابن كلس على وجه الخصوص كان اختياراً موفقاً ، لأنه تفرس في شئون مصر المالية والاقتصادية ، عندما كان يعمل في خدمة كافور ، وتردد على الريف وعرض أخبار القرى ، حتى أنه أصبح خبيراً بالضيايع وإذا سئل عن أمر غلالها ومبلغ ارتفاعها أجاب^(٤٤٨) .

وقد استطاع يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن أن يستخرجا أكثر من مائتي ألف وعشرين ديناراً في يوم واحد من مال تليس ودمياط والاشمونيين ، وهذا لم يسمع بمثله قبلاً^(٤٤٩) . وكان ذلك لإرضاء المعز ، حتى يسترد ما أنفقه من أموال في مصر^(٤٥٠) ، لأن جوهرأ عندما جاء إلى مصر ، كان محملاً بالأموال والخزائن^(٤٥١) ، وظن المعز عند مجيئه أن الأموال مجتمعة لدى جوهر فوجدها قد أنفقت في مؤن مصر وجندها^(٤٥٢) . ومن هنا كان اختياره لهذين الرجلين اللذين استطاعا أن ينفذا مشيئته ويشتدا في استخراج الأموال من المصريين .

ومع الخليفة العزيز ، حينما تولى على بن عمر بن العداس الأموال عام ٣٨١ هـ/٩٨٣م أمره : «بأن لا يرتفق ولا يرتزق ولا يضيع ديناراً ولا درهماً»^(٤٥٣) . أى لا يقبل هدية ولا رشوة ، ومثل هذه الأوامر والوصايا ترتبط في الغالب الأعم مع تولية المناصب ، ولا تعبر دائماً عن سياسة الحاكم بشكل عام . وكان ابن العداس أحد ضمان الأموال منذ أيام الخليفة المعز ، وأحد القائمين أيضاً على الخراج ، وضمن كورة بوصير ، لكن عندما نقص خراج البلاد ، قبض عليه واعتقل وذكر المؤرخون^(٤٥٤) أن سبب ذلك أنه خانه الضمان والأسعار ، وعين بعده في الوساطة عيسى بن نسطورس ، الذى استطاع أن يضبط الأمور ويجمع الأموال ويوفر كثيراً من الخراج^(٤٥٥) ،

^(٤٤٧) ياقوت ، ارشاد الأريب لمعرفة كل أئيب ، القاهرة ، ١٩١١ ، جـ ٣ ، ص ص ٤١٠ - ٤١٤ .

^(٤٤٨) المقرئى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥ .

^(٤٤٩) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٧٧ .

^(٤٥٠) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٤٦ .

^(٤٥١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٤ ، ص ٢٨ .

^(٤٥٢) المقرئى ، اتعاظ ، جـ ١ ، ص ١٤٦ .

^(٤٥٣) المقرئى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣١ .

^(٤٥٤) ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٢٤ .

^(٤٥٥) ابن ظافر ، أخبار ، ص ٤٠ .

واستطاع بذلك أن يحظى برضا الخليفة العزيز ، لأن الغرض من تعيينه هو ومن سبقه تدبير وتوفير الأموال للدولة .

ونفس الشيء يقال عن الخليفة الحاكم ، الذى أثنى على أحد رجال دولته ، وهو الوزير ابن عبدون النصرانى ، لأنه جمع له من الأموال ما هو خارج عن أموال الدواوين ثلثمائة ألف دينار^(٤٥٦) . كذلك أقام الحاكم اثنين هما الحسن وعبد الرحمن أبنى أبى السيد معاً فى الوساطة عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م ، بعد أن ضمنا أموال الدولة وإجرائها على رسومها ووفرا ثلثمائة ألف دينار بعد ذلك سنوياً تحمل لبیت المال^(٤٥٧) ، على الرغم من أن مدة وساطتهما لم تطل أكثر من اثنين وستين يوماً قتلاً بعدها ، لكن يبدو أنهما قد وضعا من الإجراءات ما أدت إلى استمرار توفير هذه الأموال .

والوزراء الذين تولوا مع خلافة المستنصر ، لم يرتبطوا بالخليفة قدر ارتباطهم بأمة وسياستها العشوائية ، التى كانت تسعى فقط إلى الهيمنة على شئون البلاد من دون أبنها بدون سياسة مرسومة ، ومن هنا جاءت سياستها تجاه تعيينهم حتى وصل الأمر إلى أن هناك عدد كبير منهم من تولى أشهراً أو أياماً أو من وصلت وزارته إلى يوم واحد^(٤٥٨) .

ووصولاً مع العصر الفاطمى الثانى نجد أن الخليفة الأمر بعد تخلصه من وزيره المأمون البطائحي اعتمد على رجلين من رجال الدواوين ، أحدهما مسلم وهو جعفر بن عبد المنعم والآخر سامرى ، يقال له أبو يعقوب إبراهيم . وقد توليا استخراج ما يجب من زكاة ومكس وأقام معهما مستوف يعرف بأبى نجاح الراهب ، الذى تحكم فى الناس ، وطالب النصارى بالأموال^(٤٥٩) . ولما كانت سياسته تسير وفق مشيئة الأمر لقبه بـ "الأب القديس الروحاني النفيس ، أبى الأباء ، سيد الرؤساء ، مقدم دين النصرانية وسيد البطيريركية"^(٤٦٠) مما ساعده على التمدادى فى عسفه تجاه الناس .

(٤٥٦) المقرئى ، اتعاط ، جـ ٢ ، ص ٨٢ .

(٤٥٧) ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ٣٠ .

(٤٥٨) ابن الصيرفى ، الإشارة ، ص ص ٣٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ .

(٤٥٩) المقرئى ، اتعاط ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ .

(٤٦٠) المقرئى ، اتعاط ، جـ ٣ ، ص ١١٧ .

أما بهرام الأرمني ، الذي وُزر للحافظ ٥٢٩-٥٣٣هـ/ ١١٣٥-١١٣٩م ، فلم يكتف فقط بتوزيع الولايات والوظائف على أهله وبنى جنسه ، لاسيما قوص أهم ولايات مصر ، بل جاء على الناس واستباح أموالهم وبالغ في أذيتهم^(٤١١) ، هذا فضلاً عن طلائع بن رزيك الذي أشرنا إليه سلفاً ، والذي ظلم الناس وباع الولايات^(٤١٢) .

وإذا كان عصر الوزراء العظام قد تقلصت معه سلطات الخلفاء حتى أصبحت أفعال الوزراء لا تحسب على الخلافة ، إنما هي نتيجة لضعفهم ، لاسيما أن هؤلاء الوزراء لم يهتمهم على الأقل مصلحة الخلافة بقدر ما كانت تشغلهم مصالحهم الشخصية ، لكن هذا ليس معناه أن نرفع عن الخلافة المسؤولية ؛ فضلاً عن أن العصر الفاطمي الأول قد أوضح أن الخلفاء المؤسسين للخلافة كانوا حريصين على اختيار رجالاً يستطيعون تنفيذ مشيئتهم وسياستهم المالية على خير وجه ، وبقدر ما يحسب لهم حسن الاختيار ، إذ أن غالبية الوسطاء والوزراء كانت لهم خبرة سابقة بشئون المال ، كالعمل في ديوان الخراج أو بيت المال ، كان هذا الأمر له وجه آخر في قدرة هؤلاء الرجال في التحري عن الأموال والحصول عليها بشكل يرضى الخلفاء .

لكن هناك بعض الفترات تخرج عن هذا الإطار ، حتى في العصر الفاطمي الثاني مع وزارة المأمون البطائحي على وجه الخصوص ، والذي كان كل همه رفع المعاناة عن الرعية واتخاذ الإجراءات التي من شأنها أن تؤدي إلى إصلاح الأحوال ، وقد عرضنا لهذا سلفاً فيما قام به من المسامحات ، وحتى قبل تعيينه في الوزارة كان الساعد الأيمن للأفضل بن بدر الجمالي وكان من وراء ما قام به الأفضل من حل الاقطاعات وإعادة توزيعها ، لكن بوجه عام كانت السياسة الغالبة للفاطميين واحدة ؛ وهي اختيار الرجال ، الذين استطاعوا أن يحققوا لهم ما أرادوه . وهذا يختلف عما ذكرناه من اختيار العمال وفق صفات معينة صحيح أن هناك فرقاً بين العامل والوزير ، لكننا حاولنا أن نطبق هذا النص في ضوء التصوص المتاحة ، طالما أنه ما يطبق على

(٤١١) المقرئزي ، اتعاظ ، ج-٣ ، ص ١٥٩ .

(٤١٢) ابن ظافر ، أخبار ، ص ١١١ .

العمال لابد أن يكون بالتبعية متأثراً بأعلى سلطة في الخلافة ، كما أن كثيراً من الوزراء في العصر الفاطمي الثاني كانوا في الأصل ولاية لبعض الأقاليم^(٤٦٣) .

كما أن الخلفاء اتبعوا مع هؤلاء سياسة المصادرات ، التي تعد أحد أبواب الدخل المؤقتة لأنها تخضع للظروف السياسية ومدى قوة الدولة وقدرتها على تقليم أظافر كبار رجال الدولة . ولما كان أمان جوهر قد شمل بعض التلميحات عما كان يتم أيام الإخشيديين ومنها "الاحتواء على نعمكم وأموالكم" وأشار إلى أن الأمور سوف تتحسن بمجيئ الفاطميين ، خاصة أن الإخشيديين طالما قاموا بمصادرة كبار رجال الدولة والتحوط على أموالهم^(٤٦٤) ، بعد القبض عليهم أو بعد وفاتهم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى التجار ، كما أنه بعد وفاة كافور وتفاقم الأحوال الاقتصادية بسبب نقصان مياه النيل وغلاء الأسعار ، قام الوزير جعفر ابن الفرات بالقبض على بعض الأقوياء ممن التحق بخدمة الدولة وصادرهم وكان منهم يعقوب بن كلس^(٤٦٥) ، مما كان سبباً في هروبه إلى المعز وتحريضه على المجيئ إلى مصر^(٤٦٦) . بيد أن الفاطميين قد مارسوا هذه المصادرات في بلاد المغرب ، حيث أن القاضي النعمان برر مصادرة الأئمة لأموال الناس والاستيلاء عليها بقوله : "إن للأئمة الحق في امتحان الناس في أموالهم بأخذها منهم بدون سبب"^(٤٦٧) .

وكان ابن كلس أول من صودر مع الفاطميين في خلافة العزيز عام ٣٧٣هـ / ٩٨٤م ، بعد أن عزله من منصبه ، وحمل من ماله خمسمائة ألف دينار ، لكنه سرعان ما أعاده إلى منصبه^(٤٦٨) . كما صودرت أملاك عمر بن العداس ، عندما اتهمه الخليفة العزيز بتبديد أموال الدولة^(٤٦٩) . وعندما قبض على عيسى بن نسطورس ، لم يعد إلى

^(٤٦٣) ومنهم بهرام الأرمني كان والياً للغربية قبل أن يتولى الوزارة وكذلك رضوان بن ولخشي ، أما ابن رزيق فكان والياً على الأعمال الاسيوطية ، انظر ، ابن ميسر ، أخبار ، ص ص ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٤٩ .

^(٤٦٤) المقرئزي ، اتعاظ ، جـ ١ ، ص ١٠٤ .

^(٤٦٥) سيدة كاشف ، مصر في عهد الإخشيديين ، ص ٣٤٥ .

^(٤٦٦) النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص ٦٠ .

^(٤٦٧) الهمة ، ص ٦٩ .

^(٤٦٨) ابن ميسر ، أخبار ، ص ١٥٩ .

^(٤٦٩) ابن الصيرفي ، الإشارة ، ص ٢٤ .

عمله ، إلا بعد أن حمل إلى الخزانة ثلثمائة ألف دينار^(٤٧٠) . ومع الخليفة الحاكم بأمر الله ، كثرت المصادرات ، ولم تقف عند حد كبار رجال الدولة بل تعدتهم إلى الرعية ، فصادر الحسين بن جوهر والقاضي عبد العزيز بن النعمان عام ٤٠٠هـ / ١٠١٠م^(٤٧١) . كما قام بمصادرة الكتاب من مسلمين ونصارى وطالبهم بحساب ما كانوا يتولونه وصادر أموالهم^(٤٧٢) . ومن كثرة ما تمت مصادرتهم ، أنشأ الخليفة ديواناً برسم من يقبض ماله من المقتولين من كبار رجال الدولة عرف بـ "ديوان المفرد"^(٤٧٣) وهذا الديوان لم يكن أمراً مستحدثاً مع الفاطميين فقد سبقهم إليه العباسيون وصادر كثير من كبار رجال الدولة ، وأنشئ لهذا الغرض ديواناً عرف بـ «ديوان المصادرات» كان مسئولاً عن إدارة الأملاك التي يتم مصادرتها^(٤٧٤) .

كما امتدت المصادرة إلى الرعية أيضاً ، فقام الخليفة الحاكم بمصادرة أملاك الكنائس^(٤٧٥) ، وتزايد ضرره بأهل مصر ، من خلال الجند السودان ، الذين قاموا بنهب أموال الرعية وفتح دورهم ومخازنهم وأخذ أمتعتهم وفتح دكاكين البزازين ونهب ما فيها وتخللوا إلى الأسواق وأخذوا ما أرادوا منها وأفسدوا بقية ما فيها^(٤٧٦) ، وإذا كان ما أورده المؤرخون بشأن سياسة الخليفة الحاكم ربما تعد حرباً شنها السنة ضد الشيعة للنيل منهم وعلى ذلك أوردوا روايات من المحتمل أن يكون مبالغ فيها . كما أننا لو اعتبرنا أن هدف الحاكم من هذه المصادرات هو القضاء على نفوذ رجال الدولة والاستئثار بالسلطة ، فإننا لا يمكن أن نعتبر سياسته بشكل عام مقياساً للعصر الفاطمي في مصر ، لأن عصره قد اختلف فيه ، فما قام به من أعمال أكان يبغى من ورائها الإصلاح أم أنها كانت مرتبطة بشخصه ؟ ومهما كانت أهدافه من المصادرات ، فاستمرارها بعده ، توضح رغبة الفاطميين في التحوط على الأغنياء سواء كبار رجال الدولة أو الرعية بشكل مستمر .

(٤٧٠) ابن ظافر ، أخبار ، ص ٤١ .

(٤٧١) يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ١٩٨ .

(٤٧٢) المقرئ ، اتعاظ ، ج ٢ ، ص ص ٨١ - ٨٢ .

(٤٧٣) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ .

(٤٧٤) متر ، الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ١٥٠ .

(٤٧٥) المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

(٤٧٦) ابن ظافر ، أخبار ، ص ص ٥٥ - ٥٦ .

ففى خلافة الظاهر ، قام كبار رجال الدولة بمصادرة التجار ، وارتبط ذلك بوقوع الغلاء عام ٤١٥هـ/ ١٠٢٣م^(٤٧٧) ، وكان من المنتظر أن تكون هذه المصادرات لتجار الغلة حتى يمنع من احتكارها ، لكن النص جاء عاماً ، حتى نفهم منه أنه شمل جميع التجار الذين كانوا يمثلون أول القائمة فى المصادر من الرعية لخصوصية ارتبطت بهم خلال هذا العصر أو غيره حيث أن ازدهار التجارة يؤدى إلى تراكم للأموال فتشيع المصادرات ، خاصة مع اضطراب أحوال الجند ؛ فيورد المسبحى نصاً غاية فى الأهمية^(٤٧٨) ، إبان عصر الظاهر من خلال مطالبة صاحب بيت المال بما عنده وامتناعه عن إعطائهم الأموال ، فقليل له : «فتقترض من التجار وتصادر من تحب من مصادرتهم ، فقال له الشيخ النجيب أبو القاسم الجرجرائى : وأى مال مع التجار ؟ وتجار مصر هلكى تحت التحمل بلاء» . وذلك يبين أن تجار مصر طالما تعرضوا للمصادرات خاصة من قبل الجند ، حتى أنه انتقل طائفة من التجار البزازين ، وجماعة أخرى ممكن تسكن بساحل الصعيد والوجه البحرى إلى وسط البلد خوفاً من نهب البلد ، كما اضطرت الناس لنقل رحالاتهم وأموالهم من القياسر والحوانيت بمصر إلى منازلهم وأخلوا دكاكينهم من أمتعتهم خوفاً من وقوع فتنة أو نهب^(٤٧٩) ، وكذلك تعرض المصريون خلال فتن الجند أيام المستنصر للنهب والمصادرة .

وقد قام الوزراء أيضاً بالمصادرات وسوف يتضح هذا الدور خلال العصر الفاطمى الثانى ، فالوزير بدر الجمالى ، الذى استطاع أن ينقذ الخلافة من كوارثها الاقتصادية المتلاحقة خلال عصر المستنصر ، قامت سياسته أيضاً على المصادرات ، حتى أنه لم يبين جامع العطارين بالإسكندرية إلا من مال وأمالك المصادرات^(٤٨٠) . وربما تكون هذه الأموال ، تلك التى قام بمصادرتها من الأمراء والقواد الأتراك بعد مجيئه إلى مصر أو من الأموال التى أخذها من أهل الإسكندرية^(٤٨١) ، بينما ابنه

(٤٧٧) المقرئى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٤ .

(٤٧٨) المسبحى ، أخبار ، ص ١٦٩ .

(٤٧٩) المسبحى ، أخبار ، ص ٢٠٠ .

(٤٨٠) ابن ظافر ، أخبار ، ص ٧٧ .

(٤٨١) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٤٦ ؛ المقرئى ، انعاظ ، جـ ٢ ، ص ٣٢١ .

الأفضل ذكر المؤرخون أنه لم يعرف أنه صودر أحد في زمانه ، سواء من كبار رجال الدولة أو الرعية^(٤٨٢) .

كما شهدت خلافة الأمر مصادرات عديدة ، بدأها بوزيره المأمون البطائحي وأخيه المؤتمن وهما بالقصر ، فصودرت دورهما^(٤٨٣) . كما صادر قوم من النصاري وأخذ منهم مائة ألف دينار وتجاوز الأمر إلى العمال والقضاة والكتاب والشهود والضامين والتجار أيضاً قد تعرضوا للمصادرة والاعتقال حتى أن من كثرة هذه المصادرات في مصر والقاهرة اضطر التجار إلى الخروج من البلاد^(٤٨٤) . وعامة الناس والسوق ، حتى وصل الأمر إلى مصادرة رجلاً حملاً ، أخذ منه عشرين ديناراً ثم جمل ، الذي لم يكن له سواه^(٤٨٥) . وكان الأمر يعتمد في إنجاز هذه المصادرات على أبى نجاح الراهب ، الذي كان يجلس بجامع عمرو ويستدعى الناس للمصادرة ، وقيل أن الذي احتاط عليه من أملاك المسلمين كان كثيراً^(٤٨٦) . وكان هذا الخليفة مدفوعاً للقيام بالمصادرات بدافع القسوة والطمع ، فقد عرف أنه كان قبيح السيرة مبالغاً في ظلم الناس وأخذ أموالهم واغتصاب أملاكهم^(٤٨٧) ، أو أن تناقص الإيرادات بشكل عام كانت أحد الأسباب التي دفعته إلى ذلك ؛ فضلاً عن اهتمامه بالترف واللهو ، خاصة أن الرسوم الفاطمية اكتملت في عهده ، ولما كان الأفضل من قبل قد حجر عليه ومنعه من الظلم ، فبعد التخلص منه ، ولى المأمون البطائحي ومما اشترط عليه أن تكون جباية الأموال بالقصر^(٤٨٨) ، ولم نسمع أن المأمون قد مارس سياسة المصادرات ، لكن بعد التخلص منه أيضاً ، استطاع الخليفة الأمر أن يمارس سلطاته التعسفية على النحو الذي أسلفناه ، ولما كانت هذه الممارسات زائدة عن الحد ، فبعد مقتله عام ٥٢٤-٥٢٥ هـ / ١١٣٠م استطاع أبو على أحمد بن الأفضل بعد توليه الوزارة أن يرد على المصادرين ما أخذ منهم وأعاد أملاكاً كثيرة إلى أربابها^(٤٨٩) .

(٤٨٢) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٣ .

(٤٨٣) المقرئى ، اتعاظ ، ج٣ ، ص ١١٤ .

(٤٨٤) المقرئى ، اتعاظ ، ج٣ ، ص ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٤٨٥) ابن ظافر ، أخبار ، ص ص ٨٨ - ٨٩ .

(٤٨٦) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٧١ .

(٤٨٧) ابن ظافر ، أخبار ، ص ٩١ ، المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٢٩١ .

(٤٨٨) المقرئى ، اتعاظ ، ج٣ ، ص ٧٧ .

(٤٨٩) ابن ظافر ، أخبار ، ص ٩٤ ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص ٢٩٧ .

ومع عصر الوزراء العظام ، كان طبيعياً أن نسمع عن جور وعسف هؤلاء ، فابن السلار ، الذى وزر للظافر ٤٤٠هـ / ١١٥٠م ، ذكرت عنه المصادر^(١٩٠) : «أنه كان ذا سيرة جائرة وسطوة قاطعة» دون أن تشير صراحة إلى قيامه بالمصادرات ، وإن كان يفهم ضمناً ممارسته لهذه السياسة ، كما قام الوزير طلائع بن رزيك بمصادرة الكثيرين ، والأمر لم يشمل فقط كبار رجال الدولة ، حتى تصفو له الساحة السياسية ، لكنها تعدت إلى مصادرة الرعية ، حتى أنه أفنى ذوى الآراء والحزم ، وكان أشد الناس تطلعاً إلى ما فى أيدي الناس من أموالهم وصادر أقواماً لم يكن بينهم وبينه معاملة ولا سبب يوجب التعرض^(١٩١) .

وفى آخر وزارة للفاطميين ، قام صلاح الدين ، الذى وزر للعاقد عام ٥٦٦ هـ / ١١٦٩م بمصادرة جزء من الأرض المزروعة حوالى ثلاثين فداناً ، كانت ملكاً لدير ناهيا بالجيزة ، والتي منحت للرهبان من قبل الخليفة الأمر بشكل دائم^(١٩٢) .

وما قام به هؤلاء الوزراء ربما لا يعبر إلا عن نزعات فردية رغبة منهم فى الاستئثار بالحكم وتعزيد مكانتهم بالأموال ، لكن ما تم طوال العصر الفاطمى ومن البداية يدل على أن الخلفاء قد مارسوا سياسة المصادرات بشكل سافر وكان من المنتظر أن تستمر هذه السياسة حتى أواخر أيامهم .

صفوة القول ، أن الفاطميين انتهجوا سياسة مالية محددة ، كلفت لهم ما أرادوه ، وجوهر هذه السياسة كان قائماً على الاستفادة من خيرات مصر والسيطرة على اقتصادها ، وهذا لا يتأتى إلا من خلال اتباع سياسة ضريبية محكمة تستهدف الحصول على أكبر قدر ممكن من أموال المصريين مع القيام ببعض الإجراءات الإصلاحية ، التى من شأنها تحسين هذا الدخل .

فالسياسة المالية أو على الأقل النظام الضريبى ، بدأ مع الخليفة المعز ، الذى قام بإرساء دعائم هذه الدولة ، وتبعه الخلفاء ، الذين أتوا من بعده حتى عصر المستنصر ، الذى يعتبر الحد الفاصل بين عصرين متميزين ، حيث اتسمت الفترة الأولى بسياسة اعتمدت على مراقبة الأسواق وتخفيف الضرائب نسبياً وتحسين أوضاع

(١٩٠) ابن ظافر ، أخبار ، ص ١٠٣ .

(١٩١) ابن ظافر ، أخبار ، ص ١١١ ؛ المقرئى ، اتعاظ ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

(١٩٢) أبو صالح ، كنائس وأديرة مصر ، ص ص ٧٨ - ٧٩ .

العملة مع اتباع السياسة المالية التي تحقق لهم أهدافهم ، وهذه الإجراءات أدت إلى دفع عجلة الصناعة والتجارة قدماً مما أدى إلى عالمية الانتاج حتى بلغت شهرة بعض المنتجات المصرية الآفاق ، عندما عرفت بـ "المصرى" أما الفترة الثانية ، اتسمت باتباع الدولة لأسلوب الاحتكار لبعض السلع وفرض المكوس الباهظة ، التي أدت إلى تضيق الخناق على الصناع والتجار فلم يرتفعوا بهم وكانت سياسة المصادرات سواء من قبل الخلفاء أو رجال الدولة الذين نفذوا مشيئتهم قد أضرت بالناس جميعاً .

ثم الهيمنة على بعض الصناعات والموارد . فبينما كان المكوس تشكل عبئاً على الرعية ، عملت الدولة على تنفيذ سياسة شبه احتكارية لبعض الصناعات واحتكارية لبعض الموارد ، كما كانت من خلال المتجر تستطيع أن تسيطر على عجلة الاقتصاد مستفيدة من حالة هبوط الأسعار ، مما يجعل التجار مضطرين إلى بيع بعض السلع للدولة ، خاصة أن دور المتجر مع اليازورى انتقل من الحماية إلى الاحتكار .

ومسألة الاحتكار هذه ، تعتبر من الأمور الشائكة التي لا يمكن أن نحكم عليها بشكل مطلق صحيح أن الفاطميين احتكروا بالفعل بعض الموارد والسلع ، لكن بالنسبة لبعض الصناعات ، كانت هيمنة الدولة قوية ، حتى كان من الصعب القطع فيها برأى . لكن مع وجود المصانع الخاصة قللت من هذه السياسة وأصبحت بذلك شبه احتكارية . وكذلك ارتباط الاحتكار بوضعية العصر الفاطمى ووقوعه خلال منظومة اتسمت بتغير فى الأوضاع أو كما عبر عنها بـ «الصحوة البرجوازية» ثم ما شهدته فيما بعد من انتكاسة لهذه الصحوة ، فقد تأثر الفاطميون بهذه المعطيات إلى حد كبير ، بل واسهموا فى هذه التغيرات ، فلم يخرج عصرهم عن هذا الإطار من حيث القوة والضعف .

وإن كانت هناك بعض الفترات التي شهدت محاولات للإصلاح مع بدر الجمالى وابنه الأفضل ثم المأمون البطائحي ، لكنها لم تستطع أن تحدث تأثيرات ذات شأن ، بسبب سير الدولة الفاطمية إلى منتهاها ارتباطاً بطبيعة الفترة التي شهدها العالم الإسلامى خلال القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى .

ومقابل هذه السياسة المالية امتلأت قصورهم بالأموال ، وحسبنا على ذلك تلك الخزائن التي حواها قصر الخلافة ، كما أن المصادر لا تخلو من نصوص صريحة تؤكد هذا الثراء ، فضلاً عن مزاحمة الرعية فى كافة الشؤون المتعلقة بالمال . وبذلك اختلفت الصيغة النظرية عن الواقع إلى حد كبير ، واختلف القالب النظرى الذى قدم

للمصريين مع الفتح ومن خلال كتب الدعوة عندما اصطدم بواقع التطبيق العملى ، فلم يتحقق ما وعد به الفاطميون أهل مصر ، لأنه يتعارض مع تحقيق آمالهم التوسعية ولم يكن سوى برنامجاً دعائياً لتحقيق ما هدفوا إليه ، وخالفت بذلك الدولة ما سطرته مع ما مارسته ، فجاءت الصورة فى أحسن الظروف مشوهة لمثالية لم تحدث !! .

المجريون فى منطقة الدانوب الأوسط وحملاتهم على مملكة الفرنجة *

(٨٩٦ - ٩٥٥ م)

هانئ عبد الهادى البشير

مصر

يعتبر أصل المجريين من الألفاز التى حيرت المؤرخين أمدا طويلا وثار حولها كثير من الجدل ، وكل ما نعرفه عنهم أنهم بداء نشأوا فى جبال الأورال ، وكانت مفردات لغتهم ذات أصل فينو - أوجريان Finno-Ugrian . وهى لغة وثيقة الصلة باللغات الموجودة حاليا فى سيبيريا Siberia ، ويتحدث بها عدد من الشعوب التى عاشت فى جبال الأورال الشمالية ، مما يدل على أن المجريين كانوا على صلة وثيقة بهذه الشعوب قرب جبال الأورال . ومع أن المجريين عندما وردوا لأول مرة بأحد المصادر البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى ، كانوا متسمين بخصائص تركية مختلفة وكانت بعض أسمائهم الشخصية والقبلية وألقابهم الشرفية ترجع لأصل تركى ، فضلا عن كون لغتهم غنية بعناصر تركية ، فإنهم لم تربطهم أى صلة قرابة بالشعوب السلافية والتركية المقيمة فى السهوب ، مما يعنى أن أقاربهم الوحيدة من الترك هم الفنلنديون الذين أصبحوا بمرور الوقت بعيدين عنهم من الناحية الجغرافية . لذلك من الضروري عند تحرى التاريخ الباكر للمجريين أن نأخذ فى الاعتبار فقط من الشعوب التركية التى اتصلت بها خلال فترة هجراتهم وكان لها دور فى تكوينهم (١) .

* أقدم بخالص الشكر والتقدير إلى كل من أستاذى الدكتور / وسام عبد العزيز فرج ، والأستاذة الدكتورة / إيلي عبد الجواد إسماعيل ، على تجشهما عناء قراءة هذا البحث ، وعلى ما أبدوه من ملاحظات قيمة أثرت هذا البحث ، وجزاها الله خيرا . وتجدر الإشارة إلى أن هذا البحث ألقى فى "سمنار" التاريخ الإسلامى والوسيط ، بكلية الآداب - جامعة عين شمس عام ٢٠٠٢م .

(١) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٠ ؛ كيستر : القبيلة ، ص ٩٨ ، انظر أيضا :

The Russian Primary Chronicle, p.62 ; Macartney., Magyars, p.1 ; Moravcsik., Hungary, p.566 ; Fliche., Histoire, p.17.

تعتبر كلمة أونجر Ouyroi " أى السهام العشرة أو القبائل العشرة " من أكثر الصيغ العرقية التى وردت فى المصادر البيزنطية عن المجريين ، واشتقت منها أسماء متنوعة موجودة حتى يومنا هذا بين شعوب أوربا ، منها فنجرى Vengri باللغة الروسية ، وأونجارن Ungarn بالألمانية ، ومجريون

كانت المنطقة الممتدة من حدود الأورال حتى القوقاز جنوبا ومنها غربا حتى جبال الكربات هي المنطقة التي جرت فيها هذه الهجرات ؛ ذلك أنه في تاريخ مجهول من القرون الأولى للتقويم المسيحي طردت هذه القبيلة البدوية من موطنها السابق في جبال الأورال وهاجرت جنوبا عبر السهوب وانتهى الأمر باستقرارها في الإقليم الواقع بين نهري الدون وكوبان وبالتالي جاورا الخزر (١) . ثم أصبحوا بمرور الوقت

Hungarians بالإنجليزية ، ومجرى Hongrois بالفرنسية وأونجرس Ungheresi بالإيطالية وهكذا... في حين أن لفظ مجرى Magyar هو الاسم الذي أطلقوه على أنفسهم منذ زمن سحيق ، ولعلها تكون مشتقة من اسم طائفة مجريز Megeris إحدى طوائف الكاباروي Kabaroi الثلاث . ولكن متى سماهم البيزنطيون بالترك؟ في حدود معلوماتنا، أطلق البيزنطيون عليهم هذا الاسم بدلا من اسم أونجر ، بدءا من القرن العاشر الميلادي (مثلا ورد لدى قسطنطين السابع)؛ ذلك أن البيزنطيين أطلقوا اسم الترك على خمسة أمم هم، الأتراك الخلفاء (مؤسسي إمبراطورية الترك العظمى في القرن الخامس الميلادي) ، والتوكيو Tu-kiue ، والسلاجقة ، والأتراك العثمانيين ، إضافة إلى المجريين ، الذين حملوا هذا الاسم بعد التحالف الذي جرى بينهم وبين قبيلة الكابار Kabars أو الكافار Kavars (من سلالة الخزر) التركية . انظر :

قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٣ ؛ كيستر : القبيلة ، ص ٩٨ ، انظر أيضا :

Macartney ., Magyars , pp. 124-125 ; Lewiciki., Hongrois,p.49; Vernadsky.,Lebedia ,p.185 ;Bury., Eastern,p.492; Moravcsik,Hungary .,p.566.

أما عن الأسماء التي ورد بها المجريون في المصادر العربية فمنها المجرية ، والماجار ، والباشقرد ، والترك ، والهنكر ، وغيرها ، انظر :

الكرديزي : الأخبار ، ص ٤٦٩-٤٧١ ؛ الأصطخرى : مسالك ، ص ١٣١ ؛ ليلي عبد الجواد : بلاد المجر ، ص ٣٩-٤٤ ، انظر أيضا :

Kaldy- Nagy., Madjar,pp.1010-1014; Bury., Eastern,p.492.

لمزيد من التفاصيل حول كلمة ترك ، انظر :

Macartney., Magyars,pp.124-134 .

Moravcsik., Hungary,p.566.

(١)

انظر أيضا : كيستر : القبيلة ، ص ٩٧ .

أخذ الخزر أسمهم من خزر بن يافث بن نوح عليه السلام ، وهم شعب تركي الأصل ينتمي إلى طراز قبلي أو شبه قبلي غير سامي نزع من أواسط آسيا إلى ما يسمى فيما بعد بخزريا أو إقليم الخزر بين المجري الأدنى لنهر الفولجا والمنحدرات الشمالية للقوقاز حول بحر آزوف وغربا

من رعاياهم . وتعتبر علاقة المجرين بالخزر من الأمور الصعبة التي زاد من تعقيدها أن المصادر لم تحدد تاريخاً معيناً لهجرة المجرين عبر الدون أو تحالفهم مع الخزر . لذلك بذل المحدثون جهوداً مضنية لكشف الغموض ، أسفرت عن أن هجرة المجرين إلى المنطقة الأخيرة كانت بين عامي ٨٢٥ - ٨٣٠ م . أما تحالفهم مع الخزر فكان في وقت ما بين عامي ٨٤٠ - ٨٦٠ م ^(١) . أيضا اعترض بعض الباحثين على مدة السنوات الثلاث التي ذكر قسطنطين السابع أنها الفترة التي قضاها المجرئون في التبعية للخزر ، وخلص إلى أن النص ربما حُرف من ثلاثمائة سنة إلى ثلاث سنوات ، ولو صح هذا الافتراض لوجب إعادة النظر في الدور الذي لعبه هؤلاء المجرين في الناحيتين السياسية والاجتماعية في جنوب روسيا ^(٢) .

على أي حال ، يبدو أن انهماك الخزر والمجرين في الصراع مع جيرانهم حال دون نشوب خلافات بينهم ^(٣) . وبلغ الوفاق بين الجانبين أن قام المجرئون بجمع

حتى أطراف أوربا الشرقية وسواحل البحر الأسود. وما يزال أمر الخزر صعبا بالنسبة للمؤرخين لصعوبة التعامل مع مصادر تاريخهم لكونها مكتوبة بلغات مختلفة يصعب الإلمام بها، انظر : محمد مرسى الشيخ : الخزر ، ص ٣٤٩-٣٥٣ ، بطرس البستاني : دائرة ، ج ٧ ص ٣٧١ ، هاني البشير : بيزنطة ، ص ٢٧ حاشية رقم ١ ، انظر أيضا :

ODB,2,p.1127.

Macartney., Magyars,pp.108-112.

(١)

انظر أيضا : كيستلر : القبيلة ، ص ٩٧ .

رغم الغموض والاقتضاب الذي يغلب على معلومات قسطنطين السابع - أحد أهم المصادر بالنسبة للمجرين في تلك الفترة - بشأن المجرين، فإن أمة المجرين تعتبر من أكثر الأمم التي أولاها بكثير من التفاصيل إذا ما قارناها بغيرها من الأمم التي تناول تاريخها المبكر ، انظر :

DAI,II,p.146.

(٢) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٠ ، انظر أيضا :

DAI,II,p.148 ; Vernadsky., Lebedia,p.180 ;Gregoire., Origine,636.

(٣) ينقسم البلغار إلى قسمين : الفولجا والدانوب ، عرف بلغار الفولجا أيضا بالبيض واعتنقوا الإسلام في عام ٩٢٢م وأصبحت مملكتهم منذ القرن العاشر الميلادي مركزا هاما من المراكز الإسلامية في المنطقة الشمالية ، أما بلغار الدانوب فهناك صعوبة كبيرة في معرفة أصلهم ، والأرجح أنهم آسيويون ينتمون إلى أحد فروع الهون من السلالة التركية . ورغم ذلك لم يفتن المسعودي لهذا الانقسام بين

الإتاوة المفروضة على الشعوب السلافية القاطنة إلى الشمال من إقليم السهوب وغيرها نيابة عن الخزر وحققوا مكاسب كبيرة من وراء ذلك (١) .

غير أنه في حوالي عام ٨٣٠ م وبعد زحف الروس (٢) نحو الجنوب والجنوب الشرقي ، قام الخزر بتوطين المجرين في المنطقة الواقعة بين نهري الدون والدينير

البلغار وخطط وقائع هذه بوقائع تلك . وبالنسبة للبشناق فهناك أيضا اختلافات كثيرة حول أصلهم ، والأرجح هو أنهم من الشعوب التركية المنتمية إلى قبائل الغز ، التي كانت تقطن التركستان (بلاد=الترك) ، وانتهى بهم المطاف في هجرتهم إلى الاستقرار في منطقة ليبيديا Lebedia عام ٨٩٣ م ، وقد أوضح قسطنطين السابع لابنه رومانوس وهو يعظه مدى كثرة عددهم وقوة بأسهم . لمزيد من التفاصيل ، انظر :

قسطنطين السابع : إدارة ، ص ٥٦-٥٧ ؛ المسعودي : مروج ، ج ١ ص ١٥٤ ؛ الرمزي : الأخبار ، ج ١ ص ٢٨٢-٢٨٣ ؛ زكي محمد حسن : الرحالة ، ص ٢٦ ؛ هاني البشير : بيزنطة ، ص ٢٠ ، ٢٧ حاشية رقم ١ ؛ المتولى تميم : البشناق ، ص ٤٤ ، انظر أيضا :

Hudud Al- Alam,p.443.

Toynbee., Constantine,pp.418,454.

(١)

كيسلر : القبيلة، ص ٩٨.

(٢) الروس شعب من الشعوب الشمالية التي نزحت من شبه جزيرة سكنديناوة متجهة نحو البلاد التي تعرف اليوم باسم روسيا وروسيا الاتحادية وروسيا البيضاء . وقد ظهروا بهذا الاسم للمرة الأولى في الغرب الأوربي في حوليات بريتياني Bertiniani إيان حديثها عن السفارة التي أرسلها الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل Theophilus (٨٢٩-٨٤٢م) إلى الملك الفرنجي لويس التقى Louis the Pious (٨١٣-٨٤٠م) إيان العقد الرابع من القرن التاسع الميلادي يطلب منه المساعدة ضد المسلمين . أما المصادر الإسلامية فجاءت أول إشارة عنهم لدى يعقوبي إبان حديثه عن بلاد الأندلس ووصفه لمدينتها ، انظر :

DAI ,II,p.22.

اليعقوبي : البلدان ، ص ٣٥٤ ؛ طارق منصور : الروس ، ص ٢ ؛ ليلي عبد الجواد : الروس ، ص ٦ ؛ هاني البشير : بيزنطة ، ص ١٧٢ حاشية رقم ٢ .

يذكر ماركتي نقلاً عن حوليات بريتياني أن هناك سفارة روسية وصلت إلى مدينة القسطنطينية في عام ٨٣٩ م ، وعند عودتها طلبت السماح لها بالمرور عبر ألمانيا خشية من الوقوع في أيدي البرابرة المتوحشين (المقصود المجرين) . انظر :

Macartney,Magyars,p.67 .

وعرفت باسم ليبيديا Λεβεδία لصد الخطر الروسى . ونجح المجريون فى مواجهة الزحف الروسى ، مما أدى إلى توطيد العلاقة بينهم وبين الخزر الذين انخرطت أعداد غفيرة منهم بين المجريين (١) .

لم يستمر هذا الوفاق طويلاً ؛ ذلك أن المصادر تخبرنا — دون ذكر أسباب — أن خاقان الخزر أرسل سفارة إلى القسطنطينية يطلب من الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩ — ٨٤٢م) بناء قلعة ساركل (تعنى كلمة ساركل فى لغتهم البيت الأبيض) — بالقرب من مصب نهر الدانوب — لمواجهة غارات أمة قريبة (٢) . رأى البعض أن المقصود هم البشناق ، لكن البشناق كانوا ما يزالون يعيشون بعيداً عن الدون (٣) ، فى حين رأى البعض الآخر أن المقصود هم الروس . غير أن أغلب الآراء ترجح أن بناء قلعة ساركل كان بهدف مواجهة غارات المجريين (٤) . وفى كل الأحوال لم تمض فترة

(١) DAI, II, p.148; Toynbee., Constantine, p.454.

انظر أيضاً : كيستلر : القبيلة ، ص ٩٨-٩٩ .

رغم أن اسم ليبيديا يبدو أنه يونانى الشكل شأنه شأن غيره من الأسماء — كألانيا Αλάνια وتركيا Τουρκيا وخزريا Χαζαρια وغيرها — فالأرجح أن المجريين هم الذين أطلقوه على الإقليم الذى أقاموا فيه بين نهري الدون والدينير . وقد استقوا هذا الاسم من اسم زعيمهم ليبيداس تقديراً لمكانته ومنزلة الرفيعة بوصفه أول زعيم لهم . لمزيد من التفاصيل انظر :

قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٣٩ ؛ كيستلر : القبيلة ، ص ٩٨-٩٩ ، انظر أيضاً :

DAI, II, p.147.

لمزيد من التفاصيل حول أصل هذا الاسم ، انظر :

Macartney., Magyars, pp.90-94.

لمعرفة موقع ليبيديا ، انظر الخريطة فى نهاية البحث .

(٢) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٧ — ١٤٨ ، انظر أيضاً :

Theophanes Cont, p.122 ; Cedrenus, Historiarum, II, p.528; Macartney, Magyars, p.74; Obolensky., Crimea , p.128.

DAI, II, p.155; Theophanes Cont, p.122. Cedrenus, Historiarum, II, p.528 . (٣)

DAI, II, p.155; Bury., Eastern, p.417 ; Macartney., Magyars, p.74; Obolensky., Crimea (٤) ., p.128.

ذكر كرينوس قلعة ساركل باسم قلعة ماركل Markel . انظر :

Cedrenus., Historiarum, II, p.528.

طويلة حتى وجد المجريون أنفسهم — تحت ضغط البشناق — مضطرين إلى الرحيل عن السهوب الأوراسية ، وانقسموا إلى قسمين : الأول ذهب ليعيش في القوقاز ، والثاني تحرك باتجاه الغرب وأقام عند مصب نهر الدون . غير أن البشناق أغاروا على الأخيرين في عام ٨٨٨/٨٨٩م ودفعوا بهم غربا إلى المنطقة الواقعة بين نهري الدنيبر وسرت التي أطلقوا عليها اسم أتل-كوز Etel-Koz " أرض ما بين النهرين " واستقروا بها (١) .

لا تزال ظروف هجرة المجريين على النحو السابق موضع جدل ، حاول بعض الباحثين أن يثبت عن طريق التخمين أن اسم أتل-كوز وليبيديا كانا اسمين لمنطقة واحدة . لكن يصعب — من وجهة نظر الباحث — التسليم بذلك لأن جعل المنطقتين منطقة واحدة لا يتفق وسير الأحداث من ناحية ، إضافة إلى ما استنتجه بعض المحدثين من أن أتل-كوز ، كانت تقع إلى الغرب من ليبيديا ويفهم ذلك ضمنا من عدد الأنهار التي مروا بها داخل أتل-كوز وكذلك ترتيبها ؛ ذلك أن اتجاه المجريين خلال مرورهم كان من الشرق إلى الغرب ، من ناحية أخرى (٢) .

كيفما كان الأمر ، لم تكن منطقة أتل-كوز هي المقر الأخير للمجريين ؛ ذلك أن الظروف السياسية المحيطة بهم دفعتهم لتركها بعد فترة قصيرة . ففي عام ٨٩٤-

(١) فسطنطين السابع : إدارة ن ص ١٤٠ ، كيستلر : القبيلة ، ص ١٠١-١٠٢ ، انظر أيضا : Macartney., Magyars,p.108.

(٢) DAI,II,p.148 ; Macartney,Magyars,pp.90-96; Vernadsky., Lebedia,p.186.

انظر أيضا : كيستلر : القبيلة ، ص ١٠٢ ؛ المتولى تميم : البشناق ، ص ٦٥.

ذكر فسطنطين السابع الأنهار الموجودة داخل أتل-كوز وهي — من الشرق إلى الغرب — باروخ Βαρουχ (الدنيبر) ، كوفو Kouβou (بوج Buy) ، ترولوس Τρουλλος (الدنيستر) ، بروتوس Βρουτος (برت Prut) ، سيرتوس Σερετος (سرت Seret) . ورغم ذلك فسررها البعض على أنها تتطابق مع منطقة ليبيديا . انظر :

فسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٢ ، انظر أيضا :

Macartney., Magyars,p.82; Vernadsky., Lebedia,p.186.

لمزيد من التفاصيل عن جغرافية ليبيديا وأتل-كوز ، انظر :

المتولى تميم : البشناق ، ص ٦٢-٦٥.

٨٩٥م ، وفى غمرة صراع بيزنطة مع جيرانها المسلمين فى الشرق ، والبغار فى الشمال ، أرسل الإمبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦ — ٩١٢م) سفارة بقيادة المدعو نيكيتاس سكليروس Niketas Skleros ومعه العطايا الجزيلة كى يحرض المجريين على مهاجمة البغار من ناحية الشمال . ولم يجد المبعوث الإمبراطورى صعوبة فى إقناع المجريين بالقيام بهذه المهمة . وبناء على ذلك قام الأسطول البيزنطى بنقل المجريين إلى شمال بلغاريا حيث أوقعوا بها خسائر فادحة وواصلوا الزحف حتى العاصمة بريسلاف ، ولم يتركوا بلغاريا إلا بعد أن طلب منهم الإمبراطور ليو السادس ذلك إثر توصله إلى اتفاق مع العاهل البلغارى سيميون (٨٩٣ — ٩٢٧م) . ولكى ينتقم الأخير منهم ، تحالف مع البشناق ضدهم ، وانتهاز فرصة خروجهم فى عام ٨٩٦م فى إحدى الحملات وهاجم هو والبشناق بلادهم وطردهم من كانوا يقومون بأعمال الحراسة وقضوا على الكثيرين من عائلاتهم . وبمجرد أن عاد المجريون من حملتهم ورأوا ما حل ببلادهم من دمار هجروها واتجهوا نحو الغرب والشمال الغربى بقيادة زعيمهم أرباد Arpad ، فاجتاز بعضهم ممرات جبال الكربات ، والتف بعضهم الآخر حول هذه الجبال وعبر من خلال البوابة الحديدية Iron Gate وأقاموا فى سهل بانونيا ^(١) بين نهري تيزا Tizza والدانوب الأوسط ^(٢) (ضمن دولة

^(١) بانونيا : منطقة على نهر الدانوب يقع معظمها اليوم فى هنغارية (المجر) ، انظر :

اينهارد : سيرة ، ص ٩٠ حاشية رقم ١ .

^(٢) ينبع نهر تيزا من جبال الكربات ويجرى من الشمال إلى الجنوب موازيا تقريبا للدانوب ، وهو

يصرف مياه الجزء الشرقى للسهل الكبير . ويتميز مجراه بكثرة المنعطفات ، ويكتنفه الكثير من البحيرات المتقطعة . انظر :

جودة حسنين جودة وآخرون : الجغرافيا ، ص ٤١٣ ، وانظر الخريطة أيضا .

أما نهر الدانوب ، فهو ثانى أطول نهر فى أوربا ينبع من الغابة السوداء فى ألمانيا ويجرى عبر ثمانية بلاد (من بينها المجر وهو النهر الرئيس بها حيث يبلغ طوله بها زهاء ٤١٠ كم ويجرى بأرضها باتجاه غربى شرقى) ويصب فى البحر الأسود . طول نهر الدانوب نحو ٢٨١٦ كم ، وينقسم إلى ثلاثة أجزاء شبه متساوية : الأعلى (أسفل فيينا Viena) والأوسط (أسفل البوابة الحديدية ، قرب أورسوا Orsova رومانيا) والألسنة الجنوبية . وتصب بنهر الدانوب مجموعة من الأنهار مثل درافا =

المجر اليوم فى وسط أوربا) بين السكان هناك من السلوفينيين Slovenes والموراف (١) . وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال ، لماذا اتجه المجرىون نحو بانونيا ؟ يؤيد الباحث ما ذهب إليه المؤرخ المجرى مورافسك Moravcsik ، من أن فتحهم هذه المنطقة جاء نتيجة غير مباشرة للسياسة البيزنطية (٢) ؛ ذلك أن القيصر البلغارى سيميون كان قد تعلم الدرس من بيزنطة وهو تحريض قوة ضد أخرى ، وطبقه مع المجرىين ونجح فى ذلك . ولكنه دفع هو الآخر ثمن تصرفه هذا - فيما بعد - فاستقرارهم

Drava= وسافا Sava ومورافا Morava ؛ ذلك أن الأنهار فى شمال البلقان تجرى إما تجاه الشرق أو الشمال الشرقى أو تجرى مباشرة لتصب فى نهر الدانوب . ويعتبر نهر الدانوب أعظم الأنهار أهمية فى وسط وشرق أوربا ، وكان أوسطه مسرحا للصراع بين بيزنطة ومملكة الفرنجة نحو منتصف القرن التاسع الميلادى بغية السيطرة على السلاف القاطنين هناك . انظر : اينهارد : سيرة ، ص ٩٧ ، حاشية رقم ٣ ؛ وسام فرج : قراءة ، ص ١٥١ ؛ جودة حسنين جودة ، وآخرون : الجغرافيا ، ص ٤١٣ ، انظر أيضا :

ODB,I,p.586.

(١) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٣ ؛ هانى البشير : بيزنطة ، ص ١٢٩-١٣١ ؛ المتولى تميم : البشناق ، ص ٦٠-٦١ ، انظر أيضا :

DAI.,II,p.146 ; Symeon Magister .,p.702; Theophanes Cont.,p.359; Georgius Mon Cont., pp.854-855; Stephenson., Hungary,p.106; Fliche., Histoire,p.17 ; Oman., Ages,p.471; Obolensky., Commonwealth,pp106,154; Vasiliev., Empire,p.316.

تجدر الإشارة إلى أن مسألة التحالف بين البلغار والبشناق ضد المجرىين انفرد بها قسطنطين السابع وحده، انظر :

DAI.,II,p.151.

ذكر المؤرخ المجرى سيمون الكيزى أن المجرىين حينما عبروا ممرات جبال الكربات كان عندهم نحو سبعة قبائل ، استقرت كل قبيلة فى المنطقة التى تراءت لها بالسهل البانونى . وكانت أول قبيلة منهم بزعامة أرباد بن ألموس Almos ابن إلود Elod ابن وجيك Ugyek ، لذا استولت على أفضل منطقة من حيث الموقع والثروة (التي أقيمت عليها فيما بعد مدينة Sz ekesfehervar . وتمتع أرباد شأن أفراد عائلته من قبل بأعلى مكانة بين القبائل المجرية وكانت له القوامة عليهم ، انظر :

Simonis of Keza., Hungarorum,p.81-83.

لمزيد من المعلومات حول باقى القبائل المجرية السبع وأماكن استقرارها ، انظر :

Simonis of Keza., Hungarorum,pp.83-85 .

Moravcsik.,Hungary,,p.569.

(٢)

وتوسّعهم ناحية الشرق ، أدى إلى تحكمهم فى مصادر إنتاج الملح فى ترانسلفانيا Transylvania فكانت خسارة بلغاريا فادحة ، وجعلت سيميون يعيد النظر فى حساباته ولكن بعد فوات الأوان ^(١) . أيضا ربما كانت معرفتهم السابقة لبانونيا — لأنها لم تكن المرة الأولى التى يزورنها ، فقد مروا بها أكثر من مرة أبان حملاتهم ناحية الغرب ^(٢) — ، سببا رئيسا لاختيارها ؛ لما تتمتع به من تربة خصبة ومناخ يلائم الإقامة والاستقرار ^(٣) . أيضا لا نستبعد دورا لعبته الدبلوماسية البيزنطية لتوجيه المجريين نحو بانونيا ، فبعد نجاح التحالف معهم ضد بلغاريا — العدو اللدود فى تلك الفترة — رأت أنهم من الممكن أن يلعبوا نفس الدور مرة أخرى ليس ضد بلغاريا فحسب ، بل ضد مملكة الفرنجة التى — أيضا — كانت تنافس بيزنطة السيادة على سلاف الدانوب الأوسط ، ولتحقيق ذلك لم يكن هناك — من الناحية الجغرافية — أفضل من بانونيا .

ساعدت الأوضاع التى كانت تمر بها كل من مملكة مورافيا العظمى ومملكة الفرنجة ، على استقرار المجريين فى وطنهم الجديد ونجاحهم فى تأسيس دولتهم الفتية فى العصور الوسطى ؛ ذلك أن إمبراطورية مورافيا العظمى ، التى سبق أن بلغت شأوا عظيما على عهد عاقلها راستيسلاف Rastislav (٨٤٦-٨٦٩م) وامتدت حدودها لتشمل ما يعرف اليوم بالنمسا والمجر وتشكوسلوفاكيا ، قد أخذت تعاني من بعض المشاكل الداخلية بعد وفاة حاكمها سفاتوبلك Svatoblk (٨٧٠-٨٩٤م) ، فبعد حوالى عام من وفاته نشبت خلافات على العرش بين أبنائه ، ولم يتمكن الابن الأكبر موجمير الثانى Mogmir II — الذى خلف والده على العرش — من تحقيق الوئام مع

Stephenson., Hungary, pp.107-108.

(١)

(٢) لمعرفة بعض المرات التى اجتازوا فيها بانونيا من قبل على سبيل المثال ، راجع :

Simonis de Keza., Hungarorum, pp.75-77.

(٣) لمعرفة جغرافية بانونيا راجع :

جودة حسنين جودة : الجغرافيا ، ص ٤١١-٤٢٥.

إخوته ، مما دفع أخوه الأصغر سفاتوبلك الثانى إلى طلب مساعدة جيرانه الفرنجة عام ٨٩٨م ضده (١) .

فى غضون ذلك كانت مملكة الفرنجة الكارولنجيين تمر هى الأخرى بمرحلة حرجة من تاريخها ، منذ تقسيمها عام ٨٤٣م بين أحفاد شارلمان بموجب اتفاقية فردان الشهيرة ، التى مزقت وحدة الإمبراطورية الكارولنجية وحملت فى طياتها ملامح بعض الدول الحديثة (٢) . ثم جاءت وفاة شارل السمين عام ٨٨٨م لتقضى وبصورة نهائية على أى محاولة لإعادة الوحدة الكارولنجية ، لتتسأ على أنقاض الإمبراطورية الكارولنجية بعد ذلك الدول الثلاث ألمانيا (الشق الشرقى من مملكة الفرنجة) وفرنسا (الشق الغربى) وإيطاليا (٣) .

حينما طلب سفاتوبلك الثانى مساعدة الفرنجة كان حاكمهم هو الإمبراطور أرنولف Arnulf (٨٨٧-٨٩٩م) - الملك السابق لبافاريا Bavaria - ، الذى كان يملك المورافيين ، لما سبق أن فعله إمبراطورهم سفاتوبلك ، حين استغل ما ألم بالسلطة الملكية فى الجزء الشرقى من مملكة الفرنجة - ألمانيا - وضم إلى بلاده جزءا من بانونيا الفرنجية ، فضلا عن انقلابه فى أخريات أيامه ضد رجال الدين

(١) قسطنطين السابع : إدارة ، ص ١٤٦ ، انظر أيضا : Dvornik., Les Slaves, p.97; Fliche., Histoire, pp.17-18.

عن أصل كلمة مورافيا ، ومتى سميت بمورافيا العظمى ، انظر : هانئ البشير : مورافيا ، ص ٦٠٦ ، حاشية رقم ١ .

(٢) قسمت مملكة الفرنجة بموجب اتفاقية فردان إلى ثلاثة أقسام : قسم شرقى يحكمه الألمانى لويس ويشمل الأراضى التى كونت ألمانيا فيما بعد ، وأهم مقاطعاته (بافاريا - سوابيا - سكسونيا) ، قسم غربى يحكمه شارل الأصغر - الابن الثانى للويس الثانى - وشمل الأراضى التى كونت فرنسا فيما بعد وأهم مقاطعاته (نسترى ، وأقطانيا) وقسم ثالث يقع بين القسمين الشرقى والغربى ويشمل حوض الراين وإيطاليا ، وكان من نصيب لوثر الابن للويس الثانى ، انظر : محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٢٦ .

(٣) Mckitterick., Frankish, p.176.

انظر أيضا : محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٢٦-٢٧ ؛ هيلستر : أوربا ، ص ١٢٦ .

الفرنجة في بلاده ، وقيامه بطرد كبيرهم وشنج Wiching — أسقف نيترا — متذرعاً بأن مآربه أصبحت سياسية أكثر منها دينية . ولعل هذا ما جعل أرنولف يوجه حملتين ضد مورافيا في عامي ٨٩٢، ٨٩٣م ، ثم جاء موجمير الثاني ليؤجج هذه العداوة — رغم حرصه هو وأخوه سفاتوبلك الثاني منذ البداية على عقد صلح مع أرنولف وأوشكا على تحقيقه — حينما شرع هو الآخر في إعادة تنظيم الكنيسة المورافية ، وطلب من بابا روما — كخطوة على طريق الاستقلال الديني — أن يعين له رئيس أساقفة ومجموعة من رجال الدين ليمارسوا مهمة التبشير بين أفراد شعبه ، وبالفعل وافق البابا حنا التاسع Jean IX (٨٩٨-٩٠٠م) ورسم لمورافيا رئيس أساقفة ومجموعة من رجال الدين ، مما أدى إلى تراجع نشاط من تبقى من رجال الدين الفرنجة في بلاده ^(١) . ولكل هذا رأى أرنولف أن الفرصة أصبحت سانحة لتفتيت مورافيا وإضعافها . وبناء على أوامره قام اثنان من الـ Margraves (الحكام العسكريين للأقاليم) وهما ليتوبولد Luitpold وأريبون Aribon على رأس جيش بالتوغل في مورافيا دون أن ينجحاً في إنقاذ سفاتوبلك الثاني من قبضة أخيه الذي ألقى به في السجن ، ولم يخرج سفاتوبلك الثاني من سجنه إلا في عام ٨٩٩م حينما تمكن البافاريون من اقتحام القصر الذي سجن به وأخرجوه منه . وكان خطأ أرنولف أنه أساء التصرف تجاه مورافيا بسعيه باستغلال الحرب الأهلية لإضعافها ، وبتأجيره بعض المرتزقة المجريين ليحاربوا إلى جوار جيشه داخل مورافيا ؛ ذلك أنه بتصرفه هذا دل المجريين على طبيعة الطرق المؤدية إلى بلاده وأوقفهم على الضعف الذي كانت تمر به مورافيا ، صحيح أنها لم تكن المرة الأولى التي يذهبون فيها إلى مورافيا

Dvornik.,Les Slaves,pp.93,97; Vlasto.,Christendom,p.83; Fliche., Histoire, (١) pp.16,note,no.7,17.

كانت دوقية بافاريا أشبه ما تكون بدولة مستقلة بأراضيها الواقعة في وادي الدانوب، ما بين نهر إن Inn ونهر لخ Lech . وكان لها تنظيمها الكنسي المستقل وترانيمها الخاصة . وقد خضعت بافاريا لحكم الفرنجة منذ عهد بيبين القصير واعترف دوقها تاسيلو (٧٤٨-٧٨٨م) بيبين القصير سيدياً له . وباعت كل محاولات تاسيلو للتخلص من هذه التبعية بالفشل . انظر :

اينهارد : سيرة ، ص ٨٣ حاشية رقم ١

، فسبق أن قاتلوا إلى جوار المورافيين ضد الفرنجة (الشرقيين) عامي ٨٦٢، ٨٨١ م^(١) ، ولكنها كانت المرة الأولى التي يزور فيها هؤلاء مملكة الفرنجة . ويعد أرنولف بذلك المسئول الأول عن توجيه المجريين نحو مورافيا وفتح الطريق أمامهم نحو بلاده فيما بعد ، وكانت عواقب ذلك وخيمة إذ دفع خلفائه من بعده الثمن غاليا^(٢) .
فهؤلاء المجريون الذين حلوا مؤخرا بسهل الدانوب الأوسط ، وكانوا مجبولين على التنقل والترحال ، كانت حرفتهم الأساسية صيد الأسماك والحيوانات . كما كان اعتمادهم الأساسي في كسب قوتهم على غنائم انتصاراتهم . لذلك ، رغم خصوبة التربة وملائمة المناخ بمنطقة الدانوب الأوسط ، لم يعملوا بالزراعة وآثروا الاكتفاء بتربية الخيل اللازمة لممارسة هوايتهم المفضلة من السلب والنهب ، خاصة وأنهم كانوا يتمتعون بمهارة منقطعة النظير في الرماية والفروسية ، واشتهروا بأنهم لا يقهرون بفضل صرخاتهم المدوية^(٣) وقسوتهم الشديدة . وبعد أن لفت العاهل الألماني نظرهم نحو بلاده ، وجدوا في ألمانيا وإيطاليا وأحيانا فرنسا حقلًا خصبا لشن الحملات المدمرة^(٤) .

كان بقاء أرنولف على قيد الحياة وقيامه على مقربة منهم بتطهير بعض سهول الدانوب من السلاف ، سبباً في تخليهم لبعض الوقت عن ألمانيا ، والاتجاه نحو إيطاليا التي عانت عقب وفاة إمبراطورها لامبرت الثالث Lambert (٨٩١-٨٩٨م) الأمرين

(١) Stephenson., Hungary, pp.105-106; Bakay., Hungary, p.536.

(٢) Fliche., Histoire, pp.17-18 ; Oman., Ages, p.471. Bloch., Society, vol.1, p.9 ; Davis., Europe , p.168.

ما يزال تاريخ مجئ المجريين إلى مورافيا بعد وفاة سفاتويك ، موضع نقاش بين الدارسين ، ولا يوجد رأي قاطع بشأنه ، انظر :

DAI, II, p.153.

(٣) تذكر سيرة قسطنطين أنه مر— وهو في طريقه إلى بلاد الخزر على رأس بعثة تبشيرية— عام ٨٦١م ببعض المجريين وسمع لهم عواء مثل النئاب ، ولما رأوه أرادوا أن يقتلوه ، لولا أن سمعوه يرثل بعض الترانيم الدينية فتركوه . انظر :

Vita Constantini ., p.45 ; Nikolov., Magyar, p.86.

(٤) Fliche., Histoire, pp.17-18; Thompson., History, p.166; Bloch., Society, vol.1, p.9; Lane Poole., Germany, p.182.

من جراء التهديد الألماني من الخارج والاضطرابات الشديدة — بسبب الصراع على الحكم — في الداخل (١) .

وظهر المجرىون لأول مرة في إيطاليا عام ٨٩٩ - ٩٠٠ م ، وذلك عندما أغاروا من مستوطناتهم على نهر الثيس - وربما بتحريض من أرنولف أيضاً نكاية في عدوه العاهل الإيطالي الجديد برنجار Berengar - على فنيتو Veneto الحالية وأوقعوا بها ضرراً بالغاً ثم انسحبوا إلى ديارهم . ثم استأنفوا الكرة مرة أخرى في العام التالي بعد أن حشدوا عددا ضخماً شق طريقه من أكوليا Aquileia وفيرونا Verona حتى بافيا Pavia ، وقاموا بنهب سهول الشمال الإيطالي . وحينئذ حاول الإمبراطور الجديد برنجار — الذي شجع هو الآخر المجرىين فيما بعد على الاستيلاء على ما تبقى من بانونيا رداً على تحريض أرنولف — أن يكون على قدر المسؤولية ويواجه هذا الخطر (٢) فأرسل الرسائل والرسائل لسكان إيطاليا من التوسكانيين والفوليشيان Volscians و السبوليتو Spoleto يأمرهم أن يتحدوا معا في مواجهة هؤلاء الأعداء . فتجمع جيشاً قوامه نحو ١٥ ألف جندي . ولما رأى المجرىون ذلك انتابهم الرعب وبعد تردد قصير بدا لهم أن الفرار أفضل من القتال ، وأخذوا في عبور نهر آدا Adda ، فغرقت منهم أعداد كبيرة أثناء عبور النهر ، ولذلك أرسلوا يعرضون على برنجار تسليمه كل ما بحوزتهم من غنائم مقابل السماح لهم بالعودة إلى أوطانهم آمينين . ولكن رفض برنجار عرضهم باستهزاء ، وبدأ أتباعه — وكانهم واثقين من النصر — يبحثون عن السلاسل التي يقيدون بها من سيأسرونه من المجرىين (٣) .

ولما لم يجد المجرىون بدا من القتال بدأوا في تنفيذ خطة مكررة ؛ بأن أخذوا ينتهقون حتى وصلوا السهول الواسعة المحيطة بفيرونا وهناك جرت مناوشات بين

(١) Previte-Orton., Italy, p.148.

(٢) Stephenson., Hungary, p.107; Previte-Orton., Italy, p.148; Oman ., Ages, p.465.

انظر أيضاً : سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ص ٢٩٥ ؛ نعيم فرح : أوربا ، ص ١١٢-١١٣ .

(٣) Liutprand of Cremona, pp. 75-76 ; Previte-Orton., Italy, p.148.

الجانبين كانت الغلبة فيها للمجريين ، الذين أخذوا يستأنفون مسيرتهم التفهيرية مرة أخرى بمجرد أن علموا أن هناك تعزيزات عسكرية فى الطريق إلى أعدائهم ، وانتهى الأمر بوصول الجانبين إلى نهر برنتا Brenta . غير أن المجريين أصبحوا منهكين من كثرة التنقل وأثر ذلك فى معنوياتهم ، وفكروا فى أن يتخلى كل منهم عما بحوزته من أسلاب وأسرى ويحتفظ فقط بحصان واحد ينجو به . وزيادة فى الأمان أرسلوا إلى برنجار وأتباعه يتعهدون لهم بعدم مهاجمة أراضيهم مرة أخرى إذا سمحوا لهم بالرحيل دون أذى ، ولتأكيد عهدهم سيسلمونهم أبناءهم رهائن لديهم ، ولكن كان ذلك دون جدوى حيث قوبلت كل عروضهم بالرفض مرة أخرى (١) . ولما انقطعت بهم كل السبل أقبل بعضهم على بعض وبدأ الشجعان منهم يهدءون من روع الخائفين ويسدونهم النصائح الحماسية " لماذا نخاف من الاندفاع نحو سيوف أعدائنا ؟ أليس من الأفضل أن نسلم أمرنا إلى قدرنا لا إلى جبننا ؟ لا تظنوا أن الرجال الذين يقتلون فى أرض المعركة أمواتا بل أحياء ! يجب أن نكون على ثقة بأنفسنا وبخبرتنا فكم من مرة انتصرت فئة قليلة منا على فئة أكثر عددا وعدة ! " . وأعدوا على إثر هذه النصائح كميناً للأعداء ؛ بأن عبروا النهر متجهين مباشرة صوب وسط صفوفهم وفى وقت كان جنود برنجار قد نزلوا عن خيولهم ليتناولوا الطعام بعدما أضناهم طول انتظار دخول المعركة . فانقض المجريون عليهم يحصدون رقابهم بسيوفهم المستلة ، وتعقبوا من لاذ منهم بالفرار دون أن تأخذهم بهم رافة . نجم عن هذه المعركة أن ظل سهل اللبارد مسرحا لتجوال المجريين ما يقرب من عام كامل ، ولم يوقف ذلك ويخفف ألم هذه الهزيمة ، إلا هزيمة بحرية حاقت بالمجريين على أيدى دوق البندقية بترو تريبنو Pietro Tribuno حينما حاولوا الاعتداء على مدينته عام ٩٠٠م (٢) .

(١) Liudprand of Cremona, pp. 76-77; Guldencrone., L'Italie, p. 319.

(٢) Liudprand of Cremona, pp. 77-78 ; Previte., Orton Italy, p. 148.

بدلا من أن يرجع ليودبراند الكريمنى (٩٢٠-٩٧٢م) الهزيمة التى حاقت بجيش برنجار إلى أسباب منطقية كإهمال وسوء التنظيم .. وغيره ، نراه ينكر كل ذلك وينكر أن نصر المجريين عند نهر برنتا لا يرجع إلى بسالتهم بقدر ما كان عقابا إلهيا سبق أن توعد به الرب كل العصاة فى شخص بنى

فى نفس الوقت الذى كانت تعاني فيه إيطاليا من جراء الغزو المجرى ، توفى
أرنولف ملك ألمانيا فى ٨ ديسمبر عام ٨٩٩م ، وخلفه على العرش ابنه لويس الثالث
، وكان صبيا فى السادسة من عمره ، وتم تتويجه فى شهر فبراير عام ٩٠٠م ملكا
على ألمانيا . كان اعتلاء لويس الثالث العرش بمثابة كارثة ؛ إذ كانت البلاد فى حاجة
إلى قائد عسكري من الطراز الأول يستطيع مواجهة أعدائها من المجرين
وغيرهم (١) . ففى فترة الأحد عشر عاما التى حكم فيها البلاد حكما اسما ، قويت
النزعة الإقطاعية عند الأمراء الألمان وجاءت هذه النزعة مصحوبة بروح عنصرية
قوية وعصبية قبلية واضحة ، مما ساعد على استمرار الحروب والمنازعات فيما
بينهم ، وغدا لكل قسم من الأقسام الأربعة الرئيسة التى تألفت منها ألمانيا —
فرانكونيا وسوابيا وبافاريا وسكسونيا — دوقا يرثه ابنه فى منصبه . كان هؤلاء
الدوقات المحليون — من دينيين وعلمانيين — لا يجرءون من قبل على الثورة والتمرد
ما دام هناك ملك قوى على رأس الدولة ، فلما تولى لويس الثالث الحكم أخذوا
يتحركون ويشتبكون مع بعضهم البعض فى منازعات طويلة وحروب دامية أضرت
بالبلاد ضررا جسيما ، وزاد الطين بلة اشتداد إغارات المجرين وعدم انقطاعها عن
ألمانيا عقب وفاة أرنولف (٢) . فبعد فترة قصيرة من وفاته حشد المجرىون جيشا
ضخما وطالبوا بأحقيتهم فى إقليم مارافانى Maravani ، كما اجتاحت أرض

إسرائيل وعلى لسان النبی جرمياہ Jeremiah حينما قال " انظروا ، إنتى سوف أرسل إليکم أمة
بعيدة تسودکم ، إنها أمة قوية ، أمة عتيقة ، أمة لا تعرفون لغتها . إن جعبة سهامها ستكون كالتبر
المفتوح ، فکلهم رجال أقوياء . وسوف يأكلون محاصيلکم وخبزکم ، الذى كان أولانکم وبناتکم أحق
بأكله : لسوف يلتهمون جموع طیورکم وقطعان ماشیتکم ، سیأكلون أشجارکم من العنب والتين ،
سوف يحطمون بسیوفهم منکم الحصينة التى كنتم تشعرون فيها بالأمان . إلا أننى لن أفنيکم تماما فى
تلك الأيام " انظر:

Liudprand of Cremona, pp.78-79.

(١) Dummler., Geschichte, T.III, pp.757,495-500; Fried., Frankish, p.165; Fliche.Histoire
..pp.18-19.

(٢) سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ص ٢٩٥-٢٩٦.

البافاريين Bavarians ودمروا قلاعهم وحرقوا كنائسهم وأعملوا فيهم الذبح (١) . وما إن علم لويس الثالث بالوحشية والدمار الذى أشاعوه بين شعبه ، حتى أشعل الحماس بين أتباعه وحذر الجميع بالآ يتخلف أحد منهم عن الاشتراك فى الحرب التى استعد لشنها ضدهم ، ثم خرج على رأس جيشه متجها إلى مدينة أوجسبرج Augsburg . ولكن فوجئ على نحو غير متوقع باقتراب هؤلاء الأعداء من جيشه وفى وضع يصعب فيه التراجع عن الدخول معهم فى معركة ، وكان ذلك فى سهول نهر لـخ Lech (٢) . ولم يظن العاهل الألمانى لمكر هؤلاء الأعداء ودهائهم فى نصب الكمائن حيث تظاهروا بالتقهقر واندفع الألمان خلفهم بجرأة ، وفجأة وعلى نحو غير متوقع انقضوا عليهم من كل حذب وأوقعوا بهم خسائر فادحة ، حتى أن الملك نفسه تملكه الرعب من هول المفاجأة . ولم يكتف المجرىون بالمذبحة المروعة فى صفوف الألمان ، بل لكى يشفوا صدورهم من غل ، ساروا نحو ممالك بافاريا وسوابيا وسكسونى Saxony وأحرقوا فيها الأخضر واليابس ، ولم يستطع أحد أن يقف فى وجههم ما لم يجد الحصون والقلاع التى يحتوى بها (٣) .

هكذا أثبتت الأحداث خطأ سياسة أرنولف الشرقية وتحملت ألمانيا تبعه ذلك ، وحينئذ أدرك الأوصياء على الإمبراطور الصبى مدى أهمية التعاون مع مورافيا لمواجهة عدوهم المشترك ، وبادروا بعقد سلام مع المورافيين فى عام ٩٠١م . ولكن بعد فوات الأوان ؛ ذلك أن الضعف كان قد تمكن من إمبراطورية سفاتوبلك ، التى

(١) Liudprand of Cremona, p.69.

كانت متعة المجرىين — على حد قول البعض — فى القتال وسفك الدماء ، فكانت الأم بمجرد أن تضع طفلها تقوم بشج وجهه بسكين حاد كي يترس على تحمل آلام الجروح قبيل أن يرضع من ثديها . ويمكن تصديق ذلك من مشاهدة الجروح التى يلحقونها بلحمهم كعلامة على الحزن عندما يحتضر أحد أقربائهم ، أى أن هذا الجنس الملحد كان يسفك الدماء بدلا من أن يخرق الدموع انظر :

Liudprand of Cremona , p.70.

(٢) نهر لـخ هو أحد روافد نهر الدانوب وطوله نحو ٢٨٥ كم . انظر : إينهارد : سيرة ، ص ٨٤ حاشية رقم ٣ .

(٣) Liudprand of Cremona, pp.70-71.

كانت قد عانت هي الأخرى من ويلات الهجمات المجرية. صحيح أن المورافيين أبدوا شجاعة قوية في مواجهة هذه الهجمات وحققوا بعض النجاح ، لكن لم تتمكن إمبراطوريتهم من الصمود طويلا في مواجهة هؤلاء الأعداء ، ساعد على ذلك عدم ثبات الألمان في سياستهم نحوهم ^(١) . وفي ظل هذه السياسة المتذبذبة تجاه مورافيا ، كرر الألمان خطأ أرنولف السابق ؛ بأن حرضوا المجرين ضدها في عام ٩٠٥-٩٠٦ م للقضاء عليها ، ظنا منهم أن مورافيا عادت لتوطد دعائمها في وسط أوروبا . وكأنهم لم يقدروا الخطر المجرى حق قدره ، عندما رأوا أن المجرين - رغم ما فعلوه - أقل خطرا من المورافيين. فاتجه هؤلاء الغزاة نحو مورافيا واجتاحوها ، وانتهى الأمر بقتل مومير الثاني وتدمير عاصمته إلى حد يصعب معه تحديد مكانها الآن ، وخضوع إمبراطوريته تماما للمجرين ^(٢).

كان سقوط إمبراطورية مورافيا عظيم الأهمية بالنسبة للمجرين ول مستقبل وسط أوروبا وغربها أيضا . فمنذ ذلك الوقت أخذ التاريخ المجرى دورا جديدا ، وصار من الصعب اعتبارهم مجرد بدو رحل بمعنى الكلمة ؛ حيث أخذوا في الاستقرار الدائم في السهول التي ظلت تحمل اسمهم حتى اليوم وبدءوا يطورون من نظمهم . أما بالنسبة لوسط وغرب أوروبا ، فيرى بعض المحدثين أنهما كانا في أمس الحاجة خلال هذه المرحلة إلى الاتصال المباشر مع بيزنطة ، حارسة الحضارة اليونانية والهلينية. صحيح أن الاتصال كان مقطوعا عن طريق البحر بسبب العرب ، ولكنه كان قائما من خلال أودية الدانوب والبلقان التي كان يسيطر عليها كلا من الموراف والبيزنطيين ، مما ساعد على مزج الثقافات الرومانية والبيزنطية في وسط أوروبا . ولو قدر الاستمرار لهذا الاتصال ، لكان الغرب الأوربي قد جنى ثمارا طيبة بدت آثارها في مختلف الجوانب . ولكن سقوط مورافيا قطع ما تبقى من شرايين اتصاله بمدينة

^(١) Dummler., Geschichte,T.III,pp.530-534;Fliche., Histoire,p.20.

^(٢) Bloch., Society,vol.1,p.9; Dvornik. Les Slaves,pp.97-98; Fliche., Histoire,p.20.

القسطنطينية ، وأجل استفادته من كنوز الحضارة البيزنطية لحين من الدهر (١) . ليس هذا فحسب بل كان سقوط مورايا — من وجهة نظر الباحث — واستيلاء المجرين عليها ، يعنى إقامتهم وبصفة دائمة فى منطقة حوض الدانوب الأوسط ، وأن مملكة الفرنجة ستكون المسرح والمنفذ الطبيعى لحملاتهم المدمرة ولم لا ؟ والجاران الآخران لهما كانا قد صارا على درجة كبيرة من القوة ، على الأقل فى هذه الفترة . فالإمبراطورية البيزنطية كانت قد أصبحت فى ذروة مجدها منذ تولى أباطرة الأسرة المقدونية عرشها حتى عرف عصر هذه الأسرة بالعصر الذهبى . كذلك كانت بلغاريا ، التى أصبحت تشاركها فى أحد حدودها على نهر الثيس ، قد بلغت أوج قوتها فى عصر القيصر سيميون . أما ألمانيا وإيطاليا (٢) فى ضوء جولاتهم السابقة داخلهما ، كانوا على دراية بمدى تدهور أوضاعهما الداخلية ، ولذلك كان اتجاهاهم نحوهما أمرا حتميا .

لاشك أن عواقب حملات المجرين السابقة ، كانت وخيمة على ألمانيا وإيطاليا ولا يمكن تجاهلها . فهزيمة جيش برنجار على أيديهم وقتلهم العديد من الأساقفة والنبل جعل أعداء برنجار فى الداخل بزعامة أمير توسكانيا أدالبرت الثانى

(١) Bloch., Society, vol.1, p.9; Dvornik., Les Slaves, p.98 .

(٢) فى الوقت الذى كان حكم لويس الثالث لألمانيا اسميا وكان عصره من أحلك عصور التاريخ الألمانى بسبب النزعة الإقطاعية عند الأمراء الألمان ، كانت إيطاليا هى الأخرى تمر بفترة حرجة من تاريخها ، فى الوقت الذى كان شمالها يعانى من الصراع على العرش ، كان الجنوب الإيطالى يعانى هو الآخر من الشقاق والحروب الداخلية ، وكان ذلك سببا فى عجزها عن صد غارات المجرين من جهة الشمال والوقوف فى وجه المسلمين من جهة الجنوب . وكانت أعظم قوة بها فى تلك الفترة هى بيزنطة ، منذ قام الإمبراطور باسيل الأول المقدونى (٨٦٧-٨٨٦م) وقائده نيقفور فوقاس بإحياء سطوتها فى الغرب من خلال إنشاء ثغرين كبيرين هما ثغر لونجوبارديا Longobardia وعاصمته بارى Bari وكان يضم أبوليا Apulia ولوكانيا Lucania من نهر تريجنو Trigno على الأندرياتي إلى خليج تارانطو Taranto ، والآخر ثغر كالابريا Calabria وعاصمته رجيو Reggio وحل محله ثيم صقلية المختفى ، ومع ذلك يبدو أن بيزنطة لم تول إيطاليا القدر الكافى من الاهتمام ، انظر :

Previte-Orton., Italy, pp.149-150.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ص ٢٩٥ .

Adalbert II يفكرون فى حياكة مؤامرة ضده ، وهرب برنجار بالفعل وللمرة الثانية إلى بافاريا خشية على نفسه وليسعى من هناك لتأمين عرشه المتنازع عليه (١) . كذلك كانت لهذه الحملات آثارها السلبية على الحياة فى ألمانيا بعد سلب الأراضى الزراعية وذبح أعداد لا تحصى دون تمييز بين كبير وصغير ، وارتكاب فظائع وإهانات مخزية للنساء - اللاتى اقتدن إلى الأسر عاريات وموثوقات مع بعضهن البعض من شعورهن - ومعاملة الأطفال بقسوة شديدة ، فضلا عن الدمار الذى حل بالكنيسة . وأصبحت الأزمة محتومة وانفجرت فى سوابيا منذ بداية حكم لويس الثالث وكان مقدرا لها أن تنتشر فى كل مكان (٢).

لم يمهل المجريون ألمانيا طويلا عقب استيلائهم على مورافيا. فى عام ٩٠٧م أغاروا على بافاريا وكارنثيا ، ثم انتهزوا فرصة الحرب الأهلية فى فرانكونيا وتطرقوا إلى سوابيا حتى وصلوا سكسونيا وأنزلوا هزيمة كبرى بالقوات البافارية وقتلوا ليتوبولد دوق بافاريا وذبحوا رئيس أساقفة سالزبرج وأسقى فريزنج Freising وسبن Seben وواصلوا زحفهم باجتياح الحد الشرقى لألمانيا وهى أوستمارك Ostmark البافارية (النمسا Ustria حاليا) حتى نهرالآن Inn. ودخل المجريون فى العام التالى ثورنجيا Thuringia وذبحوا دوقها مع أسقف ورزبرج Wurzburg (٣)، الأمر الذى دفع لويس الثالث - وكان قد بلغ السادسة عشر من عمره - إلى النزول إلى الميدان بنفسه لصد الخطر المجرى. وفعلا اتحد البافاريون والسوابيون والفرانكونيون تحت قيادة الملك الشاب لمحاربة هؤلاء الأعداء . ولكن كانت نتيجة هذه المعركة قاسية حيث وقع لويس الثالث وجيشه فريسة كمين محكم ونصب لهم المجريون مذبحة مروعة ، ولم ينج إلا القوات البافارية التى نجحت فى الفرار ، وأكد

Previte-Orton, Italy, p.149.

(١)

لمزيد من التفاصيل عن مؤامرة أدالبرت الثانى . انظر :

Previte-Orton, Italy, p.149.

Fliche, Histoire, pp.27-28.

(٢)

(٣) لمعرفة موقع كل من بافاريا وكارنثيا وسالزبرج وورزبرج وغيرها من الأماكن التى أغار عليها المجريون بألمانيا ، انظر الخريطة .

المجريون بذلك انتصاراتهم السابقة ، ولم يحتل لويس الثالث وطأة هذه الهزيمة ، وتوفى على أثرها عام ٩١١م بعد صراع قصير مع المرض (١) .

انتهت بوفاة لويس الثالث سلالة البيت الكارولنجي من الذكور في ألمانيا ولم يعد هذا البيت ممثلاً إلا في شخص شارل البسيط في فرنسا . وبعد كثير من الجدل والتردد بين النبلاء الألمان وقع الاختيار على كونراد الأول Conrad I دوق فرانكونيا ليخلف لويس الثالث على عرش ألمانيا . ونظرا لأنه لم يكن له مجدد موروث فقد اعتبره كبار النبلاء الألمان مجرد واحد منهم ، وثاروا ضده في العام التالي ٩١٢م بقيادة هنري Henry دوق السكسون والتورنجيين Turingians . ولكن كونراد الأول بفضل شجاعته ومثابرته نجح في قمع هذه الثورة ، ومع ذلك استبد الخوف بأحد النبلاء التأثيرين وهو أرنولد Arnold من بافاريا فاصطحب زوجته وأولاده وفر هاربا إلى المجريين وعقد العزم على البقاء عندهم طالما ظل كونراد الأول على قيد الحياة (٢) .

رغم نجاح كونراد الأول في إخماد هذه الثورة ، كانت السنوات السبع التي قضاها في الحكم مليئة بالمتاعب الداخلية والخارجية ؛ ذلك أنه في الوقت الذي أخذ السوابيون والبافارزيون يقاومون جهوده في توحيد المملكة تحت سلطته الفعلية ، أخذ المجريون في شن غارات مكثفة على ألمانيا . فتوغلوا في عام ٩١٢م داخل سوابيا وفرنكونيا وأحدثوا بهما أضرارا بالغة وشجعهم انشغال كونراد الأول بمشكلة منطقة اللورين Lorraine (٣) عن اتخاذ أى إجراء لمقاومتهم على معاودة الكرة مرة أخرى عام ٩١٣م حيث أغاروا على سوابيا وتوغلوا داخلها ، ولكن عند عودتهم واجههم أرنولف

(١) Oman., Dark, p.474.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

(٢) Liudprand of Cremona, p.79; Thompson., History, p.167.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ج ١ ، ص ٢٩٧ .

(٣) منطقة لوثرنجيا — أى مملكة لوثر — حرف اسمها إلى اللورين وهي نفس المنطقة التي مازالت حتى اليوم تمثل حلقة الانتقال بين الفرنسية والألمانية . وكانت قد أصبحت — بموجب اتفاقية فردان عام ٨٤٣م — من أملاك لوثر (حاكم الشق الغربى من مملكة الفرنجة) ، لكن لم يرض هذا حكام =

— دوق بافاريا وزعيم المعارضة ضد كونراد الأول فيما بعد — على رأس جيش قوى على مقربة من نهر الإن وأنزل بهم هزيمة ساحقة . كانت النتيجة المباشرة لهذا النصر هي أنه كفل لألمانيا نحو عام من الهدوء من جانب المجريين ^(١).

وما أن حل عام ٩١٥م حتى ظهر المجريون من جديد فى سوابيا وانطلقوا منها إلى ثورنجيا وساكس Saxe وكرروا هذه الاعتداءات فى عام ٩١٧م على جنوب ألمانيا ، وتقدموا فى هذه المرة عبر الألزاس Alsace إلى اللوريين وواصلوا زحفهم حتى أبواب متر Metz ، كما توغلوا فى برجنديا Burgundy الفرنسية وهددوا قلب المملكة دون أن تستنفذ هذه الغارة البعيدة طاقاتهم المتجددة . ولسوء الحظ لا توجد معلومات عن هذه الحملات ، بيد أن الدمار والسلب والنهب كانا السمة الغالبة عليها . ولم يذكر المؤرخون إيان سردهم المحزن لهذه الجولات الدامية أى محاولة للمقاومة من جانب كونراد الأول ، والتفسير الأرجح لهذه السلبية هو أنه بعد أن أضاع نحو عامين فى اللوريين ، وجد نفسه مشغولا فى مواجهة المعارضة الداخلية التى امتصت كل جهده حتى نهاية حياته فى عام ٩١٨م ^(٢) .

يحسب لكونراد الأول أنه كان قد أوصى وهو على فراش الموت وتوسل إلى أخيه إيفيرارد Everard ، أن يخلفه هنرى الأول — دوق سكسونيا لما يتمتع به من قوة وحنكة — على عرش ألمانيا لإنقاذها من وضعها المتردى . واجتمع كبراء الأمراء والأساقفة عقب وفاة كونراد الأول وأقروا اختيار هنرى الأول — الذى عرف بهنرى الصياد نظرا لانشغاله برياضة الصيد أثناء اختيارهم له — ملكا على ألمانيا

=الجزء الشرقى وسعوا دوما لضم هذه المنطقة لنفوذهم . ولم ينجحوا فى ذلك إلا عام ٩٢٥م على عهد هنرى الأول ، حينما استولى عليها بالقوة ، انظر :

Fliche., Histoire,p.37.

انظر أيضا :محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٢٧ ، ٥٨ .

Fliche., Histoire,p.29.

(١)

Halphen., France,p.87;Dummler., Geschichte,T.III,p.596 ; Fliche., Histoire,pp.29-30. (٢)

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ، ص ٢٩٧-٢٩٨ .

عام ٩١٩م^(١) . وبمجرد أن علم أرنولد الهارب لدى المجرين بوفاة كونراد الأول ، عاد إلى بلاده على الفور فرحب البافاريون والفرنجة الشرقيون به وبأولاده وزوجته وحشّوه بقوة على أن يتولى العرش بدلا من هنري الأول . وما أن علم الأخير بذلك حتى جمع جيشا قويا وخرج متجها نحو بافاريا ، ومن جانبه جمع أرنولد هو الآخر قوات ضخمة وأسرع لملاقاته . وكادت الحرب تنشب بين الجانبين لولا أن لجأ هنري الأول للوسائل الدبلوماسية ، حيث أرسل مبعوثا استدعى أرنولد واجتمع به سرا ، فخاطبه باللين وعرض عليه وصية كونراد الأول^(٢)، كما خلع عليه لقب القائم بأعمال الأسقف في بافاريا ، فاقتنع أرنولد وتخلّى عن ثورته^(٣) .

لم تقتصر مثل هذه الاضطرابات على ألمانيا بل عانت إيطاليا هي الأخرى من بعض المشاكل التي شجعت المجرين على استئناف نشاطهم العدائي بها . ففي عام ٩٢٢م قام كبار النبلاء بقيادة أدالبرت من إيفريا Iverea بدعوة رودلف الثاني Rodolph II ملك Jurane Burgundy لخلع برنجار عن العرش بعدما ساءت الأحوال في عهده ولم يعد يتمكن من وقف الغزو المجرى المتكرر . وبعد تضيق الخناق على برنجار بعد أن احتجزه معارضوه في فيرونا ، رأى أن المجرين أفضل من يساعده على الخروج من هذا المأزق . لذلك استجد بهم وطلب منهم أن يخلصوه من أعدائه لو كانوا يحبونه حقا . فلبوا على الفور وزودهم هو بمرشد يدلهم على طريق يسلكوه غير الطريق التقليدي كي يحققوا أهدافه في حملتهم على إيطاليا . ولذلك اتسم هجومهم بالسرعة والمباغة مما أسفر عن قتل وأسر الكثيرين وسلب ديارهم ولم ينج أدالبرت نفسه من الأسر إلا عن طريق الحيلة . ولكن إذا كانوا قد أنقذوا برنجار من وضعه الصعب فإن العمر لم يمتد به طويلا حيث راح ضحية مؤامرة دبرها ضده أحد أتباعه

^(١) Liudprand of Cremona, pp. 79-80.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

^(٢) لمعرفة نص وصية كونراد الأول ، انظر :

Liudprand of Cremona, pp. 79- 80.

Liudprand of Cremona, pp. 80-82.

^(٣)

، فأودت بحياته في ٧ أبريل عام ٩٢٤م . فقام المجرّيون على أثرها في نفس العام — دون أن نعلم إذا ما كان ذلك بدافع الانتقام لقتله أم استغلالا للظرف — بتدمير لمبارديا Lombardy وحرق بافيا وعجز السكان هناك عن كسب رضاهم بالهدايا ، ولم يتركوا إيطاليا عائدين إلى بلادهم إلا بعد جمعهم غنائم طائلة من مختلف أرجائها^(١).
أما على صعيد ألمانيا فبعد أن استتبت الأمور بعض الشيء لهنري الأول ، رأى أن حماية ألمانيا من خطر المجرّيين — الذين لم تتوقف حملاتهم على بلاده منذ توليه العرش — يجب أن يكون له الأولوية على ما عداه . كان ذلك في الوقت الذي قام فيه المجرّيون بعقد اجتماع كبير ليتشاوروا فيما بينهم حول الإجراء الذي سيتخذوه لو رفض العاهل الألماني الجديد دفع إتاوة لهم . وأجمعوا أمرهم إن فعل ذلك أن يدمروا بلاده من خلال سلسلة طويلة من الحملات المدمرة ، ويبدءوا بأرض السكسون ، التي كان دوقا لها من قبل خاصة وأنها تفتقر إلى الحصون أو القلاع التي تكفي للذود عنها^(٢) .

يبدو أن هنري الأول غير رأيه بعدما وجد أن الوقت غير ملائم للدخول في مواجهة مع المجرّيين وأثر دفع الإتاوة لهم ، لذلك شهدت السنوات الأولى من عهده هدوءا تاما من جانبهم . ولكن عندما لمسوا في عام ٩٢٤م أن هناك معارضة داخلية ضده من قبل البافاريين لم يترددوا في توجيه ضربة قوية إلى سكسونيا . وكشفت هذه

(١) Liudprand of Cremona, pp. 97-98, 110-112; Previte-Orton, Italy, pp. 152-153.

لما رأى أدالبرت أنه قد أحيط به من قبل المجرّيين لجأ إلى الحيلة بأن ألقى بحزامه البراق وأساوره الذهبية وارتنى زى جندي ولما وقع في قبضتهم أخبرهم بأنه مجرد جندي مراسل وتوسل إليهم أن يأخذوه إلى مدينة Calcinato المجاورة ليدفع له أقاربه الفدية المطلوبة ، وكان الذي دفعها هناك — دون أن يعلموا ذلك — أحد أتباعه وهو شخص يدعى ليو . مثل هذه الرواية وغيرها مما يعج بها مصدر ليودبراند الكريموني يجب التعامل معها بحذر فبغضه الذي عبر عنه في أكثر من موضع لهؤلاء الأعداء ومحاولته إظهارهم في صورة الوثنيين الأجلاف ، يدفعنا لذلك ، انظر :

Liudprand of Cremona, pp. 98-99.

Liudprand of Cremona, pp. 83-84 ; Flishe., Histoire, p. 37.

(٢)

الضربة عن مدى ضعف التنظيم العسكرى والخلل الشديد فى نظام الدفاع الألمانى .
فقد انساب المجريون كالسيل فى سكسونيا دون أن يعيقهم عائق ، وفر الناس أمامهم
ليختبئوا فى الغابات المجاورة ، ولم يجد هنرى الأول أمام عجزه عن المقاومة سوى
أن يحصن نفسه فى قلعة ورلا Werla (عند قاعدة جبال هارز Harz) . إلا أن الحظ
ساعد هنرى الأول حينما وقع زعيم مجرى كبير أسيرا فى يديه ورفض تسليمه
للمجريين قبل الدخول فى مفاوضات معهم ، وهى المفاوضات التى وافق بموجبها
زيادة الإتاوة والاستمرار فى دفعها، مقابل انسحابهم وقبولهم بهدنة أمدها نحو تسع
سنوات . بيد أن هجوم المجريين على سوابيا واللوريين فى عام ٩٢٦م ونهبهم الأديرة
هناك يثبت أن هذه الهدنة كانت قاصرة على سكسونيا وثورنجيا فقط ، ولم يجد هنرى
حينها بداً من دفع إتاوة أخرى مقابل مد هذه الهدنة لسبع سنوات لتشمل باقى الأقاليم
الأخرى (١) .

واستغل هنرى الأول هذه الهدنة فى بناء الحصون والقلاع وتجهيز الجيوش
للقاء المجريين لقاء حاسما ، خاصة بعد أن وقف إلى جواره حكام الدوقيات والأمراء
المحليين فى بافاريا وفرنكونيا واللوريين . وبدأ هنرى الأول مشروعه العسكرى ضد
المجريين ، وكانت ثمار هذا التحالف طيبة وانعكست بصورة مباشرة على موقف
هنرى الأول تجاه الإتاوة السنوية المقررة للمجريين . حينما جاء سفراؤهم فى عام
٩٣٣م يطالبونه بالإتاوة المقررة ، فرفض بشدة وطردهم من بلاده ، مما أثار حفيظة
المجريين وجعلهم يوجهون على الفور حملة قوية لمعاينة العاهل الألمانى على رده
السافر (٢) . وبمجرد أن علم هنرى الأول بقرب قدومهم أرسل الرسل فى الحال إلى
سكسونيا يطلب من كل رجل يستطيع حمل السلاح أن يأتى فى غضون خمسة أيام

(١) Stephenson, Hungary, p.108 ; Lane Poole., Germany, p.182, Note , no.1; Fliche., Histoire, pp.37-38.

انظر أيضا : سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ؛ محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٥٨ .

(٢) Lane Poole., Germany, pp.182,185; Flishe., Histoire, p.38.

لمزيد من التفاصيل حول جهود هنرى الأول وتنظيماته العسكرية ، انظر :

Lane Poole., Germany, pp.182-184 ; Fliche., Histoire, p.38 .

على الأكثر وإلا سيكون الموت مآله . ونجح قبل انقضاء هذه المدة فى جمع جيش قوى من السكسون . وبينما هو يخطب فيهم – رغم ما أصابه من مرض منذ علم بقدوم المجرىين – ليحثهم على الصمود والقتال ، إذ بالأنباء تأتى بوصول المجرىين إلى قلعة مرسبرج Merseburg على حدود السكسون وقتلهم وأسره أعداداً هائلة من الرجال والنساء والأطفال وإعلانهم عن عدم ترك أى شخص يتعد العشر سنوات كي يثيروا الرعب والفرع بين السكان (١) . فقاد هنرى الأول جيشاً قوياً متجها نحوهم ، والتقى الجانبان فى شهر مارس قرب مرسبرج فى معركة شرسة كان النصر فيها حليفاً للألمان بعد أن مزقوا صفوف المجرىين وأجبروا من نجا منهم على الفرار . وما أن سمعت باقى جيوش المجرىين بهذه الكارثة حتى تخلت عن مقابلة جيوش الفرنجة عائدة إلى بلادها (٢) . أرجع ليودبراند الكريمنى النصر فى هذه المعركة إلى شجاعة هنرى الأول والتزام جنوده بالنصيحة التى أسداها لهم قبيل دخول المعركة " عندما تسندفون مسرعين إلى المعركة ، لا يتقدم أحدكم على الآخر – لأن حصانه أقوى وأسرع – ليسبقه . أحموا أنفسكم بدروعكم الصغيرة من جهة تتلقون فيها أول دفعة من سهام الأعداء ، ثم اندفعوا نحوهم بكل ما أوتيتم من سرعة وما أكنتم من غضب قبل أن يطلقوا دفعة أخرى ، ليجدوا ضربات سيوفكم فوق رؤوسهم " . ثم أشار إلى صرخات الجنود من الجانبين أثناء المعركة ، ففى الوقت الذى كان المسيحيون يقولون " لترحمنا أيها الرب " كان الوثنيون يصيحون صيحتهم المشهورة " Hui hui " (٣) .

كان لهذا النصر صدى كبيراً ، حيث رفع من مكانة الأسرة السكسونية الحاكمة

(١) Liudprand of Cremona, pp.83-84 ; Lane Poole., Germany,p182.

لمعرفة نص الخطاب الذى ألقاه هنرى الأول على أتباعه ، انظر :

Liudprand of Cremona, pp.83-84 .

(٢) Liudprand of Cremona, pp.85-86 ; Lane Poole., Germany,p.185.

(٣) Liudprand of Cremona.p.85.

فى ألمانيا . وحاز هنرى الأول شهرة عظيمة واحتل مكانة هامة فى هذا الجانب من دولة الفرنجة . ولكن كان هذا النصر آخر جهد قام به الإمبراطور هنرى الأول ضد المجرىين ، حيث توفى يوم ٢ يوليو عام ٩٣٦م عن عمر يناهز الستين عاما ، وبعد فترة حكم دامت نحو ثمانية عشرة عاما تمكن خلالها من وضع أسس الملكية الألمانية وتثبيت هذه الأسس تثبيتا ظهر أثره واضحا بعد ذلك فى عهد ابنه وخليفته أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ - ٩٧٣م) (١) .

كان المجرىون على دراية بما يواجه الإمبراطور أوتو الأول من مشاكل داخلية نتيجة لسعيه لبسط نفوذه على مختلف أرجاء ألمانيا ، ورغبته فى مد هذا النفوذ ليشمل إيطاليا أيضا ، بهدف الجمع بينهما فيما يعرف بالإمبراطورية المقدسة (٢) . لذلك رأوا أن الفرصة أصبحت سانحة للانتقام للهزيمة السابقة وممارسة نشاطهم المفضل من السلب والنهب . وقاموا بشن حملة فى عامى ٩٣٧ ، ٩٣٨م على ثورنجيا وسكسونيا ، لكن واجهتهم مقاومة شديدة فعادوا إلى بلادهم دون طائل . وحينما كرروا حملتهم فى عامى ٩٤٨ ، ٩٤٩م حاقبت بهم هزيمة ساحقة على يد هنرى دوق بافاريا . جعلتهم هذه الهزائم أشد إصرارا على قتال أوتو الأول ، فأغاروا فى عام ٩٥٤م وساعدتهم هذه المرة اثنان من معارضيه ، هما لويديولف Liudolf دوق سوابيا وكونراد دوق اللورىين ، اللذين زودوهما بمرشدين داخل ألمانيا نكاية فى أوتو الأول (٣) . فاجتاحوا بافاريا وفرانكونيا وتم الاحتفال بهم علنا فى ورمز Worms وقدمت لهم الهدايا الفضية والذهبية وقادهم كونراد عبر نهر الراين على أمل أن يساعده فى استرداد دوقيته التى ظل سكانها على ولايتهم لأوتو الأول ، ولكن دون جدوى . وتوغل المجرىون فى

(١) Liudprand of Cremona, p.154; Fliche ., Histoire ,pp.38-39; LanePoole., Germany, p. 186.

انظر أيضا : محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٥٦ ؛ سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن جهود أوتو الأول لتوحيد ألمانيا والجمع بينه وبين إيطاليا تحت سيادته ، انظر :

Lane Poole., Germany, pp.186-203.

Lane Poole., Germany, pp.191,198.

(٣)

أتريخت Utrecht يدمرون كل شئ فى طريقهم ثم تحركوا بعد ذلك جنوبا خلال فيرماندوا Vermandois ولاون Laon وريمس Rheims حتى دخلوا برجنديا ، ولكن سرعان ما تفشى فيهم المرض ، مما أدى إلى تناقص أعدادهم ودفعهم بالتالى إلى العودة إلى بلادهم عن طريق إيطاليا (١) .

لم تمض فترة قصيرة حتى عاود المجريون الهجوم من جديد على ألمانيا فى بداية عام ٩٥٥م ، نظرا لما حققوه من نجاح فى حملتهم السابقة . غير أن الحملة فى هذه المرة باءت بالفشل ، ولم ييأس المجريون ، فقد أرسلوا سفارة إلى أوتو الأول فى سكسونيا تطلب المودة فى الظاهر ، ولكنها كانت تستهدف التجسس ومعرفة أحوال البلاد ومواطن الضعف فيها . وفى أغسطس من نفس العام (٩٥٥م) عاودوا الهجوم ثانية على الأراضى الألمانية حتى اقتربوا من مدينة أوجسبرج ، مما دفع أسقفها يولريك Ulric إلى مكاتبة أوتو الأول يصف له الحالة السيئة والقلق الذى انتابه من جراء وصول المجريين إلى ضفاف نهر لخ على مقربة من مدينته ، وأنه يصعب على أهلها الصمود أمام تلك الجموع الغفيرة من المجريين ؛ لذلك يستجد به ويطلب الحضور بنفسه لمساعدته فى الدفاع عن مدينته (٢) .

لم يتأخر أوتو طويلاً عن نجدة المدينة ، وفى العاشر من شهر أغسطس اتجه جنوبا نحوها على رأس قوة عسكرية من السكسون أضيفت إليها قوات أخرى من مختلف أرجاء ألمانيا أثناء مسيرته عبرها حتى أصبح لديه جيش جرار يضم ثمانية فصائل ، ثلاثة من بافاريا ، اثنان ، من سوابيا ، واحدة من ساكسونيا ، واحدة من اللوريين ، وأخيرة من بوهيميا Bohemia . ولم يدخل أوتو فى معركة مع المجريين إلا بعد أن راقب تحركاتهم وقدر من خلالها مدى أعدادهم . ثم انتهر فرصة هبوب ريح ودخل مع المجريين فى معركة شديدة على الضفة اليسرى لنهر لخ فى منطقة

Lane Poole., Germany, p.198

(١)

Simon of Keza., Hungarorum, pp.91-93; Lane Poole., Germany, p.199.

(٢)

لخفلد Lechfeld . فحقت بالآخرين هزيمة ساحقة وتعقبهم أوتو على مدى ثلاثة أيام ليقتضى على فلولهم (١) .

كانت نتائج هذه المعركة عظيمة الأهمية بالنسبة للجانبين . فقد لقب أوتو الأول بأوتو العظيم ، كما أخذ زمام المبادرة ومد نفوذه شرقا على حساب المجرىيين وأقام على أكتافهم ماركية أوستريا (النمسا) . أيضا كان استخدام المسافرين لممر برنر — أسهل الممرات بين لمبارديا وألمانيا — ضيقا بسبب تهديد المجرىيين للمارة فيه ، ولم يخلص ذلك الطريق للمسافرين إلا بعد انتصار أوتو الأول فى هذه المعركة . كذلك لم يفكر المجرىيون مرة أخرى فى شن حملات على مملكة الفرنجة ، بل اقتنعوا بضرورة التخلي عن فكرة الهجرة والترحال مرة أخرى ، بل يجب السعى للاستقرار الآمن (٢) . ولاشك أن استقرارهم فى أعقاب هذه المعركة ، أدى إلى تغييرات كبيرة فى حياة المجرىيين ، حيث أخذوا يستغلون بينتهم الطبيعية الخصبة ، ويستبدلون نظامهم القبلى بالسلطة المركزية القوية . كما استغلوا وقوع بلادهم عند نقطة تقاطع مجالين ثقافيين — هما الثقافة الغربية أو اللاتينية — الألمانية Latino-Germanic ، والثقافة الشرقية أو اليونانية-السلافية Greco-Slav — ووازنوا بين الفوائد التى يمكن أن تعود عليهم من وراء اعتناقهم المسيحية من قبل أحد قطبيها — روما والقسطنطينية — ولما

(١) Simon of Keza., Hungarorum, p.93 ; Lane Poole., Germany, p.199; Bloch., Society, p.11.

انظر أيضا : محمد الشيخ : الفرنجة ، ص ٦٦ .

هناك خلاف كبير بين المؤرخين حول الموقع الدقيق لهذه المعركة . عارض بعضهم وقوعها جنوب المدينة على الضفة اليسرى للنهر فى لخفلد على أساس أنها وقعت على الضفة اليسرى للنهر ولكن شمال غرب أوجسبرج . فى حين اقترح بعضهم الآخر وقوعها على الضفة اليمنى للنهر جنوب شرق المدينة ، ورأى فريق ثالث أن الضفة اليمنى للنهر شمال شرق المدينة كانت المسرح لهذه المعركة ، انظر :

Lane Poole., Germany, pp. 199-200, Note, no,1.

Lane Poole., Germany, p.200; Previte-Orton., Italy, p.160.

(٢)

انظر أيضا : أرشيبالد لويس : القوى ، ص ٢٧٣ ؛ سعيد عاشور : أوربا ، ج ١ ص ٣٠٤ .

اعتنفوها وصاروا ضمن مجتمع الشعوب المسيحية ، اكتمل هيكل دولتهم واتخذ حاكمهم لأول مرة وهو القديس ستيفن الأول Stephen I (١٠٠٠-١٠٣٨م) لقب ملك (١) .

أخيرا ، ما الذى يمكن أن نخرج به من هذه الدراسة ؟ يمكن استخلاص ما يلي :
أولا : يعتبر تاريخ المجريين الباكر من الأمور الغامضة لقلة المعلومات التى وردت عنهم فى المصادر ، بل تفتقر هذه المعلومات لعنصرى الضبط الزمنى وتحديد الموقع الجغرافى ؛ مما أدى إلى وجود تباين شديد فى وجهات نظر المحدثين بشأن بعض القضايا التى ما تزال دون حسم وتحتاج للمزيد من البحث والدراسة .

ثانيا : اختلف اتجاه حملات المجريين باختلاف موقع قبائلهم ؛ ذلك أن كل قبيلة من قبائلهم السبع ، قامت بالحملات التى تحقق أطماعها الخاصة . لذلك فى الوقت الذى أغارت القبائل المقيمة فى غرب المجر على ألمانيا وإيطاليا ، فإن القبائل المقيمة فى الشرق والجنوب أغارت على الدولة البيزنطية ، عبر بلغاريا (٢) . ولعل هذا يوضح لماذا حارب المجريون على أكثر من جبهة فى وقت واحد ؟ ولا ترجع الانتصارات التى حققوها إلى ما كانوا يتمتعون به من قوة وشراسة فى ساحة القتال فحسب ، بل وإلى استغلالهم الأوضاع السياسية التى كانت سائدة سواء فى منطقة الاستبس أو البلقان ووسط أوروبا ، فى التمكين لأنفسهم . فلا ريب أن صراع بيزنطة مع بلغاريا ، ومملكة الفرنجة مع مورافيا ، ووقوفهم على الأوضاع السياسية المضطربة فى بعض هذه الدول ، قد ساعدهم على ترسيخ أقدامهم فى منطقة الدانوب الأوسط ووضع حجر الأساس لبناء كيان سياسى مستقل شكل النواة الأولى لدولة المجر فيما بعد . ونجحوا رغم انقسامهم الداخلى فى ظل النظام القبلى ، فى الحفاظ على أنفسهم وعلى هويتهم التركية — على الأقل طوال النصف الأول من القرن العاشر الميلادى — من الذوبان وسط غيرهم من المجموعات العرقية الأخرى .

Moravcsik., Hungary, pp.572-573.

(١)

(٢) لمزيد من المعلومات حول الغارات المجرية على بيزنطة ، انظر :

Moravcsik., Hungary, pp.569-571; Vasiliev., Empire, p.319.

ثالثا : كانت حملات المجريين على مملكة الفرنجة بهدف السلب والنهب وليس بهدف الإقامة والاستقرار ، وكانت تفتقر إلى النظام والإعداد الجيد ، ولذلك لن نبالغ إذا قلنا أن أغلبها كان نوعا من الإغارات الشرسة ، ولكنها ذكرت من قبل المحدثين كحملات على أساس لم تكن خاطفة ، بل استغرق بعضها ما يزيد على العام في داخل مملكة الفرنجة . وساعد على نجاحها تزامنها مع ما ألم بمملكة الفرنجة في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي من انقسام وضعف . ولذلك بمجرد أن تمكن أوتو الأول من توحيد ألمانيا وإيطاليا نجح في مواجهتها وأنزل بالمجريين هزيمة ساحقة جعلتهم يعيدون النظر في هجماتهم على بلاده ويتخلون عنها . ومن ثم ، إذا كان سقوط مورافيا عام ٩٠٥-٩٠٦م يمثل نقطة التحول الأولى بالنسبة للمجريين ، فإن هزيمتهم في معركة لخفلد تمثل نقطة التحول الكبرى في تاريخ دولة المجر في العصور الوسطى .

الخريطة السياسية لموطن هجرة المجرين وحملاتهم على مملكة الفرنجة بين عامي (٨١٦-٩٥٥م)

قائمة المصادر والمراجع والمختصرات

أولاً: المصادر والمراجع الأجنبية .

- Bakay Hungary** Bakay , K.,” Hungary ”NCMH, III, (900 – 1204) , (Cambridge, 1999) pp.536 –552 .
- Bloch., Society** Bloch,M,Feudal Society,trans byL.A Manyon,vol.1, America 1964.
- Bury., Eastern** Bury,J.B.,A history of the Eastern Roman Empire , From the Fall of Irene to the accession of Basil 1 , (London, 1912) .
- B** Byzantion,(Bruxelles,1939) .ff .
- BMGS** Byzantine and Modern Greek Studies
- Cedrenus..., Historiarum** Cedrenus,G., Historiarum Compendium CSHB,ed, Bekker I,II.(Bonn,1838) .
- Costantine Perphorgenitus ., De Administrando Imperio .**
وقد رجع الباحث إلى الترجمة العربية لكتاب : إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل وتطبيق د / محمود سعيد عمران، (بيروت ، ١٩٨٠ م) .
- DAI** De Administrando Imperio ed &Com by,Jenkins and Others ,2 (London, 1962) .
- CMH** Cambridge Medieval History,(Cambridge,1981)ff .
- CSHB** Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonn,1838)ff .
- Davis ., Europe** A Davis ., R ., History of the Medieval Europe (London,1957) .
- Dvornik., Slaves** Dvornik,F.,Les Slaves , Histoire et Civilisation de L’antiquité aux Debuts de l’époque Contemporaine, Traduit de L’anglais par Pavlevski, avec la

- Collaboration de Maroussia Choplyansky, (Paris, 1970)
- Dummler ,
Geschichte Dummler ,E Geschichte des Östfronkischen reichs
T.III,Die letzten Karolinge Conrad I(Leipzig 1888).
- EME Early Medieval Europe .
- El Encyclopaedia of Islam .
- Fliche.,
Histoire Fliche,A., Histoire du Moyen age, T.II, L'Europe
Occidentale de 1125, A 888 (Paris, 1930) ff.
- Fried,
Frankish J Fried., "The Frankish Kingdoms, 817-911: The east
and middle Kingdoms" NCMH ,II (Cambridge,
1995) pp. 142-168.
- Georgius Monachus Continuatus., Georgius Monachus Continuatus in
Theophanes Continuatus CSHB ed Bekker.I,
(Bonn,1838), pp.761-924 .
- Grégoire.,
Origine Grégoire.,H., "Le nom et L 'Origine des Hongrois"
dans Zeitschr d.deutsch .morgenlondischen
Gesellschaft ,91(1939) pp.630-642.
- Grégoire.,
L'Habitat Grégoire.,H., " "L'Habitat " Primitif " des Magyars,et
Les"Σαβαρτοιασφαλοι" B,13 (Bruexelles, 1938) ,
pp.267 – 278 .
- Guldencrone.,
L' Italie Guldencrone,D., L' Italie Byzantine , étude sur le
haut moyen âge ,400-1030,(Paris 1914).
- Halphen .,
France Halphen,L., " France , the last Carolingians and the
accession of Hugh capet (88-987)" CMH,III. ed
Hussey.J (Cambridge,1981)pp. 71-98.
- Hudud Al Alam., "The Regions of the World " A Persian
Geography,372 A.D., trans,and explained by
V.Minorsky,(Oxford,1937).

- Kaldy –Nagy.,
Madjar** Kaldy-Nagy, Gy., Madjar, Madjaristan, **EI**,5(1986) pp.1010-1033.
- Lane Poole.,
Germany** Lane Poole , A ., “ Germany : Henry I and Otto the Great “ **CMH**,III .ed Hussey.J (Cambridge, 1981) pp.175-203 .
- Lewicki,
Hongrois** Lewicki , A ., “ Les noms des Hongrois et de L’Hongrie chez les medievaux geographes Arabes et Persans “ dans *Folia Orientalia*,19 (1978) pp.35-55.
- Liudprand of Cremona.,** The Works of Cremona.,ed,BGG,Coulton and Eileen Power Eng Trans,by. F.A.Wright (London,1930)
- Macartney.,
Magyars** The Magyars in the Ninth century ,(Cambridge , 1930) .
- Mckitterick.,
Frankish** Mckitterick , R ., The Frankish kingdoms under Carolingians, (London,1983).
- Moravcsik,
Hungary** Moravcsik , G ., “ Hungary and Byzantium in the Middle Ages “ **CMH** , ed Hussey .J, IV /1 (Cambridge, 1975), pp.566 – 592 .
- NCMH** The New Cambridge Medieval History,1999,ff .
- Nikolov .,
Magyar** Nikolov,S., “ The Magyars Connection or Constantine and Methodius in the Steppes “ **BMGS** , 21 (1997) pp.79-92.
- Obolensky.,
Commonwealth** Obolensky , D ., - The Byzantine Commonwealth Eastern Europe 500 – 1453, (London, 1971) .
- Obolensky.,
Crimea** Obolensky , D ., “ The Crimea and the north before 1204” *Αρχαίον Ποντου* 35 = Papers given at the 12 th Spring Symposium of Byzantine Studies, Birmingham,1978, Athens,1979,pp.123-133.
- ODB** Oxford Dictionary of Byzantium .

- Oman., Dark** Oman, Ch., *The Dark Ages*, 476-918. (London, 1914).
- Previte-Orton., Italy** Previte-Orton, C., "Italy in the tenth century " **CMH** ,ed Hussey. J III(Cambridge, 1981) pp.148-178.
- Simonis de Keza., Hungarorum** Gesta Hungarorum , ed and trans by Veszpremy , L and Schaer, F, with study by Szucs, I(Budapest ,1999).
- Stephenson., Hungary** Paul Stephenson ., " Early Medieval Hungary in English " **EME** ed by Julia Crick and Others , 10/1 (Oxford, 2001) pp.95-112.
- Symeon Magister ac Logothete.,** Symeon Magister ac Logothete , Symeon Continuatus , In :Theophanes Continuatus , **CSHB** ed Bekker. I, (Bonn, 1838) ,pp.603-760.
- Theophanes Continuatus.,**Theophanes Continuatus , Ioannes Cameniata, Symeon, Magister ,Georgius Monchus Continuatus, **CSHB** ed Bekker. I, (Bonn, 1838), pp. 3-481.
- The Russian Primary Chronicle.,**The Russian Primary Chronicle , English Translation by Cross And Wetzor (Cambridge-Mass, 1953) .
- Thompson., History** Thompson, J.W., *History of the Middle Ages* , 300-1500, (London, 1931) .
- Vasiliev., Empire** Vasiliev , A., *A history of the Byzantine Empire*, 324 – 1453, (Madison , 1952).
- Vernadsky., Lebedia** Vernadsky, G., " Lebedia Studies on the Magyar Background of Kievan Russia " **B**, 15 (Bruexelles, 1939) pp.179-204.
- Vita Constantini ,** Eng trans In *Medieval Slavic Lives*, ed By Ladislav Matejka , (Michigan, No date) pp.23-96.

Vlasto.,
Christendom

Vlasto , A , P. , The Entry of the Slavs into
Christendom ,(London ,1967) .

ثانيا : المصادر والمراجع العربية .

أرشيبالدر. لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط
القوى (٥٠٠-١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة
وتقديم محمد شفيق غربال (القاهرة ، ١٩٦٠م) .

الاصطخرى :
مسالك : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي ت ٣٤٠هـ/
٩٥١م ، كتاب مسالك الممالك ، تحقيق محمد جابر عبد الله
الحسينى ، (القاهرة، ١٩٦١م) .

الكرديزى :
الأخبار : زين الأخبار ، ترجمة عفاف السيد زيدان ، (القاهرة ،
١٩٨٢م) .

المتولى السيد تميم :
البشناق : البشناق والبيزنطيون ، دراسة فى سياسة بيزنطة
الشمالية (٨٥٠هـ/١١٢٢م) رسالة ماجستير لم تنشر بعد ،
كلية الآداب -جامعة المنصورة (١٩٩٦م) .

المسعودى :
مروج : أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦هـ-
٩٥٧م) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ ج ، (بغداد،
١٩٣٨م) .

الرمزى م.م :
الأخبار : تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار
وملوك التتار ، ج ١ ، (القاهرة ، ١٩٠٨م) .
اليقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) ،
البلدان : كتاب البلدان ، (لندن - بريل ١٩٦٧م) .

بطرس البستاني

:دائرة المعارف ، ج ٧ (بيروت ، دت) .

دائرة

جودة حسنين جودة ، فتحى أبو عيانة ، محمد خميس الزوكة : الجغرافيا الإقليمية ،
الجغرافيا (الإسكندرية د - ت) .

دنبوب :تاريخ يهود الخزر ، نقله إلى العربية وقدم له د/سهيل
الخزر زكار ، (بيروت ، ١٩٨٧م) .

ذكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، (القاهرة
الرحالة ، دت) .

ليلى عبد الجواد اسماعيل :تاريخ الروس من خلال المصادر العربية،(القاهرة ،
الروس ١٩٩٠م) .

ليلى عبد الجواد اسماعيل :المسلمون فى بلاد المجر فى العصور الوسطى ، مجلة
المسلمون المؤرخ المصرى العدد السابع يوليو(١٩٩١)ص٣٩
- ٨٠ .

سعيد عاشور :أوربا العصور الوسطى ، التاريخ السياسى ، الجزء
أوربا الأول ، الطبعة السابعة (القاهرة ، ١٩٩٤م) .

طارق منصور محمد :الروس والمجتمع الدولى ٩٤٥-١٠٥٤م(القاهرة، ٢٠٠١م)
الروس

كيسلر ، س :القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم ، (القاهرة ، ١٩٩١م) .
القبيلة

محمد مرسى الشيخ
الفرنجة
دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين فى الأندلس حتى
أواخر القرن العاشر الميلادى ٧٥٥-٩٧٦م / ١٣٨-٣٦٦هـ
(الإسكندرية ، ١٩٨٠م) .

محمد مرسى الشيخ
الخزر
الخزر وعلاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية، مجلة كلية
العلوم الاجتماعية ، العدد الرابع (١٩٨٠م) ص ٣٤٨-٣٧٧.

نعيم فرح
أوروبا
تاريخ أوروبا السياسى فى العصور الوسطى ، (دمشق ،
١٩٩٥ م) .

هانئ عبد الهادى البشير
بيزنطة
بيزنطة وبلغاريا ٦٨١-١٠١٨م (القاهرة ، ٢٠٠١م)

هانئ عبد الهادى البشير
مورافيا
بعثة قسطنطين ومثود فى مورافيا (٨٦٢-٨٨٥م) ،
مجلة كلية الآداب - جامعة طنطا ، العدد الرابع عشر
(يناير ٢٠٠١م) ص ٦٠٣-٦٣٧.

هليستر ، س
أوروبا
أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة د/ محمد فتحى
الشاعر ، (القاهرة ، ١٩٨٨م) .

وسام عبد العزيز فرج
قراءة
قراءة فى التاريخ المبكر لكرواتيا - البوسنة - الصرب
فى العصور الوسطى . "دراسات أثرية وتاريخية "
مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية ، العدد ٨ (١٩٩٣م)
ص ١٤٧-١٩٩.

ب. عرض الكتب والرسائل

**عامة المغرب الأقصى في العصر الموحي، رسالة دكتوراة لم تنشر بعد، كلية
الآداب، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس.**

عرض/ أحمد المحمودي

المغرب

يهتم موضوع هذه الأطروحة بدراسة أوضاع طبقة العامة في إحدى أبرز مناطق الغرب الإسلامي ويتعلق الأمر بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحي كما يستهدف إضافة حلقة أخرى لمشروع لا يزال يخطو أولى خطواته في مجال البحث الأكاديمي، وحسبنا أن التاريخ للعوام - باعتبار موقعهم في قاعدة الهرم الاجتماعي ومكانتهم في الاقتصاد والسياسة - كفيلاً بالإفصاح عن حلقة مركزية طالما تم إغفالها في التصورات المعاصرة لتاريخ الإسلام - وتسليط الضوء على الميكانيزمات والأسس المتحركة في المسار التاريخي العام، والوقوف على أدق تفاصيل الحياة اليومية والثقافية والدينية، وتعرية مختلف مكونات ومفاصل البنيان التاريخي وفق تصور أكثر شمولاً واكتمالاً قصد إنصاف هذه الطبقة المهملة في الأبحاث العلمية ووضعها في مكانتها التاريخية اللائقة، وبالتالي تجاوز متاهات ونقائص التنظير والشروع عملياً في إنجاز تاريخ للعوام واستيعاب شمولي لكل الاستفهامات والقضايا التي ترتبط بهم.

ومما يبرر اختياري لهذا الموضوع اقتناعي بضرورة الكشف عن ذلك الإقصاء والإبهام الذي شمل العديد من الأنشطة الحيوية لطبقة عامة ودورها التاريخي والحضاري على عهد الدولة الموحدية التي امتد عمرها من (٥٤١ - ٦٦٨هـ) وهو ما يمكن أن يساهم في تفسير وفهم المسار التاريخي للمجتمع المغربي وتطوره أكثر مما تفسره الأحداث العسكرية والتحويلات السياسية.

وقد اعتمد هذا الاختيار أيضاً - في الأساس - على المركز الذي شغلته العامة في إطار البنية الاقتصادية حيث شكلت قوام القوي المنتجة من حرفيين وفلاحين ممن وقع على كاهلهم عبء الإنتاج الاقتصادي، كما ارتكز - أيضاً - على فعاليتها السياسية التي تنامت بشكل واسع في ظل سيادة الإقطاع وما ترتب عنه من آثار سلبية

بالنسبة للطبقة الوسطي، مما أفسح المجال أمام العامة لتحل محلها في قيادة المعارضة السياسية، والمشاركة بقوة في صياغة الأحداث العامة خلال العصر الموحد.

ورغم الأهمية العظيمة والبارزة لدور العامة، فإنها لم تتل من مؤرخي السلطة ما يكشف عن هذه الأهمية وظلت خارج اهتماماتهم التي تمحورت حول حياة السلاطين والأشياخ واعتبروها المدخل الرئيسي لفهم حركة التاريخ في هذه الفترة، ومن ثم تفننوا في صياغة عبارات القبح والتقصيص في حق العامة، فهم جماعات من الغوغائيين والسفلة والهمج والرعاع التي لم يكن بمقدورها القيام بأي دور علي الصعيد التاريخي والحضاري، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار انعدام وجود كتابات تاريخية تعبر عن وجهة نظر العامة وتساعد في ذات الآن علي إثارة قضاياهم وما تفرزه من تساؤلات منهجية وموضوعية خاصة بهم في علاقاتهم مع السلطة والمجتمع معاً.

ومن جانب آخر، وارتباطاً بدواعي اختيارنا لهذا الموضوع نعتقد أننا اقتحمنا موضوعاً جديداً وحقلاً بكرّاً وقطاعاً منسياً ومغيباً، ومن ثم حرصنا علي بذل ما في المستطاع والجهد قصد الإلمام بمختلف الجوانب الخاصة بموضوع العامة، والاستناد إلي كل ما من شأنه أن يساعدنا منهجياً وموضوعياً علي تسليط ما يكفي من الأضواء حول الأدوار التي نسبت للعوام في العصر الموحد، وكان لازماً علينا أن نوسع آفاق البحث والمساءلة لتشمل مجمل القضايا والاستفهامات التي يطرحها الموضوع، والوقوف عند أدق التفاصيل وذلك بالركون إلي توسيع دائرة المصادر لتشمل مختلف المصنفات الوسيطة وذلك بإجراء قراءات واسعة في متونها، والانفتاح علي المظان التي ظلت مهمشة، ولم شتات النصوص المبعثرة، والانتباه إلي قيمة المصادر غير المستعملة، ما يوفر المادة والأدوات الكفيلة باقتحام الموضوع، وهكذا فقد استفاد البحث من مضامين كتب التراجم والطبقات والنوازل والأحكام الفقهية، وما تتركز به كتب الفلاحة والأطعمة والتصوف والمسالك والممالك والمعاجم الجغرافية والحكم والأمثال وكتب الحسبة.

واقتناعاً بأهمية توسيع مجال القراءة لتشمل مختلف أصناف التأليف لم نذخر جهداً في استغلال فيض من المصنفات الأدبية بما في ذلك كتب الشعر والمستظرفات والحكايات الرمزية، والاستفادة من الرسائل واستقراء محتويات بعض الكتب الموضوعية في الطب والأوزان والمكاييل وفهارس الكتب والتفسير.

وللوقوف عن كثب علي تطور الاهتمامات في أوساط المختصين في التاريخ الاجتماعي والمشتغلين بتاريخ الغرب الإسلامي عموماً ومتابعة القضايا المثارة وتحصيل النتائج وفحص المناهج، تشعبت القراءة فيما لا يسع ذكره في هذا المقام من كتاب العرب والمستشرقين في مجالات الفلاحة والثقافة والنظم السياسية، وفي المواصلات والأغذية واللغة والفنون وغير ذلك مما يتصل بالموضوع من قريب أو بعيد، ولم نغفل الاستفادة من حصيلة عدد من الأبحاث الأركيولوجية مع توسيع القراءة لتشمل عدداً من الدراسات التي أنجزت عن المشرق الإسلامي وبعض الممالك المسيحية والمدن الإيطالية بما يفيد المقارنة وتدقيق ما انتهينا إليه من خلاصات واستنتاجات.

واستفدنا أيضاً من المنهج المقارن وذلك بتوسيع دائرة المقابلة لتشمل العدو الأندلسية وبلاد المشرق فضلاً عن بلاد الفرنجة في محاولة لاستخلاص خصائص العصر المميزة.

وبفضل ما تراكم من مادة تاريخية أمكن تناول الموضوع وفق نظرة شمولية تتوخى الإحاطة بمختلف الجوانب ورصد كافة التجليات وارتباطها ببعضها ببعض مستهدفاً متابعة الظواهر التاريخية في نشأتها وتكوينها وتطورها مع وضعها في السياق ضمن المسار العام.

ووظفنا المادية التاريخية وأدواتها العلمية مدعمة بمنهجيات شتى مستوحاة من أحدث ما كتب في مجال المناهج، ومن أوثق المصادر العربية في الهيكل والتصنيف والوصل بين البنيات والأنساق والمستويات، ولم نغفل الاستعانة بالمناهج الحديثة في علم الاجتماع اللغوي والسيمائيات من أجل ضبط المصطلحات والمفاهيم والإحاطة بمكامن التفاعل بين العامة والفصحي والأعجيات المتعايشة.

واستناداً إلى هذا التناول المنهجي تمت دراسة الموضوع في ستة فصول بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة وتبنت بالمصادر والمراجع والدراسات، وتتضمن المقدمة دراسة نقدية للمظان المعتمدة مع إبراز قيمة كل صنف في تغطية مباحث الأطروحة.

خصص الفصل الأول لرصد البنية الاقتصادية للمجتمع المغربي ودورها في صياغة الهرم الاجتماعي على أساس "طبقي" وذلك بتتبع مسار تطور أشكال ملكية الأرض وتحديد نمط الإنتاج السائد، فضلاً عن إبراز القسمات العامة للنشاط الزراعي - الرعوي، والنشاط الصناعي والتجاري، واهتم الفصل الثاني بتحديد الشرائح المكونة لطبقة العامة والتفصيل في وضعيتها الاجتماعية والاقتصادية تأسيساً على أنه رغم تنوع شرائح هذه الطبقة إلا أنها تشترك جميعاً في ضالة حيازتها للثروة، وعالج الفصل الثالث بعض مظاهر الحياة الاجتماعية لطبقة العامة رابطاً بين المظاهر والأسباب.

وتعرض الفصل الرابع لذهنيات العامة باعتبارها تجليات للوقائع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة.

وتصدي الفصل الخامس لمعالجة العلاقة بين المتصوف والعامة إن تأييداً أو إن انحيازاً للسلطة، كما عرض تأثير المتصوفة في كثير من معتقدات العامة وصياغة نظرتها للوجود.

أما الفصل السادس والأخير فتناول الدور السياسي لطبقة العامة فعالج شطره الأول العلاقة المصلحية بين العامة والخلفاء وتضمن شطره الثاني تحليلاً لأبرز ثورات العامة ذات البعد الاجتماعي في مطالبتها وموقف السلطة الموحدية منها، ورصدنا في الخاتمة أهم ما أسفرت عنه هذه الدراسة المتواضعة من نتائج واستخلاصات نأمل صادقين أن تصلح لتعزيز رصيد الأبحاث الخاصة بالتاريخ الاجتماعي المغربي في العصر الوسيط عامة وفي العصر الموحي خاصة.

وتفادياً للإطناب في عرض نتائج هذا البحث الذي سيستفيد ولاشك من ملاحظات السادة الأساتذة الأفاضل أعضاء اللجنة الموقرة نود أن نشير إلى أن الأوضاع الاقتصادية المتردية ساعدت على توضيح كثير من جوانب البنية الاجتماعية

حيث كان للتطورات الاقتصادية أثرها فعلاً في صياغة بناء الطبقي للمجتمع المغربي فاحتلت ذراه الطبقة الأرستقراطية التي تصدرتها - من حيث الأهمية - الشريحة العسكرية التي شكلت دعامة النظام الأساسية وتليها الطبقة الوسطى وأخيراً طبقة العامة التي احتلت أسفل الهرم الطبقي.

وقد فصلت الدراسة الحديث عن طبقة العامة موضحة المتغيرات التي طرأت على كيانها والوضعية الاجتماعية لشرائحها المختلفة.

وحتى يكتمل التصور العام عن الكيان الاجتماعي لطبقة العامة كان من اللازم معاينة طبيعة واقعها المعيشي ومظاهر حياتها اليومية وتجلياتها الذهنية والفنية والتلقائية وذلك عبر: دراسة التكوين العائلي عند العامة التي احتلت المرأة خلاله مكانة متميزة - عكس نساء الخاصة- الأمر الذي يشي بدور العامة الاجتماعي الفعال، وإبراز سمات منازلهم وطابع ملابسهم ومأكولاتهم ، واستعراض مجالسهم واحتفالاتهم العامة ووسائل الترفيه التي يضمنون بها أوقات فراغهم ، وعلى جانب آخر لم يغيب العامة عن الحياة الثقافية والاجتماعية بإبداعاتهم الأدبية والفنية ذات الطابع الشعبي "والفلكلوري" فقد تجاوز دورهم تذوق عيون الأدب التقليدي إلى أسهامهم من خلال لهجتهم العامية في الحفاظ على حياة كثير من ألفاظ اللغة الفصحى التي هجرتها فنون الأدب الرسمي مما يفند كثيراً من المزاعم التي تلهج بخطورة لهجة العامة وآدابها على اللغة العربية الفصحى، كما فرض العامة وجودهم على ساحة الأدب الرسمي بالإنتاج الشعري، وعلاوة على ذلك فقد خاض وجدانهم بأدب تلقائي يعبر عن واقع حياتهم ويعكس طموحاتهم وآمالهم خلال أشكال غاية في التنوع والثراء.

أما عن علاقة العامة بالمتصوفة فقد تجلت بالخصوص في الجانب الإنساني والإحصائي الذي يظهر خاصة في أوقات الأزمات والمجاعات، ولم يقتصر دور المتصوف على النواحي الاجتماعية فقط بل تعداه إلى جوانب أخرى كالتخفيف من جبروت السلطة وإقبالهم على تعليم ووعظ العامة.

بالرغم من محاولات المتصوفة لإصلاح وإنعاش أوضاع العامة المتأزمة إلا أنهم في الواقع لم يزيدها إلا خملاً وإحباطاً وهو ما عطل جزءاً من قدراتهم الذهنية ووفر مزيداً من عناصر الانغلاق فاسحاً المجال لنفسي الخرافات والشعوذة .

والظاهرة أن العامة وجدت في الخطاب الكرامي ما يناسب أوضاعها ويوافق تطلعاتها فهو إفراز لواقعها المعيشي .

وفي ما يتعلق بدور العامة على الساحة السياسية تقصى البحث صيغ وأشكال الثورات التي أقامت العامة وذلك بتحليل أبعادها الاجتماعية والفئات التي انضوت تحت لوائها .

والملاحظ أنه بالرغم من أن هذه الثورات أتاحت للعامة المشاركة بقوة في صياغة الأحداث السياسية في تلك الفترة، فإنها عجزت عن تحقيق أغراضها أو إحداث تغييرات جذرية على الصعيد السياسي والاجتماعي ويرجع ذلك بالأساس إلى انعدام التنظيم وتخلي الطبقة الوسطى عن قيادة الحركة السياسية، فضلاً عن قمع السلطة المتواصل لنشاطات العامة.

وعلى جانب آخر يمكن الإشارة أن العامة بفضل هذه الثورات نجحت في لفت الأنظار إلى الواقع المأساوي الذي تعيشه وإجبار السلطات القائمة على التخفيف من شطط استغلالها.

وتجدر الإشارة إلى أن شح المادة التاريخية قد أفضي إلى عدم استيفاء بعض الموضوعات حقها من الدراسة فظلت إشكالات مطروحة على بساط البحث مثل: الإحصاء العددي للعامة، أشكال جباية الأرض العينية والنقدية في العصر الموحدى وعلاقتها بمستوى تطور البنية الاقتصادية، فضلاً عن تنظيمات الأصناف التي ما يزال تركيبها الداخلي والعلاقة القائمة بين أصحاب العمل والأجراء من الأمور التي يكتنفها الغموض.

وفي النهاية يمكن الإشارة إلى أن المعطيات التي ساقها البحث عن مدار صفحاته قد أكدت الدور الحيوي والهام الذي قامت به العامة على صعيد الحضارة الإسلامية، الأمر الذي يحتم دمجها في نسيج تلك الحضارة بدلاً من نفيها خارج إطار تاريخها المسطور.

**عبد المحسن طه رمضان، الحروب الصليبية في الأندلس ميلادها وتطورها مع
دراسة نقدية لمصادرها العربية والأسبانية حتى القرن العاشر، القاهرة،
٢٠٠١.**

عرض/ محمد مؤنس عوض

مصر

يقع الكتاب القيم المذكور في ٦٧٤ صفحة من القطع المتوسط، واحتوي علي التمهيد والذي انقسم بدوره إلي المقدمة ثم تعريف بأهم المصادر والمراجع، ثم أربعة أبواب احتوت تسعة فصول، وهي كالآتي: الباب الأول، وعنوانه: إقليم اشتوريس حتي الفتح الإسلامي في عام ٧١٤م/ ٩٥هـ، وانقسم إلي فصلين، الفصل الأول، اشتوريس قبل الفتح الإسلامي، الفصل الثاني، الفتح الإسلامي لإقليم اشتوريس أما الباب الثاني فعنوانه: المقاومة الأسبانية في طور التكوين ٧١٤ - ٧٣٩م/ ٩٥ - ١٢١هـ، واحتوي فصلين الأول بلاجيوس وميلاد المقاومة في إقليم اشتوريس، الفصل الثاني تطور المقاومة في اشتوريس حتي عام ٧٢٢هـ/ ١٠٣هـ، الفصل الثالث، رد الفعل الإسلامي للمقاومة في إقليم اشتوريس حتي ٧٣٩م/ ١٢١هـ، أما الباب الثالث، فعنوانه: فرض الوجود الأسباني ورد الفعل الأندلسي ٧٣٩ - ٧٨٨م/ ١٢١ - ١٧٢هـ، واحتوي فصلين، الأول عنوانه قيام مملكة اشتوريس وتجرؤها علي الأندلس ٧٣٩ - ٧٥٧م/ ١٢١ - ١٤٠هـ، أما الفصل الثاني فعنوانه، الانتكاسة الأسبانية ومهادنة الأندلس ٧٥٧ - ٧٨٨م/ ١٤٠ - ١٧٢هـ، وجاء عنوان الباب الرابع: الصحو الأسبانية واشتداد الضغط علي الأندلس ٧٨٨ - ٩١٠م/ ١٧٢ - ٢٩٧هـ واشتمل علي فصلين هما: الفصل الأول، مرونة اشتوريس وصمودها للضغط الأندلسي ٧٨٨ - ٨٥٢م/ ١٧٢ - ٢٣٨هـ، أما الفصل الثاني فعنوانه تمزق وحدة الأندلس وتفوق اشتوريس ٨٥٢ - ٩١٠م/ ٢٣٨ - ٢٩٧هـ، وأخيراً احتوي الكتاب علي الخاتمة، ثم عدة ملاحق، ومن بعدها الخرائط، ثم قائمة المصادر والمراجع.

وبداية، أود أن أقدم للمؤلف أصدق التهاني القلبية الصادقة علي صدور كتابه الأول وهو في الأصل أطروحته للماجستير والدكتوراه، وبالفعل فقد احتوي الكتاب علي جهد علمي بارز خاصة من حيث ترجمة المؤلفات المصدريّة، والمرجعية، وهي بعدة لغات أوروبية، ولا ريب في أنه يقدم إسهاماً علمياً جديراً بكل تقدير وجاء ليسد ثغرة واضحة المعالم في المكتبة العربية خاصة في مجال دراسات تاريخ المسلمين في الأندلس في العصور الوسطي، ولا أغفل هنا ضمن الحديث عن إيجابيات الكتاب أن مؤلفه انفق في إعدادة عدة أعوام طويلة فأستحق الإشادة الجديرة به.

ومع ذلك، فإن أي عمل علمي لا بد من أن يحتوي علي بعض الزوايا التي يمكن الاختلاف بشأنها مع المؤلف، مثل طبيعة كافة العلوم الإنسانية ذات البعد الجدلي، ومن البداية أود التأكيد علي عدة حقائق:

أولاً: إن ملاحظاتي التالية لا ولن تقلل من القيمة العلمية للكتاب التي أشدت بها في السطور السابقة.

ثانياً: إن الملاحظات التالية ما هي إلا نماذج وليس كافة ما ألاحظه علي الكتاب، ولا أتشكك لحظة في أن المؤلف بما عرف عنه من خلق رفيع، وموضوعية سوف يتسع صدره من أجل قبولها حتى ينفذها في الطبعة الثانية بإذن الله تعالى.

ثالثاً: ما يتم إبرازه في هذا العرض من تصورات هي بالتأكيد مفيدة للمؤلف خاصة أن هذا هو العمل العلمي الأول في صورة كتاب ينشر له، والأمل معقود عليه وعلي غيره من الباحثين الجادين من أجل إصدار العديد من المؤلفات عن تاريخ المسلمين في الأندلس في العصور الوسطي.

ويمكن إجمال أهم الملاحظات علي النحو التالي:

١. العنوان "الحروب الصليبية في الأندلس"، والواقع أن المرحلة التي يتحدث عنها المؤلف لا توصف بأنها حروب صليبية "حقيقية" بل هي مرحلة ما قبل الصليبيات، Pre-Crusades، فما قبل عام ١٠٩٥م، يعد مقدمات لوجودها الحقيقي مع دعوة البابا أوربان الثاني Urbanus II (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) لها في مجمع كليرمونت بفرنسا، وإلقاء خطاب تاريخي في ذلك الشأن في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م، وإلا اعتبرنا

حروب هرقل ضد الفرس في القرن السابع الميلادي حروباً صليبية، أو حروب القادة العسكريين الذين حكموا بيزنطة مثل نقفور فوكاس ويوحنا تزيمنسكس العاشر الميلادي في الرابع الهجري ضد المسلمين حروباً صليبية، وهو أمر عكس الواقع التاريخي.

لقد جاء الكتاب خالياً من الحديث عن الدور البابوي، فكيف تكون هناك حروب صليبية دون البابوية وهي التي تعرف أحياناً بأنها السياسة الخارجية للبابوية؟، ثم أن المؤلف لم يقدم لنا البراهين الدالة على أنها حروب صليبية في معرض دراسته، مما يعكس أن العنوان لم يكن موقفاً وكنت أفضل أن يكون هو نفس عنوان أطروحتيه العلميتين اشتوريس والمقاومة الأسبانية للفتح الإسلامي

١- كنت أفضل ألا يضع المؤلف في العنوان كلمة "ميلادها"، بل نشأتها، أما عبارة "دراسة نقدية" فأختلف معه بشأنها لأن ما أورده في الكتاب لم يكن كله دراسة نقدية كما ذكر بل فيه جانب من التعريف بالمصادر سواء بالنسبة للمصادر العربية أو الأسبانية وغابت "الرؤية" النقدية عن عدد من المؤلفات.

٢- جاءت خطة الدراسة لتركز تماماً على الجانب السياسي، دون الإشارة إلى أية زوايا حضارية، وهي نقطة بالغة الأهمية وكان الأجدر بالمؤلف ألا يغفل ذلك الجانب وهو أساس للدراسة الأكاديمية. الموضوعية بحكم التأثير والتأثر بين الزوايا السياسية والحضارية ضمن السياق التاريخي العام.

٣- اتسمت الخطة بالطابع الزمني، وكنت أفضل التقسيم الموضوعي الذي يراعي البعد الزمني وهو بالتأكيد أقدر وأوفي وأشمل من النمط الزمني الذي يتصف بالطابع التقليدي والنمطي ولا يعطي للمؤرخ مساحة أكبر من الابتكار.

٤- أورد المؤلف الفاضل قائمة بأهم الاختصارات في ص ٥ من الكتاب، وأتصور أن موضعها الحقيقي قبل قائمة المصادر والمراجع والحالة الوحيدة التي توضع فيها في الصفحات الأولى من الكتاب عندما يكون متخصصاً في البيلوغرافيا كما في حالة كتاب هانز ماير. بيلوغرافيا تاريخ الحروب الصليبية، الصادر في هانوفر عام ١٩٦٥م.

Hans Mayer, Bibliographie Zur Geschichte der Kreuzzuge, Hannover 1965.

حيث أورد ماير قائمة بالغة الثراء بالاختصارات في مقدمة الكتاب.

٥- لم يورد مؤرخنا في مقدمة الكتاب المنهج المتبع في الدراسة وبصفة عامة، جاء جهده وفق المنهج السردى الوصفى باستثناء بعض المواقف الممتازة في معالجتها التي بذل فيها جهداً جديراً بكل تقدير حال الأحداث وتوصل لنتائج طيبة غير أن ذلك جاء بصورة جزئية دون أن تكون ضمن تصور شامل للمعالجة التاريخية من بداية الدراسة إلى آخرها كما هو مفترض علمياً.

٦- خلت الدراسة من "الإشكاليات" إلا في النادر، أتصور أن إشكاليات الدراسة علي جانب عظيم من الأهمية، بالإضافة إلى المنهج المتبع مع ملاحظة عدم الانفصال بينهما.

٧- من المؤسف حقاً أن المؤلف الفاضل لم يورد اسم أ.د. عبد المنعم ماجد علي أنه المشرف الفعلي علي الدراسة، فقد أورد اسمه دون أن يذكر أنه الأستاذ الدكتور المشرف بل أوردته ضمن الذين عاونوه في الدراسة، وأود التقرير هنا أن كاتب هذه السطور أشرف عليه مؤرخنا الراحل وأفدت من علمه بحكم تتلمذه علي المستشرق الفرنسي البارز ليفي بروفنسال Levi Provencal وقد أشرف علي أطروحتي للماجستير في مرحلة من مراحلها، وحالياً يتم تخصيص جزء عنه في كتاب "مؤرخون مصريون رواد لمرحلة العصور الوسطى" الذي سيصدر قريباً بإذن الله تعالى، وهذا حق المشرف الراحل علي كل من تتلمذ علي يديه، وأفاد من علمه.

٨- العمل العلمي الذي يمثل الكتاب تم أعداده منذ عقد ونصف تقريباً (حوالي ١٥ عاماً)، وخلالها صدرت العديد من المؤلفات بالعربية والإنجليزية والأسبانية وكان علي المؤلف متابعتها، غير أنه في قائمة المصادر والمراجع لم أجد مؤلفات في حقبة التسعينيات إلا خمسة كتب فقط باللغة العربية، وأذكر المؤلف بندوة الستارخ الأندلسي في المملكة العربية السعودية الصادرة بمناسبة مرور ٥٠٠ عام علي سقوط غرناطة، والكتاب الجيولوجيا في المصادر عنها، وكذلك ندوة أخرى في مصر في جامعة الإسكندرية، وغيرها من الندوات والإصدارات.

٩- هناك مغالطة واضحة أوردها المؤلف، إذ بعد إيرادها لمؤلفات الباحثين المصريين في مجال تاريخ الأندلس قال ما نصه:

"ولعله يتضح من عناوين المؤلفات العربية السابقة أنها اختصت في معظمها بتاريخ المسلمين في الأندلس، منذ الفتح الإسلامي لا يبيروا وفترات متفاوتة تصل في بعضها إلى إخلاء المسلمين لها في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، علي أن بعضها قد اهتم أيضاً بالتاريخ للقوي المسيحية الأسبانية - ومنها اشتوريس إلا أن روايتها في هذا الصدد تتسم بالعمومية، والإيجاز، وأحياناً بالغموض، وتفتقد إلى التحليل والتمحيص بسبب اعتماد مؤلفيها علي المصادر الإسلامية وحدها من دون اللاتينية. باستثناء بعض المؤرخين المصريين الذين تقف كتاباتهم كدليل قاطع أيضاً علي السبق المصري في الانفراد حتى وقتنا الحاضر بالإطلاع عليها والاستفادة منها جنباً إلى جنب مثيلاتها الإسلامية".

وأود التقرير بأن العبارات السابقة تتسم بالتعميم وعدم الموضوعية خاصة أنه اغفل سبق وريادة الراحل أ.د. حسين مؤنس في مقالته بعنوان:

"بلاي وميلاد اشتوريس وقيام حركة المقاومة النصرانية في شمال أسبانيا"، وهي منشورة في مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، م(١١)، ج (١) مايو ١٩٤٩م.

ويلاحظ أنه اغفل ذكرها في القسم الخاص بتعريف المصادر والمراجع علي الرغم من استعانتها بها وإيرادها في قائمة المصادر والمراجع، في ص٦٦٨.

أما القول بأن الدراسات السابقة علي دراسته "تتسم بالعمومية والإيجاز وأحياناً بالغموض وتفتقر إلى التحليل والتمحيص" فأود أن أنبه المؤلف إلي أن من كتب في موضوعه منهم أ.د. حسين مؤنس، أ. محمد عبد الله عنان وهما عملاقان من عمالقة المؤرخين الرواد.

من ناحية أخرى، هاجم المؤلف أطروحة أ.د. رجب محمد عبد الحليم وهو الآن أستاذ التاريخ الأندلسي في معهد الدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة: - وهي بعنوان: العلاقات بين الممالك الإسلامية والنصرانية في أسبانيا منذ الفتح وحتى نهاية

القرن الخامس الهجري .ط. القاهرة ١٩٨٠ م (انظر عباراته ص ١٥)، وأود التقرير بأن الدراسة المذكورة علي جانب كبير من الأهمية، لمؤرخ فاضل، وتحتوي علي جزء خاص بالصلات الحضارية بين الطرفين، وهو أمر خلت منه دراسة مؤلفنا. كذلك كان موقف المؤلف من دراسات أ.د. عبد الرحمن الحجي التي اتصلت بموضوع الكتاب علي الرغم من أنه حصل عليها من خلال أطروحة علمية من جامعة كامبردج عام ١٩٦٦م، وقد قرر ما نصه: "فلم تكشف أي من هاتين الدراستين عن جديد....".

وأكرر قيمة جهد أ.د. عبد الرحمن الحجي الذي يجيد الإنجليزية والفرنسية والأسبانية، وأدعو المؤلف إلي التآني في إطلاق الأحكام علي الذين سبقوه بإصدار مؤلفاتهم بعشرين عاماً، وبالتالي كانت لهم الريادة في دراسة جوانب من نفس موضوع دراسته من ناحية أخرى، أود التأكيد علي أن ما أورده بشأن الدراستين المذكورتين مكانه ليس في المقدمة بل في القسم الخاص بتعريف المصادر والمراجع.

١٠- فيما يتصل بالبَاب الأول، وهو بعنوان إقليم اشتوريس حتى الفتح الإسلامي في عام ٧١٤م/٩٥هـ، وشمل الصفحات من ١٢٣ إلي ١٩٦ أتصور أنه لا يعد باباً بل فصل تمهيدي للدراسة، لأنه لا يدخل في صلب العمل العلمي.

١١- خصص مؤلفنا الباب الثاني الذي يحتوي علي ثلاثة فصول لأحداث ٢٦ عاماً من ٧١٤ - ٧٣٩م/٩٥ - ١٢١هـ وذلك علي مدي الصفحات من ص ١٩٧ إلي ٢٩٣، أي ما يزيد علي المائة صفحة، بينما خصص فصلاً مستقلاً فيما بعد، وهو بعنوان تمزق وحدة الأندلس وتقوق اشتوريس لتتناول ٥٩ عاماً في المرحلة الواقعة بين عامي ٨٥٢ - ٩١٠م/٢٣٨ - ٢٩٧هـ، وهنا يكمن الخطأ في التقسيم الزمني لا الموضوعي للدراسة مع تقديري الكامل لوضع الخطة بالصورة القائمة عليها إذ أن الاختلاف في وجهات النظر - كما يقال - لا يفسد للود قضية.

١٢- توجد عناوين للفصول ليست ذات طابع علمي مثل الفصل المعنون بـ "مرونة اشتوريس وصمودها للضغط الأندلسي"، فكلمة مرونة لا تصلح في عنوان فصل في أطروحة علمية لأنها ليست ذات تحديد علمي دقيق.

١٣- استخدم المؤلف كلمة "جمود" علي موقف الدولة الأموية من اشتوريس في مرحلة من مراحل تاريخها (انظر ص ٤٤٧)، وأورد التقرير أن الكلمة المذكورة لا تذكر في الدراسات الأكاديمية لأن التاريخ حركة مستمرة والثابت الوحيد هو التغير.

١٤- هناك صفحات في الكتاب بلا توثيق كما في الآتي: صفحة ٤٤٧ و ٤٤٨ علي الرغم من احتوائهما علي "معلومات" تاريخية مستقاة من مصادر ومراجع ولا نجد بها أفكاراً تحليلية من عند المؤلف نفسه.

١٥- أورد مؤرخنا في ٤٧٩ نصاً لاتينياً شمل نصف الصفحة دون أن يترجمه، فما قيمة إيراده دون ترجمته، والواقع أن موضعه في الملاحق مع إيراد الترجمة العربية له.

١٦- شملت الملاحق قسماً من الكتاب من ٥١٩ إلي ٥٥٠ وهي باللاتينية دون أن تترجم، والسؤال ما قيمة إيرادها لتشمل نحو ٣٠ صفحة من الكتاب، والمفروض أيراد النص المصدري وترجمته العربية حتى يستفيد منه الباحثون الذين سيتناولون موضوعاً قريباً من الموضوع الحالي.

١٧- استعان مؤرخنا بكتاب الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى لماجد والبنا، (وقد أورد أنه دون تاريخ للطباعة، انظر ص ٦٥٦، والحقيقة أنه صدر بالقاهرة عام ١٩٦٨م) ويلاحظ أنه مع تقديري الكامل للكتاب المذكور إلا أنه مع صدور كتاب العلامة أ.د. حسين مؤنس أطلس تاريخ الإسلام المزود بالخرائط البالغة الدقة تم بمقاييس الرسم المحددة كان من الممكن الاستفادة منه خاصة أنه الأحدث دون الإقلال من جهد الرائد أ. ماجد، د. البنا الذي كان متميزاً وقت صدوره بطبيعة الحال.

١٨- أحياناً، يورد عنوان المصدر التاريخي دون اسم المحقق كما في حالة كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء الذي يذكر صدوره في باريس عام ١٨٤٠م. والمفروض أن يذكر تحقيق رينو ودي سلان .

١٩- أحياناً يضع التاريخ الهجري والمقابل الميلادي لوفاة المؤرخ، وأحياناً
أخري لا يفعل ذلك، والمفروض السير علي قاعدة واحدة، كما في ص ٦٣٤.

٢٠- استعان المؤلف بدراسات قديمة وعامة مثل كتاب Burke بعنوان A
History of Spain، الصادر في لندن عام ١٩٠٠م وهناك مثل آخر أورده في
صورة كتاب صدر عام ١٧٠٥م ، وهو بعنوان

Catalonia: A Geographical and Historical Account of the
principality of Catalonia and Earldom of Barcelona, London 1705

ولا أتصور إمكانية وجود قيمة علمية بارزة لكتاب مر علي صدوره قرابة
٣٠٠ عام، لقد تجاوزته كتب الجغرافية التاريخية الصادرة من بعد ذلك علي مدي
ثلاثة قرون كاملة، وفي حالة كونه من المصادر التاريخية لكان من الممكن قبول
الأمر، أما أن يكون من المراجع فالأمر يحتاج إلي مراجعة وأتصور أن المؤلف
الفاضل يتفق معي في هذا الشأن، وأتمني أن يكون هناك خطأ مطبعي! ويقال أيضاً
نفس الأمر علي كتب عامة من أمثلة ذلك كتاب

Dubois, L'Espagne Ancienne et Moderne, Rouen 1859

أي أسبانيا القديمة والحديثة، وقد صدر عام ١٨٥٩م ولا أتصور أهميته
المباشرة لموضوع الدراسة.

ونفس الأمر يتكرر بشأن كتاب

Hannay, Spain, Great Britain 1917

فهو عام ناهيك عن صدوره في العام المذكور

وهناك مثال آخر في كتاب

Fayyaz, A Short History of Islam, Oxford 1960.

فهو كتاب عام ومختصر عن تاريخ الإسلام وصدر منذ أربعين عاماً علي
الرغم من صدوره من جامعة أكسفورد العريقة، ومنطقي تصور أنه ليس كل ما
يصدر في الدول الأوروبية يتسم بالأهمية لأطروحة أكاديمية متخصصة.

٢١- من الملاحظ أن مؤرخنا الفاضل علي مدي دراسته عمل علي أن

يقدم دور اشتوريس للقارئ العربي علي أنه دور ريادي وكأنها كانت القوة المسيحية
الوحيدة المعارضة للوجود الإسلامي في شبه القارة الأيبيرية، والأمر عكس ذلك. إذ

حيث كان للتطورات الاقتصادية أثرها ليعمل في صياغة نساء الطبقي للمجتمع المغربي فاحتلت ذراه الطبقة الأرستقراطية التي تصدرتها - من حيث الأهمية - الشريحة العسكرية التي شكلت دعامة النظام الأساسية وتليها الطبقة الوسطى وأخيراً طبقة العامة التي احتلت أسفل الهرم الطبقي.

وقد فصلت الدراسة الحديث عن طبقة العامة موضحة المتغيرات التي طرأت على كيانها والوضعية الاجتماعية لشرائحها المختلفة.

وحتى يكتمل التصور العام عن الكيان الاجتماعي لطبقة العامة كان من اللازم معاينة طبيعة واقعها المعيشي ومظاهر حياتها اليومية وتجلياتها الذهنية والفنية والتلقائية وذلك عبر: دراسة التكوين العائلي عند العامة التي احتلت المرأة خلاله مكانة متميزة - عكس نساء الخاصة- الأمر الذي يثني بدور العامة الاجتماعي الفعال، وإبراز سمات منازلهم وطابع ملابسهم ومأكولاتهم ، واستعراض مجالسهم واحتفالاتهم العامة ووسائل الترفيه التي يضمنون بها أوقات فراغهم ، وعلى جانب آخر لم يغيب العامة عن الحياة الثقافية والاجتماعية بإبداعاتهم الأدبية والفنية ذات الطابع الشعبي "والفلكلوري" فقد تجاوز دورهم تذوق عيون الأدب التقليدي إلى أسهامهم من خلال لهجتهم العامية في الحفاظ على حياة كثير من ألفاظ اللغة الفصحى التي هجرتها فنون الأدب الرسمي مما يفند كثيراً من المزاعم التي تلهج بخطورة لهجة العامة وآدابها على اللغة العربية الفصحى، كما فرض العامة وجودهم على ساحة الأدب الرسمي بالإنتاج الشعري، وعلاوة على ذلك فقد خاض وجدانهم بأدب تلقائي يعبر عن واقع حياتهم ويعكس طموحاتهم وآمالهم خلال أشكال غاية في التنوع والثراء.

أما عن علاقة العامة بالمتصوفة فقد تجلت بالخصوص في الجانب الإنساني والإحصائي الذي يظهر خاصة في أوقات الأزمات والمجاعات، ولم يقتصر دور المتصوف على النواحي الاجتماعية فقط بل تعداه إلى جوانب أخرى كالتخفيف من جبروت السلطة وإقبالهم على تعليم ووعظ العامة.

٢٤- أشار إلي كتاب أرشيبالد لويس، القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ت. أحمد عيسى وذكر أنه بدون عام للطبع، والواقع أن تاريخ طباعته معروف وهو عام ١٩٦٠م.

٢٥- أورد المؤلف اسم جمال الرمادي مؤلف كتاب فتوح العرب، والاسم الصحيح هو جمال الدين الرمادي.

٢٦- جاءت الخاتمة مجرد تلخيص لما ورد في الكتاب !!!، وبالتالي لم يركز المؤلف علي النتائج العلمية التي توصل إليها علي مدي فصول الدراسة، وفي تقديري أن تحليل ذلك يكمن في غياب إشكالية الدراسة ذاتها والهدف من إعدادها .

٢٧- أحياناً يضع المؤلف معلومات موضعها في الهامش كما في ص ٤١٧ وص ٤١٨ حيث تناول "صليب الملائكة" وأتصور أن أيراد ذلك الأمر في المتن يفسد السياق التاريخي للعرض.

٢٨- كنت أود أن يذكر مؤرخنا من عاونه في الترجمة عن الأسبانية واللاتينية لأن ذلك أمر له جانب كبير من الأهمية نظراً لتعدد المؤلفات، خاصة - الأسبانية - التي أفاد منها في إعداد دراسته القيمة.

وبعد؛ فإن كافة تلك الملاحظات لا ولن تقلل من قيمة الجهد العلمي البارز في الكتاب المذكور، والذي يعكس إنفاق مؤرخنا الأعوام الطوال من أجل إنجازه بصبر وجهد ومن المهم أن اذكر القارئ بأن مادة تلك الدراسة تم إعدادها بالسفر إلي إنجلترا، وأسبانيا، علي نحو يعكس ما لدي مؤرخنا من اهتمام كبير بتخصصه الذي أتمني أن يثري من خلاله المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات في المستقبل القريب بإذن الله تعالى.

**إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس
خلال عصر المرابطين) بيروت، ١٩٩٨، ٢٥٦ ص.**

عرض/ محمد تضرعوت

المغرب

يدخل هذا العمل الذي نتشرف بقراءته ضمن مجموعة من الأبحاث والدراسات التي أنجزها د. إبراهيم القادري بوتشيش، في حقل التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وهو حقل لا تزال العديد من قضاياها لم تدخل بعد دائرة البحث التاريخي المنظم

هذا الكتاب يأتي ليضيف إنتاجاً موسوماً بالجدة، ويزكي الصورة المشرقة التي يتمتع بها الباحث المؤلف في واجهة الدرس الأكاديمي المقتدر، ولعل المهتمين بحقل الاقتصاد والمجتمع في تاريخ المغرب الوسيط ليسوا في حاجة إلي أن أقدم لهم هذا الكتاب وفوائده منهجاً وبحثاً وتحصيلاً.

وعلي ما يبدو، فإن هذا المؤلف - الذي نحن بصددده - هو في الأصل جزء من أبواب الأطروحة التي أنجزها الباحث لنيل دكتوراه الدولة في تاريخ المغرب والأندلس، سنة ١٩٩١ - تحت إشراف الأستاذ د. محمود إسماعيل.

وقد سبق للمؤلف أن نشر قسماً منها في طبعة دار الطابعة سنة ١٩٩٣ تحمل عنوان: (المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، الذهنيات، الأولياء).

ولا ندري هل هذا العمل هو بالفعل جزء من المشروع، مثلما راهن عليه المؤلف، أو أنه عمل قائم في حيزه، ومستقل في ذاته، كما لا ندري إن كان تفصيل الأطروحة تحت حاجة النشر علي مراحل، مفيداً في تصحيح المعطل، وترميم التصدع، وإزالة الغموض والإبهام الذي ظل يكتنف تاريخ المغرب الإسلامي في الحقبة الوسطي.

مع ذلك فهذه الدراسة - شأنها في ذلك شأن الدراسات المفيدة - تطمح إلي تأسيس مشروع معرفي يروم إلي رصد العناصر الفاعلة في حركة تاريخ المغرب المنسي أو المعتم، كذا تأسيس تاريخ شمولي ومتكامل ينتقد الحصييلة الضحلة من

المعلومات التي تركها التاريخ التقريري المبتذل، والسعي إلى نسج تاريخ من منظور جديد يتوخي رصد الظواهر التاريخية رسداً أميناً بعيداً عن مسلك الأدلجة، والانشداد المسلم للنص الرسمي الذي أمسي مهيمناً علي مساحات شاسعة من تاريخ المغرب المعروف بالعننة والتداول.

فهل أفلح المؤلف في الإيفاء بالوعد الذي قطعه علي نفسه في مقدمة التأليف، وهل حقق الطموح الذي ظل يراوده وما يزال، أم ظل المكتوب - الذي نحن بصددده - لم يخرج علي نسق ذلك الصنم المعروف للمتداول المألوف.

إن الكتاب الذي نروم في هذه الورقة الموجزة تقديمه وتوصيفه واستعراضه وانتقاده يقع في ٢٥٦ صفحة من الحجم العادي، صدر عن دار الطليعة، بيروت ١٩٩٨.

أبرز الباحث في صدر التأليف، الدوافع التي كانت وراء تحفيزه علي كتابة تاريخ من هذا النوع، فبين أن الحقبة المرابطية عرفت مخاضاً وتحولاً عميقاً في الاقتصاد والمجتمع الذي ازداد حجمه وتعددت عناصره، كما مثلت السياسة والثقافة في الحقبة ذاتها، واجهة من واجهات معالم التحول الجديد الذي ظهر جلياً في توحيد المجال السياسي المغربي واتساعه، ووحدة المذهب وانتشاره.

أقر الباحث مبدئياً - في المقدمة - بصعوبة ولوج هذا الموضوع لأعتبارين أحدهما: ندرة المادة التاريخية المتاحة، وثانيهما: تداخل الحقول المعرفية وتنوعها، وتراكمها بين مجال الاقتصاد والمجتمع والسياسة والثقافة.

مع ذلك صرح بإمكان تجاوز الصعوبات بفضل توسيعه دائرة القراءة في المتن، والاهتداء إلي اكتشاف نصوص جديدة جري توظيفها لأول مرة، كذا تقويم الحصيلة بفضل تبني منهج علمي رصين، أثبت قدرته علي جمع الجزيئات، وفرز الظواهر المتشابكة، والعمل علي ربطها بالأبنية الفاعلة في النسق العام، ولم يفته استحضار الآراء الاستشراقية والتخريجات النظرية، والأطروحات الأجنبية التي لامست الموضوع من قريب، أو من بعيد ووضعها موضع اختبار وتأمل وانتقاد.

وبفضل ما تجمع لديه من مادة تاريخية متنوعة، عمل علي تفصيل الدراسة في أربعة فصول: خصص الفصل الأول منه لدراسة عناصر السكان وهجراتهم وتطورهم الديموغرافي، وعالج في الفصل الثاني أوضاع أهل الذمة، وعلاقتهم بالدولة والأهالي، بينما تناول في الفصل الثالث شكل البناء الطبقي وتراتب الفئات الاجتماعية، في حين اهتم الفصل الأخير بدراسة التكوين القبلي بالبوادي المغربية في الحقبة موضوع الدراسة، وختم بسلسلة من الملاحق والخرائط، اعتنت بمسألة توطين القبائل البربرية والعربية في بلاد الأندلس، واستخلاص ملحق تعريفى ببعض أثرياء الفقهاء الذين عرفهم العصر المرابطي، وتدبيح العمل بخرائط متنوعة بشأن الاستيطان المسيحي وأماكن التجمعات اليهودية في المغرب والأندلس، في حين يلاحظ أنه أسقط سهواً أو أغفل عمداً موافاة القاريء بقائمة من المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في مكتبة البحث، فما محتويات ومضامين أهم ما ورد وطرح في هذه الفصول جميعها؟

من خلال تتبع فحوي الفصل الأول الذي خصصه الباحث للسكان والديموغرافيا أوضح أن مكونات المجتمع المغربي اتسم في حركته ونظامه الداخلي بسمات غلبة الظاهرة القبلية شكلاً ومحتوي، فالقبيلة انبنت من مجتمع الكثرة والتعدد، وقام اقتصادها علي موارد الغزو والغنيمة (ص ٩)، وهذا التعدد الاثنى شمل بالخصوص العناصر البربرية والعربية والمولدين والأقليات.

فبالنسبة للبربر قدم الباحث عرضاً مسهباً حول الآراء التي قيلت في أصول البربر وتفرعاتهم القبلية، ومع إقراره بصعوبة الحسم في هذا الموضوع بسبب تضارب النصوص وتناقض التفسيرات المقدمة في هذا الشأن، فقد اكتفى بمسيرة الآراء التي ترجع أصول البربر إلي المنبع العربي في شقه الحميري، والتي تصنفهم تلقائياً علي أساس معيار نمط العيش مسائراً للرؤية الخلدونية.

ومن خلال الخريطة الجيو- أثنية التي استلهمها من النصوص، أبرز أن لوجود المكثف للبربر في بلاد المغرب يعزي إلي ظروف تاريخية، وذلك قبل أن

يهاجروا بشكل كثيف إلى بلاد الأندلس التي استقروا بها خصوصاً في المناطق الثغرية لمواجهة القوي النصرانية، بعد امتداد النقوذ الاسلامي هناك (ص ٣٦).

أما العرب فقد ظلوا - في رأيه - نسبة قليلة العدد من سكان المغرب الأقصى، عكس الأندلس التي لاحظ بأنها استقطبت هجرات عربية هامة بدءاً من تاريخ الفتح الاسلامي، وفسر هذا الاستقبال بتشابه البيئة الأندلسية مع البيئة العربية في الشرق، وهو ما انعكس في تشابه أسماء الاماكن أو تقاربها.

وفق الباحث في تقديم وصف وتعريف مسهب لمجموعة من الهجرات قصدت بلاد المغرب والأندلس، وتابعها تاريخياً من زمن الفتح الأول لشمال افريقيا إلى زمن المرابطين، وجزم بحصول اندماج اثني واختلاط عنصري بين البربر والعرب لدرجة سمحت بالقول عن تبرير العرب وتعرب البربر، وهي ظاهرة اعتبرها الباحث ميزة طبعت تاريخ المغرب وخصوصيته (ص ٤١)، وضرب أمثلة مستحضراً نماذج من بعض الأسر الفاسية، والعائلات الصنهاجية التي عرفت تمازجاً واختلاطاً في الأنساب (ص ٤٧)، كما برهن عليها في تناسي العرب لأصولهم المشرقية تحت تأثير نظام الخلافة، فضلاً عن تنشيط حركة الهجرة الداخلية ونمو أعداد المولدين، وذوبان الصقالبة في الجسم المغاربي خلال العهد المرابطي، واعتماد العنصر السوداني، وأتراك الغز في سلك الجيش وانتشارهم داخل المجتمع.

ولاحظ الكاتب بأن هذا التنوع السكاني المتعدد الأصول والمشارب لم يتطبع بالنعرة العنصرية والنزعة القبلية إلا في فترات الأزمات الاقتصادية والسياسية، وهو أمر طبيعي - في اعتقاده - نظراً لتعدد مجال الاستيطان، وتبعات الحروب، وتلاحق المجاعات، وتحرك السكان، وتباين التوزيع البشري بين الجهات، واعتماد الدولة على اقتصاد الغزو.

ونظراً للمكانة السياسية والاقتصادية التي لعبها أهل الذمة في الجسم المرابطي، فقد أفرد لها مبحثاً خاصاً تناول فيه أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والدينية وعلاقاتهم بالدولة والأهالي سواء بسواء، ولاحظ بأن تلك الأوضاع وشكل العلاقات، كانت تتأرجح بين أساليب الشدة والتسامح تبعاً لتطورات الوضع الداخلي،

وطبيعة السلطة السياسية القائمة، وإن بدأ في رأيه بأن اقتصاد المغازي الذي تحكم في توجهات الدولة المرابطية، جعل تلك العلاقة - في الغالب الأعم - موسومة بالتعنت والاضطهاد والتغريم واستنزاف القوي المنتجة.

وبرر الباحث ذلك في حاجة الدولة إلي المال، وليس إلي سبب ديني عقائدي، مثلما زعمت بعض المصادر والدراسات التي تناولت الموضوع، واستدل بظاهرة تقلد أهل الذمة المناصب السامية، وامتلاكهم العبيد عن المسلمين، وتركهم بصمات واضحة في الحياة اليومية لمسلمي المغرب والأندلس، في مجال الأزياء والأطعمة والاحتفالات، والزخرفة والبناء والزراعة وتقنيات السقي واستنباط المياه (ص ١١٥).

ويعتبر الفصل الثالث الذي خصصه الباحث لرصد البناء الطبقي في العصر المرابطي من أبرز فصول هذه الدراسة، وإن كنا نري - مبدئياً - بأن الفصل الرابع الذي دارت مباحث حول التكوين القبلي في البوادي المغربية يعتبر - منهجياً - مقدمة لفهم أسس البناء الطبقي ومكوناته، وليس نتيجة وخاتمة له مثلما جاء في المؤلف.

فالتنظيم القبلي والأعراف القبلية، وحياة القبيلة - هي جزأ لا يتجزأ - من مكونات المجتمع، فهي إذاً مقدمات أو بالأحرى تجليات في المنظومة الطبقية المنضدة، والمنبلجة أساساً من إفرزات البنية التحتية المحددة في شكل الاقتصاد ونمط الانتاج المهيمن الذي وسمه الباحث - سلفاً - بأقتصاد الغزو.

وكيفما كانت الاعتبارات أو الخلفيات الكامنة وراء التقديم والتأخير، فإن ما ميز أدوات البحث في التراتب الطبقي في المجتمع المرابطي أن المؤلف لم يتبن مقياساً واحداً، ففي المدن استند إلي مقياس الثروة (أغنياء، متوسطو الحال، مقلون) أو مقياس سوسيوي- أخلاقي (أهل الوجاهة والكرم، فالسفلة واللئام، ثم طبقة ثالثة تتوسطهما)، في حين تم اعتماد معيار قرابة الدم، ومؤشر صلة الرحم في ترتيب مجتمع البادية.

وإذا كان من طبيعة البشر عموماً - وحسب رؤية المؤلف نفسه - (التطلع إلي الدنيا وأسبابها من جاه وثروة) (ص ١٢٠)، فإن هذا المنحي ينطبق من دون استثناء علي سكان البوادي، وسكان المدن إسوة بإسوة، بل أدهي من كل ذلك، كيف يمكن القول بوجود تقسيم العمل وعلاقات العمل وعقود الملكية، وتطور الرأسمال والاستثمار

والتبادل في اقتصاد مهتريء لا يتجاوز أنفه، أليس أسلوب النهب والوهب اللذين ميرا أسلوب الحكم والاقتصاد في العصور الوسطي دليلاً علي هشاشة البناء الطبقي، وميوعة في تراتب الأبنية الاجتماعية؟ بل كيف يمكن استخدام مقياس الثروة الظرفية في مجتمع قائم علي مزاج الحاكم، وعلاقات انتاج مبنية علي اقتصاد عرضي غير قار متسم بالعبور والظرفية؟ ثم هل بمقدور اقتصاد من هذا النوع أن يراكم الرأسمال، ويدفع واقعياً إلي أسلوب توظيف الأسهم والتعامل بالسلف والفوائد؟ ألا يوجد تناقض بين الزعم بالقول بوجود ثروة عقارية قائمة علي الإقطاع وثروة عابرة مجبولة علي الغزو والسلب والتكيب (ص ١٢٤).

وكيفما كان موقف الباحث من هذه المسائل التي لا أظن أنها قد غابت عنه، فإنه قد حاول وفق التصور الذي وضعه، رصد خصوصية الطبقة والتفاوت الطبقي في المجتمع المراتبي استناداً إلي استحضار ثلاثة معايير، حصرها في ملكية الأرض، ملكية الرأسمال، نوع الوظيفة، وإن رأي أن هذه المعايير التي اقترحها لم تتسم بالثبات في ظل اقتصاد ونمط انتاج هش مرتبط بالظرفية. فأقترح - من خلال النصوص التي وقف عليها ولا سيما ابن خلدون - اتخاذ معيار الجاه الذي يدفع بصاحبه إلي أعلي المراتب (ص ١٢٥)، وضرب أمثلة بمجموعة من الناس ملكوا المال وسعة الحال، غير أنهم افتقدوا الجاه، فتعرضوا لأشرس النكبات، وقدم أمثلة من صنف آخر كانوا في غمار الخلق، فاستنهضوا في المكانة والقدر، بفعل نفع السلطان الذي فوت إليهم إدارة الأعمال (ص ١٢٥).

وبما أن دولة المغازي هي أصلاً دولة السيف والتخلق حول الحاكم، فإن وضع ذوي الجاه لم يكن ليستقر علي حال، فبمجرد ما تعن الفتن تهتز الوضعية الطبقية والمكانة الاجتماعية لكثير ممن استظلوا سابقاً بالجاه، وقد استشهد بأبن خلدون الذي لمح إلي هذا الوضع، حين ذكر (بأنه قد يقع في الدول اضطراب في المراتب من أجل هذا الخلق، فيرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية). (١٢٧)

ويسبدو أن هذه الظاهرة كانت عامة في العالم الاسلامي مشرقاً ومغرباً خلال العصور الوسطي، وهو ما يفسر ميوعة التشكيلة الطبقيّة في المجتمع الاسلامي، مثلما أومأنا إليه سلفاً في هذه الدراسة ودراسات أخرى سبق أن أنجزناها.

مع ذلك فقد تسمك الباحث بدور الجاه وأصقه بمسألة الشرف وأصله النسب واعتبرهما مؤشرين مركزيين (لاستمرار أركان المجد وقوادم الحمد وخوافيه)، بل نجده يؤكد النسب الشريف في التمايز الطبقي والفرز بين مراتب الأفراد.

ولا ندري كيف أضاف مذهب الدولة ذا المنحي المالكي، كذا توظيفه لعنصر القرابة المرسوم بالعصبية، واحتراف العلم، في نسق المؤشرات التي رآها فاعلة في الارتقاء والتألق الطبقي.

أليس المذهب والثقافة والجاه والشرف والحسب والنسب والقرابة، كما تفيدها المادية التاريخية - التي هي التأطير النظري لهذا البحث - هي تجليات ومظاهره لتأثير الاقتصاد ونمط الانتاج المهيمن علي الأبنية الاجتماعية والسياسية والحقوقية.

ومن ثمة، فالعناصر التي امتحنها الباحث واعتبرها فاعلة وموضبة للبناء الطبقي، نخالها صوراً لهذا البناء ومكوناته، في حين تظل الثروة وتظايفها مع الجاه بمثابة الأسين الفاعلين في تحديد شكل الطبقة ونوعيتها.

أما التزلف والتملق والوساطة في قضاء الحاجات، والتي أدمجها الباحث بين أدوات تحسين الوضع الطبقي للأفراد، فهي في اعتقادنا لا تعدو أن تكون مظهراً من مظاهر شكل البنية الاجتماعية وزيلاً من ذيولها.

وتأسيساً علي ما تم إثباته من خصوصيات بشأن التكوين الطبقي للمجتمع المرابطي، أنكب المؤلف علي تدرّج المنازل، أو بالأحرى الطبقات وفق التصنيف الذي اقترحه كما يلي:

- في قمة الهرم وضع الكبراء والأعيان والأمراء وقادة الجيش والوزراء والكتاب والسولاة والفقهاء، وبعض البيوتات الكبرى المنحدرة من العائلات الوجيّهة، فضلاً عن أطباء البلاط وشعراء السلطة، ضمن الفئات الاجتماعية المكونة لطبقة الخاصة.

وبصرف النظر عن الدعة والترف الذي طبع الحياة اليومية لهذه الفئات لأنها تحصل حاصل، فإن ملاحظة الباحث النبيهة حول وسم هذه الطبقة بالهيجينية، وعدم الانسجام بفعل تضارب المصالح والتكالب علي المواقع والتهافت علي المال، فإننا لا نوافق في الرأي حول طرح فكرة الفصل بينها وبين مؤسسة الدولة، وذلك حتي تقدر علي تطوير المجتمع وتتمكن من لعب دورها التاريخي.

وفي هذا الإطار نعن أمامنا مجموعة من التساؤلات، اختصرها في ما يلي، كيف يمكن الفصل بين المؤسسة السياسية ونظام الحكم القائم؟ بل كيف لنا أن نتصور قادة من دون جيش، وجيش من دون سلطة، وسلطة من دون وزراء، ووزراء من دون دواوين . ما المقصود بالاستقلالية عن أجهزة الدولة، مع العلم أن الدولة هي أجهزتها - وفق ما طرحه المؤلف (١٥٩) - هل بالفعل معاقرة الخمرة، وإتيان الجواري، والاقبال علي المحرمات، واقتراف الفواحش والزنا، وهضم حقوق العامة، والسماع للألحان وأغاني القيان، يؤدي بالفعل إلي تفسخ هذه الطبقة وانحلالها، فما دور الحراك الاقتصادي في تقوية الطبقة أو تفتتها - حسب ما يتداوله السوسيولوجيون أليس البذخ والترف والاستغلال وفساد الأخلاق، عناصر منفعة ومنصهرة في منظومة الفعل الاقتصادي حسب منهج المؤلف نفسه؟.

هذه أسئلة ارتأينا طرحها لعلها تبديد الظلام وتراجع أحكام القيمة التي ما تزال تطغي وتخيم علي مساحات شاسعة من حيز الفكر التاريخي وآليات اشتغاله في المجال العربي الاسلامي. فما المنظور الذي قدمه الباحث للطبقة الوسطي؟

يري الأستاذ أن هذه الطبقة ضمنت شرائح اجتماعية متنوعة من تجار وصيارفة يهود وأرباب حرف وأصحاب مهن من مهندسين، وأطباء فضلاً عن أصحاب الوظائف المتوسطة وأهل العلم ص(١٦٠).

وقد اجتهد في استحضار زخم هائل من النصوص تصف وضعية هذه الشرائح وتقلب أحوالها، ولاحظ بأن هذه الطبقة بدورها اتسمت بعدم التجانس والانسجام، كما أن افتقارها إلي النفوذ والسلطة - رغم حيازتها علي الثروة - لم تقو علي لعب دورها التاريخي علي غرار ما قامت به مثيلتها في أوروبا، وأرجع الباحث

سبب هذا القصور إلى طبيعة اقتصاد المغازي القائم على الاحتكار والنهب والمصادرة.

وإذا كان المؤلف لم يسهب كثيراً في طرح مسألة دور الطبقة الوسطى في الفكر والتاريخ الاسلامي وحلحلة قسماتها الداخلية، وهو أمر كنا نعول عليه كثيراً لدعم أطروحة اقتصاد المغازي الذي أطر مباحث التاريخ الاجتماعي، فإنه بالمقابل خصص لطبقة العامة حيزاً وفيراً.

فهل تعزي هذه الوفرة إلى وجود مادة تاريخية بشكل كاف وفرتها مسألة نزول اعداد كبيرة من شرائح الطبقة الوسطى إلى صفوف العامة، وهو وضع قد يكون طبيعياً بحكم اقتصاد قائم على النهب الداخلي والخارجي؟ أو يعزي إلى صعود جناح من أجنحة الطبقة الوسطى إلى معانقة البيوتات الكبرى والاندماج في سلكها؟، أم أن الطبقة الوسطى - وهذا احتمال فرضي - لم يكن لها وجود أصلاً الغرب الاسلامي مثلما ذهب إلى ذلك (هنريش بيكر). (راجع: محمود اسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الاسلامي، ج ٣، ص ١٣٢).

إن الهاجس الذي يكمن وراء هذه القراءات تدفع إلى ترتيب واقع المجتمع وتنميط حركته وفق تعيين مستويات اجتماعية قبلية لا توجد في الواقع، بقدر ما توجد في النظرية، وبعض الاجتهادات السوسيولوجية التي حاولت تقعيد المجتمعات وتقطيعها قطائع طبقية بشكل متعسف.

والملاحظ أن مفهوم الحركية الاجتماعية في البلدان التي تتسم بالركود الاقتصادي أو الدورة الحلزونية في الانتاج، يصعب فيها التسليم بوجود طبقة وسطى قادرة على تفعيل الاقتصاد، وخلخلة المعطي الطبقي القائم على أساس القناعة النفسية، تحت تأثير الإيديولوجية المهيمنة وضغط القوي السياسية الحاكمة.

وكيفما كانت نتائج هذه التساؤلات النظرية والمنهجية المطروحة للتفكير في نسق حركية المجتمع الاسلامي مشرقاً وغرباً، فإن طبقة العامة التي أصبحت في السنين الأخيرة موئل عناية البحث التاريخي المنظم، قد جعل منها الباحث قاعدة بشرية ضمت عناصر شتى من حرفيين وصغار التجار، وباعة متجولين، وأجراء

ومستخدمين، وأصحاب المهن الوضيعة والمزارعين والرعاة والمعلمين والطلبة وأئمة المساجد والشعراء واليتامي، فضلاً عن المهمشين من اللصوص والمهرجين والمشعوذين وأصحاب الحلقة، والعاشرات وأسرى الحروب والعبيد.

وفد فصل الباحث وفق منهج سردي وصفي جوانب من حياة هذه الشرائح وما بعدها (من ص ١٦٩) وعرض في ختام هذا الفصل إلى ذكر المحن والمصائب التي ألمت بها، ولاحظ عجزها عن القيام بثورة لصالحها، بسبب ضعف الوعي الطبقي عند هؤلاء، بالرغم من أنها طبقة منتجة حسب رأيه وتساءل في ذيل هذا المبحث عن مدي أوجه التشابه والاختلاف بين وضع السكان الاجتماعي في المدن ونظراتهم في البوادي.

وفي هذا الإطار خصص الفصل الرابع والآخر لمعالجة التكوين القبلي في البوادي المغربية في العصر الوسيط عموماً والمرابطي بوجه خاص، فقدم في البداية جرداً ملخصاً للظاهرة القبلية بين المصادر الوسيطية والدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة، ولا ندري كيف عمد الباحث إلى الموافقة جمعاً بين مفارقتين تنتميان إلى موقعين تاريخيين متباينين؟ فهل يخول المنطوق العلمي والرصد العياني أن نزاع بين استقراء حصاد الدراسات الحديثة التي اهتمت بمونوغرافية القبيلة المعاصرة، وبين توصيف الظاهرة نفسها في حقبة العصور الوسطى.

وإذا كان الباحث قد استشعر باستمرار أسس القبيلة كظاهرة اقتصادية واجتماعية وسياسية بسبب حفاظها على أسلوب الحماية والمدافعة والمطالبة التي ظلت فاعلة في بنیان القبيلة، فإننا لا نوافقه الرأي حول اعتبار النظام القبلي في ذاته انعكاس أميناً لنمط اقتصاد المغازي (ص ٢١٨).

فبالرجوع إلى الفقرة أو الفقرات التي سجل فيها الأستاذ الباحث بعض المتظاهرات الديموغرافية والجبائية في نسق واقع القبيلة، وانضباطها لشيخ الرئيس الذي يجمع السلطة ويراقب الأجهزة، فإن مفهوم التمثيلية في الأعراف المحلية السائدة والموروثة لم تسمح ميكانيزماتها بتجدر الديموقراطية في ذاتها بسبب التماهي في المحلية والحركة اللولبية، وهي ظاهرة جعلت في قمة القرار السياسي هيمنة

الأوليكرتسية القبلية المؤسسة التي كانت تدفع دوماً في اتجاه التعنت والعنجهية والاستبداد.

وإذا اقتنعنا - ولو علي مضض - بمقولة اقتصاد الغزو كنمط سائد تحكم في واقع مؤسسة القبيلة، فهل معني ذلك أن تاريخ المغرب والأندلس في الحقبة والوسطى جبل علي عدم الاستقرار وترصص علي حروب الكر والفر، بل وإذا سلمنا بهذا الواقع، فمن هو الغازي، ومن هو المغزو في واقع جغرافي - سياسي كان موحداً علي الأقل في العصر المرابطي.

نظرياً وواقعياً تمدنا مصادر الحقبة بسيل من النصوص تكشف عن اعتماد علي موارد ثابتة للرزق، فيما يعرف بأقتصاد القلة، واقتصاد الكفاف، ونادراً ما تقوم الدولة بالغزو إلا إذا توفرت علي فائض من الانتاج يتم توظيفه للبحث عن موارد جديدة تجسدها عملياً مشاريع الهيمنة وتوسيع المجال الذي يتبع حتماً مقدار قوة العصبية وشوكتها.

فما رأي الباحث في أن أساس استقرار المرابطين وثبات نظامهم السياسي والاجتماعي يرجع إلي حرصهم علي إقامة كنفدرالية قبائلية ذات أصول بربرية في تشكيلها السوسيو - أثنية، واقتصاد قائم علي الوساطة في حركة التجارة البعيدة المدي واستخلاص الفوائض الربعية؟

وإذا كان ابن خلدون - الذي هو عماد هذا البحث - قد ربط بين جدلية العصبية وأصالة البداوة، فإنه لم يخف الهدف المادي من هذا المسعي الذي قد يصل في منتهاه إلي إقامة السياسة وتأسيس الملك، وهو مسعي ما كان ليتم - في اعتقادنا - لولا حرص المرابطين علي تشكيل بنية تنظيمية ذكية ومتماسكة، رامت إلي تلطيف حساسية البربر ودرء تمرادتهم علي السلطة المركزية، إن علي المستوي السياسي، أو علي المستوي الرمزي، والممارسة الدينية التي كانت في الغالب موسومة بصرامة المنطق الفقهي الأحادي الذي تبناه المرابطون لظروف تاريخية كانت مهياة، ففي حلقة الفقرة التي خصصها ابن خلدون لنشوء الدول وارتقائها، يتبين أن العصبية التي نوهنا بها سابقاً، كانت ركناً أساسياً ودينامية فاعلة لتخليق الإرادة السياسية وتمكنها.

ومن هذا المنطلق تأخذ العصبية محي جدياً مكوناً من ثلاث محطات متواصلة، ومتناقضة في الوقت نفسه، ففي المحطة الأولى التي تقترن بالبداوة تتميز الظاهرة القبلية أو ارهاصات السياسية الناشئة برفض كل نزوع إلى الانضباط مهما كان مصدره، وفي المحطة الثانية التي تقرر بال عمران الحضاري تكون العصبية بصدد تجاوز نفسها وبتحطيم ذاتها، وأنداك تتخلي الدولة الصاعدة عن مبدأ المساواة الذي طبع مرحلة البداوة، وفي المحطة الثالثة والأخيرة تنبثق الأرستقراطية التي تركز إلى الداعة وتفنن في الترف، فتميل إلى التخلي بالتدريج عن العصبية المؤسسة فتستبدلها بالعسكر المرتزق.

وتأسيساً على هذا الطرح يبدو أن العلاقات الصدامية والتدافع والمغالبة بين أطراف القوي المحلية في المغرب الوسيط، كانت مدخلاً طبيعياً لقيام سلطة الأسر الحاكمة وتأسيس مشاريعها السياسية الطموحة، وبدا أن النصر - في كل الأحوال - ارتهن بمدي القدرة على تجيش الجيوش، وضمان أكبر قدر من الموارد والحرص على عدم نضوبها.

وغني عن البيان أن الآلة الإدارية في أمثال هذه المجتمعات ظلت نشيطة في الاتجاه الذي يبحث عن المال، والمال الذي يعزز السلطة ويفعل استبداد المؤسسة السياسية العسكرية المهيمنة.

ولاشك أن حرص الأدبيات السلطانية في العصر الوسيط على المزاجية بين الجند والمال والعدل والسلطان ما يؤكد أهمية هذه الأدوات في تاريخ الدول الوسيطة. يبين المرادي هذا المنحي بقوله المأثور عن أرسطو في السياسة:

العالم بستان - سياجة الدولة

الدولة سلطان - تحميه السنة

السنة سياسة - يسوسها الملك

الملك راع - يعضده الجيش

الجيش أعوان - يكفلهم المال

المال رزق - تجمععه الرعية

الرعية عبيد - يجمعهم العدل
العدل مألوف - وبه صلاح العالم

العالم سلطان كتاب السياسة ورقة ٦٨ - ٦٩

ونعتقد أن الخيال السياسي الخصب والتجربة المحنكة لشخص مثل عبد الله بن ياسين كانت وراء ادراك واستيعاب الميكانيزمات الفاعلة في جسم القبائل الصنهاجية، وقراءة واعية لذهنية قادتها، حيث تمكن من حسم الصراع علي زعامة الحلف الصنهاجي بين جدالة ولمتونة، وتوجيه المشاجرة والتنافس في اتجاه الشمال.

أما الخلفية الاقتصادية التي شكلت حوافز القيام واستراتيجية التأسيس وتوسيع دائرة المجال، فيجيب عنها مهد المرابطين والقضاء الذي استوطنوه في الخريطة الجيو - إدارية آنذاك. لذلك صدق محمود إسماعيل حين رأي بأن رايه الجهاد التي حملها المرابطون منذ تأسيس الحلف الصنهاجي، كانت غطاء للتوسع والهيمنة علي مصادر ومنافذ ومراكز وأسواق تجارة الشمال - الجنوب (أنظر: سوسيولوجيا الفكر الاسلامي، ج٣، ١٦٦).

وعلي أي، وكيفما كانت الانتقادات والتصويبات التي اقترحناها لهذا الفصل، فإن من باب الانصاف القول بأنه جاء حافلاً بمعلومات تاريخية لها غاية من الأهمية، تهم بالخصوص الظاهرة القبلية وتشعباتها، وإن كنا لا نوافقه في تجزئة هذا المبحث وبعثرته في وحدات صغرى، لأسباب أخالها اجرائية، وليست موضوعية وعلمية، علماً بأن التقيء والتشظى التقطع قد يفقد الموضوع وحدته وتماسكه.

وهكذا وجدنا البحث ينتقل من معالجة مشكلة القبيلة بين المصادر والأنثروبولوجيا المعاصرة، إلي الحديث - في النقطة الثانية - عن عناصر الحياة القبلية في العصر المرابطي (ص ٢٢١)، ليرجع في نقطة ثالثة إلي الإطار الاقتصادي للقبيلة، وقضية التمايز الاجتماعي (ص ٢٥)، ليخلص رابعاً إلي التنظيم القبلي (ص ٢٨٠)، ثم يدرج الأعراف القبلية في النقطة الخامسة - بالرغم من تلازمها - منهجاً وموضوعاً مع التنظيم القبلي، وأنهى الفصل بنقطة سادسة حول علاقة القبائل بالسلطة المركزية.

وما يمكن ملاحظته بوجه عام أن هذه النقط جميعها لا يمكن فهمها مجتزأة، برهاننا علي ذلك، أن التقسيم الذي اختاره الباحث قد أوقعه في التقليد وغيابات الأدلجة، واستنساخ الأفكار، وتوظيف أحكام القيمة، ودفعه إلي منزلق التكرار والاسهاب، بل وأسقطه في سرد بديهيات معروفة تدخل في نسق تحصيل حاصل. ولا أعتقد أن الباحث غير متقطن إلي ما للتجزئة من وقع سلبي علي وحدة المواضيع من طبيعة الاقتصاد والمجتمع، والأنثروبولوجية الدينية وتواريخ الأفكار. ومهما كان وقع الانتقادات التي وجهت لهذا العمل فإن ذلك لا ينقص من قيمته العلمية وأهميته الريادية.

فالباحث قد وفق بامتياز في اقتحام موضوع ملغز محاط بالكثير من المحاذير، والضغوط الإيديو-سياسية، ويحسب له الاعتراف - مثلما ورد في مقدمته - من أن أفكاره ليست نهائية، وله الحق فيما زعم، لأن كل خطاب أو تأليف مهما ادعى لنفسه الأكاديمية وامتلاك الموضوعية، فإنه لا ينفلت من الأدلجة، وتقل الظرفية والراهنية التي تلعب دوراً كبيراً في حجب التصورات وتأطير الأفكار وصياغة المفاهيم والمصطلحات.

ولعل من بين الحسنات التي تحسب لهذا العمل أن صاحبه لم يحصر نفسه في دائرة الاهتمام بالنصوص التاريخية المتداولة فحسب، بل نقب في مصادر ومخطوطات تم تناولها لأول مرة، كما فرضت عليه طبيعة المباحث التي سبر غورها أن ينوع القراءة، ويغترف من معارف ومناهج لا تدخل بالضرورة في حقل تخصصه. وإذا كانت معضلة البحث الجامعي الأكاديمي هو استكناه الأطروحة التي تجمع بين المباحث المبوبة من دون التشبع النظري والتصور الإبستيمي المؤسس علي فرضيات مقنعة، فإن المؤلف الذي بين أيدينا حاول فيه الباحث أن يبني أراءه ويصوغ تخريجاته بالسند إلي اقتصاد المغازي، الذي قال به عابد الجابري كذلك من دون أن يفصله.

ومهما قيل في نجاعة أو عدم نجاعة الاقتناع بالأخذ بهذا النمط الأساس فإن ما يحمّد لهذا البحث أنه كتب ولم يغفل صاحبه الإطار النظري المنفتح، وغير المحكوم

بهواجس الكلمة الفصل، والنهايات المعروفة. فالتحليل التاريخي الناجح للوقائع الاجتماعية لا يمكنه أن ينفلت من التصور النظري الإبستيمي المؤسس علي قناعة العلم، لا علي أقنعة الميتولوجيا وقبعات الإيديولوجية التبريرية، فالمعرفة - حسب قول ألتوسير - لا تصبح حقيقة إلا بعد اكتمال البناء النظري، وأن الوصول إلي مرحلة الاكتمال لا يحصل مبدئياً إلا من خلال إدراك العلاقة الجدلية بين النظرية والمعرفة، وهذا ما لمستاه في قسم كبير من هذا المؤلف.

Hassan S. Khalilieh, *Islamic Maritime law: An Introduction*, Brill, 1998.

عرض/ محمد نصر عبد الرحمن

مصر

قدر للمسلمين في انسيادهم في أرجاء العالم أن يبسطوا سيطرتهم علي العديد من المسطحات المائية، البحرية والنهرية، وسواحل طويلة امتدت شرقاً لتشمل المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر، والبحر المتوسط والمحيط الأطلسي غرباً. وأدي ذلك لنمو علاقة وطيدة ربطت بين المسلمين والبحر، وجعلت من الأخير واحداً من أهم معالم الحضارة الإسلامية، وظهر ذلك في المؤلفات العديدة التي سطرها المؤرخون حول الرحلات البحرية وكذلك كتب الفقه التي تناولت أحكام السفر وقواعد النقل والتجارة البحرية.

وقد ظهرت العديد من الدراسات الحديثة حول هذا الموضوع الحيوي علي أيدي العديد من الباحثين، الذين تناولوا تلك العلاقة بصورة جزئية في إحدى بقاع الدولة الإسلامية كالمحيط الهندي أو البحر المتوسط، أو بصورة عامة تغطي الحياة البحرية الإسلامية بوجه عام^١.

وإلي النوع الأخير من الدراسات ينتمي هذا الكتاب الذي يحمل عنوان (مقدمة في القانون البحري الإسلامي)، للباحث الفلسطيني حسن صالح خليلية، الذي تظهر اهتماماته الواسعة بمجال الحضارة البحرية الإسلامية في العصور الوسطي، خاصة تاريخ التشريع الإسلامي البحري، بجانب الدراسات البحرية الأثرية من خلال هذه الدراسة الجادة.

والكتاب في أصله كان أطروحة حصل بها الباحث علي درجة الدكتوراه من جامعة برنستون Princeton عام ١٩٩٥، ثم نشر الكتاب في هولندا عام ١٩٩٨ كإصدار خامس ضمن سلسلة من الدراسات تتعلق بالقانون والمجتمع الإسلامي.

انظر علي سبيل المثال:

جورج حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطي، ترجمة. السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨، علي محمود فهمي، التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتي القرن العاشر الميلادي، ترجمة. قاسم عبده قاسم، بيروت ١٩٨١.

Nadvi, s. "Arab Navigation" Islamic Culture 15 (1941) pp. 435. 448; 16 (1942) pp. 72 – 86, 182 – 198, 404 – 422.

والكتاب في أصله كان أطروحة بها الباحث علي درجة الدكتوراه من جامعة برنستون Princeton عام ١٩٩٥، ثم نشر الكتاب في هولندا عام ١٩٩٨ كأصدار خامس ضمن سلسلة من الدراسات تتعلق بالقانون والمجتمع الإسلامي.

وتحتوي الدراسة علي سبعة فصول، اختص الأول منها بالحديث عن وسائل النقل البحري وأهم المصطلحات الخاصة بها من حيث الحجم والاستعمال، كالقارب والمركب والسفينة.... والأسماء الخاصة التي تطلق علي كل سفينة كأسماء مالكي السفن، أو الربانية، أو الأسماء التقليدية المعتادة التي توشي بالتفاؤل والجمال.

ثم يتطرق بعد ذلك للحديث عن سعة السفن ومدى حمولتها، ووسائل الأمان المتبعة لمنع وقوع الخسائر، مثل قوارب النجاة وغيرها، ويتحدث عن دور المحتسب في مراجعة تلك الوسائل للتأكد من صلاحية السفن للإبحار.

ثم ينتقل إلي الفصل الثاني ليتناول راكبي السفن من البحارة والركاب، حيث يتناول في البداية بحارة السفن من حيث تصنيفهم ومهامهم ومواضعهم علي متن السفن، ثم يناقش العلاقة بين أصحاب السفن والبحارة من ناحية والمسافرين من ناحية أخرى، بجانب مسئوليتهم عن سلامة الركاب والبضائع، ويختتم الفصل بالحديث عن المسافرين من حيث حقوقهم وواجباتهم.

ومن خلال الفصل الثالث الذي يحمل عنوان القانون التجاري البحري، يلج الباحث إلي الموضوع الرئيسي للدارسة، لذلك قسم الفصل إلي خمسة أقسام: تناول الأول منها ما يختص بعقود تأجير السفن، فيقدم لنا نماذج لهذه العقود، ويضع القواعد التي سار عليها المسلمون في إجراء هذه العقود من حيث الاتفاق علي أجرة الشحن، والإجراءات الواجبة عند تفض هذا الاتفاق.

ويتناول القسم الثاني الضرائب والمكوس التي تفرض علي البضائع المنقولة بحراً، ويتناول القسم الثالث القوانين التي تتحكم في قيام البحارة بطرح جزء من البضائع في البحر في حالات الطوارئ التي تتعرض فيها السفن للغرق مثل العواصف العاتية، أو هجوم القراصنة، وغيرها مع توضيح كيفية توزيع هذه الخسارة بين حائزي البضائع وملاك السفن، والعوامل التي تؤثر في التخلص من البضائع خاصة لو كانت

نفسية، أما القسم الرابع فيصف القوانين المتعلقة بغرق السفن في حوادث التصادم، ويختتم الفصل بالقسم الخامس الذي يتناول القواعد الخاصة بتعويض حائزي البضائع في حالة غرق السفن.

ويواصل الباحث هنا الاتجاه في الفصل الرابع الذي يحمل عنوان (القانون البحري العسكر) حيث يتناول القوانين التي تحكم الحياة البحرية في حالة الحرب، وآراء الفقهاء في الأصول التي علي المسلمين اتباعها أثناء الحرب البحرية مثل منح الأمان، وقواعد تقسيم الغنائم، ثم يختتم الفصل بالحديث عن القواعد التي تحكم التجار من أهل الذمة في تعاملهم داخل الأراضي الإسلامية.

وينتقل الباحث في الفصل الخامس الذي يحمل عنوان (المياه الإقليمية، البحار المفتوحة القانون البحري الدولي)، ينتقل الباحث هنا من الإطار المحلي للإطار العالمي ليفسر الدلالة الشرعية للمياه الإقليمية من وجهة نظر كل من الفقهاء والحكام والبحارة، والقواعد التي تنظم الملاحة في المياه المتداخلة والي البحار بجانب الأنهار الداخلية والموانئ.

وفي الفصل السادس الذي يحمل عنوان (قوانين الانضباط)، يناقش الباحث كيف كان القانون البحري يحكم البحر، من خلال تناول بعض الجرائم التي تحدث في البحر كالقتل والسرقة والزنا وغيرها من الجرائم، والقانون الذي يحكم هذه الحالات.

ويختتم الباحث دراسته بالفصل السابع الذي يحمل عنوان (التقاليد الدينية في البحر) حيث يناقش مدى فاعلية تطبيق الواجبات الدينية الإسلامية خلال الرحلة البحرية مثل الصلاة والصيام والحج والزكاة ونقل السلع المحظورة دينياً كالخمور، وكذلك قواعد دفن الموتى في البحر خلال الرحلة البحرية.

ومن خلال هذه الدراسة يري الباحث أن القوانين البحرية الإسلامية تأثرت بوضوح بالقوانين الفارسية والبيزنطية، واقتبست الكثير منها، وأن عملية الاسلمة والتعريب لهذه القوانين استغرقت مرحلة زمنية طويلة.

كما أوضح الباحث آراء الفقهاء في العادات والقوانين البحرية الإسلامية، واستخدمهم للتقنيات التشريعية لبحث الحلول الممكنة لكل ما يحدث في البحر أو

الموانئ، اعتماداً علي القرآن والسنة، وكذلك القياس والرأي، والعادات المحلية التي لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية.

ومن الناحية المنهجية تبدو بدايات الكتاب - خاصة الفصلين الأول والثاني - تقليدية، في الحديث عن السفن والركاب والعلاقات المتبادلة خلال العمليات البحرية، لكن هذه البداية تبدو ضرورية للدخول في الموضوع الذي تدور حوله الدراسة.

أما الناحية الجديدة في الدراسة فهي التعرض لتفاصيل القانون البحري الذي كان يحكم البحار الإسلامية ومن يرتادها، وهي ناحية غير تقليدية لم يتصد لها الكثير من الباحثين، نظراً لصعوبة البحث فيها، وقلة المادة المتاحة عنها، والمنهج المتبع في الدراسة تنظيري إلي حد كبير، يتناول القواعد البحرية الحديثة ويحاول أن يطبقها علي الواقع البحري الإسلامي في العصور الوسطي، لكن هذا المنهج بقدر ما يحمل من تجديد، فإنه لم يخل من بعض السلبات فرغم الموضوعات الجديدة التي طردها المؤلف، ومثلت بعداً جديداً في هذا المجال، إلا أنه مع ذلك لم يقدم تطبيقاً عملياً في كثير من الأحيان، إلا من خلال إقرار القواعد الخاصة بها من بعض كتب الفقه.

ويحسب للمؤلف اعتماده الكبير علي كتب الفقه في توضيح قواعد وقوانين البحرية الإسلامية وهو اتجاه مميز باعتبار كتبه الفقه الإسلامي، كالفقاه والنوازل والحسبة وغيرها من أهم روافد الفكر الإسلامي، الذي لم ينهل منه دارسي التاريخ الإسلامي بصورة كافية، كما يحسب له أنه انتبه إلي اختلاف أحكام الفقهاء وفقاً لاختلاف المذاهب والأماكن والأزمنة.

ومع هذا يؤخذ علي الباحث اعتماده بصورة كبيرة علي أوراق الجنيزة²، كدلائل تطبيقية علي بعض الموضوعات، برغم ما تثيره هذه الأوراق من جدل

² يقصد بها الأوراق التي وجدت مدفونة في اطلال المعبد اليهودي، الباقية اطلاله إلي اليوم بحي البساتين بالقرب من ضاحية المعادي، وهو معبد كان يخص الجالية اليهودية، انني عشت بمصر الإسلامية في مدينة الفسطاط، انظر Goitein, S., Letters of Medieval Jewish Traders, Princeton, 1973; Sadan, J. "Genizah and Genizah - like practices in Islamic and Jewish Traditions", Bibliotheca Orientalis 43 (1986). PP. 36 - 58.

باعتبارها خاصة بطائفة واحدة وهم اليهود، وبالتالي لا يمكن أن تأخذ أحكامها بصورة عامة علي التاريخ الإسلامي^٣.

كما يؤخذ علي الباحث اتساع الفترة التي تناولها والتي تمتد من فتح كربت وصقلية علي أيدي الأندلسيين والأغالبة إلي سقوط في مصر (٢١٢ - ٦٥٠ هـ - ٨٢٧ - ١٢٥٢ م)، أي ما يزيد عن أربعة قرون، وهي فترة كبيرة زمنياً شهدت حوادث عديدة في مختلف البحار الإسلامية، كما شهدت تطورات في القواعد البحرية، بحيث من الصعب الإمام بها بين دفتي دراسة واحدة.

ورغم ذلك، تظل هذه الدراسة إضافة مميزة لحقل الدراسات الإسلامية، وناحية جديدة تلقي الضوء علي جانب هام من جوانب الحضارة الإسلامية، مازال في حاجة للمزيد من الدراسات المتعمقة، التي تتيح أبعاداً جديدة من المعرفة لهذا المجال الحيوي من الحضارة الإسلامية.

^٣ للمزيد من التفصيل عن هذه القضية انظر .. أحمد فؤاد سيد، أوراق جنيزة القاهرة، هل هي امتداد لعلم البرديات العربية ودراساته، ندوة الدراسات للبرديات في مصر، القاهرة ١٩٨٣، ص ٢٢٢ - ٢٨٢.

ثانيًا: القسم الأجنبي

Deals with the political , administrative economical social and religious circumstances in Byzantine Egypt

Chapter 3 :

Deals with the objectives of education . and the educational institutions of learning in Byzantine Egypt.

Chapter 4 :

Deals with the various courses and teaching methods applied in the system of education during Byzantine Egypt.

Chapter 5 :

Deals with the social status of teachers and students in Byzantine Egypt.

Epilogue :

Contains the conclusions of the study.

***Education in Byzantine Egypt*, PhD dissertation by Naglaa Mohamed Hamed, Cairo University , Institute of Educational Studies Department of Foundations of Education. 2001**

**Naglaa M. Hamed
Egypt**

The Byzantine age in Egypt is considered one of the most impressive ages in the Egyptian history . this importance is due to the radical changes both in economic and the cultural life in Egypt

The present study endeavors to prove that this radical changes have some depth in the Egyptian civilization

The system of education in Byzantine Egypt was meanly based upon several factors · Hellenic culture dominant from the Ptolemaic age ; Christian culture as from the diffusion of Christianity of Egypt ; the reforms made by the Byzantine emperor.

Justification of the study :

There is no previous study concerning history of education in Byzantine Egypt. There is an urgent need for a manifold study to the system of education in Byzantine Egypt, in order to fill the gap of the history of education in Egypt.

Objectives of the study :

There is necessity for a special study concerning the system of education in Egypt in the Byzantine period in order to achieve the following objectives:

For explaining and analyzing the resources of information of this period with a view to proving the principal relation between education and cultural changes.

For discussing in full the educational factors in Byzantine age with a view to solving the recent educational problems

The methodology of study :

This study uses the historical together with the analytical methods in order to explain the educational system and its impact upon the cultural changes in the society.

This study consists of five chapters which are as follow.

Chapter 1 :

An introduction to the study containing a theoretical framework of the study.

Chapter 2 :

B. Book Reviews

enemies.⁸⁴ It is most probable that the Byzantine emperor aimed to benefit from the military advantages of the Magyars, who were threatening their neighbors and raided on some European cities,⁸⁵ or to destroy their military power in the war against the Bulgarians. These events proved that the Byzantine diplomacy was very active and had the ability to move the tribes of the Steppes one against the other.

Constantine VII mentioned also that: "Árpád, the graet prince of the Turks, had four sons: first, Taskatzous; second, Ielech; third, Ioutotzas; fourth, Zaltas.

The eldst son of Árpád, Tarkatzous, had a son Tebelis, and the second son Ielech had a son Ezelech, and the third son Ioutotzas had a son Phalitzis, the present prince, and the fourth son Zaltas had a son Taxis.

All the sons of Árpád are dead, but his grandsons Phalis and Tasis and their cousin Taxis are living.

Tebelis is dead, and it is his son Termatzous who came here recently as 'friend' with Boultzous, third prince and Karchas, of the Turks.

The Karchas Boultzous is the son of the Karchas Kalis, and Kalis is a proper name, but Karchas is a dignity, like Gylas, which is superior to Karchas".⁸⁶

Therefore, Constantine VII presented good information on the genealogy of Árpáds and distinguished between Kalis, as a proper name, and the dignities of Karchas and Gylas.

Thus, although there is some confusion in some chapters of Constantine VII, which speak of the early history of the Turks, i.e. the Magyars, his account is very useful to examine the Byzantine policy towards the Byzantine-steppe frontier towards the end of the 9th century and the beginnings of the 10th century AD.

⁸⁴ Chapter 18 of the *Tactica* contains of valuable information on the Bulgarians, Turks, Scythians, Arabs and others. Leo in this chapter speaks of the strategy and the tactics of these nations, to present his experience with them to his successors.

⁸⁵ Shepard, *The Khazars*, 25-26.

⁸⁶ *DAI*, I.40. 51-68.

where they live, which is called after the above name of the rivers, as has been said".⁷⁸ The Byzantine historians confirm the account of Constantine VII.⁷⁹

As we have already assumed that the Pechenegs attacked the Magyars and drove them from Atelkozou as a result to the lack of the pastures in Lebedia, especially after the arrival of their kinsmen from the east, or because of some skirmishes among them. But we can add that the co-operation between the Bulgarians and the Pechenegs was a common desire, since the Bulgarians wanted to destroy the power of the Magyars, who threatened their safety during their war against Byzantium. At the same time may be the Pechenegs wanted to extend their lands at the expense of the Magyars.

Here there is a question that poses itself: why did Leo VI especially send to the Magyars to support him in his war against Symeon the Bulgarian?

Leo VI speaks in his *Tactica* about the 'Turks' and mentions that "the Turks are an active nation, and they keep the secret. They are not sociable and they are dishonest. They don't respect their agreements...After their receiving the gifts, they begin to forget their agreements and arrange the plots".⁸⁰ "During the battle they fight by deceits, and sudden skirmishes more than fighting hand by hand. They surround the enemy and cut off his supplies."⁸¹ They also are interested in the archers, especially shooting on the backs of the horses".⁸²

From the texts of the *Tactica* of Leo VI, it may be concluded that the Magyars, as fighters, are strong, brave and have a special strategy in the war. They do not accept the defeat during the battle, and search for all the ways to get over their enemy and defeat him.⁸³ According to the *Tactica*, it is shown that the Byzantine palace was interested in recording the strategy and the tactics of Byzantium's

⁷⁸ *DAI*, I. 40. 13-22; P. Diaconu, *Les Pechénègues au bas-Danube* (Bucarest 1970) 11; (henceforth *Pechénègues*) Tamiem, *Pechenegs*, 60f.; Runciman, *Bulgarian Empire*, 149; Fine, *Balkans*, 139.

⁷⁹ Cf. *Theophanes Cont.*, 359; *George Monachus*, 854-855; *Leo Gram.*, 268; *Zonaras*, III. 444; *Pseudo-Symeon*, 702. For more details see Bashier, *Bulgarian State*, 111ff.; R. Browning, *Byzantium and Bulgaria, A Comparative Study across the Early Medieval Frontier* (London 1975) 59ff.; Diaconu, *Pechénègues*, 11; Tougher, *Leo VI*, 177.

⁸⁰ Leo VI, *Tactica*, col. 958. 47.

⁸¹ Leo VI, *Tactica*, col. 958. 48.

⁸² Leo VI, *Tactica*, col. 958. 51. For more details see Tougher, *Leo VI*, 182-183

⁸³ Leo VI, *Tactica*, col. 963. 74

Byzantine leader Crinitus was killed. Symeon cut off the noses of the Byzantine captives and sent them back to Constantinople.⁷⁵

This incident persuaded the emperor Leo VI to move the Byzantine armies of the Orient, which were under the leadership of Nicephor Phocas from Asia Minor to the Balkans; and at the same time used the Byzantine diplomacy. So he sent Nicetas Skleros to the Magyars to secure their help. He sailed up the Danube and met with them. He carried many of the traditional gifts of these occasions to the Magyars. The Magyars agreed to launch an attack on Symeon's rear, and Nicetas took hostages (presumably as a guarantee of their promised co-operation) and returned to Byzantium.⁷⁶

When the Byzantine leader Nicephor Phocas arrived to Constantinople, the Byzantine emperor sent him with a Byzantine navy to the Balkans, to fight against the Bulgarians. The Byzantine navy of Admiral Eustathius carried the Magyars across the Danube to the north of Bulgaria. The Byzantine armies and the Magyars defeated Symeon who fled to Moundraga. Therefore, Symeon asked Leo VI to make peace with him.⁷⁷

Yet, Symeon in the same year of 896 AD. turned to revenge from the Magyars, the new ally of Byzantium in the north of the Balkans. So, as Constantine VII said: "after Symeon was once more at peace with the emperor of the Romans and was free to act, he sent to the Pechenegs and made agreement with them to attack and destroy the Turks. And when the Turks had gone off on a military expedition, the Pechenegs with Symeon came against the Turks and completely destroyed their families and miserably expelled thence the Turks, who were guarding their country. When the Turks came back and found their country this desolate and utterly ruined, they settled in the land

⁷⁵ *Theophanes Cont.*, 358; *Leo Grammaticus Chronographia*, ed. F. Niebuhrii, CSHB (Bonn 1842) 267; (henceforth *Leo Gram.*) *Georgius Monachus Continuatus*, ed. I. Bekker, CSHB (Bonn 1838) 853; (henceforth *George Monachus*) *Zonaras*, III. 443; V. A. Fine, *The Early Medieval Balkans* (Michigan 1993) 138f; (henceforth *Balkans*) J. Shepard, 'Bulgaria: The Other Balkan 'Empire'', *NCMH*, Vol. III. ed. T. Reuther (Cambridge 1999) 570. (henceforth *Bulgaria*)

⁷⁶ Tougher, *Leo VI*, 176; Shepard, *The Khazars*, 28.

⁷⁷ *Theophanes Cont.*, 358; *George Monachus*, 854; *Leo Gram.*, 268; *Zonaras*, III. 443-444; *Pseudo-Symeon*, 701; *Leo VI, Tactica*, ed. J. B. Migne, PG (Turnholti 1987) col. 955.42; S. Runciman, *A History of the First Bulgarian Empire* (London 1930) 146; (henceforth *Bulgarian Empire*) H. Bashier, *The Relations between the Byzantine Empire and the First Bulgarian State* (Cairo 2001) 110-111; (henceforth *Bulgarian State*) Tougher, *Leo VI*, 176-177; Shepard, *Bulgaria*, 570

seem that the nations whose power was inferior to the Pechenegs, or afraid of the alliance between them and the Byzantine Emperor were the Rus' the Magyars and the Bulgarians. At the same time there is no indication to the nature of the relations between the Khazars and the Pechenegs after the defeat of the latter by the Khazars in 889 AD. This may refer to the Khazars' power which was still strong.

This demonstrates the importance of the Pechenegs' power for Byzantium in comparison with other powers of the Steppes. But, what about the Magyars in their last place?

When the Magyars moved from Atelkozou to the lands of Great Moravia they settled in the rear of Bulgaria. Thus, the neighbors of the Magyars were: on the eastern side of the Bulgarians, where the river Istros, also called the Danube, runs between them; on the northern, the Pechenegs; on the western the Franks; and on the southern, the Croats.⁷¹

On the other hand, there was a great hostility between the Byzantine emperor and the Bulgarian Symeon. So, when Symeon declared war against Byzantium in 894 AD., and the Byzantine armies were in the east under the leadership of Nicephor Phocas, the Byzantine emperor Leo VI asked the Magyars to launch an attack on the rear of the Bulgarians, to gain the time and move his armies from Aisa Minor to the west.⁷²

Constantine VII says that the Magyars after their staying in the new site, "at the invitation of Leo, the Christ-loving and glorious emperor, they crossed over and fought Symeon and totally defeated him, and drove on and penetrated as far as Preslav, having shut him up in the city called Moundraga; and they went back to their own country. At that time they had Liountikas, son of Árpád, for their prince".⁷³

This account is substantiated by many Byzantine historians. According to their writings, the Byzantine emperor sent a small force of his *hetaireia*⁷⁴ in 894 AD. under the leadership of Procopius Crinitus and Curticius the Armenian, to fight Symeon, Khan of the Bulgarians. But Symeon defeated them in Macedonia and the

⁷¹ DAI, I. 40.41-44.

⁷² DAI, I. 40.7ff.

⁷³ DAI, I. 40. 7-13; T. Lounghis, *Les ambassades byzantines en occident, depuis la formation des états barbares jusqu'aux croisades 407-1096* (Athens 1980) 196.

⁷⁴ S. Tougher, *The Reign of Leo VI (886-912)* (Brill 1997) 175 (henceforth *Leo VI*)

that Byzantium was interested in enforcing its relations with the Khaqān of the Khazars, who had an army of 10.000⁶⁴ or 12 000 of soldiers.⁶⁵ We have to keep in mind that the Rus' and their princes had arrived to Kiev in 859 AD. and taken it by force from the sovereignty of the Khazars. So, Byzantium had to ally itself with the Khazars against the advancement of the Rus' towards the Pontic sea. But, by the end of the ninth century, the Pechenegs proved, through their new geographical places, Lebedia and Atelkozou, that they were more useful to Byzantium than the Khazars. This fact persuaded Constantine VII to write these words to his son "I conceive, then, that it is always greatly to the advantage of the emperor of the Romans to be minded to keep the peace with the nation of the Pechenegs and to conclude conventions and treaties of friendship with them and to send every year to them from our side a diplomatic agent with presents befitting and suitable to that nation, and to take from their side sureties, that is, hostages and a diplomatic agent, who shall come together with the competent minister, to this city protected of God, and shall enjoy all imperial benefits and gifts suitable for the emperor to bestow".⁶⁶

The Pechenegs could attack the Rus', and ravage their lands; and the Rus' couldn't raid on the Byzantine lands without making peace with them.⁶⁷ Thus, so long as the Pechenegs were leagued in friendship with the emperor and won over by him through letters and gifts, they could easily come upon the country both of the Rus' and of the Magyars, and enslave their women and children and ravage their country.⁶⁸ Constantine VII adds that they may make excursions and plundering raids against Cherson, and may ravage Cherson itself and the so-called "Regions".⁶⁹

The Pechenegs also threatened the Bulgarians of the Danube, enemies of Byzantium, and the Byzantine Emperor would appear more formidable, and could impose on them the need for tranquility, if he was at peace with the Pechenegs who could attack and defeat the Bulgarians.⁷⁰ According to the last words of Constantine VII, it would

⁶⁴ Al-Marwazī, *Kitāb Tabai' al-Haiawān*, ed. V. Minorsky (London 1940) 21.

⁶⁵ Istakhrī, *Al-Masālek wal-Mamālik*, ed. M. G. 'Abdel-'Aal (Cairo 1961) 129.

⁶⁶ *DAI*, I. 1.16-24.

⁶⁷ See *DAI*, I. 2.2-23.

⁶⁸ *DAI*, I. 4.8-13.

⁶⁹ *DAI*, I. 1.25-28.

⁷⁰ *DAI*, I. 5.2-12.

tribes, immigrated from the east to Lebedia to live there with the Pechenegs who were called Kangār⁵⁷

It is probable that the pastures of Lebedia couldn't cope with these great numbers of the Pechenegs for a long time, or there were some skirmishes between the Pechenegs and the Magyars, especially that the author of *Hudūd Al-'Ālam* mentions that "the Magyars are at war with all infidels living around them...".⁵⁸ So, after three years of their coming,⁵⁹ in 896 AD., they marched towards Atelkozou to extend their lands at the expense of the Magyars. They attacked the Magyars and drove them with their prince Árpád out of Atelkozou. The Magyars, in flight and seeking a land to dwell in, came and in their turn expelled the inhabitants of great Moravia and settled in their land, until the time of Constantine VII. And since that, time the Magyars had not sustained any attack from the Pechenegs.⁶⁰ Constantine refers also to the relations which were still between the two parts of the Magyars, i.e. Magyars of Persia and the others of the Danube.⁶¹

Now, what is the importance of these changes which took place in the Steppes for Byzantium? The Pechenegs became neighbors of the Rus' and the Khazars, and the Magyars were neighbors of the Bulgarians and the other nations of the Balkans.

In 860 AD. a regrettable accident happened to Byzantium; the Rus' attacked Constantinople suddenly and ravaged its suburbs.⁶² Since this event the Rus' became hostile to the Byzantines, especially when they began to threaten the Byzantine possessions in Crimea, i.e. Cherson. After this attack, Byzantium sent a diplomatic mission under the leadership of Constantine of Thessaloniki to Khazaria to strengthen its relations with the Khazars.⁶³ It was normal at that time

⁵⁷ Tamien, *Pechenegs*, 59-60.

⁵⁸ *Hudūd Al-'Ālam*, 101. § 22.

⁵⁹ Tamien, *Pechenegs*, 60.

⁶⁰ *DAI*, I. 172. 53-61.

⁶¹ *DAI*, I. 172. 61-65.

⁶² *Symeon Magister ac Logothetae Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838) 674-675; (henceforth *Pusedo-Symeon*) *Cedrenus*, II, 173; I. Zonaras, *Epitomae Historiarum*, Vol. III, ed. T. Büttner-Wobst, *CSHB* (Bonn 1897) 404. (henceforth *Zonaras*) For a good analysis of all the sources of this event see A. Vasiliev, *The Russian Attack on Constantinople in 860 AD* (Cambridge, Mass. 1947) 150-239; A. Court, 'La russie à Constantinople', *RQH* 1(1876) 78-84.

⁶³ G. Ostrogorsky, *History of the Byzantine State* (Oxford 1956) 203

Kabaroï against the Khazars. The Magyars and the Kabaroï co-operated together and attacked Vienna and its suburbs in 881 AD. Therefore, one may suppose that the Khazars were upset by the alliance between the Magyars and the Kabaroï. And the relations between the Khazars and the Magyars at that time were not cordial.⁵³ So, they permitted the Pechenegs in 889 AD. to pass through their lands to Lebedia in which the Magyars and the Kabaroï were living, and drove them out of it.

When the Magyars stayed in Atelkozou, after a short time, the Khaqān of the Khazars sent a message to them, requiring that Lebedias, their first Voivode, should be sent to him. Lebedias, therefore, came to the Khazars' Khaqān and asked the reason why he had sent for him. The Khaqān told him that he would appoint him as a prince for his nation. But Lebedias refused to be a *client* prince to the Khazars on the Magyars and told the Khaqān that another Voivode called Almoutzis and his son Árpád were more suitable for the post. Then the Khaqān sent a political Khazarian mission with Lebedias to Atelkozou, to discuss this matter with the Magyars, who had chosen Árpád their prince for them.⁵⁴ Thus, Árpád accepted to be a *client* prince to the Khazars, where he became a ruler according to the Khazarian traditions. These events show and confirm that the Magyars, after their defeat by the Pechenegs, accepted the conditions of the Khazars, who became their masters and submitted to the authority of the Khazarian Khaqān. Thus, in 890 AD. the Hungarian rulers became *clients* to the Khazarian Khaqān such as the Bulgars of the Volga, the Burtas and some other nations.⁵⁵

In 893 AD., Isma'il ibn Ahmed al-Samanī directed an expedition against the Ouzes and defeated them. Therefore, great numbers of the Ouzes' tribes marched towards the Caspian sea and stayed there between the rivers of the Volga and the Oural, in the north of the Caspian sea.⁵⁶ So, the rest of the Pechenegs, the five

⁵³ Shepard, *The Khazars*, 26.

⁵⁴ *DAI*, I. 172. 38. 31-53.

⁵⁵ Zuckerman, *Les Hongrois*, 64. Ahmed ibn Fadlān refers to twenty five wives to the Khazarian Khaqān, which indicate to twenty five of his neighboring (*clients*) kings. See *Resālat Ahmed ibn Fadlān fi Wasf al-Rehla elā Bilād al-Turk wal-Khazar wal-Rus' wal-Saqālibah*, ed S. El-Dahān (Damascus 1978) 192.

⁵⁶ Zuckerman, *Les Hongrois*, 61

rivers are identified with the Dnieper, Bug, Dniester, Pruth and Sereth.⁴⁶

These events, which had taken place in 889 AD, as Minorsky concluded,⁴⁷ may refer to the entrance of the Pechenegs to the lands of Khazaria. In that year the Pechenegs couldn't bear the bothering and pressure of the Ouzes (Ghuz) to push them towards the west into Khazaria.⁴⁸

M. Tamiem supposes that the Pechenegs took their route to Lebedia across the Russian lands, and that they passed through Kiev, after their defeat by the Khazars.⁴⁹ Zuckerman thinks that the Khazars defeated the Pechenegs and there was a Khazarian-Pecheneg plot to attack the Magyars.⁵⁰ I think that the presumption of M. Tamiem is not acceptable, especially that the Russian Primary Chronicle afterward reflects the hostility between the Pechenegs and the Rus'. But the assumption of Zuckerman is notable, although it gives an impression that the Khazars, the victors, ordered, or asked, the defeated Pechenegs to attack the Magyars. It may be suitable to think that the Pechenegs, after their defeat by the Khazars, asked the latter to pass through their lands to Lebedia. At the same time it was a good chance to the Khazars to drive the Magyars out of Lebedia and to strike the Pechenegs with the Magyars to destroy their military power. So, they made an agreement with the Pechenegs to pass through Khazaria and to settle in Lebedia instead of the Magyars. On the other hand, the Pechenegs promised the Khazars to drive the Magyars out of Lebedia.

This incident reflects the tension in the relations between the Khazars and the Magyars in that time. In 870 AD,⁵¹ the Kabaroi, which were Khazarian tribes, for political reasons, rebelled against the Khazarian sovereignty and fled to the Magyars, who accepted them on their lands.⁵² It is possible that the Magyars were planning to use the

⁴⁶ DAI, II. 149. 38.68-71. Cf. Stephenson, *Medieval Hungary*, 104; Vernadsky, *Lebedia*, 186ff.

⁴⁷ *Hudūd al-'Ālam*, 320; Zuckerman, *Les Hongrois*, 55.

⁴⁸ M. Tamiem, *Pechenegs and Byzantines, a Study in the Northern Policy of Byzantium 850-1122 AD* (MA unpublished thesis, Mansoura University 1996) 58-59. (henceforth *Pechenegs*)

⁴⁹ Tamiem, *Pechenegs*, 59.

⁵⁰ Zuckerman, *Les Hongrois*, 61.

⁵¹ Zuckerman, *Les Hongrois*, 63.

⁵² DAI, I. 39. 1-14; Zuckerman, *Les Hongrois*, 62-63.

their lands to *Bilād al-Rūm*, i.e. Byzantium, to sell them there".³⁹ This information of al-Gardizī is very important to explain the importance of this alliance between the Khazars and the Magyars.

However, because they were in alliance with them and were brave, the Khaqān arranged the marriage of Lebedias, the Hungarian prince, to a Khazarian noble lady and subsequently proposed to appoint him as 'prince (archon).'⁴⁰

Thus, the Magyars became allies of the Khazars during their staying in Lebedia, as we have concluded before, and the relations with them were good. These facts were clear for Constantine VII, who recorded them carefully in his *DAI*.

For some reason the Pechenegs stirred up war against the Khazars, and being defeated, were forced to quit their own land and to settle in that of the Magyars. And, when battle was joined between the Magyars and the Pechenegs who were at that time called *Kangār*,⁴¹ the army of the Magyars was defeated and split into two parts. One part moved eastwards and settled in the region of Persia, and they to this day are called by their ancient name of the Magyars *Sabartoi asphaloi*; but the other part, together with their Voivode and chief Lebedias, settled in the western region, in a place called 'Ατελκούζου.⁴²

Al-Gardizī, confirms the account of Constantine Porphyrogenitus about this stage of the Magyars' history, whereas he refers to two parts of the Magyars, one in the east and the other in the west beside *al-Saklāb*.⁴³ They spent some years in that region, *Atelkozou*, in which there are five great rivers; emptying themselves into the north-western corner of the Black sea.⁴⁴ These five rivers are Βαρούχ, Κουβοῦ, Τρούλλος, βρούτος and Σέρετος.⁴⁵ These

³⁹ Al-Gardizī, *Zayn al-Akḥbār*, 472. Ibn-Rosteh, *Al-A'lāk al-Nafīṣah*, 142-143 refers only to the Magyars' attacks on the Slavs but Al-Gardizī told us that they attacked also the Rus'.

⁴⁰ *DAI*, I. 170.38; Shepard, *The Khazars*, 25.

⁴¹ Κόγγαρ, this is a Pecheneg name which is mentioned in the Syrian sources in the form *hangār*, and applied to a people who fought with the Persians in the middle of the 6th century. For more details see *DAI*, II. 145.37.68-71.

⁴² *DAI*, I. 38.19-30. Atelkozou, this name means in Hungarian 'between the rivers' or 'Mesopotamia'. See *DAI*, II. 148.38.30.

⁴³ Al-Gardizī, 471-472.

⁴⁴ *Hudūd al-'Ālam*, 320; Zuckerman, *Les Hongrois*, 56.

⁴⁵ *DAI*, I. 172. 38. 68-71.

Khazars attack the Pechenegs every year, and Isha (their khaqān) raids and leads his soldiers by himself'.³² Constantine VII supports the account of Ibn-Rosteh when he says that the Pechenegs extended their influence until the Khazarian Sarkel.³³ Thus, all evidences show that Sarkel was built to protect the Khazarian limit of the Don against the Magyars³⁴ and the Pechenegs also³⁵. So, it may be concluded, according to the previous evidences, that the Magyars moved to Lebedia, which was Khazarian possession, in the fourth decade of the ninth century.³⁶ The relations between the Magyars and the Khazars were hostile for more than twenty years afterward, if one would suppose that the Khazars tried to restore Lebedia from the hands of the Magyars or that the latter raided on the Khazars, since they launched wars against their neighbors.³⁷ The new settlers of Lebedia conquered the Slavs and dealt with them as captives. On the other hand they brought many of them as slaves to sell them to the Byzantine merchants.³⁸ Therefore, the Magyars became inimical to the Khazars, who lost their sovereignty on these Slavic tribes which used to pay the tribute to them.

Probably, after the fall of Kiev, which was under the Khazarian sovereignty, at the hands of the Rus' the relations between the Khazars and the Magyars became better than before 859 AD. In the next stage of the relations between them, the Magyars, who became an *état tampon* between the Rus' and the Khazars, became allies to the latter.

The new situation of the Magyars between the Rus' of Kiev and the Khazars, as an *état tampon*, was in the consideration of the Khaqān. Al-Gardizī confirms this assumption when he says that "the Magyars attacked the Slavs and the Rus', and brought the slaves from

³² Ibn-Rosteh, *Al-A'lāk al-Nafīṣah*, 140.

³³ *ADI*, I. 42. 20-23. Cf. G. Cedrenus, *Historiarum Compendium*, Vol. II, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838), 528; (henceforth *Cedrenus*) *Theophanes Continuatus*, ed. I. Bekker, *CSHB* (Bonn 1838) 122; (henceforth *Theophanes Cont.*)

³⁴ Macarteny, *Magyars*, 75; Shepard, *The Khazars*, 24.

³⁵ Zuckerman, *Les Hongrois*, 57.

³⁶ Macarteny, *Magyars*, 77; Zuckerman, *Les Hongrois*, 59.

³⁷ *Hudūd Al-'Ālam*, Eng. trans. V. Minorsky (Oxford 1937) 101. § 22.

³⁸ Ibn-Rosteh, *Al-A'lāk al-Nafīṣah*, 142-143; Al-Gardizī, *Zayn al-Akḥbār*, Arab. trans. A. S. Zydān (Cairo 1982) 472. (henceforth *Zayn al-Akḥbār*)

allies, and from this year onwards the Magyar-Khazarian relations were strengthened, as recorded by Constantine VII . But what about the relations between them before 859 AD., peaceful or hostile?

C. Zuckerman in his interesting article²⁵ refers to the Russian envoys who had visited Constantinople during the reign of the Emperor Theophilus.²⁶ He assumes that these envoys visited Constantinople before 839 AD., may be in 835 AD., and stayed there for many years, where the emperor received them.²⁷ In 18th May 839 AD. the Frankish Emperor Louis the Pious received a Byzantine mission accompanied with the Russian envoys to help them to come back to their country. Because the route through which they came to Constantinople was threatened now with the barbarians.²⁸

In the summer of 839 AD. the Byzantine Emperor Theophilus received the Khazarian envoys, who came to ask him to provide them with Byzantine engineers to construct the fortress of Sarkel on the Don. Theophilus answered their request and the Sarkel was built under the supervision of Petronas Kamaretus. The Khazars posted in this fortress a garrison of 300 men , who were relieved annually.²⁹

Zuckerman examined these evidences and concluded that the barbarians who has threatened the Russian envoys were the Magyars, and supported his conclusion with the clash of the Byzantines ca. 836 AD. with the Hungarian troops in the north of the Danube. May be the Russian envoys knew of the troubles of the Pontic Steppes in that year and stayed at Constantinople for many years before their returning back to their country in 839 AD.³⁰ Ibn-Rosteh supports the conclusion of Zuckerman where he says: “ In the past, the Khazars protected themselves by ditches against the Magyars and the other neighboring nations...”³¹

I think that Ibn-Rosteh means with “the other neighboring nations...” the Pechenegs, especially because he confirms that “the

²⁵ ‘Les Hongrois au pays de Lebedia: Une nouvelle puissance aux confins de Byzance et de la Khazarie ca 836-889’, in *To Εμπολεμο Βυζαντιο 9ος-12ος αι.* (Athens 1997) 51-74. (henceforth *Les Hongrois*)

²⁶ *Annales de Saint-Bertin*, ed. F. Grat, J. Vieillard, S. Clémencet and L. Levillain (Paris 1964) 30-31.

²⁷ Zuckerman, *Les Hongrois*, 54-55.

²⁸ Zuckerman, *Les Hongrois*, 53.

²⁹ *DAI*, I. 42. 20-41.

³⁰ Zuckerman, *Les Hongrois*, 55-56.

³¹ Ibn-Rosteh, *Al-A'lāk al-Nafisah*, 143.

For example, when the Rus' intended to attack Abskoun, between 864-884 AD./250-271AH., in the Caucasus they asked the Khaqān of the Khazars to give them his permission to do it, because they had to pass through his lands.¹⁹ When the Rus' attacked Abskoun for the second time in 910 AD. without his permission, and without passing across his lands, the Khaqān of Khazars attacked them while they were retreating before the Caucasian Moslems.²⁰ So, when the Rus' intended to attack the Moslems of Tabaristan, Jilan, Bakou and other Caucasian countries, for the third time in 912 AD., they sent to the Khaqān to give them his permission to pass through his lands for this purpose, and if they conquered the people of these countries they would give him the half of their booty.²¹ During the time of the Khazarian Khaqān Aron (900-920 AD.) Byzantium pushed the king of Alans to attack Khazaria; but Aron allied himself with the Turkish Ouzes and defeated him.²² It should be added that the Khazars collected the tribute from the Slavs of the Steppes.²³

On the other hand, beside the Khazarian power, it should be remarked that the Rus' had taken Kiev from the Khazars by force in 859 AD. and shared them in the tribute of the Slavic and Finnish tribes in the Steppes. The Khazars collected it from Radimichians, Polyanians, Severians, and Vyaticians, while the Rus' collected it from Chuds, Slavs, Merians, Ves' and Krivichians.²⁴

According to this information, it seems that Khazaria was a super power as compared to the other powers of the Steppes. But, since 859 AD. I think that the Khazars had to search for an ally to support their ability against the Rus'. They regarded the Magyars as

Hawqal, *Kitāb Sūrat al-Ard* (Leiden 1967) 15, 392-394; Ibn-Maskawaih, *Tajārūb al-Umam*, vol. 6 (Cairo 1915) 209; Al-Idrisī, *Kitāb Nuzhat al-Moshtāq fī Ikhtraq al-Afāq* (Cairo, without date) 835).

¹⁹ Ibn Sfandiyar, *Tarikhe Tabaristan*, Eng. trans. E. G. Brown (London 1905) 198; W. Chadwick, *The Beginning of the Russian History* (Cambridge 1966) 60-61; Mohammed, *Russians*, 142.

²⁰ Mohammed, *Russians*, 143.

²¹ See Al-Mas'ūdī, *Moroj al-Dhahab wa Ma'āden al-Djawhar*, vol. I (Cairo 1927) 114-116; Al-Hemiarī, *Al-Rawd al-Me'tar fī Khabar al-Aktār*, ed. I. 'Abbass (Beirut 1980) 340-341.

²² Noonan, *Byzantium*, 115; V. Mošin, 'Les khazares et les byzantins', *B* 6(1931) 312; Mohammed, *Russians*, 196-197.

²³ *RPC*, 84; Franklin and Shepard, *Rus'*, 77; M. Whittow, *The Making of Orthodox Byzantium 600-1025* (London 1996) 223.

²⁴ *RPC*, 58-59, 61.

It is known that there were political, commercial and social relations between Khazaria and Byzantium since the era of the Byzantine emperor Heraclius. There were strong ties between the Khaqān of the Khazars and the imperial court of Byzantium. The Byzantine diplomacy from the 7th century onwards depended on the military Khazarian power to form the political map of the Steppes. This situation extended to the 10th century, when there were many new military powers in the Steppes such as Pechenegs and the Rus'. According to these considerations the scale of the political relations between Byzantium and Khazaria were reduced,¹⁶ and the Byzantine court turned strongly its interests towards the new powers, especially to the Pechenegs and sometimes to the Rus' and Alans.¹⁷ The Arab geographers and historians give a clear picture of Khazaria, especially on its political, economic and religious life. Here I'll not repeat their accounts on Khazaria, which had been studied by many scholars, but according to these accounts, it may be concluded that Khazaria was a super power on the banks of the Volga, or on the Byzantine-Steppe frontier, for many centuries.¹⁸

¹⁶ In the reign of the Khazarian Khaqān Benjamin (880-900) Byzantium allied with the Ouzes, Burtas, Black Bulgarians and the Pechenegs to attack Khazaria. The king of Alans supported the Khazars to get over this alliance. The Khazars and Alans defeated the alliance of Byzantium. (Noonan, *Byzantium*, 115; Mošin, *Khazars*, 321). The document of Cambridge refers also to another Byzantine attempt to attack the Khazars by the Russians. The Byzantine Emperor Romanus Lecapenus persuaded the Russian prince *Helgou* to attack the Khazars during the time of Joseph (920-960). (Noonan, *Byzantium*, 115; Mošin, *Khazars*, 313-314) It may be added an important reason to the hostility between Byzantium and the Khazars in the tenth century, the religious policy of the Macedonian dynasty towards the Jews in the Byzantine Empire. (see: A. Sharf, *The Byzantine Jewry from Justinian to the Fourth Crusade* (London 1971) 99ff.; S. Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign* (Cambridge 1963) 231ff.).

¹⁷ For more details on Khazaria see D. M. Dunlope, *The History of the Jewish Khazars* (New York 1967), Arab. trans. S. Zakkar (Damascus 1990) 233-294; T. M. Mohammed, *The Russians and the International Community 945-1054 AD* (Cairo 2001) 183-215; (henceforth *Russians*) A. Koestler, *The Khazar Empire and its Heritage* (London 1976), Arab. trans. H. M. Saleh (Damascus 1978) 31-70.

¹⁸ This power decreased when the Russian prince Sviatoslave launched an attack on Khazaria in 965 AD. and destroyed their capital Ite. (*The Russian Primary Chronicle*, Laurantian text, ed. and Eng. trans. S. H. Cross and O. P. Sherawitz-Wetzor (Cambridge, Mass. 1953) 84; (henceforth *RPC*) S. Franklin and J. Shepard, *The Emergence of the Rus' 750-1200* (London 1996) 143). (henceforth *Rus'*). The Arab geographers confirmed this event and added that Sviatoslave allied with the Ouzes and destroyed also Samander, the second city of the Khazars. (See: Ibn-

Constantine VII speaks of the geographical site of the Magyars and its development as follow: "The nation of the Turks had of old their dwelling next to Khazaria, πλησίον τῆς Χαζαρίας, in the place called Λεβεδία⁹ after the name of their first βοέβοδος,¹⁰ which Voivode was called by the personal name of Λεβεδία, but in virtue of his rank was entitled Voivode, as have been the rest after him".¹¹ In that time the Magyars were called Σάβαροι ἄσφαλοι¹² and Constantine VII didn't know the reason behind this name.¹³

Constantine VII provides us with some details on the site of Lebedia, whereas he says that "there is a river called Χιδμός or Χιγγιλοῦς.¹⁴ In this place they lived together with the Khazars for three years, and fought in alliance with them in their wars.¹⁵ Then, a question will rise for us " when did the Magyars become allies of the Khazars and fight with them too?"

⁹ Lebedia has been located on the Dnieper, between the Dnieper and Don, near the Don and Donets, and on the Banks of Meotis and Kuban. Most of the scholars incline to the view that Lebedia lay west of the Don. Cf. *DAI*, II. 147.

¹⁰ The meaning of this Hungarian title is not clear and there is no Byzantine synonym to it. We know from Constantine VII that this is an official title for the prince of the Magyars. *DAI*, II. 147. Ibn-Rosteh in his book *Kitāb al-A'lāk al-Nafisah*, ed. M. J. De Goeje, *BGA* (Brill 1892) 143 says that "the president of the Magyars is called Kandah (or Kendah), and this name is a symbol of their king. Because the name of the man who rules them is Djalah (or Djelah). All the Magyars are obeyed the orders of Djalah of launch the wars or stop it...etc". This quotation indicates there were two high positions among the Magyars, i.e. Kandah, the king, and Djelah, his first leader or prime minister. Probably Voivode was a Slavonic version to the Turkish title Kandah. I think that Constantine VII is unaware of the fact that there were two high positions among the Magyars, because he speaks of only one, who is called Voivode.

¹¹ *DAI*, I. 170.38.3-7.

¹² It is in all probability related to the name of the Savirs and means 'invisible Savartians'. Armenian and Arab sources mention a people called 'Sevordi' which in 8th century lived near the river Kour, on the northern border of Persarmenia; scholars believe this people to be identical with Constantine VII's Savartians, *DAI*, II. 147; Macartney, *Magyars*, 87-88.

¹³ *DAI*, I. 170.38.9-10.

¹⁴ *DAI*, I. 170.38.8-9. This river has been thought by the some scholars in the following rivers: Kodyma, Inchul or Inchulets, Orel, Molotchnaya, Donets and the Don. There is identification between this river and the συγγούλ. But the last is unknown. *DAI*, II. 147.38.

¹⁵ *DAI*, I. 170.38.13-14.

others, which examined some aspects of the relations between Byzantium and its northern neighbors, such as Pechenegs, Khazars, Rus', Magyars...etc. There are also a couple of questions which will be aroused if we re-read chps. 38, 39 and 40 of *DAI*.⁸

DAI draws a good picture about the immigrations of the Magyars from the East of the Pontus to the West and shows their political and social developments during their journey from the East to the West. In this modest paper I'll try to re-read the account of *DAI* about the Magyars and I'll try to find answers to some problematic questions, such as: Why the Magyars had allied themselves with the Khazars and what was the nature of this alliance? Why the Magyars did not fight with the Khazars against the Pechenegs? Were the Magyars, according to Constantine VII, under the Khazarian sovereignty? What was the nature of the Byzantine-Hungarian relations in the end of the ninth century?

As a prologue I present here the account of *DAI* about the early history of the Turkoi. We have two main chapters in *DAI*, i.e. chps. 38 and 40, beside many indications in chaps. 3,4,8,13,30,39 and 42 which reflect a complete view on the early Magyars.

eds., *Gennadios, K70-letiu Akademika G. G. Litavrina* (collection of articles celebrating G. G. Litavrin's 70th birthday) (Moscow 1999) 264-283.

⁵ Nonnan has a lot of valuable studies on the Khazars and the nations of the Volga. From these studies 'When Rus/Rus' Merchants First Visit Khazaria and Baghdad?' *AEMA* VII (1987-1991) 214-219; idem, 'What does the Historical Numismatics Suggest about the History of Khazaria in the Ninth Century', *AEMA* III (1983) 265-281; idem, 'Russia, the Near East and the Steppe in the Early Medieval Period: An Examination of the Sasanian and Byzantine finds from the Kama-Urals', *AEMA* II (1982) 269-302; idem, 'Why the Viking First Came to Russia?' *JGO* 34 (1986) 321-348; idem, 'Byzantium and the Khazars: a Special Relationship?' in *Byzantine Diplomacy*, papers from the twenty-Four Spring Symposium of Byzantine Studies, Cambridge, March 1990, eds. J. Shepard and S. Franklin, Hampshire, 1992, 109-132. (henceforth *Byzantium*)

⁶ Nikolov presented an interesting study on the missions of Constantine and Methodius in the Steppes, especially among the Magyars. See 'The Magyars Connection or Constantine and Methodius in the Steppes', *BMGS* 21 (1997) 79-92.

⁷ O. Pritsak, 'The Pechenegs a Case of Social and Economic Transformation', *AEMA* 1(1975) 211-235; O. Pritsak and N. Golb, *Khazarian Hebrew Documents of the Tenth Century* (Ithaca, London 1982).

⁸ Constantine Porphyrogenitus, *De Administrando Imperio*, ed. G. Moravcsik, Eng. trans. R. J. Jenkins (Budapest 1949); (henceforth *DAI*) Vol. II ed. by R. J. Jenkins and others (London 1962). (henceforth *DAI*, II)

The Turkish Settlement in Caucasus and Steppes Constantine VII's Evidence*

Tarek M. Mohammed
Ain Shams University. Egypt

Although there are many and valuable studies about the early history of the *Turkoi*, i.e. Magyars, such as the important study of C. Macarteny, *The Magyars in the Ninth Century* (Cambridge 1930);¹ G. Moravcsik, *Byzantium and the Magyars* (Amsterdam 1970), and others, the important and useful account of Constantine Porphyrogenitus about the history of the Magyars, it still needs more analysis. Macarteny presented a good presentation about the Magyars' account of *DAI*; but he was more concerned with discussion of the home-land of the Magyars, Lebedia and Atelkozou, and the different shapes of their name in the Byzantine sources. G. Vernadsky in 1939 presented an interesting study about Lebedia and its relation with southern Russia.²

These are some of the modern studies which speak of the Hungarian history in the Medieval times.³ But, as I think, we can present a new reading of the account of Constantine VII about the early Magyars, if we depend on the recent, valuable and important studies of J. Shepard,⁴ T. Noonan,⁵ S. Nikolov,⁶ O. Pritsak⁷ and

* This paper was delivered at *The Second International Congress on the Black Sea Antiquities, Ankara, Turkey, 3-9 September 2001*. I'd like to thank my colleagues Dr. Peter Frankopan, Oxford University, for his useful remarks and for Prof. Eshak Ebeid, Ain Shams University, who revised the English version of this paper. My warmest thanks for Prof. J. Shepard, Cambridge University, who provided me with some articles and valuable remarks.

¹ Henceforth *Magyars*. G. Kristó presents a new study on the Magyars of the ninth century *Hungarian History in the Ninth Century*, trans. G. Novak (Szeged 1996).

² G. Vernadsky, 'Lebedia Studies on the Magyar Background of Kievan Russia', *B XIV* (1939) 179-203. (henceforth *Lebedia*)

³ P. Stephenson presents an analysis to these studies. See 'review article: Early Medieval Hungary in English', *Early Medieval Europe* 10/1(2001) 95-112. (henceforth *Medieval Hungary*)

⁴ J. Shepard presented some important studies on the relations between Byzantium and its northern neighbors, especially Rus' and Pechenegs. See, J. Shepard, 'The Russian-Steppe frontier and the Black Sea Zone', *The Twelfth Spring Symposium of Byzantine Studies: The Byzantine Black Sea*, 18-20 March 1978, ed. A. Bryer, *Arch. Prov.* 35 (1978) 218-237; idem, 'The Khazars' Formal Adoption of Judaism and Byzantine's Northern Policy', *OSP* 31 (1998) 11-34; (henceforth *The Khazars*) idem, 'Constantine VII's Doctrine of "Containment" of the Rus', in *S. Ivanov et al.*,

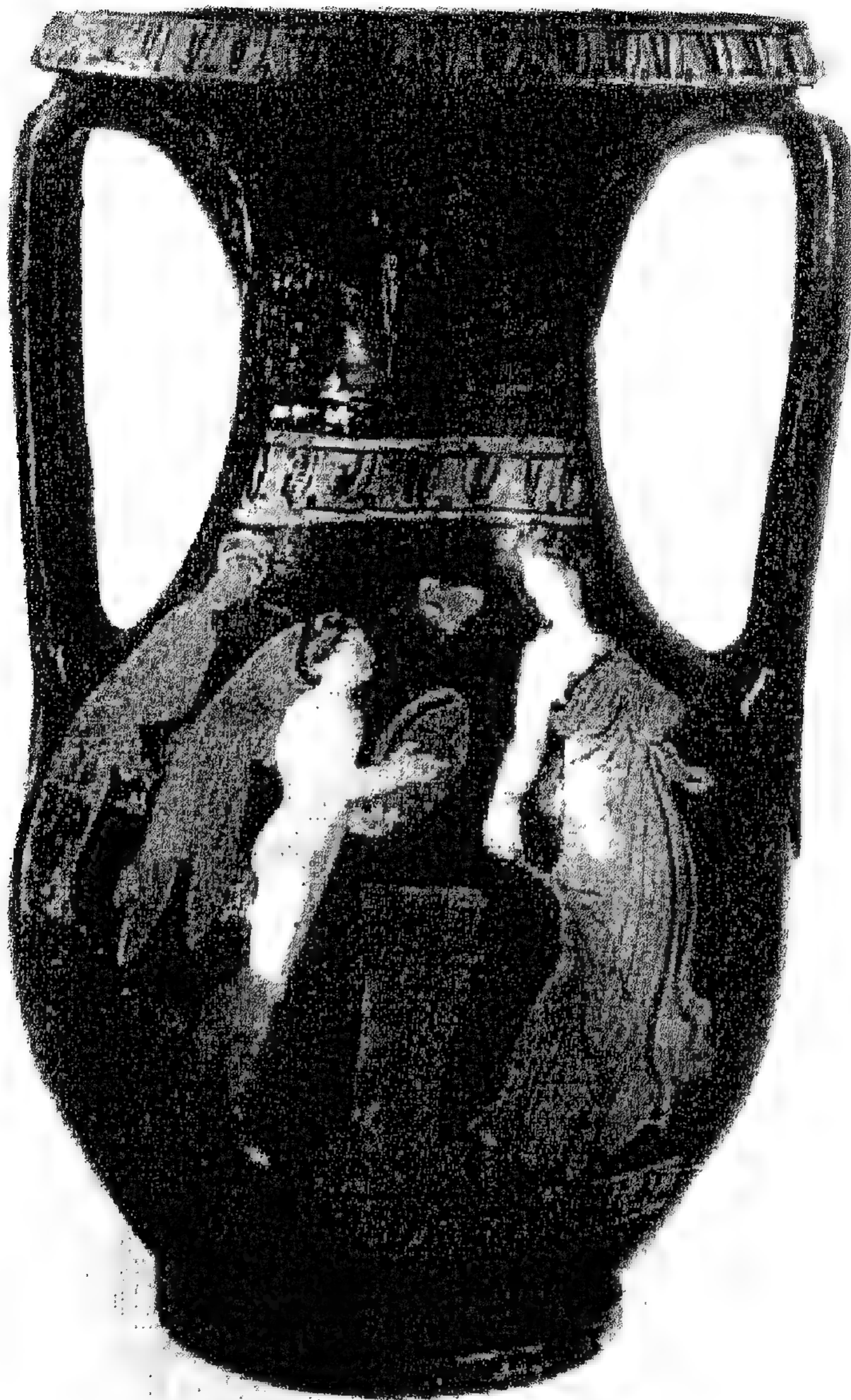


Fig. 14

Fig 13A



Fig.13B



Fig. 11

Fig 12

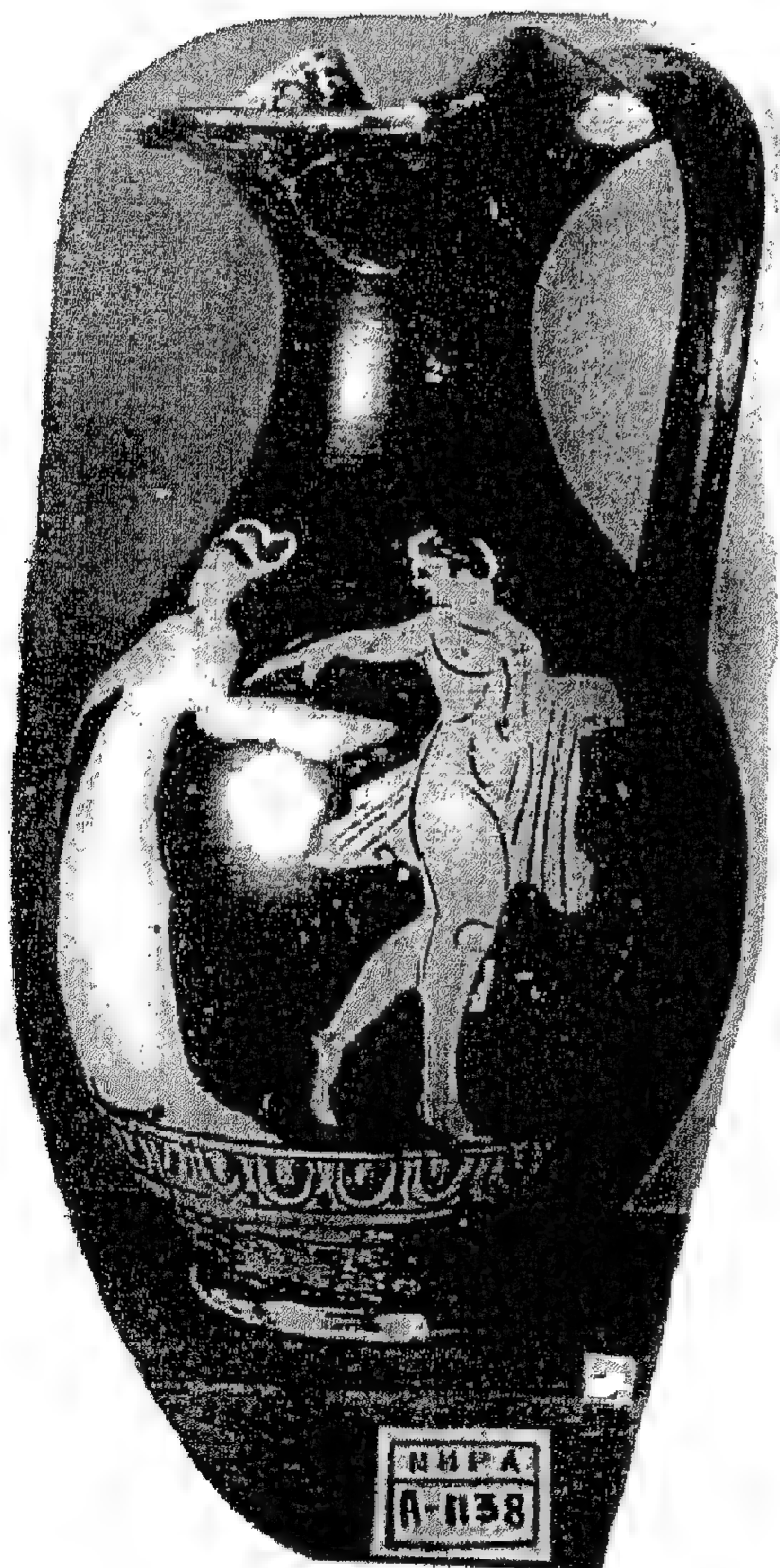




Fig. 9



Fig. 10

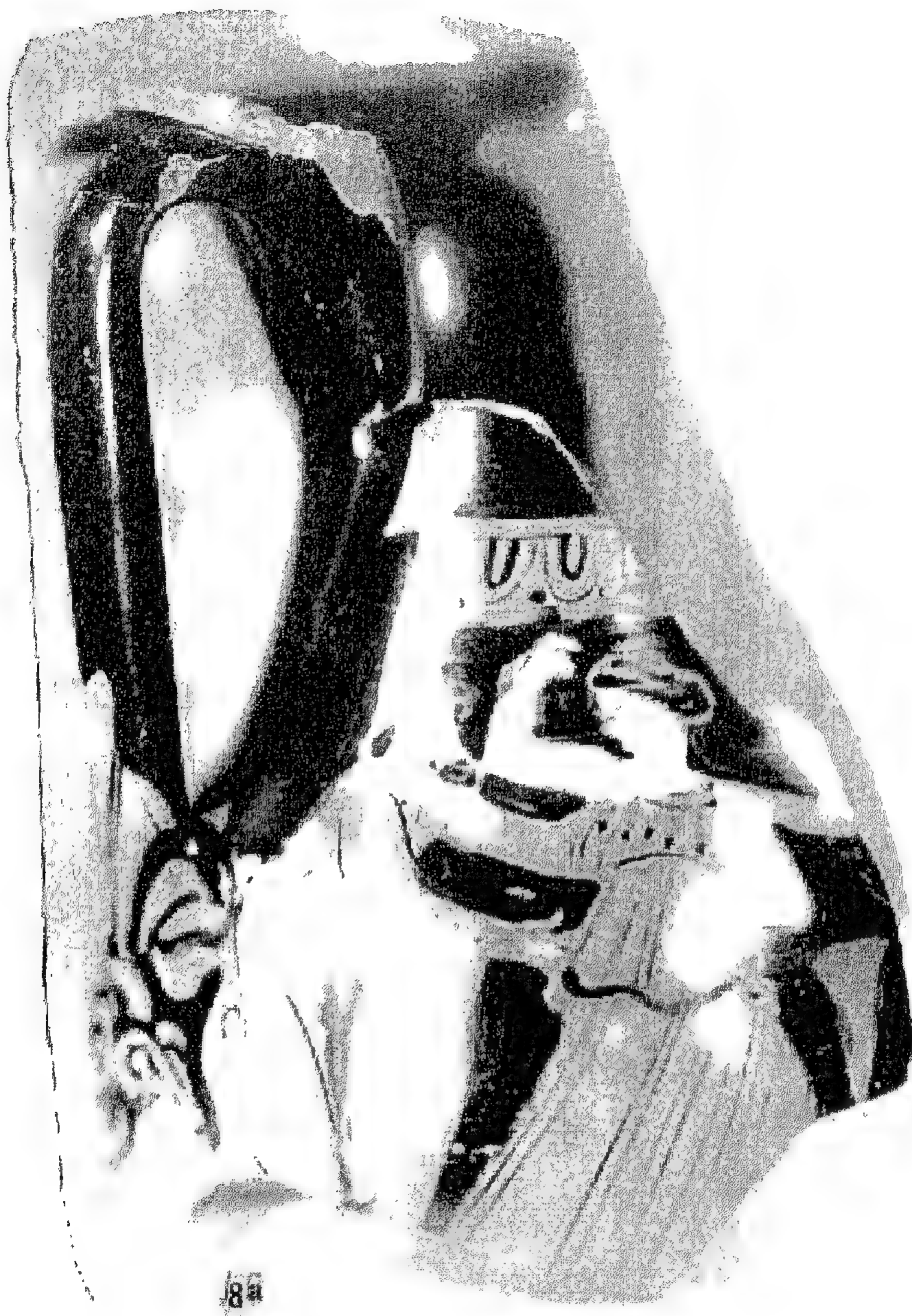


Fig. 8A



Fig. 8



Fig. 7



Fig. 6



Fig 8



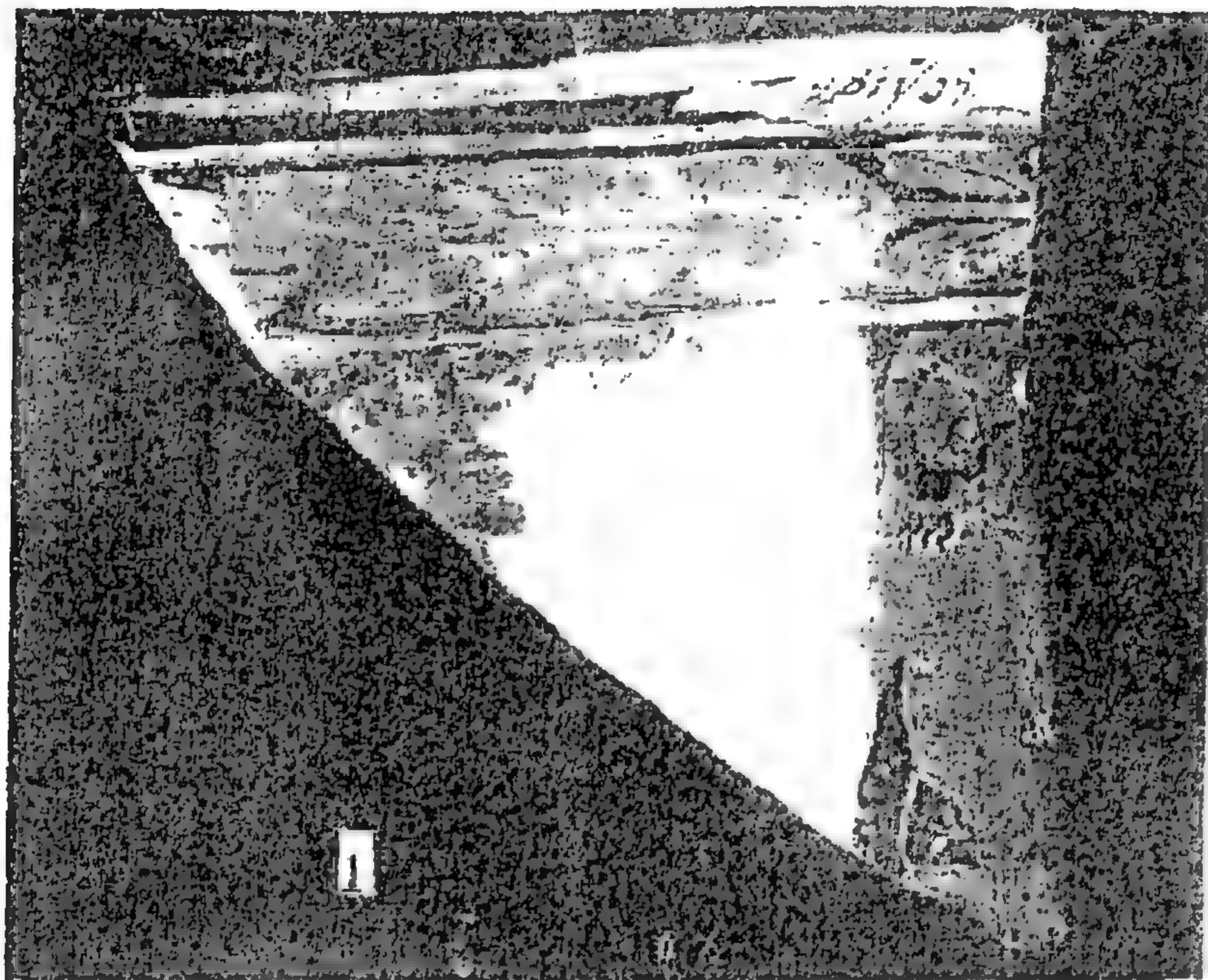
Fig 4B



Fig.4A



Fig. 3



Fig



Fig 2

- fig. 2.** *Krater* from Kiev , founded by I. Funduklej near villages Pishchal'niki and Lazurtsi . This vessel is dated the late 5th century BC. J.Beazley attributed it as Kiev Painter's work - ARV² 1346,3
- fig. 3.** *Pelike* from Yalta Museum. A-498; 390 BC, *Painter of the Lion Griffin*, ARV² 1473, UKV, 44, taf. 5,1. fig. 3.
- Fig.4a.** Fragment of krater from the Taman museum (flutist-woman and komos).Inv.KM-6461, 360-350 BC, L.C. group , ARV² 1456-1461
- fig. 4b.** *Fragment of krater from Feodosia Museum of Local Lore*(woman with lotus and 2 men) inv. KII-31751, 360-350 BC, L. C. group , ARV² 1456-1461
- fig. 5.** *Pelike* from Crimean Republican museum(Simferopol), inv. KII-1094, 360-340 BC, *Black Thyrsos Painter*, ARV²1431-1434.
- fig. 6.** Oinochoe from the Novorosijsk museum , without number, 350-325. The Painter of the Ferrara Choes, ARV² 1504
- fig. 7.** Pelike from Feodosiya museum, inv. A - 5971 KII-28750, 370-360 BC, Painter of krater from the Louvre. N 2776
- fig. 8a.** Pelike from Sochi OΦ-543. 360-340 BC. Black Thyrsos Painter, ARV²1431-1434.
- fig. 8b** Fragment of cup from Feodosiya KII-45573 , 410-400 BC, analogy - №1494 AGORA XXX
- fig.9.** Fragment of krater from Kerch KMAK-10647 , 2nd quarter of 4th century BC
- fig.10.** Oinochoe from Kertch (inv.6547) 350-325. The Painter of the Ferrara Choes, ARV² 1504
- fig.11.** Fragment of krater from Chersonesos(inv.31629
- fig.12.** Oinochoia from St-Petersburg (Museum of religion and Atheism) inv.1138, provenanced from Black Sea Area , 350-325. The Painter of the Ferrara Choes, ARV² 1504
- fig. 13a.** Pelike from Feodosiya KII-1048 . Eros and woman . 320-310 BC. Near the Jalta Painter, ARV² 1452
- fig. 13b.** Pelike from Yalta KII-723 Eros and 2 women. 320-310 BC, Jalta Painter, ARV² 1452
- fig. 14.** *Pelike* from Kerch KMAK-52 .320 BC. *Group of London 245*. ARV² 1483

Bibliography:

Bron Chr, "The Sword Dance for Artemis", *The J.Paul Getty Museum Journal*, V.24. pp.69-83. 1996.

Delavaud-Roux Marie-Helene, *Les danses pacifiques en Grece antique*, publications de l'université de Provence, 1994.

Delavaud-Roux Marie-Helene A.A., *Les danses Dionysiaque en Grece antique*, publications de l'université de Provence, 1995.

Funduklej I., *Obozrenije mogil, valov i gorodishch Kievskoj gubernii*, (Kiev 1848) 18, 19, 71, tab. XII

Matheson Susan B, *Polygnotos and Vase Painting in Classical Athens*, The University of Wisconsin Press, 1995.

Poursat J.K., "Les representation de danse armee dans la céramique attique", *Bulletin de correspondance hellenique*, V.92. 1968.

Vdovichenko I.I., 'Izobrazhenie voennykh zhenskikh tantsev na vazakh iz Severnogo Prichernomoria', *Zapiski istoriko-filologichnogo tovaristva Andria Biletskogo*, Kiev, 1979

Zedgenidze A.A. , 'O vremeni osnovaniya Khersonesa Tavricheskogo', *KSLA*, 159 (1979) 28, fig. 2,3

List of abbreviations(cuttings):

Ath. Deipn. - Athenaios, Deipnosofistai. // K. Latte. De Saltationibus Graecorum capita quinque. Giessen, 1913.

Pol. On. Pollux Iulius. Onomastikon // K. Latte. De Saltationibus Graecorum capita quinque. Giessen, 1913.

AGORA XXX – The Athenian Agora. Results of Excavation conducted by The American School of Classical Studies At Athens. Volume XXX. Attic Red-Figured and White-Ground Pottery by Mary B. More. Princeton, New Jersey, 1997

ARV² - J. Beazley, 1963. Attic Red Figure Vase-Paintings, 2nd edition, Oxford .

List of illustrations

fig.1. Krater, stored in the Chersonesus museum (Sevastopol, Ukraine). Inv.2877/09. Christie Painter's ,430 BC. analogy - Matheson ,1995, 127, Pl. 107-110

creatures - satyrs and maenads. The invitation to a dance is depicted on the pelike from Crimean Republican Museum - satyr give tympanum to maenad (fig. 5). Maenads begin the dance, standing on both sides of Dionysos (oinochoe from the Novorosijsk Museum (fig. 6). Running maenads and satyrs are represented on the pelikai from Sochi OФ-543 (fig. 8a), from Feodosia A - 5971 (fig. 7), fragment of cup from Feodosia (fig. 8b) and fragment of krater from Kerch KMAK-10647 (fig. 9) oinochoiai from Kertch (inv.6547) (fig.10) and fragment of krater from Chersonesos(inv.31629)(fig.11).

The dance with a coverlet (himation) is one of the curious dances popular in the late 4th century BC. Menandros in the 'Diskol' had described the performance of this dance at a friendly carousal by two young maidservant. In the opinion of some researchers the dance is connected with a cult of fertility(Delavaud-Roux, 1994) This dances are represented on the pelikai 4th century BC from Feodosiya (fig. 13a), Yalta (fig. 13b), and Kerch inv. KMAK- 52 (fig. 14).

The moves of this dance included covering and recovering himation, turn, sliding.

We can see other pacific dance on the Oinochoia from St-Perersburg, provenansed from Black Sea Area Youth and girl dance it. Their moves are calm and slow. (fig.12).

The musical support of the dances were double flute aulos and tambourine.

So, the Greek cult dances preserved some relicts of the archaic cults, but it did not influence on their popularity. Moreover, the chorographical traditions preserved during existence of the Byzantine empire up to the modern time.

vases quite frequently. On the Pelike from Yalta two *arimaspoi* perform ritual dance (may be *apokinos*) around the Griffin (fig 3)

Plato in the "Laws" ("*Nomoi*") marks out Bacchic dances in a separate category of dances (5, 8-9). He negatively perceives ecstatic motion, characteristic for them. But, he does not say that these dances are ugly (except of *Kordax*) . Bacchic dances showed the trance caused by a deity, instead of entertainment and consequently they were out of human comprehension and opinion. However, in his judgment, they contradicted to the ideal of *sofrosini* (σωφροσύνη) - prudence, moderation. On Plato's opinion they were divided into two varieties - mystical, caused by a trance (the dances of maenads) and dances of *komos*, which were performed by men. In a modern Greek folk choreography mystical dances were not saved (except of dances *anastenaries*- dancing on a fire-brand, which exist nowadays in Northern Greece). But many dances from the other category of Bacchic dances performed by drunk men are saved better.

In antiquity they also were very popular, to what the performance of "Bakchai" by Euripides testifies. In 630-530 BC the images of these dances for the first time occurs on the Corinthian vase. Then this theme is spread in Attic, Beotia and other parts of the Greek world. It is interlinked, apparently, with spreading of popularity of a Dionysos's cult. In 530-475 BC this theme becomes one of popular in the vase-painting, which one at this time passes to new red-figure techniques. In period 475 - 320 BC the new cults - Dionysos's - Zagrey, Isis, Kybele, Sabazios were grown. It was reflected in a plastics and choreography of the Bacchic dances (Marie-Helene Delavand-Roux 1995, p.45) The movements become less active, softer, than in the earlier period, tearing animals to pieces disappear.

The images of Dyonisos, satyrs and maenads are very popular in the vase-painting of the 4th cent. BC. Ritual dances in honor of Dionisos started spontaneously and were improvised, using traditional moves - jump, turn, sliding or running. Dances, performed by drunk men during the holidays in honor of God or after symposiums, you can meet on the kraters dated back to the 5- 4th cent. BC. On the fragments of kraters, from the Taman museum and Feodosia Museum of Local Lore N 6966 (fig. 4, a,b), you can see the picture of *komos* Dances performed by professional girl-dancers during symposiums can be attributed to this category too. Second one - includes the ritual dances in which both men and women creating the image of mythological

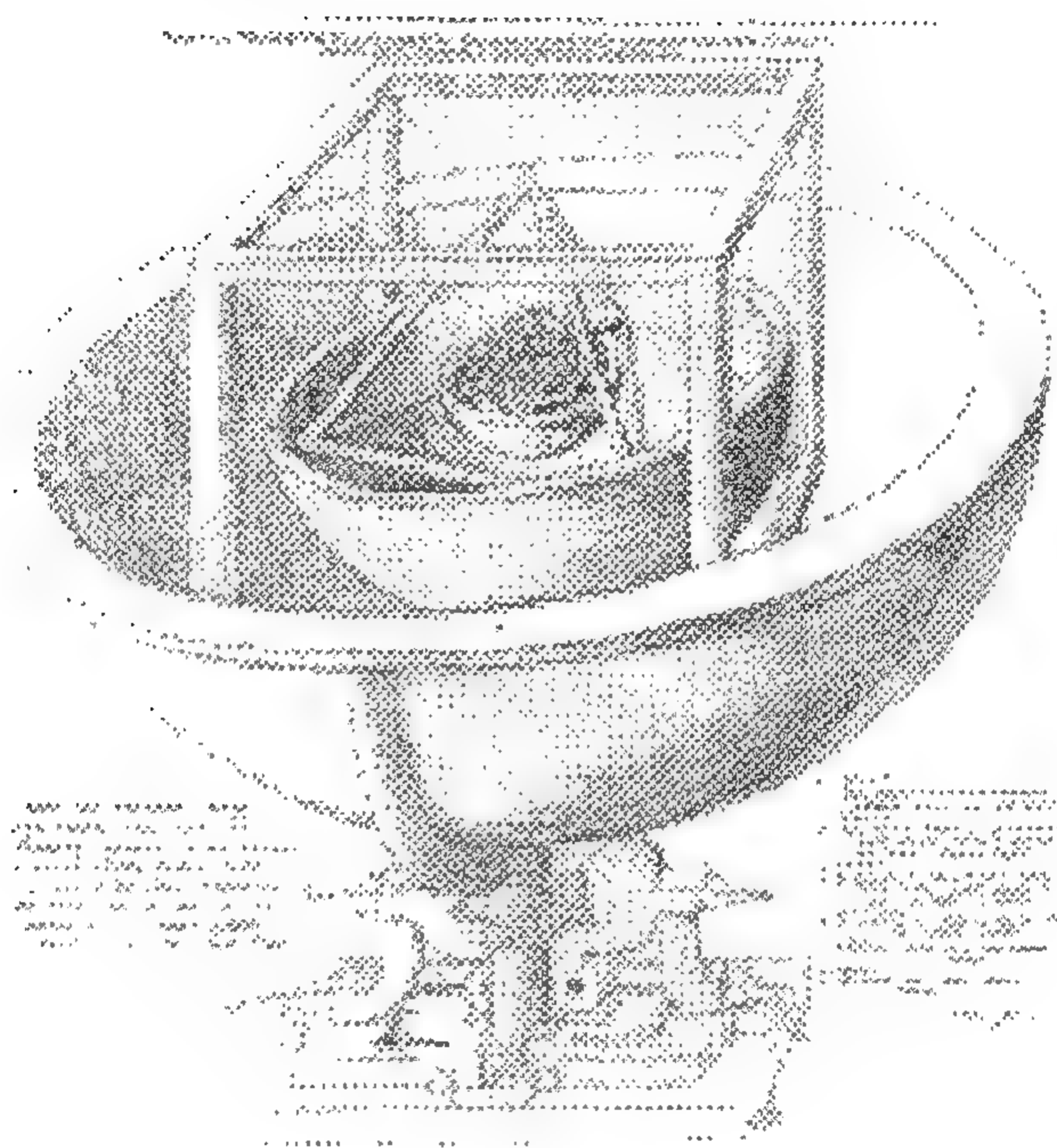
Images of the Dances on the 4th Century Vases from the Black Sea Area

Vdovichenko Irina
Taurida National University
Ukraine

Ancient vase-painting gives us the richest iconographic material for learning of all sides of contemporary life. Attention of the researches attracts the images of different dances, which one from a deepest antiquity and before our time are the brightest expression of an emotional nature of the Greeks. The features of succession in a national choreography speak about the extraordinary stability of this component of culture and on the other side about saving of national character.

The Greek dances in antiquity were divided into military, *Bacchic* and pacific ones. We know some of these dances from the ancient literary sources. Athenaeus and Pollux, lexicographers from Alexandria (2nd – 3rd century AD) give a quite complete list of the Greek military dances (Ath. Deipn. 6.628s. - 31; Pol. On. 4.95-104). The most popular dances were the *apokinos*, the *Pirrhic* and the *Prylis* (Bron, 1996. p.76). Many information have been saved in the sources about *Pirrhic*. It was performed usually under accompaniment of a flute. The dancers had to wear helmet, and to hold shield and spear in their hands. In Athens the dance was associated with Athena, on the other part of Attic territory *Pirrhic* was performed in the Artemis sanctuaries. Both girls and *ephebes* danced *Pirrhic* during an initiation ritual (the moment of transition from childhood to adulthood) (Bron, 1996, p. 63-83). We have many information about performing *Pirrhic* in the 4th century BC, but this image is not popular in the vase-painting in this time. In the late 5th century we know 2 vases with this subject from the Black Sea Area - fragment of krater, stored in the Chersonesus museum (Sevastopol, Ukraine) (fig.1.) (Zedgenidze, 1979, 28, fig. 2,3; Vdovichenko, 1999, 81-86) and the krater from Kiev typical barbarous warrior's tomb near villages Pishchal'niki and Lazurtsi (fig. 2) (Funduklej, 1848 18,19,71, tab. XII).

The *apokinos* (other name was *maktrismos*), remains only a name for us, we know also, that this dance performed amazons. *Prylis* danced Curetes around the baby Zeus. Amazons and Curetes performed it with shields and swords. The images of amazons and arimasps were very popular at that time, that's why their militant dances were pictured on the



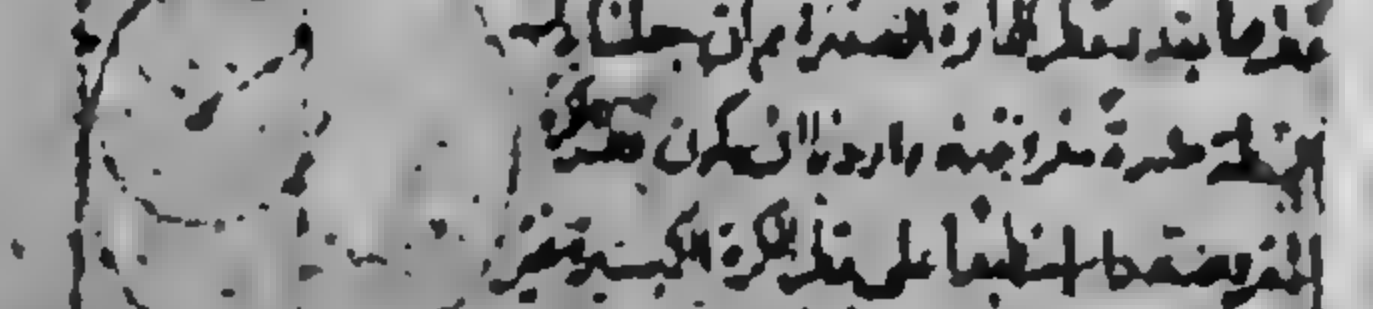
Joh. Kepler, *Mysterium Cosmographicum* Tübingen, 1596. (p. 26 - 27)

صورة في ارضيت صورة هما بعدان صورة هما بعدان
 في الميراث والفرق ان تلك الصفة تلك الصفة تلك الصفة
 الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث
 انما هو في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث

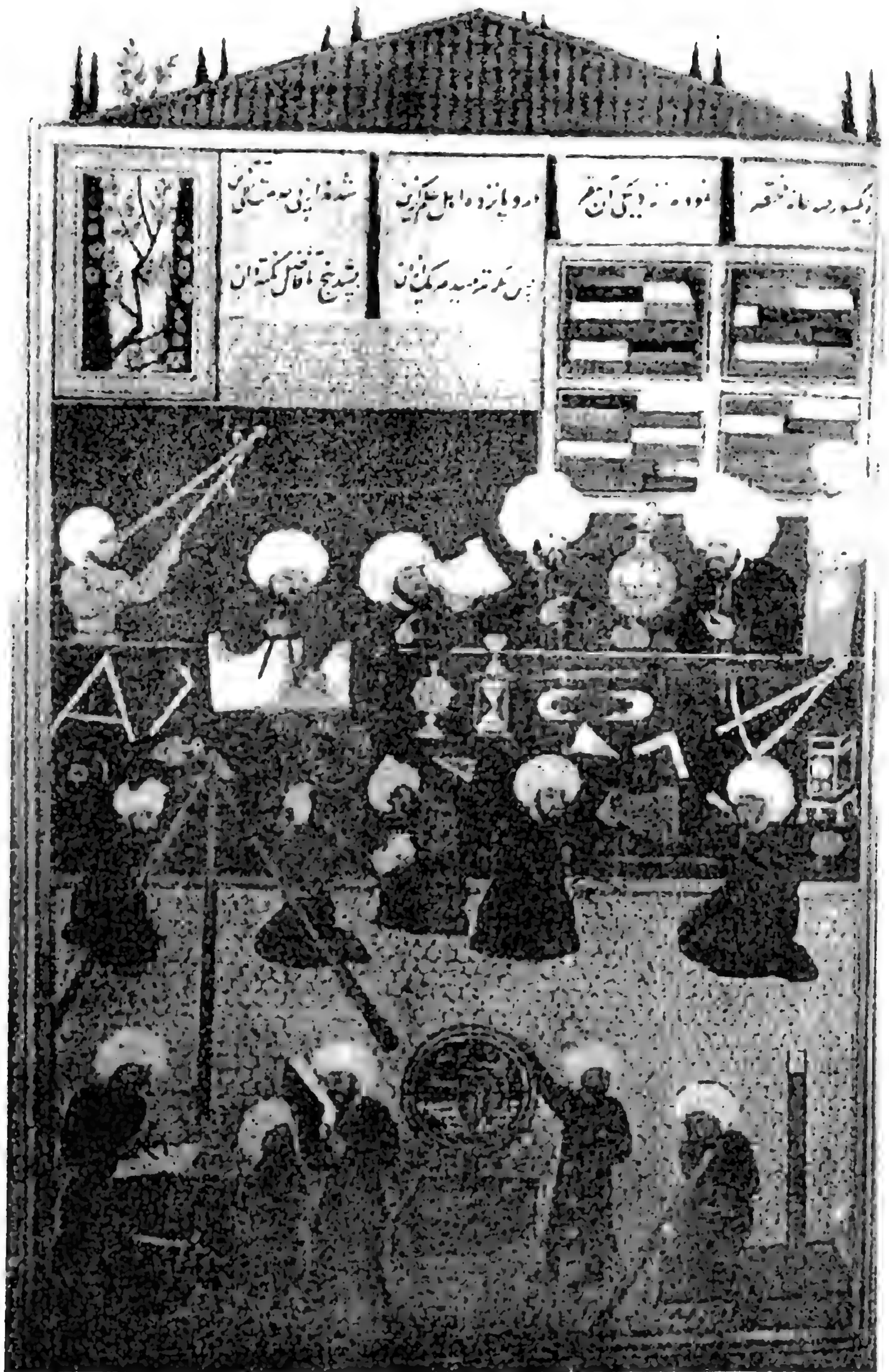


البيان ان الخط الاول من الخطوط ان لم يكن نصيبا لغيره
 فيكون في هذا الموضع فيكون في هذا الموضع فيكون في هذا الموضع
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة

البيان ان الخط الاول من الخطوط ان لم يكن نصيبا لغيره
 فيكون في هذا الموضع فيكون في هذا الموضع فيكون في هذا الموضع
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة



البيان ان الخط الاول من الخطوط ان لم يكن نصيبا لغيره
 فيكون في هذا الموضع فيكون في هذا الموضع فيكون في هذا الموضع
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة
 في الميراث الصفة في الميراث الصفة في الميراث الصفة



An early Arabic manuscript from 14th century which contains the principal work of Nasir ad-Din at-Tusi. "Tadhkira fi ilm al-Haya" (Memoir on Astronomy).

from something not existing and nothing is destructed to something not existing. Atoms are infinite in size and multitude. They move swirling everywhere and they generate everything: fire, water, air, earth, because they are systems of atoms.¹⁸ The atoms move in the void eternally. They are unbreakable, indivisible, unchangeable, unalterable in quality. The qualities are noticeable because of the combination of atoms.¹⁹ The British chemist and physicist John Dalton converted the atomic philosophy of the Greeks into a scientific theory at the beginning of 19th century.

The earliest philosophers of Greece were theorists of the physical world. The Renaissance continued this breadth of conception characteristic of the Greeks. Galileo and Descartes were mathematicians, physicists, and philosophers at once; and physics retained the name of "natural philosophy" at least until the death of Sir Isaac Newton in 1727.²⁰

The multifariousness of today's sciences obliges the scientists to follow very narrow specification. It is rare a philosopher or a historian or a philologist to be also a mathematician or a physicist or a chemist. This makes difficult the spherical view and understanding of the world.

History and Philosophy of science is inseparable part of both, classical studies and exact science. It provides indispensable links with Classical Philosophy, History and the evolution of the exact sciences.

In order to achieve global classical studies, their bounds have to be extended and the study of History and Philosophy of Science must be encouraged.

¹⁸ Democritus' Testimonia: Fragn. 1 DIOG. IX 34ff. [44]

¹⁹ Democritus' Testimonia: Fragn.49 GALEN. de elem. sec. Hipp.I 2 [I 417 K., 3, 20 Helmr.]

²⁰ Philosophy of nature: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

The scientists Nicolaus **Copernicus**, Johannes Kepler, and Galileo, following the Platonic ideas of the philosophical importance of mathematics and the Pythagorean attempt to discover the secrets of the heavens in terms of number and exact calculation¹⁵, supported the idea of the heliocentric model -suggested by the Greek astronomer Aristarchus of Samos.

Sustained by a vision of mathematical harmonies in the skies, a vision he derived from the philosophy of Plato and the mathematics of the Pythagoreans, **Kepler** tried to relate planetary orbits with the five regular solids, or "Platonic bodies": tetrahedron (formed by four equilateral triangles), cube, octahedron (formed by eight equilateral triangles), dodecahedron (12 pentagons), and icosahedron (20 equilateral triangles) in "Mysterium cosmographicum", published in 1596. Later, trying to determine the orbit of Mars -using the observation results of Tycho Brahe- Kepler discovered the three laws describing the motion of the planets, putting out of use the Ptolemaic system. Following the model established by Archimedes, Kepler, in his volumetric researches, investigated the properties of nearly 100 solids of revolution -made by rotating a two-dimensional surface on one of its axes- enormously extending the range of Archimedes' results.¹⁶

Galileo, following the Greek tradition of proofs, introduced the experiment to study the movement of bodies and used the telescope to affirm the Heliocentric system, supported by Copernicus.

In artem analyticem isagoge ("Introduction to the Analytic Arts"; 1591) **Viète**, as part of his program of rediscovering the method of analysis used by the ancient Greek mathematicians, proposed new algebraic methods, but he saw this as an advancement over the ancient method, a view he arrived at by comparing the geometric analysis contained in Book VII of Pappus' Collection with the arithmetic analysis of Diophantus' Arithmetica.¹⁷

Leucippus of Miletus (5th century BC) is thought to have originated the atomic philosophy. **Democritus** of Abdera (460-370 BC) developed further this philosophy and named the building blocks of matter atomon, meaning "indivisible". According to Democritus nothing is coming into being

¹⁵ Humanism: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

¹⁶ Johannes Kepler: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

¹⁷ Mathematics in the 17th and 18th centuries: The 17th century: Analytic Geometry. Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

Nasir al-Din al-Tusi (born 1201) made the most significant development of Ptolemy's model of the planetary system up to the development of the heliocentric model in the time of Copernicus.¹²

Many of the ideas, which were previously thought to have been brilliant new conceptions due to European mathematicians of the 16th, 17th and 18th centuries are now known to have been developed by Arab mathematicians around four centuries earlier.

At the western part of Arabic Lands, in Cordoba, prince Abd al Rahman II created in 9th century a great library, where the translated works came directly from Baghdad. A school for Mathematics and Astronomy founded also there by Maslama. The numerous students of that school spread to the kingdoms of Sevilla, Granada, Zaragoza and Toledo. In the monastery of Ripoll, in the province of Gerona, many manuscripts from East and West - among them mathematical ones- were collected. In the 11th century a new phase of mathematics began with the translations from Arabic. In 1126 was founded in Toledo a school for translators, its aim had been the translation of the great Greek and Arabic works into Latin¹³. Along with philosophy, astronomy, astrology, and medicine, important mathematical achievements of the Greek, Indian, and Islamic civilizations became available in the West. Particularly important were Euclid's Elements, the works of Archimedes, and al-Khwarizmi's treatises on arithmetic and algebra. Western texts called algorismus (a Latin form of the name al-Khwarizmi), introduced the Hindu-Arabic numerals and applied them in calculations. Thus modern numerals first came into use in universities and then became common among merchants and other laymen.¹⁴

The spirit and the wisdom of Greeks met the restless minds of the Renaissance and fired the beginning of a new era in science. Every new idea and theory becomes subject of discussion and is exposed to a critique, which conduces to its improvement.

¹² O'Connor, J J and Robertson, E F: Arabic mathematics: forgotten brilliance
[http:// www-history.mcs.st-andrews.ac.uk](http://www-history.mcs.st-andrews.ac.uk)

¹³ Veguín Casas, María Victoria: *Matemáticas y Camino de Santiago*, pp.162-165. Ediciones del Orto, Madrid 1998

¹⁴ The transmission of Greek and Arabic learning: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

not done for its own sake, but was done as part of the current research effort.¹⁰

The Arabs appropriated not only the knowledge of Greeks, but also the Greek conception of the world and the Greek methodology of the science. As Lindberg says¹¹, the Islamic science was built on Greek foundations and was formed according to Greek architectural principles; the Muslims did not try to demolish the Greek structure, but they worked for its completion.

Al-Khwarizmi put the foundation of Arabic algebra; **Omar Al-Khayyam** (b.1048) made a complete classification of cubic equations, solving them by means of intersecting conic sections; **Sharaf Al-Din Al-Tusi** (b.1135) studied curves by means of equations and inaugurated the beginning of algebraic geometry.

Al-Karaji (b.953) made algebra free of geometrical operations substituting them by arithmetical ones; **Al-Samawal** (b.1130) following the same tradition declares that Algebra is concerned with operating on unknowns using all the arithmetical tools, in the same way as the arithmetician operates on the unknown.

Al-Biruni (b.973) held extensive studies on astronomy and geography, using the projection of a hemisphere onto the plane.

Thabit ibn Qurra (b.836), **Al-Baghdadi**, **Al-Haytham** worked on Number Theory.

Ibrahim ibn Sinan (born 908), who introduced a method of integration more general than that of Archimedes and **al-Quhi** (born 940) were leading figures in a revival and continuation of Greek higher geometry in the Arabic world.

Ibrahim ibn Sinan and his grandfather **Thabit ibn Qurra** both studied curves required in the construction of sundials.

¹⁰ O'Connor, J J and Robertson, E F: Arabic mathematics: forgotten brilliance
[http:// www-history.mcs.st-andrews.ac.uk](http://www-history.mcs.st-andrews.ac.uk)

¹¹ Lindberg, David: The beginnings of Western Science. The University of Chicago Press, Chicago, 1992

After the 3rd A.D. century the production of new ideas fell in decline. At that time commentaries and explanations of the great works of the past appeared. Possible reasons for this decline could be the discontinuance of the oral tradition and the new philosophical and religious movements.

In the Byzantine era few new ideas appeared; its most important contribution in the History of Science was the preservation of ancient scientific heritage mainly by monks, who copied, made anthologies and commented the work of ancient Greeks.

In the 7th century the Arabs, inspired by their new religion, burst out of the Arabian peninsula and laid the foundations of an Islamic empire. To the Arabs, ancient science was a precious treasure. Contact with Hindu mathematics and the requirements of astronomy, mainly for religious reasons, stimulated the study of numbers and of geometry.

The writings of the Greeks were, therefore, eagerly sought and translated, and thus much of the science of antiquity passed into the Islamic culture. Greek medicine, Greek astronomy and astrology, and Greek mathematics, together with the great philosophical works of Plato and, particularly, Aristotle, were assimilated in Islam by the end of the 9th century.⁹

This fruitful period begins under the Caliph Harun al-Rashid, the fifth Caliph of the Abbasid dynasty, whose reign began in 786. He encouraged scholarship and the first translations of Greek texts into Arabic, such as Euclid's *Elements* by al-Hajjaj, were made during al-Rashid's reign. The next Caliph, al-Ma'mun (813-833), encouraged learning even more strongly than his father al-Rashid, and he set up the House of Wisdom in Baghdad, which became the centre for both the work of translating and of research. Al-Kindi (born 801) and the three Banu Musa brothers worked there, as did the famous translator Hunayn ibn Ishaq.

The translations into Arabic at this time were made by scientists and mathematicians such as those named above, not by language experts ignorant of mathematics, and the need for the translations was stimulated by the most advanced research of the time. It is important to realize that translating was

⁹ Science in Islam: Britannica CD. Version 97. Encyclopedia Britannica, Inc., 1997

existence cannot be proved), some of them **peculiar** to each science and some **common**, **definitions**, and **postulates** (propositions assumed and used without demonstration). He also stressed the dealing with abstract notions rather than figures: "*The geometer draws no conclusion from the existence of the particular line of which he speaks, but from what his diagrams represent*"⁶. In Alexandria of Egypt, the center of Hellenistic science, **Euclid** collected and systematized the accumulated knowledge of Greeks according to the Platonic and Aristotelian ideas. Characteristic example is his "Elements" that included the most important results obtained from the previous mathematicians. Hellenistic era brought sciences to an apogee:

The **Archimedean** method for the determination of areas and volumes related to the idea of integration developed between the 17th and 19th centuries;

The profound work of **Appolonius** on conics gave the idea on which Viète, Fermat, and Descartes built in 17th century Analytic Geometry.

Hipparchus discovered the precession of equinoxes, which is caused by the cyclic precession of the Earth's axis of rotation.

Claudius Ptolemy applied the theory of epicycles to compile a systematic account of Greek astronomy. His theory generally fitted the data available to him with a good degree of accuracy, and his book, the *Almagest* molded astronomy for the next millennium and a half.⁷

Pappus had employed an analytic method for the discovery of theorems and the construction of problems; in analysis, by contrast to synthesis, one proceeds from what is sought until one arrives at something known.

Diophantus in his *Arithmetica* conceives the idea of the unknown quantity, uses abbreviations to express the powers of the unknown and the subtraction (λείψις).⁸ These abbreviations are also used in the process of the working out of the equations. His method of solving equations was the start point not only for the Arabs, but also for Viète and Descartes to formulate Algebra.

⁶ Aristoteles: *Analytica Posteriora* i. Bekker 77a 1-3 (*Thesaurus Linguae Graecae*)

⁷ Ancient Middle Eastern and Greek Astronomy: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

⁸ Diophantus of Alexandria: *Arithmetica* I, pp.1.1-12.21

Although Plato argued for the exclusive use of ruler and compass for the constructions in Geometry, Greeks trying to solve problems as the duplication of the cube, the trisection of an arbitrary angle and the quadrature of a circle and finding no solution in agreement with Plato's restrictions, they invented new methods as that of verging (νεύσις) and new curves as the conic sections, the conchoidal lines, the quadratrix etc². Only in 19th century it was proved, using higher algebra, that the above problems were impossible to be solved by the exclusive use of ruler and compass. Greek mathematicians manifested by their attitude the freedom of their thought; they had to reach their aim by any means and they did it through the flourishing of a diversity of methods.

In the *Timaeus*, Plato tried to build up a complete system of physics, partly employing Pythagorean ideas. The Pythagoreans (5th century BC) were responsible for one of the first Greek astronomical theories. Believing that the order of the cosmos is fundamentally mathematical, they held that it is possible to discover the harmonies of the universe by contemplating the regular motions of the heavens. They constructed a model of cosmos postulating a central fire, about which the fixed stars, the five planets, the Sun, the Moon, the Earth and the Anti-Earth (Αντίχθων) revolve³. Subsequent Greek astronomy derived its character from a comment ascribed to Plato, in the 4th century BC, who is reported to have instructed the astronomers to "save the phenomena" in terms of uniform circular motion.⁴

In his *Physica* and *Mechanica* Aristotle put the foundations of Physics; his theory held for almost two millennia, until Isaac Newton and Galileo refounded Physics on the base of experiment and mathematical expression of natural laws. Aristotle put also the logical base on which the Greek Mathematics was developed. In his *Posterior Analytica*⁵ he clarified the importance of building the science on first principles (elements whose

² Tomas, Ivor: *Greek Mathematical Works*, in 2 vols, Chapter IX, Special Problems. Loeb Classical Library, London 1991 (first edition 1939).

³ Alexander: In *Aristotelis metaphysica commentaria* p.37.18-39.3 (*Thesaurus Linguae Graecae*)

⁴ Ancient Middle Eastern and Greek Astronomy: Britannica CD. Version 97. Encyclopaedia Britannica, Inc., 1997

⁵ Aristoteles: *Analytica Posteriora* i. Bekker 76b 3-22 (*Thesaurus Linguae Graecae*)

The Philosophy of Greek Mathematics and its influence on the Development of Arabic Civilization and Renaissance*

**Flora Vafea
M. Sc. Mathematics
Greece**

Speaking about classical studies, we usually mean the study of ancient Greek and Latin literature, history and philosophy that has come to us through the magnificent works of distinguished ancient writers. But a characteristic feature of Greek Philosophy was the consideration of the world and the ideas as one entity that cannot be studied separately. Thus the Greeks developed Philosophy parallel to Mathematics, since the leading philosophers as Thales, Pythagoras, Plato, Aristotle were pioneers in the development of Mathematics and Physics, as a necessary mean for revealing the secrets of the Nature and the world around us.

These philosophers had traveled to Egypt and Babylon and were acquainted with the knowledge of the civilization thereof. They did not confine themselves to obtaining the results, but they searched for proofs and further development of the received ideas and knowledge. Greeks, spread from the Italian peninsula to Asia Minor, formulated mathematics as a theoretical discipline, built on abstract notions rather than sensible objects, using formal demonstrations to prove the truth of their theorems. As Plutarchus preserves in his *Convivial Questions*¹, *"Plato censured Eudoxus and Archytas and Menaechmus for endeavouring to solve the doubling of the cube by instruments and mechanical constructions, thus trying by irrational means to find two mean proportionals: for in this way what is good in geometry would be corrupted and destroyed, falling back again into sensible objects and not rising upwards and laying hold of immaterial and eternal images, among which God has his being and remains for ever God."*

* This paper was delivered at the conference of *The future of Classical Studies in Egypt*, Cairo 17-18th April 2002.

¹ Plutarchus: *Quaestiones convivales*. Stephanus p. 718 : E7-F4 (Thesaurus Linguae Graecae)

- Nicolle, "Shipping in Islamic Art; Seventh through Sixteenth Century AD," *American Neptune* XLIX (1989) 168-197.
- 17- M. Rule & J. Monaghan, *A Gallo-Roman Trading Vessel from Guernsey: The Excavation and Recovery of a Third Century Shipwreck* (Guernsey 1993) 125-131.
- 18- Nicolle, "Shipping in Islamic Art..." *op. cit.*, 175-181.
- 19- V. Christides, "Naval Warfare in the Eastern Mediterranean (6th-14th centuries): An Arabic Translation of Leo VI's 'Naumachica'," *Graeco Arabica* III (1984) 140-141; V. Christides, "Milaha: in the pre-Islamic and Medieval Arab Worlds," in *Encyclopedia of Islam*, 2nd edit., vol. VIII (Leiden 1991) 44-45; V. Christides, "Navies: Islamic," in J. R. Strayer (edit.), *Dictionary of the Middle Ages*, vol. IX (New York 1992) 76; S. D. Goiten, "Glimpses from the Cairo Geniza on Naval Warfare in the Mediterranean and on the Mongol Invasion," in *Studi Orientalistici in Onore di Giorgio Levi della Vida* (Rome 1956) 395, 397 & note 1.
- 20- Al-Hassan, A.Y., & D. R. Hill, *Islamic Technology, an illustrated History* (Cambridge 1986) 3 1-34 & passim.

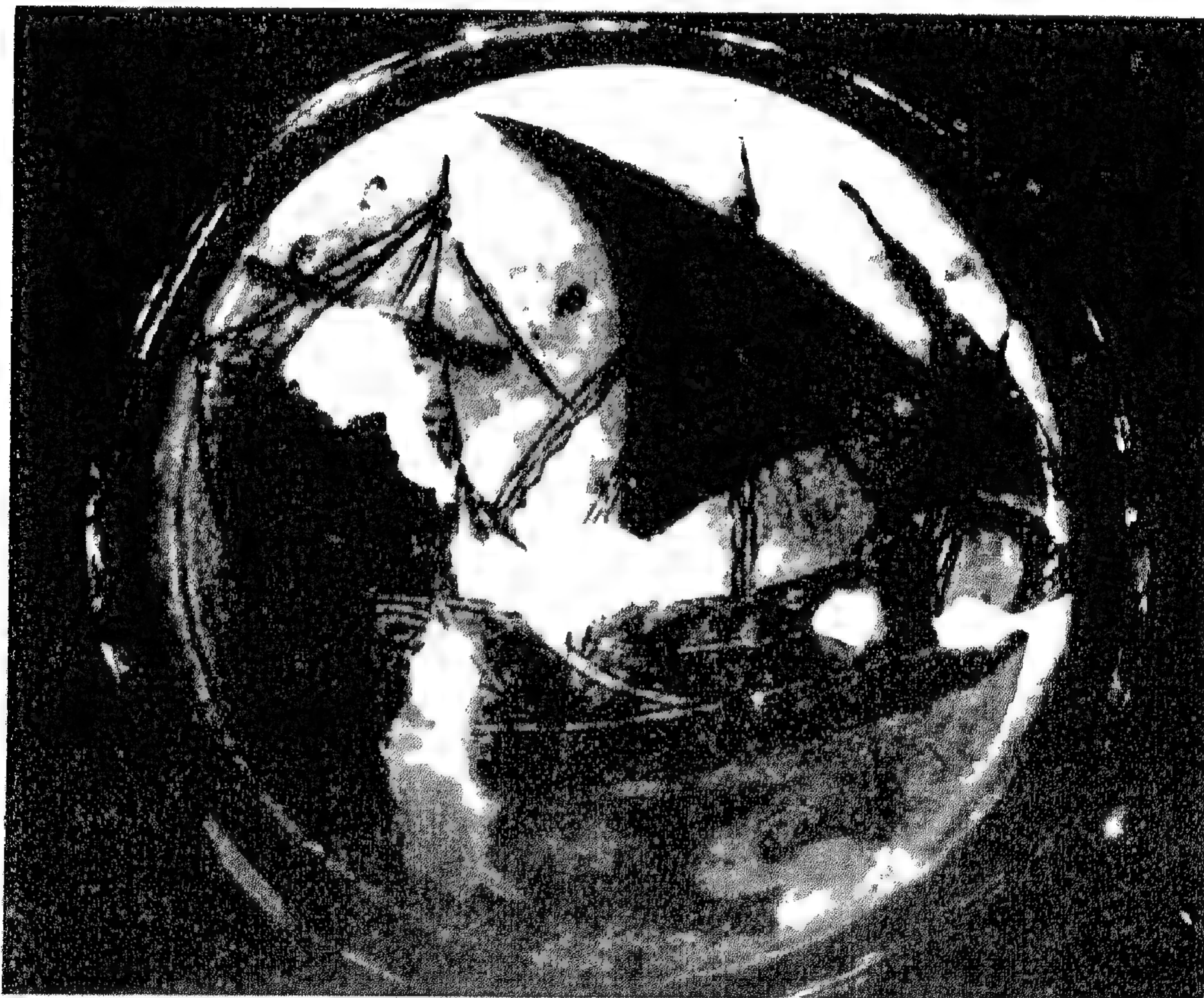
- &passim, vol II, 156, 170-171 & 180, vol. III, 93, 106-107, 111, 321, 336 & 342; D.C. Nicolle, "Moors against Majus: The Defence of Spain and Morocco against the Vikings 844-972 AD," *Osprey Military Journal* II/3 (2000) 23-32.
- 6- Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 15, 18 & 23-24; Lévi-Provençal, *op. cit.*, vol. I, 354 & vol. III, 342.
- 7- Dunlop, "Al-Bahr al-Muhit..." *loc. cit.*; Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 15-18 & 22-24.
- 8- Lévi-Provençal, *op. cit.*, vol. III, 297-298; Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 17-18; Dunlop, "Al-Bahr al-Muhit..." *loc. cit.*
- 9- D.M. Dunlop, "Al-Djaza'ir al-Khalida," in *Encyclopedia of Islam*, 2nd edit., vol. II (Leiden 1965) 522.
- 10- H.T. Norris, *Saharan Myth and Saga* (Oxford 1972) 4-5.
- 11- J.L. Yarrison, *Force as an Instrument of Policy: European Military Incursions and Trade in the Maghrib, 1000-1355* (Ph D thesis, Princeton Univ. 1982) 118, 135 & 227-228.
- 12- E. Lucie-Smith, *Outcasts of the Sea: Pirates and Piracy* (London & New York 1978) 64-65.
- 13- J.D. Latham, "The Strategic Position and Defence of Ceuta in the Later Muslim Period," *Islamic Quarterly* XV (1971) 204.
- 14- B. Landström, *The Quest for India* (London 1964) 162 & 187; G. Ferrand, *Instructions Nautiques et Routiers Arabes et Portugais des 15^e et 16^e siècles*, 3 vols. (Paris 1921-1928) passim.
- 15- S.D. Goiten, *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Ara World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*, vol. I, Economic Foundations (Berkeley 1967) 305-306; D.A. Agius, "Maqrizi's Evidence for the Gurab: The Galley of the Mamluks," in U. Vermeuben & J. M. F. Van Reeth (eds.), *Law, Christianity and Modernism in Islamic Society* (Leuven 1998) 195-196; D.A. Agius, "Historical-Linguistic Reliability of Muqaddasi's Information on Types of Ships," in D.A. Agius & I.R. Netton (eds.), *International Medieval Research. Across Mediterranean Frontiers: Trade, Politics and Religion, 650-1450: Selected Proceedings of the International Medieval Congress, University of Leeds, 10-13 July 1995, 8-11 July 1996* (Turnhout 1997) 303-329; J.H. Pryor, *Geography, technology and war: Studies in the maritime history of the Mediterranean 649-1571* (Cambridge 1988) 28 & 32.
- 16- V. Christides, "The Transmission of Chinese Maritime Technology to the Arabs: The Single Stern Rudder, Greek Fire, Animal Transport Ships" (pre-publication draft of article); D.C.

bacini, inserted as a form of architectural decoration into the structure of the Church. They were almost certainly made in the Balearic Islands of Spain which were then under Islamic rule and formed part of the flourishing Andalusian kingdom of Denia. The ships themselves are fully within a medieval Mediterranean tradition of lateen sailed "round ships" with high stern-castles, as illustrated in many sources from Iberia and Italy. However, these bowls are particularly important because of their date and provenance. They are considerably earlier than previously known pictures of three-masted ships and might support the idea that multi-masted vessels did not disappear from the early medieval Mediterranean following the collapse of the Roman Empire. Or perhaps they might at least have survived in those regions which became the western Islamic world. Current research into the history of Islamic technology is also strengthening the view that the Islamic world was, for many centuries, the major inovator in technological terms.²⁰ This may also have applied to ship design and methods of construction, in which case those specifically medieval features which distinguish the medieval Mediterranean "roundship" from its two-masted Roman predecessor the *corbita* may have been a shared Byzantine and Islamic development or indeed a largely Islamic one.

Footnotes

- 1- J.N. Hillgarth, *Visigothic Spain, Byzantium and the Irish* (London 1985) *passim*.
- 2- M. Lombard, *Les Métaux dans l'ancien monde du V^e au XI^e siècle* (Paris 1974) Map A, & *passim*; J.W. Allan, *Persian Metal Technology 700- 1300 AD* (Oxford 1979) 2 7-28; Ibn Sa'id, cited in E. Ashtor, *Les métaux précieux et la balance des paiements du proche-orient à la basse époque* (Paris 1971) 53-56.
- 3- D.M. Dunlop, "The British Isles according to Medieval Arabic Authors," *Islamic Quarterly* IV (1957) 11.
- 4- Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 12-14; D.M. Dunlop, "Al-Bahr al-Muhit," in *Encyclopedia of Islam*, 2nd edit., vol. I (Leiden 1960) 934.
- 5- Dunlop, "The British Isles..." *op. cit.*, 12, 15 & 19; Dunlop, "Al-Bahr al-Muhit," *loc. cit.*; E. Lévi-Provençal, *Histoire de l'Espagne Musulmane* (Paris & Leiden 1950-1967) vol I, 218-225, 310-312

Andalusia and of the Islamic Middle East. The ship on this piece is highly stylized but certain features can be identified. The vessel has three masts, two of which carry lateen sails, plus what appears to be a bank of oars though these are not connected to a possible row of oar-ports. Even the cross-hatched triangular projection on the right or presumed stern recalls features seen in earlier Middle Eastern Islamic representations of ships. Perhaps such forms of ceramic were traditional and they might have no connection with contemporary shipping. On the other hand Rabat is very close to Salé, the home-port of the famous "Sallee Rovers." These North African corsairs used three-masted *xebecs* and ranged across much of the north Atlantic during the 16th and 17th centuries.

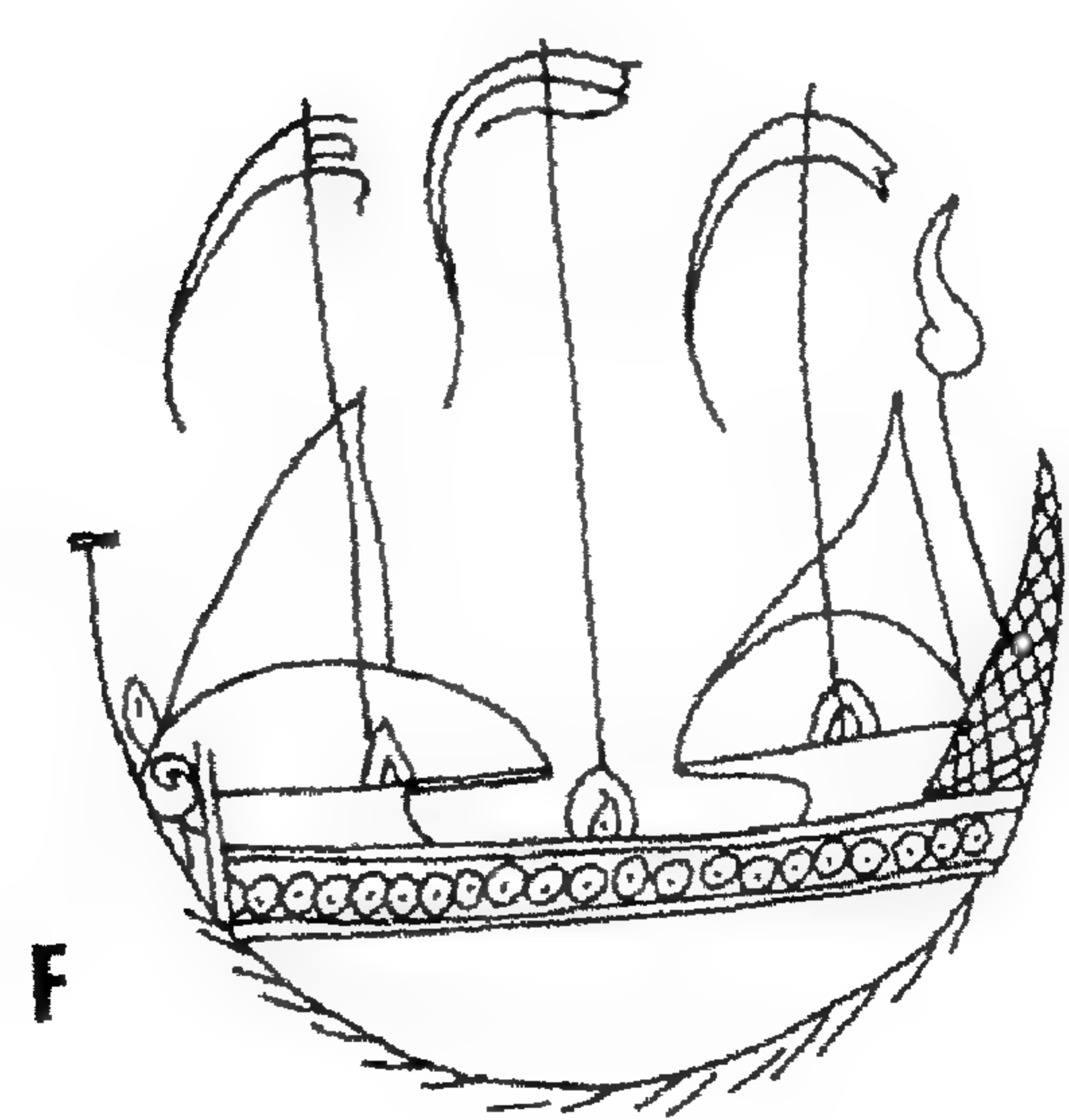
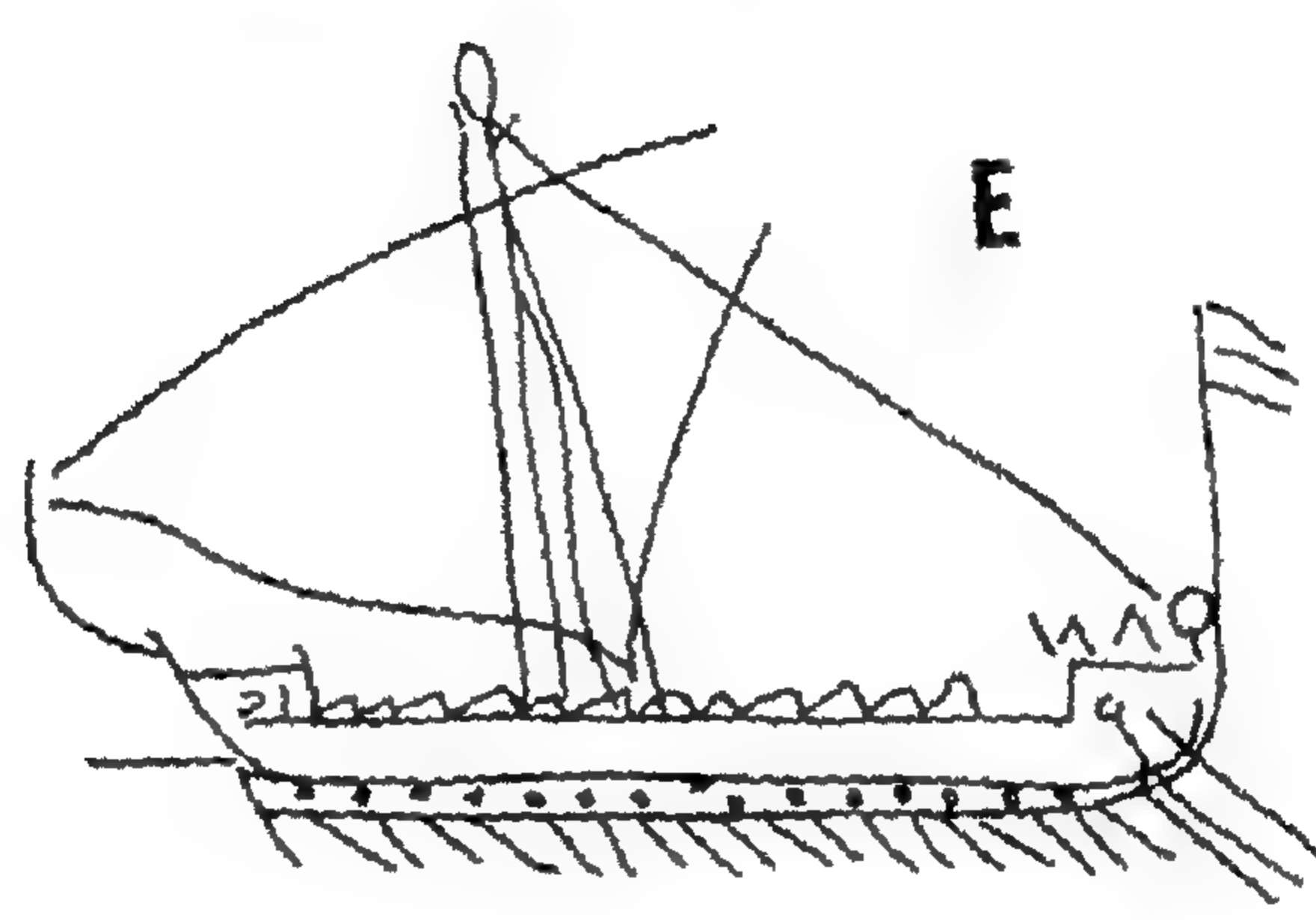
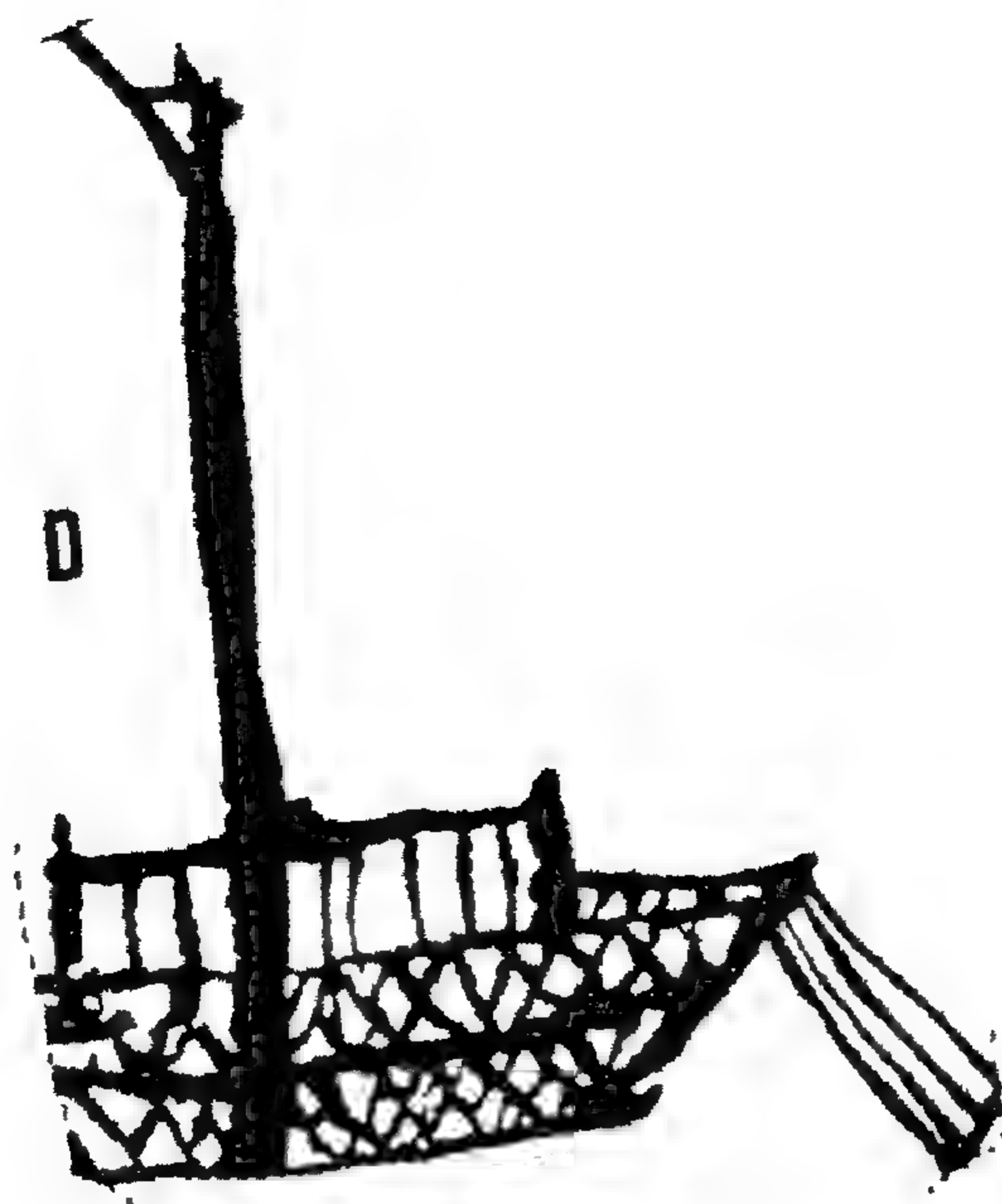


G The best preserved of two tin-glaze ceramic bowls from the church of S. Piero a Grado in Pisa. 11th century AD (Museo Nazionale di S. Matteo, Pisa). The two bowls were used as

an ordinary early 13th century merchant ship. The exception lies at the ends of the keel where two apparent cutwaters are shown. These could be dismissed as artistic conventions were it not for the fact that exactly the same feature is found on a crude medieval drawing from the Egyptian Red Sea port of Qusayr (figure D). Perhaps it was a feature of Islamic ships operating in tidal seas such as the Atlantic and Indian Oceans which had to be beached rather than docked, as in the tideless Mediterranean.

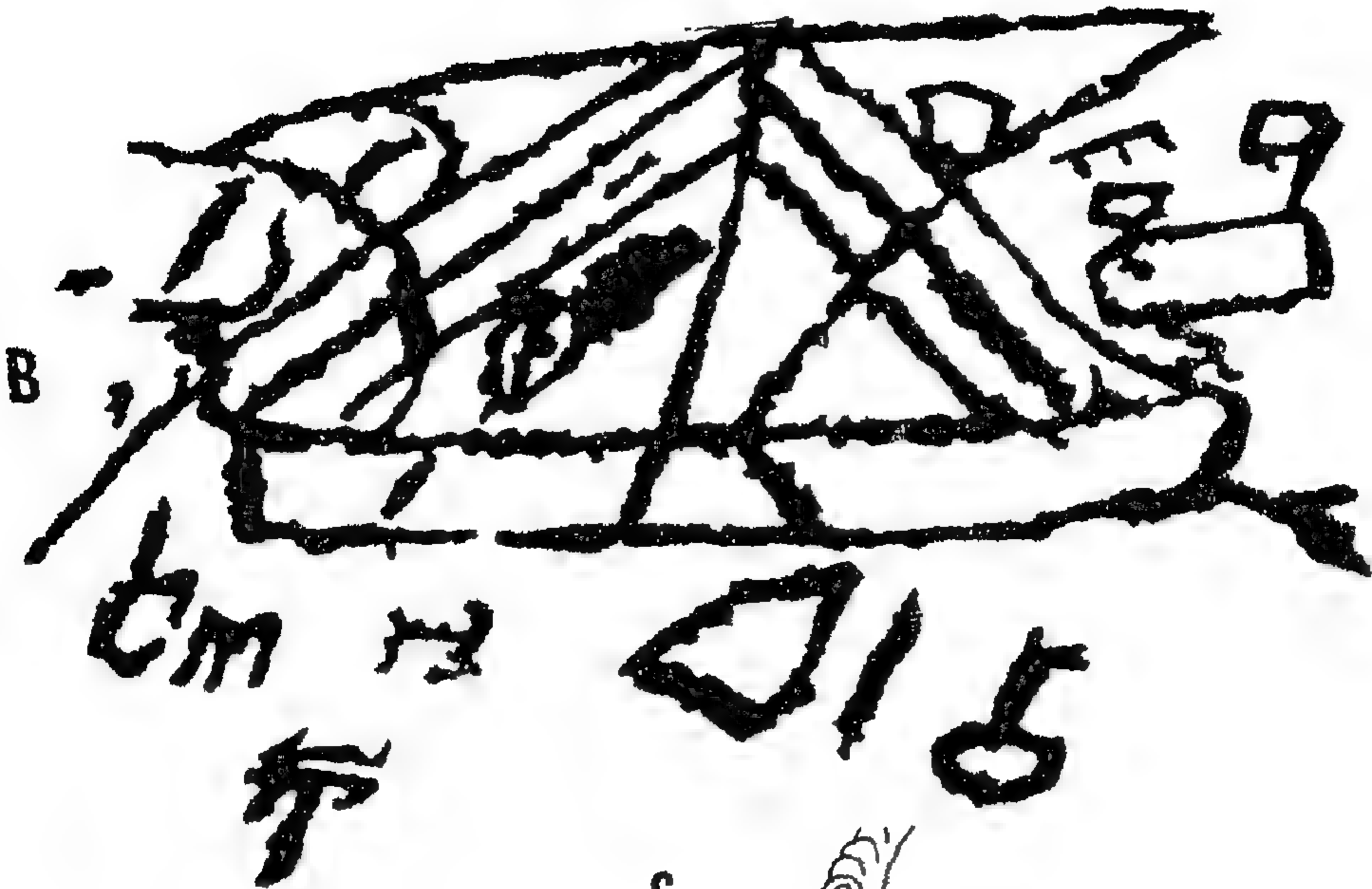
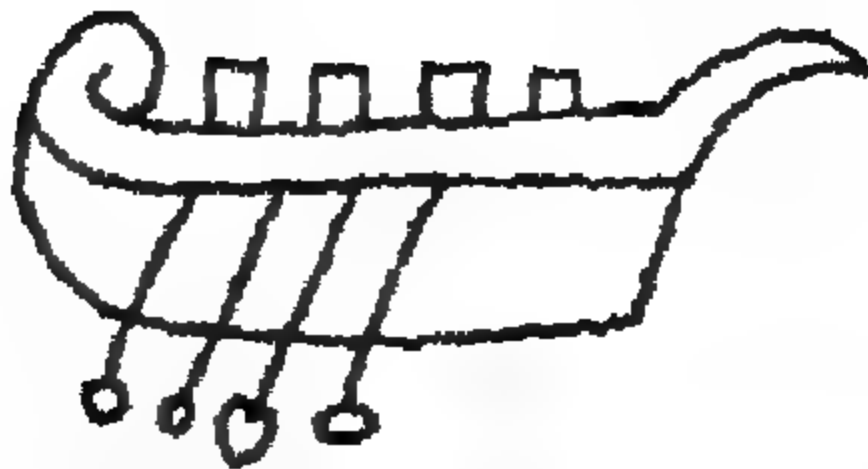
- D Part of a simple sketch or drawing on a fragment of paper found by archaeologists in the rubbish dumps of medieval Qusayr (Old Qusayr) on the Red Sea coast of Egypt, 13th-14th centuries AD (Museum of Islamic Art, inv. 1097, Cairo). It is impossible to state with certainty whether this little drawing from the early Mamluk period shows the prow or stern of the ship. The vessel was probably single-masted, perhaps with a yard-arm to hold a lateen sail, and it seems to have a substantial midships deckhouse which extends both ahead of and behind the mast. The stem or sternpost is essentially straight with a series of ropes or perhaps two steering oars extending from it. Most interesting, in the context of this study, is a small extension or cutwater at the end of the keel. Perhaps it was to protect the keel when beaching the ship.
- E This simple but better-known scratched graffito comes from Malaga on the southern coast of Spain and is generally thought to date from the 14th or 15th centuries (Museo Naval, Madrid). It illustrates a typical single-masted Mediterranean galley with a lateen sail, a raised boarding beak rather than a ram, probably a single bank of oars, slightly raised fore and aft castles, and steering oars rather than a hinged rudder. This latter feature would, in fact, point to a date earlier than the 14th century - perhaps considerably so. One may, however, assume that such galleys were responsible for maintaining Islamic communications between al-Andalus and Morocco.
- F Polychrome ceramic bowl from Rabat, 15th century AD (Archaeological Museum, Rabat). The ceramics of later medieval North Africa are crude in comparison to those of

- A Galley in an illustration of "The Second Trumpet," *Beaus Commentaries on the Apoccalypse*, Iberia 922-952 AD (Pierpont Morgan Lib., Ms. 644, f. 137r, New York). Three points need to be noted in this tiny and highly stylized drawing from a 10th century Mozarab (Iberian Christian within the Andalusian Islamic cultural context) manuscript. These are the possible existence of a raised beak instead of a waterline ram, the straight stempost attached at an angle to the keel, and the curved stern which continues to form a high decorative poop. Similar hull forms may be shown in various other pictorial sources of Islamic origin.
- B A petraglyph or rock-drawing of a sailing ship at Azru Aklan, near the western end of the Wadi Draa in southern Morocco not far from the Atlantic coast. Although it cannot be dated, the shape of the hull and the sail suggests that it was scratched on a rock in the medieval rather than ancient or early modern eras. The sail is basically triangular, the prow angled and near vertical, the stern apparently curved, while the vessel is controlled by a steering oar instead of a hinged rudder. The simple style of drawing also recalls other medieval Arab "sailor's drawings" from Egypt, the Middle East and East Africa.
- C "Argo" in the *Suwar al-Kawaklb* (Book of Fixed Stars) by al-Sufi; copy made in Sabta (Ceuta), northern Morocco 1224 AD (Vatical Lib., Ms. Ross 1033, Rome). This manuscript contains a perhaps unique though obviously highly stylized illustration of a vessel of the type in which medieval Muslim sailors may have plied the western Atlantic. Its iconography is, of course, based on earlier Islamic "Books of Stars" from further east, yet this illustration of Argo also includes interesting features. Assuming that the sail is blowing forward as one would expect, the hull has the same curved stern but angled stempost as shown in the previous two illustrations. In addition there is an unusual deck-house in front of the mast if we have identified the prow and stern correctly, plus a lateen sail. The oars are a convention based upon the star-constellation of Argo and, with the exception of one almost unique feature, one might regard this as a stylized drawing of

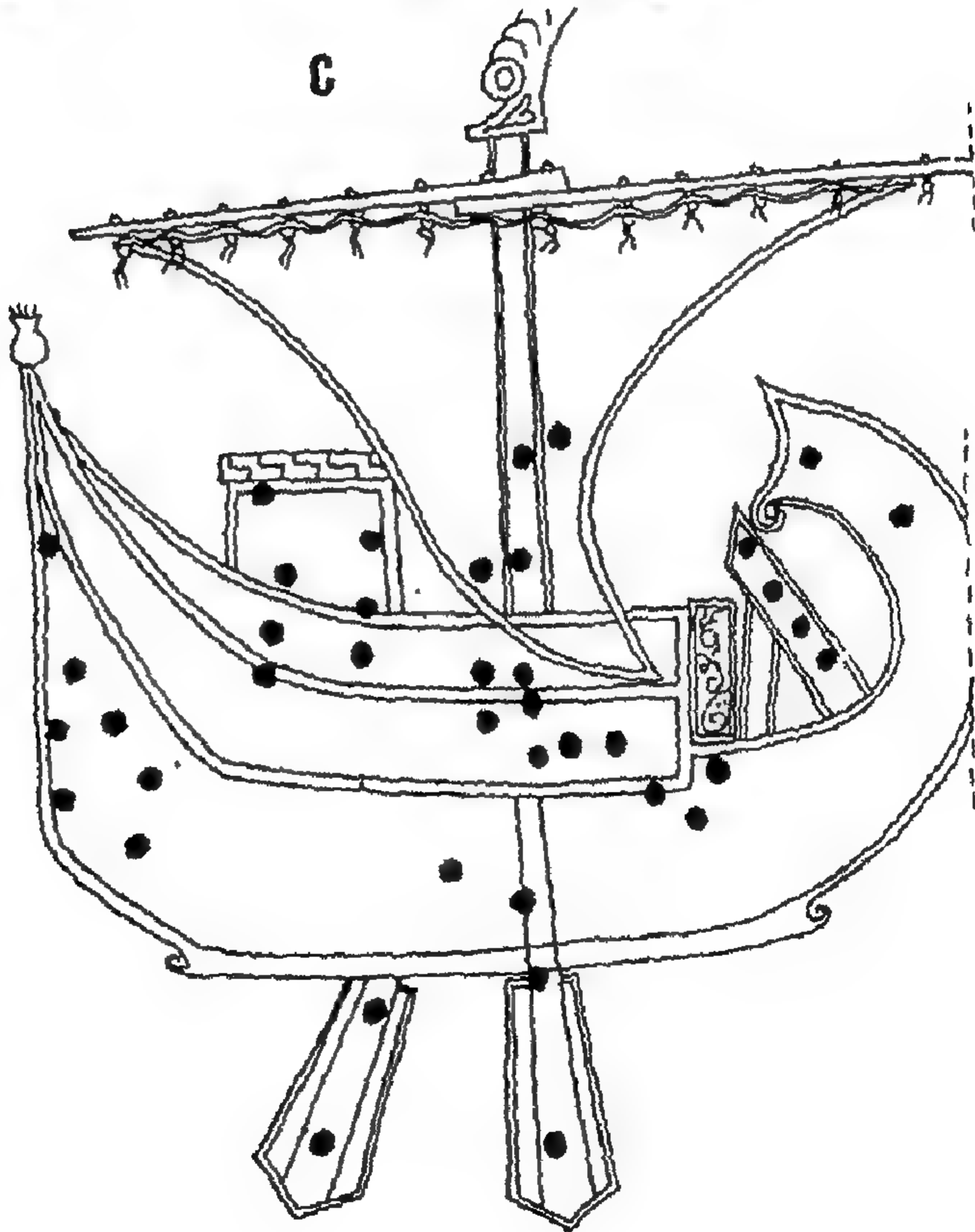


Captions

A



C



somewhat flimsy Mediterranean naval architecture brought north by the Romans. Potentially very interesting in the context of Iberian-Andalusian navigation in the medieval Atlantic are certain design features which the Guernsey wreck seems to have in common with the few existing pictorial representations of western Islamic "Atlantic" ships. The most obvious is an angled keel and stempost construction. This is in clear contrast with the rounded hull form of both Roman and medieval Mediterranean vessels. The second might be a sort of cutwater where the keel and stempost join, a feature also seen in the medieval Red Sea.⁸ It might also be worth noting that the written sources suggest, without specifically stating, that the Andalusian Atlantic squadron was able to defeat Viking raiders in the 10th century because they carried larger crews - perhaps because the *shini* Arab-Islamic galley was larger.¹⁹ Perhaps they were also more strongly built.

Hulls with angled rather than rounded outlines returned to northern waters in the 13th and 14th centuries in the form of the famous *cog*, following the decline of the sleek but much smaller rounded hulls of Viking and post-Viking vessels. The reappearance of such angled hulls in the western Mediterranean during the 14th century is usually attributed to the influence of northern *cogs* arriving via the Straits of Gibraltar. Yet the possibility of such a hull-form having survived in the Islamic Maghrib and al-Andalus should not be entirely ignored. Unfortunately little research has yet been done on the ships used by Muslim Andalusian and Moroccan sailors in the Atlantic. This may prove to be a fruitful field of study and is certainly worth consideration.

even commonplace. During the reign of the Marinid sultan Ya'qub al-Mansur (1258-86 AD) an engineer from Seville (Ishbiliya), named Muhammad Ibn al-'Ali, established a *dar al-sina* or naval arsenal at Sala on the Atlantic coast of Morocco.¹¹ Many years later the so-called "Sallee Rovers" - meaning pirates from Sala in Morocco - who raided southern England in the 16th century AD¹² included amongst their crews men of Andalusian origin. The military capabilities of western Islamic fleets had clearly not disappeared with the collapse of the Umayyad Caliphate of Cordova, and in 1340 AD a Moroccan fleet had destroyed a Castilian-Spanish fleet near Algeciras.¹³ This happened at a time when European observers regarded the Castilian fleet as the most powerful in Atlantic Europe.

The concept of a spherical world was widely accepted by educated people in the 13th century Islamic world and the Algarve region remained a centre of geographical science, including the manufacture of spherical celestial globes, even after it was conquered by the Portuguese in the 13th century. Here the idea that Africa could be circumnavigated and that inhabited "islands" existed far out into the Atlantic similarly survived. The role of this Algarve region during the first phase of Portuguese overseas exploration in the 15th century is well known.¹⁴ What is less well known is the fact that the Algarve seems to have played a major role in the evolution of the Arab-Andalusian form of widely used Islamic trading vessels called a *qarib* and a *gurab*¹⁵ into the famous *caravel*. The latter was, of course, used by Portuguese and Spanish explorers such as Vasco da Gama, Christopher Columbus and many others during the 15th and 16th centuries AD.

Given the speed with which new technology, including maritime technology, is known to have spread across the medieval Islamic world, it seems inconceivable that new naval ideas from the Indian Ocean should not have reached the Atlantic coast. The question of when knowledge of the hinged rudder, invented by the Chinese, reached the Islamic Middle East, and to what degree it may or may not have been adopted in the Arabian Gulf and Red Sea regions, has already been considered¹⁶ but many other problems remain unsolved.

For example, the sophistication of a pre-existing Celtic naval tradition in the Atlantic is indicated by the remains of a substantial ship found off Guernsey in the Channel Islands.¹⁷ The massive way in which this vessel was constructed was very different from the

outburst of naval aggression from those little-known northern parts of the world.⁴

The Viking threat soon became serious enough for an Umayyad naval squadron to be created specifically to patrol the Atlantic coast of al-Andalus. These patrols remained in existence from the mid-9th to 10th centuries AD. The first Umayyad Andalusian naval bases had, of course, been on the Mediterranean coast but in the mid-10th century additional facilities, including shipbuilding arsenals, were constructed at Ageciras (al-Jazayr al-Khadra), Silves (Shilb) and Alcacer do Sol (Qasr Abi Danis) on the Atlantic coast. The resulting Atlantic fleets then proved themselves fully capable of defeating a major Viking raid in 966 AD and another in 971 AD.⁵ These successes were followed by the Vizir al-Mansur's ambition combined operations assault upon the north-western Spanish city of Santiago in 997 AD.

One of the commanders of a naval patrol which fought Viking raiders in 859 AD was named Khashkhash Ibn Sa'id Ibn Aswad of Pechina (Bajjana). One of the so-called "Adventurers of Lisbon" was also named Khashkhash and he made several expedition far into the Atlantic before he disappeared along with his companions.⁶ Their voyage north proved dangerous and won little reward. Nevertheless it probably reached Scandinavian settlements in Ireland where the "Adventurers" were said to have been told that exploration of the Atlantic had already been done by a previous generation, probably meaning by those Vikings who had reached Iceland and would soon sail to Greenland and even North America. The "Adventurers" subsequent voyages headed southward and achieved greater reward in Bilād al-Sudam, beyond the Canary Islands. It is even possible that they reached as far as the Cape Verde Islands.⁷

The flourishing fishing fleets of Lisbon (al-Ushbuna) and what is now the Algarve (al-Gharb) in southern Portugal also ranged far into the Atlantic as well as venturing down the western coast of Africa in search of good fishing grounds.⁸ Meanwhile the Atlantic coast of Morocco saw considerable economic expansion in the 12th century AD and the Muwahhid ruler 'Ali Ibn Yusuf even reportedly planned an abortive naval expedition to conquer the Canary Islands.⁹ In the early 13th century AD a mariner named Ibn Fatima and his crew were wrecked off Ras Nu'adhibuin, much further south in what is now Mauretania.¹⁰ When taken together, these reports give a distinct impression that such voyages were quite normal and perhaps

Medieval Islamic Navigation in the Atlantic

David Nicolle

Nottingham University, England.

Medieval Islamic navigation in the Atlantic Ocean extended over greater distances than is generally realized. Most was in a region bordered by the Iberian peninsula, the north-western coast of Africa, the Canaries Islands, the Azores and Madiera, some of these islands being well known while others were little more than sailors' legends. This region of the ocean has sometimes been so-called "Mediterranean Atlantic" as it was closely linked in technological, economic and historical terms with the Mediterranean side of the Straits of Gibraltar. Most voyages by Muslim sailors in this "Mediterranean Atlantic" were undertaken for commercial, diplomatic or military reasons though some were a result of that intellectual curiosity which characterized the golden age of medieval Islamic civilization.

Roman vessels plied the coastal waters from the Straits of Gibraltar and Iberian Peninsula to the English Channel and British Isles. After the collapse of the western half of the Roman Empire a maritime link appears to have survived between the Iberia peninsula and the Celtic western fringes of Brittany, the British Isles and Ireland during the Visigothic period, before the Arab-Islamic conquest of al-Andalus but most particularly in the 7th century AD.¹ This may have survived into Arab-Islamic period since it is clear that Britain remained the main source of tin for al-Andalus well into the 9th century AD.² Furthermore it is worth noting that the famous terror stories about the Atlantic, or Sea of Darkness as it was widely known in the Islamic world, all seem to stem from the Middle East.³ None seem to have originated amongst the Arabized people of Morocco or al-Andalus.

The most famous seafarers of the early medieval Atlantic were, of course, at first the Celtic Irish and after then the Scandinavian Vikings. However, in reality two peoples habitually sailed the eastern Atlantic during the early medieval centuries - the Vikings and the Muslim Andalusians. While the latter never ventured as far as the Scandinavians, they remained the Vikings' only real rivals. Furthermore it was Viking raids which prompted the Umayyad rulers of Cordoba (Qurtuba) to sent at least one official embassy to the far north, almost certainly to discover the source of this sudden

II. Non Arabic Part

A. The Articles

Contributors*

- 'Abdul – 'Aziz Ramadan, , Assistant Lecturer of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Ahmed El-Mahmoudi, Prof.. of Islamic History, Mawlai Ismai'l university, Meknaas, Morocco.
- David Nicolle, Prof. of Islamic History, Nottingham university, England.
- Flora Vafea, The Greek School, Greece.
- Hanie' 'Abdel – Hadi, , Lecturer of Medieval History, Helwan Egypt.
- Ibrahim Al-Qadri, Prof. of Islamic History, Mawlai Ismai'l university, Meknaas, Morocco.
- Irina Vdovichenko, Associate Prof. of Byzantine Archeology, Taurida National University, Ukraine.
- Ishak Ebied, Prof. of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Mahasen M. Al-Wakkad, Lecturer of Islamic History, Ain Shams University, Egypt.
- Mahmoud Ismail, Prof. of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Mohammed Mo'ness 'Awad, Assistant Prof. of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Mohammed Nasr, Assistant lecturer of Islamic History, Ain shams university, Egypt.
- Mohammed Tadghout, Prof. of Islamic History, Mawlai Ismai'l university , Meknaas university, Morocco.
- Naglaa M. Hamed, Lecturer of Education, Cairo university, Egypt.
- Nariman 'Abdel-Karim, Assistant Prof. of Islamic History, Al-Monefia university, Egypt.
- Ra'fat 'Abdul – Hamid, , Prof. of Medieval History, Ain shams university, Egypt.
- Tarek M. Mohammed, , Associate Prof. of Byzantine History, Ain shams university, Egypt.

These names are arranged alphabetically.

II – The non Arabic Part
A. Articles

- Contributors. V

- David Nicolle, Medieval Islamic Navigation in the Atlantic
.....3-14

- Flora Vafea, The Philosophy of Greek Mathematics and its Influence on
the Development of Arabic Civilization and Renaissance.....15-25

- Irina Vdovichenko, Images of the Dances on the 4th Centuries Vases
from the Black Sea Area26-43

- Tarek M. Mohammed, The Turkish Settlement in Caucasus and
Steppes: Constantine’s Evidence..44-59

B. Book Reviews

- Naglaa’ M. Hamed, Education in Byzantine Egypt, Cairo.
by Naglaa M.Hamed63-64

Contents

I. The Arabic Part

A. Articles

- Contributors.....	T
- Introduction.....	K-N
- Ishak 'Ebied, Raa'fat Abdul – Hamid : Lantern of the Arts that Went out.....	3-6
- Ibrahiem Al-Qadri, The Role of Muslim Jurists " <i>Foqaha</i> " against the Crusades' Danger in Andalusia	7-22
- Raafat Abdul-Hamid, The Eastern Frontiers of Egypt.....	23-26
- Zeinab 'Abdel – Magid, The Nature of the English Parliament in the Thirteenth Century until the End of the King Edward I's Reign.....	27-74
- 'Abdul – 'Aziz Ramadan, Bride – shows in the Byzantine Court 788 – 882 AD.....	75-88
- Mahmoued Isma'il, The Problem of Historical <i>Hermenia</i> of the Earlier Muslim Historians	89-106
- Mahasen Al – Wakkad, Common Mockery Titles and Epithets in the Age of Mamlouk Sultans.....	107-151
- Nariman 'Abdel – Karim, The Financial Policy of the Fatimids : Theory and Application	153-228
- Hanie' 'Abdel – Hadie, The Magyars in the Middle Danube and their Expeditions against the Frankish Kingdome.....	229-266

A. Book Reviews

- Morocco's Laymen in the Time of Moahedēns. by Ahmed Al – Mahmoudī	269-274
- 'Abdel – Mohsen Ramadan, The Crusades in Andalusia, its Birth and Development, Cairo, 2001. by Mohammed Mo'ness 'Awad.....	275-284
- Ibrahiem Al-Qadri, Researches in the Social History of Morocco and Andalusia during the Time of Al-Murābitēn, Beirut, 1998. by Mohammed Tadghout	285-299
Hassan Khalilieh, <i>Islamic Maritime Law: An Introduction</i> , Brill, 1998.	

Journal of Medieval and Islamic History

Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History

Ain Shams University

Abbasiya, Cairo. Egypt. Postal code 11566

- An Annual Review Interested in Medieval History, specially Byzantine and Islamic History.
- Editor-in-chief: Prof. Ishak Ebied
- Chairman: Prof. Ahmad 'Abd Al-Raziq
- Vice-Chairman: Dr. Tarek M. Mohammed
- Members: Prof. Mahmoud Ismaiel
Prof. Ahmad Ramadan
Prof. 'Alyia Al-Ganzouri
- Secretary: Mr. 'Abdul Aziz Ramadan
- We accept all the papers and book reviews in Arabic, English, French, Italian and German.
- Books for review should be sent in one copy only.
- Orders may be addressed directly to the board of the Seminar on the above-mentioned address.
- All papers should be written by the computer as follow: Text's size is 12,5 x 19,5 cm.
Text's fonts are 12 New Times Roman and 13 Simplified Arabic for the Arabic papers.
Footnote's font is 10; Main title's font is 12 Bold.
- Correspondences: Vice-Chairman: Dr. Tarek Mansour Mohammed, on the following address: Department of History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566. Fax. 00202 - 6851432. E. mail: amrtar_eg@yahoo.co.uk
- The board of the *JMIH* invites you to share with us in the third volume, which will be issued during the academic year 2002-2003.

Journal of Medieval and Islamic History

An Annual Review Interested in Medieval History, specially
Byzantine and Islamic History
(JMIH)

Volume II
2002

Issued by:
Seminar of Medieval and Islamic History
Ain Shams University

Special Issue in Honor of Prof. Raafat 'Abdul-Hamid

Publisher
Misr Al-Arabia
13A Islam Str., Hamamat Al-qoubba, Cairo

Journal of Medieval and Islamic History

(JMIH)

Volume 2 / 2002

An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies.

Issued by : Seminar of Medieval and Islamic History, Ain Shams University



Bibliotheca Alexandrina



0532029



مركز البحوث
للنشر والتوزيع

